سلسلة الدراسات 6

في جذور المسألة القومية

البربر عرب قدامى

محمد المختار العرباري



منشورات المجلس القومي للثقافة العربية

خالد علي بورقيع

في جذور المسألة القومية

البربر عرب قدامى

محمد المختار العرباري

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الطبعة الأولى
1993 م

4 مكرر شارع فرنسا ـ أكدال
الرباط ـ المملكة المغربية
هاتف: 77052 77059 77065 78631
فاكس: 74139 ـ تلكس: 32656

تقديم

يتجه البحث في هذا الكتاب إلى إثبات عروبة البربر، وقد بذل الباحث جهداً كبيراً في الحجاج الموثق لتأكيد «**عراقة البربر في العروبة**».

وقد تطلب منه الدفاع عن هذه الأطروحة معالجة حقول معرفية مختلفة من مجال التاريخ إلى بعض ميادين متعقلة باللغات وبالفنون والآداب.

إن القضية التي يطرحها الكتاب للبحث ليست جديدة من حيث المبدأ، ولكن الأهداف الثاوية من وراء الطرح قد اختلفت كثيراً منذ القديم إلى اليوم... وما تزال النوايا المبيتة، والنزعات الاستعمارية الخبيثة، في مختلف أرديتها العلمية المزعومة أو جحافلها الغازية المكشوفة، أو خططها السياسية الخفية تعمل للنيل مما أقامه العامل الحضاري العربي البربري الاسلامي من صرح وحدة كان لها وما يزال، أثرها البالغ، في توجيه دفة التاريخ نحو ما يدعم حرية ووحدة الأمة في بلاد المغرب العربي، وبالتالي في الوطن العربي بكامله.

والمجلس القومي للثقافة العربية بخطه الفكري الواضح في خدمة الأهداف السامية للأمة العربية، بكل ما يعمل على ترسيخ وحدتها، وتحصين مواقعها ضد الهجمات والأخطار المحدقة بها، لا يسعه إلا أن يبارك مثل هذا الجهد في خدمة المسألة القومية العربية، خاصة وأن المدرسة الاستعمارية التاريخية والسياسية ما تزال تُفَرِّخ إلى اليوم، وتخرج كل حين جديداً، تحاول أن تكمل به ما بدأته منذ بداية الحركة الاستعمارية من عمل دؤوب على التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة، متذرعة بشتى الأساليب والحيل.

من هذا المنظور يأتي هذا الكتاب رداً على دعاوى ومواقف معادية للوحدة، طالما عانت وتعاني منطقة المغرب العربي من التعرض لها، وهي دعاوى ومواقف لم يكن الظهير البربري الاستعماري بالمغرب سنة 1936 أولى نكساتها في المغرب العربي، ولا كان آخر انتصار لوحدة الأمة عليها.

بيد أن الاتفاق على الهدف بل والاقتناع به، لا يكفي بالضرورة للاتفاق المطلق مع المناهج الموصلة، والوسائل المستعملة، فمجال البحث فسيح، والقضايا شائكة، والمراحل والعوامل متداخلة متفاعلة، مما يجعل مثل هذا العمل الجاد، يعادل في أهميته وخطورته، ما يمكن أن يثار بصدده من نقاش وجدال، بل إن مثل هذا النقاش في رأينا يعتبر أحسن مكافأة لعمل من هذا النوع، ولما تحمله فيه صاحبه من صبر ومجالدة.

والمجلس القومي للثقافة العربية بخطه الفكري القومي، المتبلور في منظور حضاري تنصهر في وحدته الفوارق، متجاوزاً كل النزعات العرقية والاختلافات الدينية والمذهبية، والاتجاهات الطائفية، وباعتباره بالتالي لأهمية العامل الحضاري العربي البربري الاسلامي في ترسيخ وتحصين وحدة الأمة، و إذ يقدم هذا العمل للقراء، فانه يأمل بذلك أن يكون قد ساهم في التعريف بجهد عملي من جهة، وفي تنبيه الأمة إلى الأخطار المحدقة بها من جهة أخرى، والتي لا يمكنها أن تواجهها إلا بمزيد من الالتحام، بما يقوي وحدتها.

المجلس القومي للثقافة العربية

نـقـد

أطروحات المدرسة التاريخية الاستعمارية

يواجه نضالنا في سبيل تحويل المجتمع تحويلاً ديمقراطياً اشتراكياً وحدوي الاتجاه، مشاكل صعبة لا تكمن في القيود المكبلة لأوضاعه السياسية والاجتماعية فحسب، وانّما أيضاً في ما يمارس على الصعيد الثقافي والاديولوجي والمعرفي من أفكار وقناعات ومفاهيم مشوّهة، ورثناها على العهد الاستعماري، كانت تهدف إلى تمزيق المنطقة وبثّ روح العداء للانتماء العربي وهي بحكم شيوعها وانتشارها باتت تشكّل الخلفية الثقافية والمناخ الملائم للفكر الاقليمي المتخلّف وللانحراف اليساري الانتهازي، ويظهر هذا بصورة خاصة في الالحاح المتواصل على الطابع البربري للسكان، وفي التوظيف المقصود للبربرية باعتبارها نزعة موجّهة أساساً ضد الانتماء العربي.

وهذا من شأنه أن يشكّل عامل خذلان للحركة الديمقراطية التقدمية في سعيها الدائب لانجاز مهمتها التاريخية: مهمّة تحويل المجتمع تحويلاً ديمقراطياً اشتراكياً في نهج وحدوي يحقّق أوسع مدى لهذا التحوّل، اذ انه لا سبيل لبناء القوة الذاتية وتحقيق الازدهار والتقدّم الاجتماعي والتخلّص التام من كل أشكال التبعية في ظل الأطر الاقليمية الضيّقة.

والفكرة البربرية التي يروّج لها في بعض الجهات والأقطار وفي أوساط سياسية وثقافية وتعليمية تحت شعار «حق المغايرة الثقافية»(*) هي معول جديد للهدم وشكل آخر من أشكال النزعة البربرية السابقة التي خلّفها الاستعمار وما يزال حتى الآن يغذّيها ويروّج لها.

واذا كانت القوى الوطنية قد تمكنت من دحر المحتل وتحرير الأرض فانها لم تنجح بالقدر الكافي في دحره على المستوى الثقافي وكنس ما كان يزرعه من أفكار مسمومة وأطروحات خاطئة ما تزال تعدّ المرجع النظري للكثيرين.

ومن أبشع آثارها أنها انغرست في العقول وصارت قناعات مسلّم بصحتها، وان ضرر هؤلاء ليس في ذواتهم، وانما في دورهم وفي ما يقومون به من نشاط في حقول مختلفة من سياسة وتعليم وثقافة واعلام وبحث وغير ذلك.

والحركة الديمقراطية التقدمية الوحدوية في بلاد المغرب العربي مطالبة بأن تتصدّى لكل أشكال هذا الفكر التخريبي وانحرافاته. وما هذا البحث الا مساهمة في هذا الجهد المضني. اذ هو يتناول القضية البربرية لطرحها من جديد على صعيد البحث بقصد الكشف عن جذورها وملابساتها والظروف التي أحاطت بها. وهذا يستدعي:

أولا: معرفة أطروحات المستعمر والأدوار التي قام بها من تحريف الحقائق وتشويهها، ومن حيث بث نزعات الانقسام، ومن غير شك فان «النزعة البربرية» من أخطر ما ابتكره في هذا السياق، من عوامل الهدم والتقويض.

ثانياً: تناول «القضية البربرية» من الناحية العلمية لمعرفة أصل البربر وحقيقة انتمائهم على ضوء جملة من المعارف تمّ التوصل اليها بالاعتماد على منهج مركّب تتداخل فيه عدة

تعليق: في السنة الماضية صدر كتاب للسيد الهادي الزربي بعنوان: أصول البربر العربية ـ وكنت اعتزم تذييل هذا البحث بدراسة حوله لكن الظروف حالت دون ذلك وهو ما سأعود اليه فيما بعد واكتفي هنا بسرد هذه النقاط:

1 ـ العنوان تنقصه الدقة لعدم استقامته مع الحقائق التاريخية، فالمعروف ان جانباً كبيراً من البربر ـ وخاصة الجماعات الأولى ـ أقدم من فرعي عدنان وقحطان فهم الأصل بعينه أو جزء منه انفصل وقدم إلى المنطقة على مراحل، ولذا فان التسمية الصحيحة لهم هي: البربر عرب قدامى.

2 ـ أورد الزربي نظريات أخنى عليها الدهر في شأن (المغاربة القدماء) مثل تلك التي تقول انهم أصل الجنس الأبيض في أوربا أو انهم موجة من الانسان الأول القادم من جزر الهند الشرقية ومن شمال افريقيا تحولوا إلى أوربا (ص 10).

3 ـ وبناء على هذا فهناك وحدة أصل بين هؤلاء المغاربة وسكان أوربا ومما يدعّم هذا لدى السيد الزربي علم الحفريات ودراسة الجماجم، ولكن ما هي هذه الحفريات؟ وما هي هذه الجماجم؟ لا شيء سوى نص في عدة أسطر لجرجي زيدان يقول فيه «ان أوربا عمّرها قوم من أهل العصر الحجري نزحوا اليها من شمال افريقيا» والمعروف أن جرجي زيدان توفي سنة 1914 وما قدمه من معلومات تعود إلى القرن الماضي ولم تعد صحيحة (ص 9).

4 ـ هذا ما يراه السيد الزربي حيث وجد في ملامح الباسك الحاليين المنحدرة اليهم من أسلافهم «الأيبريين» تأكيدا لذلك «وان لغة الباسك في حد ذاتها ليست آرية بل لها شبه كبير بلغة البربر ـ ص 9» هكذا واذا كان بعض باحثي المدرسة الاستعمارية حاولوا الربط بين اللغة البربرية وبعض اللغات الارية لاثبات الأصل الاوربي للبربر فان السيد الزربي يفعل عكسهم ويبين أن البربر هم أصل الاوربيين.

5 ـ وفي خصوص الهجرات يذكر انها انطلقت من الجزيرة العربية وان الأولى والثانية منها كانتا في 3500 و2500 ق.م ولكنه لا يقدم ما يثبت ذلك أبداً، ويورد في موطن آخر أن نصوصاً صحيحة تحدثت عن هجرة في 7.000 سنة ق.م (ص 18) فما هي هذه النصوص والحال ان الكتابات لم تظهر في مصر والعراق الا مع بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، ثم ان افريقيا كلّها لم تدخل العصر الحجري الحديث بعد باستثناء الصحراء التي بدأت تتهيأ لدخوله، لذلك فان عثمان سعدي استنتج مما كتبه رشيد الناضوري ان هجرات القبائل البربرية من الجزيرة العربية تعود إلى ما قبل خمسين ألف سنة قبل الميلاد، فنقل السيد الزربي هذا دون تمحيص ودون أن يعلم أن هذا التاريخ يشمل العصر الحجري الأوسط وأن نموذجه البشري من نوع مختلف لا ينتمي إليه نوعنا.

6 ـ وفي هذا السياق يذكر الزربي أن أحد ملوك التبابعة اليمنيين بلغ شواطىء الأطلس في حدود 3850 ق.م

علوم من أثرية وانتروبولوجية وبلّنولوجية (Pollenologie) ولغوية واجتماعية وغيرها حيث يكشف كل منها على جانب من هذه القضية ويوفّر مجموعة من الأدلّة تساعد على الاستيعاب الشامل وتقودنا إلى الحقيقة، وهو منهج مرهق، ولكن لا مفرّ من توخيه في هذه القضية.

الاستعمار الفرنسي: أهدافه وأساليبه

عندما احتلت فرنسا منطقة المغرب العربي بدءاً بالجزائر، كان هدفها في تلك المرحلة من التسلط الاستعماري ليس الاستثمار الاقتصادي فقط، ولكن أيضاً العمل على دمج هذه المنطقة والحاقها بالكيان الفرنسي، وسلكت لذلك طرقاً شتّى كالاستيطان والاستحواذ على الأراضي والتجنيس وغير ذلك من مختلف الاجراءات السياسية والادارية والقضائية المتخذة لهذا الغرض.

وهذا أمر غريب اذ الباحثون لم يعرفوا أبداً أن لليمن دولة في هذا التاريخ وأن أقدم دولة عرفت في اليمن هي دولة معين ظهرت على الأرجح في 1200 ق.م أما التبابعة وهم ملوك حمير فان أول دولهم ظهرت في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد وسقطت آخر دولتهم على يد الأحباش قبيل الإسلام سنة 525 ميلادية، فالسيد الزربي لا يقيم وزناً للحقيقة العلمية ولا يكلف نفسه مشقة التدقيق في ما يورده من معلومات وهناك أخطاء أخرى فادحة في التواريخ نجدها في مضان مختلفة من كتابه.

7 ـ وفي خصوص علاقة البربر بالمصريين تحدث الزربي على أن (شيشنق) القائد الليبي هجم على الدلتا في 945 ق.م وتغلب على خصومه وأسس بها عاصمة ملكه الجديد، وفي هذا ما يخالف الحقيقة من بعض الوجوه، فهذا القائد انحدر من عائلة لوبيه (من قبيلة المشاوش) مضى على استقرارها من أيام رمسيس الثالث قرابة 200 سنة انخرط أفرادها في الجيش ووصلوا إلى أعلى المراتب وبذلك تمكن (شيشنق) من الاستحواذ على النفوذ فهو لم يقم بغزوة ولم يخلع الملك (بسوسبينس) وانما انتظر حتى مات ونصب نفسه على العرش مؤسساً بذلك الأسرة الفرعونية الثانية والعشرين.

8 ـ كذلك في موضوع السامية فان ما ذكره كان غريباً لم يقل به أحد اذ هي في نظره خاصة بالعرب وان اطلاقها على غيرها كان تجاوزاً (ص 59) بالاضافة إلى نقص في فهمه لهذه المسألة وفي ما أورده في شأنها من نصوص.

9 ـ من هنات هذا الكتاب أن صاحبه يوهمنا بان النصوص التي يستشهد بها اطلع عليها في مضانها والحقيقة عكس ذلك فهو ينقلها عن عثمان سعدي بدليل أن أي تحريف يقع فيه عثمان سعدي يقع فيه هو بدوره كما هو الحال في نص رشيد الناظوري (ص 54) واذا حاول عثمان سعدي حوصلة أحد الآراء فان الزربي ينقل الحوصلة متصوراً انها نص كما هو الحال مع أحمد سوسة (ص 59) والشواهد من هذا النوع متعددة في هذا الموضوع.

10 ـ الاسراف في النقل دون الإشارة إلى من ينقل عنهم مستعملاً على حد تعبير البلاغيين الاغارة حيناً والسلخ حيناً آخر وهذا أمر لا يجمل بأي باحث ارتكابه وأكثر المتضرزن في هذا السيد عثمان سعدي ومن يطلع على دراسته يدرك أن السيد الزربي لم يضف شيئاً ذا أهمية ولولا هذه الدراسة ما كان كتابه ليساوي شيئاً، وهو لم يأخذ عنه المعلومات فقط وانما أيضاً أخذ عنه العنوان مع تحوير طفيف، فعنوان دراسة عثمان سعدي: الأصول العربية للبربر ـ وعنوان كتاب السيد الزربي كما رأينا هو: أصول البربر العربية.

(*) شعار أطلقته بعض الصحف الفرنسية أثر أحداث مارس 1980 التي اندلعت عقب اضراب طلابي ينادي بالتعريب وتنفيذه على المستوى العملي.

وبقطع النظر عن النوايا المبيتة من قبل فانّ فرنسا كانت تدرك أن احتلالها لن يكون هيّناً وأنها ستواجه شعباً له حضارته وتاريخه العريق وله أمجاده وتقاليده، فليس من السّهل عليها ابتلاعه الا اذا تمكنت من هدم مقوماته وبلبلة عقول أفراده بادخال كما قال أحدهم «الاضطراب على مجرى أفكارهم وتحطيم أسس المعتقدات التي بها يؤمنون والقضاء على التقاليد والمفاهيم التي بها يتشبّثون»[1].

ووصولاً إلى هذا الهدف عمد الاستعمار الفرنسي إلى تنفيذ ما يلي:

أولاً الفرنسة:

تطلّبت سياسة الدمج والالحاق التي عزمت فرنسا على تنفيذها، العمل على تحويل سكان المغرب العربي إلى فرنسيين، وأولى الخطوات لتحقيق ذلك، القضاء على اللغة العربية واحلال الفرنسية محلّها اذ هي في نظرها اللغة الأساسية لجميع أبناء المنطقة التي بها يمارسون ويعبّرون عن مختلف أوجه نشاطهم الاجتماعي والحضاري في المجالات الاقتصادية والدينية والادارية والثقافية.

ومن هنا نظرت اليها فرنسا نظرة عدائية رهيبة وصممت على محقها بالكامل وبمختلف الوسائل ويظهر هذا من أول يوم وطئت فيه أقدام المستعمر الفرنسي أرض الجزائر سنة 1830 حيث صدر مرسوم في أوائل أيام الاحتلال جاء فيه: «ان ايالة الجزائر لن تصبح حقيقة ممتلكة فرنسية الا عندما تصبح لغتنا هناك قومية. والعمل الجبار الذي يترتب علينا انجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي بالتدريج إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن»[2].

وبعد حوالي عشرين سنة من الاحتلال جاء في تقرير رسمي وضع سنة 1849 ما يلي: «لا ننس لغتنا هي اللغة الحاكمة: فان قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللّغة وبهذه اللّغة يجب أن تصدر ـ بأعظم ما يمكن من السرعة ـ جميع البلاغات الرسمية وبها يجب أن تكتب جميع العقود. وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا، فان أهم الأمور التي يجب أن يعتنى بها قبل كل شيء هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم الينا وتمثيلهم بنا وادماجهم فينا وجعلهم فرنسيين»[3].

وسار الاستعمار الفرنسي في هذا الاتجاه وذلك بـ:

1 ـ عزل العربية عن الحياة العامة في التعليم والادارة وغيرهما كما هو معروف في الأقطار الثلاثة: المغرب ـ الجزائر ـ تونس.

2 ـ محاولة جعل البربرية كبديل عن العربية حيث كتبت بحروف لاتينية صارت تدرّس بصورة رسمية سنة 1913 بمعهد الدراسات الشرقية بباريس، وقام أندريه باسي (A. Basset) «بنشاط حثيث طوال اقامته بأرض المغرب العربي[4]

لتحقيق هذا الغرض والذي مارس هو الآخر تدريس اللهجات البربرية بالمعهد المذكور ولم يكتف المستعمر بذلك، بل أنشأ في نطاق هذا المخطط «متوسطة آزرو» بمراكش لتعليم اللهجات البربرية.

وفي سنة 1925 أدمجت مادة «اللّغة البربرية» في مقررات معهد الدراسات العليا بمراكش.

والاستعمار الفرنسي لا يقصد من وراء اهتمامه المزعوم تطوير البربرية وجعلها أداة لغوية مقتدرة، وانما اتخذها كخطوة تكتيكية لعزل العربية، مما يفسح له المجال لاحلال الفرنسية محل الاثنتين، وليس هذا القول مجرد استنتاج تمّ التوصل اليه من خلال التحليل لأساليب الاستعمار الثقافية في المنطقة وانما هو حقيقة تضمنتها مخططاته المبيتة قد عبر عنها الأستاذ جود فري دمونبين (Gaudefroy Domonbyne) بصورة لا لبس فيها بقوله: «يجب أن تقوم اللغة الفرنسية لا البربرية مقام اللغة العربية كلغة مشتركة وكلغة للمدنية»[5].

ومما يفضح هذا المسلك الاستعماري هو أن السلطات الفرنسية لها موقف مختلف من اللهجات المحلية التي ما تزال موجودة إلى الآن بفرنسا والتي تفوق حسب بعض الدراسات ـ عشر لهجات ـ «لها حضارة وأدب وعلم مكتوب»[6] حيث نجد أن الاهتمام بها لا يتعدى الحدود المحلية فقط. أما من حيث التخطيط العام، فالسلطات الفرنسية سائرة بها نحو الانقراض والتلاشي وهو عكس ما تصنعه في المغرب العربي.

وعلى صعيد آخر فقد أنشأ الاستعمار الفرنسي ما سمي «بالمدارس البربرية» وهي مدارس لا تدرّس البربرية ولا يدرّس بها، وانما سميت بذلك، والهدف منها فرنسة أبناء البربر لا غير، وهذا ما عبّر عنه الكومندان «مارتي» أحد كبار دعاة السياسة البربرية بقوله: «ان المدرسة الفرنسية البربرية، هي مدرسة فرنسية بتعليمها وحياتها، بربرية بتلامذتها وبيئتها»[7].

ويقول الاستاذ دمونبين السابق الذكر: «ان برامج المدارس البربرية هي نفس البرامج البدوية الأخرى الا في ما يخصّ المعلمين فيجب عليهم الاّ يستعملوا في أيّ حال من الأحوال اللغة العربية ولو في أوائل الدراسة.. أمّا في الحالة التي لا يمكن للمعلم اتّباع الطريقة المباشرة فينبغي له ان كان يعرف البربرية أن يستعملها لتفهيم التلاميذ»[8].

فهناك تحريم تام للعربية في هذه المدارس، ونزعة محمومة لاستئصالها من موطنها ومن نفوس ذويها، والغاية فرنسة البربر بمثل هذه الاجراءات باعتبار أن ذلك جزء من الفرنسة الشاملة لسائر منطقة المغرب العربي. قال أحد الكتاب الفرنسيين في هذا السياق: «البربر الذين كانوا بالأمس نصف متوحشين سوف يتكلّمون الفرنسية بعد بضع سنوات»[9].

وأكد الكابتان فيكتور بيكي (Victor Piquet) في ثقة واقتناع بأنّ «هؤلاء السكان

يمكنهم ويجب أن يصبحوا فرنسيين لغة وروحاً»[10].

ثانياً: تلهيج العربية:

هذه خطة أخرى رديفة، الغرض منها تحويل العربية إلى لهجات دارجة تحلّ محلّها، وذلك بالاعتماد على اللهجات العامية المشتقة منها، ويعدّ اللغوي الفرنسي بيريس (Perez) من أبرز المنظّرين الاستعماريين لهذه الدعوة وكانت له وللمدرسة الفكرية التدريجية التي ينتمي اليها تأثير كبير على كثير من المثقفين الذين شايعوا الثقافة الغربية وانحازوا اليها.

وفي أوائل هذا القرن نشط المستعربون في «معهد قرطاج» الاستشراقي بتونس في الدعوة إلى العامية التونسية عن طريق المحاضرات والندوات وما أمكن من وسائل التبليغ وأجمعوا على عجز العربية وموتها، ومن الذين أعلنوا ذلك «شارل نوال Charles Noël» في محاضرة له بعنوان: هل العربية لغة حية؟ (L'Arabe est-il langue vivante?) جاء فيها: «هل العربية لغة حيّة؟ على هذا السؤال أجيب بكل جرأة: لا»[11].

وقامت سلطات الحماية من ناحيتها بادراج تعليم الدارجة التونسية لأبناء الأوربيين في المدارس تنفيذاً لذلك المخطط[12].

وسعى «مسيو مشويل في اقناع الكافة بفوائد اللغة الدارجة التي ألّف بها كتبه الكثيرة»[13].

وعارضت القوى الوطنية على ضعفها في ذلك التاريخ هذا التوجّه الخبيث وخاصة من الأوساط الزيتونية، وردّت الصحافة العربية على المستعربين ودعاة العامية وعلى من سايرهم من المثقفين التونسيين الذين بلغت حدّة اللهجة ضدهم أن اتهموا بالخيانة والتواطىء وخاصة جماعة «التونسي» علي باش حانبه ومن معه لموالاتهم للمستعربين ولمناصرتهم للّغة الفرنسية ولأنهم في الصراع الدائر لاذوا بالصمت ازاء الدعوة إلى العامية وفكرة تلهيج العربية وهو موقف ليس سلبياً ومتخلياً فحسب وانّما استفاد منه المستعمر أيضاً في مساعيه الرامية لضرب العربية والقضاء عليها، ومن أجل ذلك اتهمت هذه الجماعة وطعن في مواقفها حتّى أن ما أبدوه من أراء انما (على حد تعبير أحد العناصر الوطنية) كانت «ظناً منهم أن ذلك يرضي المحتلين ويصوّرهم في أعينهم بصورة المتمدنين النافعين، وهيهات ما يرومون، نطقوا بلسان أمة وافتاتوا عليها وادّعوا أنهم وكلاؤها ونوابها وهي لم ترض منهم أن يفوهوا بمثل تلك الكلمات التي يتقطّع نياط القلب من سماعها»[14].

وقال عنهم البعض «هاتيك الشرذمة المعلومة عدوّة اللّغة العربية الباحثة عن حتف أمتها بمعاولها... نعوذ بالله من الجبانة ومنازع الخيانة»[15].

ومثل هذه الدعوات التهديمية، كان الوطن العربي مسرحاً لها، في مصر زعم «وليام

ولكوكس» في أواخر القرن الماضي «أن المصريين عاجزون عن الاختراع لأن اللغة العربية الفصحى تعوقهم عنه ونصحهم باتخاذ اللغة العامية أداة للتعبير الأدبي واستشهد بالأمة الانجليزية قائلاً: انّها أفادت فائدة كبرى منذ هجرت اللاتينية التي كانت لغة الكتابة والعلم فترة من الزمن»[16].

وألف «مستر ويلمور» أحد قضاة الانجليز في مصر كتاباً سنة 1901 «نصح فيه المصريين بهجر الفصحى والاعتماد على العامية في أدبهم»[17].

وانحاز عدد من المثقفين المتخاذلين لهذه الدعوة ومنهم «اسكندر معلوف» في سورية حيث تعجّب من تمسك المصريين بالفصحى مع أن الفرس والهندوس مسلمون وهم لا يستخدمون الفصحى وأثنى على الحكومة لأنها أحلت اللغة الانجليزية محل العربية في المدارس المصرية وأشار على الصحف والمجلات أن تكتب بالعامية ثم تدوّن بذلك العلوم والآداب بها»[18].

القضية في المغرب العربي أخطر بكثير مما هو عليه الحال في المشرق العربي، فلقد طغت فيه الفرنسة واستحكمت في كل مقدّراته حتى أنها صارت منذ الاحتلال إلى يومنا هذا أحد محاور الصراع المرير في نضاله الوطني القومي وأصبحت البرجوازية والمثقفون المرتبطون بها، والأصناف التي فقدت روح الانتماء وانطفأت فيها جذوة الاعتزاز بالنفس وبشعبها الركائز الداخلية لحالة الفرنسة السائدة ولما نعانيه من استعمار ثقافي بغيض ولما تجد فيه هنا وهناك من دعوات مشبوهة مثل «الفرنكوفونية» وحقّ «المغايرة الثقافية» وغيرهما.

ويتضح من هذا أن الدعوة إلى تلهيج العربية ليست الاّ خطوة أولى الغرض منها التخلّص من العربية والقضاء عليها بصفتها لغة مشتركة لأبناء المغرب والوطن العربي عموماً.

وبما أنّ اللهجة العامية راكدة في مستواها الاجتماعي المتخلّف فهي لا تقدر في المستويات الأرقى والأبعد أثراً أن تكون أداة لتحضير الانسان وتمدينه في شتّى المجالات من تعليم وثقافة وأبحاث وتنظيم اداري وغير ذلك، وطالما هي بهذا القصور فان الناس سيزهدون فيها لا محالة وسينتهي أمرها. وبالتالي فانه لا مفرّ من استعمال الفرنسية باعتبارها طريق الحضارة الحديثة وأنّ الساحة ستخلو لها على مرّ الأيام. واذا ما تحقّق هذا فان الاستعمار يكون قد تغلّب على العراقيل التي تحول دون عملية الدمج والالحاق.

ثالثاً: التمسيح:

أمّا سياسة التمسيح، فكانت مطمع أوربا المسيحية من قديم وقد اتّخذ منها المستعمر سبيلاً للغزو واحكام السيطرة على الشعوب حتّى أن الجيش الفرنسي الذي أعدّ لاحتلال مدينة الجزائر سنة 1830 كان قد اصطحب معه 16 قسيساً[19].

واثر عملية الاحتلال خاطبهم قائد الحملة الجنرال بورمون (Bourmont) قائلاً: «انكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في افريقيا ولنأمل أن تينع الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع»[20].

كما أقام هذا القائد المتغطرس السفاح صلاة دينية في حيّ القصبة في نفس الوقت الذي كان فيه ملك فرنسا شارل العاشر يحضر صلاة دينية في كنيسة «نوتردام» بباريس احتفاء بهذه المناسبة وشكراً للعناية الالهية على هذا الانتصار[21].

وقد اعتبر رئيس وزراء فرنسا آنذاك (برانس دوبولنياك) (Prince de Polignac) الحملة العسكرية ونجاحها ذات صبغة صليبية معلناً أن سقوط الجزائر يجلب خدمة للكنيسة وللمسيحية جمعاء»[22].

ومنذ الوهلة الأولى شرع الغزاة في تنفيذ مخطط التمسيح عن طريق القوّة والأساليب الفضة ضد السكان ومقدّساتهم، تعاون في ذلك العسكريون ورجال الدين المسيحي، ومن الأساقفة الذين اختيروا للقيام بمهمة التبشير وتنصير المواطنين الأسقف «دوبوش Dupuch» الذي توجّه إلى ملك فرنسا «لويس فليب» في لقاء معه بقوله: «لا يكون العرب فرنسيين الا عندما يصبحون مسيحيين ويتوقّف ذلك علينا نحن الاثنين فلنعد الحياة إلى افريقيا (المسيحية)»[23].

ومخطط التمسيح هذا شامل يطمح أصحابه إلى تعميمه على كامل منطقة المغرب العربي، وهذا ما عبّر عنه «لويس فيو Louis Veillot» عندما كتب يقول «ان الانسان يكون أعمى اذا لم يدرك أن العناية الالهية تعمل للقضاء على الاسلام... وقتها تصبح الجزائر ممتلكة مسيحية ولن تكون مسلمة، وأن تونس والمغرب الأقصى لن ينتظرا طويلاً (ليعرفا نفس المصير)»[24].

وقد أنشئت لهذا الغرض «جمعية الآباء البيض» التي أشرف عليها المبشر الخطير الكاردينال ـ لافيجري Lavigerie ـ وبعد مدة عزّزت بجمعية أخرى هي جمعية «الأخوات البيض» وقامت الجمعيتان بأعمال خطيرة واسعة على صعيد المغرب العربي تمثّلت في انشاء الكنائس والمدارس وملاجىء لليتامى ومستشفيات ومكتبات ومراكز اتصال بالناس(*).

وعن طريق ما تقدّمه هذه المؤسسات من خدمات انسانية في الظاهر يبثّ القائمون عليها سمومهم المبطّنة ساعين إلى جلب الناس وتحبيب الغرب وحضارته اليهم اذ أن وجوده بين ظهرانيهم انما هو لمساعدتهم ونشر المدنية في ربوع بلادهم، والغاية من وراء هذا: القبول بالمستعمر والحدّ من روح العداء والمناهضة له.

وتمكنت حركة المبشرين في ظل تردّي الأوضاع وتدني الوعي وبواسطة مدارسهم وغيرها من التأثير على عدد هام من ذوي المنازع المختلفة من سياسيين وصحافيين وحقوقيين واداريين ورجال ثقافة وتعليم، فكتب جورج هدري George Hadry «من

ذوي النظريات الخاصة في التعليم الاستعماري» يقول في هذا الغرض: «ان أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا جعلهم أكثر ولاء وأخلص في خدمتهم لمشاريعنا، هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون بعادتنا الفكرية وتقاليدنا، فالمقصود اذن باختصار أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيّف فيها عقولهم حسبما نريد»[25].

وقد تحقق هذا فعلاً فآلت هذه التنشئة الثقافية الاستعمارية بأصحابها إلى التفسّخ والتنصل من المسؤولية الوطنية والقومية.

ولا تقتصر أهداف المستعمر على ما ذكر بل تتعدّاه إلى أغراض أخرى أشد خطراً عبّر عنه أحدهم بقوله: «ان السماح للمسيحية بأن تؤثر على روح البربر يعني ولا شك تسهيل تفتيت الكتلة العربية والقضاء عليها بقوّة، وهذا يعني تبعاً لذلك القضاء على الاسلام في أرضنا شمالي افريقية لفائدة حضارتنا وعرقنا»[26].

وكتب الضابط المترجم (سيكار Sicard) الملحق بقصر الشرفاء (القصر الملكي بالمغرب) «بأنه يتعيّن أن نمنع بكل الوسائل انتشار الاسلام في المحميات الفرنسية»[27].

ويربط الاستعماريون الفرنسيون في نطاق سياسة الدمج والالحاق بين مشروع الفرنسة ومشروع التمسيح معتبرين العربية والاسلام مقومين أساسيين لسكان المغرب العربي لابدّ من القضاء عليها قضاءً تاماً، ولذا نجد الجنرال برمون Brémond ينادي «بوجوب تجريد البربر من الاسلام وفرنستهم»[27أ].

ونجد الكابتان (لوغلي Le Glay) يصدر تعلىماته إلى المعلمين قائلاً: «علموا كل شيء للبربر ماعدا العربية والاسلام»[27ب].

ونجد أيضاً في المغرب سنة 1921 أحد موظفي الاقامة العامة يقول في مقال له: «يجب أن نحذف تعليم الديانة الاسلامية واللغة العربية من مدارس البربر»[28].

بث التفرقة وولادة «النزعة البربرية»:

تمشياً مع سياسة الدمج والالحاق عمد الاستعمار الفرنسي بالاضافة إلى ما تقدّم ـ إلى بثّ التفرقة بين السكان وتقسيمهم على أساس جنسي وعرقي زاعماً أن العرب قوم غرباء قدموا من خارج البلاد واحتلوها. وأن البربر لا ينتمون اليهم، وأنهم من جنس لا يمتّ إلى الجنس العربي بصلة. وعمل العلم الاستعماري على فكرة التمييز بين العرب والبربر خلال القرن التاسع عشر متوخياً أساليب أكاديمية وطرقاً من البحث والوصف لم تكن معهودة من قبل كان لها تأثير واسع في عقول الكثيرين. وكان الاستعماريون الغلاة يرون «من الخطر أن نترك كتلة ملتحمة من المغاربة تتكوّن»[29].

وفي هذا السياق انتقد الدكتور ورانييه Warnier المتعصب «لسياسة الالحاق»[30] سياسة نابليون الثالث أزاء الجزائر سنة 1864 قائلاً «لو أنّ نابليون عوض أن يطلب من

المعمرين احترام القومية العربية وهو احترام يتنافى مع الحضارة ـ طالب بالحقوق الشرعية للقومية البربرية لكان الجميع صفّقوا له»(30أ).

وللمستعمر أساليب متنوعة من الخبث، اذ نجده في هذه المرحلة التي يتظاهر فيها بالتقرّب من البربر يحاول أن يسبغ عليهم نعوتا ويغرس فيهم بعض القناعات للنيل بصورة مباشرة من أواصر الاخوّة والتلاحم التي نسجتها القرون الطويلة بينهم وبين العرب من ذلك الادعاء «أنّ البربري متفوق على العربي وأنّ الشعب البربري وحضارة البربر فيهما صفة التجانس التي تسمح لهم بشرف الادّعاء أنّهم أمّة وهي ميزة لا يحقّ للعرب ادّعاؤها»(31).

والقول أيضاً: «ان فردية البربر العنصرية والقومية والاجتماعية والثقافية واللغوية كانت دوماً قويّة. بحيث انها تحول دون تمازجهم بالعرب»(32).

والى جانب هذا يشيع المستعمر ويؤكد أن بين العرب والبربر خصومة متأصلة أبدية «لا سبيل إلى التوفيق بينهما بشأنها»(33).

وتركيز فرنسا على البربر لا حباً فيهم و إنما لكون ذلك تكتيكاً يوصلها في النهاية إلى ابتلاع الجميع، اذ هي تريد أن تؤلبهم وتضرب بهم العرب باعتبارهم العنصر الذي أعاد ربط البربر بالمشرق بعد الفنيقيين وأثّر في المنطقة وجعلها عبر القرون تدخل نهائياً في نطاق رقعة أوسع هي الوطن العربي وأمّة أكبر هي الأمّة العربية، ومن هنا رأى البعض بأنّ «مستقبل فرنسا في الجزائر يمثله البربر»(34).

ومن هنا أيضاً نفهم لماذا اهتم المسيرون بفكرة تمسيح البربر والاصرار على تنفيذها مثلما قال الكابتان لوغلي: «علّموا كلّ شيء للبربر ما عدا العربية والاسلام» ومثلما قال موريك قلاي Mauric Galey «يجب أن نعلم كل شيء ما عدا الاسلام»(34أ).

وكان اتجاه الضباط العام في المراحل الأولى من سياستهم التفتيتية والالحاقية هو المحافظة «بأكثر فطنة ممكنة على الاختلافات اللغوية والدينية والاجتماعية التي يمكن أن توجد بين السهل العربي والجبل البربري وذلك بعزل القبائل البربرية عن السكان المستعربين»(35).

واذا ما تمّ الأمر على هذا النحو ووفق ما يرسمون من مخططات فان العرب لا يكون مآلهم الضعف فقط وانما أيضاً سيكونون العنصر (المحكوم عليه حتماً بالاضمحلال أمام الحضارة»(35أ).

فالعلاقة اذن بين العرب والبربر من الأهمية بمكان في نظر فرنسا اذ هي ترى أنّ بقاءها ومستقبلها في المنطقة يتوقّف فعلاً على تحطيم هذه العلاقة و إنهائها.

ولم يكتف المستعمر بهذا بل نجده في تعامله مع البربر يسلك مسلكاً طائفياً لا يستند فيه إلى الجانب الديني مثلما فعل في سورية ولبنان وانما على التنوّع اللغوي باعتباره سبيلاً يمكّنه من التمييز بين المجموعات البربرية يستطيع استغلاله على الوجه الذي يريد فركّز في

الجزائر على مجموعة القبائل لكبر حجمها النسبي ولقربها من العاصمة ومركز النشاط الأساسي للحياة العامة فميّزهم بصور ما، في مجال التعليم والوظيفة وأنشأ لهم قناة بلهجتهم في البث الاذاعي وأعدّت في شأنهم الدراسات المتنوّعة، ومنها كتاب في ثلاثة أجزاء يسمّى: «بلاد القبائل والأعراف القبائلية La kabylie et les costumes kabyles» لهانتو والمستشار لوتورنو Hanteau, letourneux انطوى على كثير من السموم والأفكار المغرضة.

واهتم الاستعمار منذ وقت مبكر بالقبائل واعتبرهم، كما عبّر عن ذلك الجنرال دوفيفري Duvivier سنة 1841 «المحور الأقوى في سياستنا»[36].

فسعى إلى استقطابهم من ناحية و إلى ضرب علاقتهم بالعرب من ناحية ثانية حيث شوّهها وطعن فيها من كلّ الوجوه ولذلك فان الدكتور بودشون Bodichon في سنة 1845 «وقد حدّد سياسة بربرية رهيبة تقوم على الاستغلال المنظم للاحقاد بين العرب والبربر»[36أ] تؤول في النهاية إلى دمج القبائل والقضاء على العرب.

وفي سنة 1848 اهتم الكابتان كاريت Carette بالمسألة القبائلية اهتماماً خاصاً، فدرس اتجاهات وأعمال من سبقوه في هذا الموضوع، وكانت النتيجة التي انتهى اليها هي «أن بلاد القبائل التي ظلت حتى اليوم خارج دائرة اتصالنا المباشر والتي بقيت في صراع مع كل السيطرات السابقة، يجب أن تصبح من هنا لبعض سنوات المساعد الأذكى لمشاريعنا والشريك الأنفع لأعمالنا»[36ب].

وسياسة عزل البربر عن العرب وبثّ التفرقة بينهم هي التي أطلق عليها الغزاة الفرنسيون «السياسة البربرية» وهي تستند إلى فكرة رئيسية فحواها: أن البربر منذ أن وجدوا على هذه الأرض لم يتأثروا بغيرهم وظلّوا محتفظين بمقوّماتهم طوال مختلف العهود، فجليان الذي خدم الفكر الاستعماري على طريقته الخاصة يقول: «فالمدنيات المتتابعة التي طرأت من الخارج لم تكن بالنسبة للبربر الاّ ثياباً متنوّعة تستر جسداً وروحاً لا يتغيّران»[36ج].

وجاء أيضاً في نشرة سياحية صدرت بالمغرب الأقصى «أن البربر برغم اعتناقهم للاسلام وكونهم رعايا موالين لجلالة السلطان الا أنهم احتفظوا بعاداتهم ولغتهم وحتى خرافاتهم»[37].

وبما أن قسماً من البربر تعرّب وأن التعريب كما هو معروف من العوامل التي ساهمت في تكون الأمة العربية على نحو معيّن، فانّ جوليان لا يرى في ذلك شيئاً، وأن البربر في نظره بربرا على الدوام تعرّبوا أم لم يتعرّبوا فهم جوهر ثابت وشيء سرمدي لا يناله التغيير، ويتشبّث جوليان بهذه الفكرة ويصرّ عليها في قوله: «فليس هناك خطأ أعظم من الاعتقاد كما فعل البعض في كثير من الأحيان ـ في أن التقسيم بين الناطقين بالعربية والناطقين بالبربرية يعكس تقابلاً بين جنس عربي وجنس بربري»[38].

وزيادة على ما تقدّم ذكره فانّ «السياسة البربرية» اتّخذت أساليب شتّى منها الدعايات المكذوبة التي تشيد بما بين المستعمر والبربر من تعاون وتضامن وتفاهم كما في هذا النص : «ولما كان البربر فخورين بما هم عليه وراغبين في الاحتفاظ بذلك، فانهم تعاونوا معنا تعاوناً وثيقاً مع العمل الفرنسي، انهم يحرثون أراضيهم ويدافعون عنها متضامنين معنا تضامناً، ويساعدوننا في أن نعرّفهم إلى خير ما في الحضارة الأوربية. انهم اخواننا في السلاح والعمل، انهم يفهموننا ونحن نحبّهم»[39].

وهذا الكذب ليس اسفافا من المستعمر وانّما هو أسلوب خبيث مقصود وموجّه إلى أصناف من الناس يسهل انخداعهم بمثل هذا النفاق.

ومن أساليب هذه السياسة ما أظهر المستعمر من حرص مكذوب نحو عادات البربر وتقاليدهم. فأعلن أنه يحترم «الأعراف القبلية للجماعات البربرية» بصفتها جزءاً من تراثها الشعبي العريق المعبر عن أصالتها وشخصيتها وصدر أوّل اجراء في هذا الغرض في 11 سبتمبر 1914 بتدبير من الجنرال ليوتي Lyautey المقيم العام بالمغرب الأقصى يقضي «باحترام العرف البربري في القبائل التي تمّ اخضاعها على أن تتّخذ قرارات وزارية لضبط محتوياته»[40].

والقبائل البربرية شأنها شأن كل القبائل لها مجموعة من الأعراف والتقاليد تستند اليها في جوانب عديدة من حياتها الاجتماعية، الاّ أنّ المنظم الأساسي لعلاقاتها والعامل المحدد للواجبات والحقوق بين أفرادها هو «الشريعة الاسلامية» باعتبارها العروة الوثقى بين الجميع.

وهدف فرنسا من وراء هذا الاجراء الجديد حمل البربر على ان يتخلّوا عن «الشريعة الاسلامية» لا بصفتها الدينية فحسب ولكن أيضاً بصفتها قوانين عربية، وأن القضاء عليها فيه قضاء على العنصر العربي من كامل المنطقة وهذا ما دفع المقيم العام سنة 1915 إلى احداث «الجماعة القضائية» وهي ان لم ترق إلى مصاف المحاكم القانونية»[41] فانها كانت تمهّد «لتحويل الجماعات التقليدية إلى سلطة قضائية حقيقية»[42].

وحتى يتمّ تنفيذ هذا المشروع بصورة أقلّ اذاية لفرنسا فانه لا بد من العمل على جعل ملك المغرب يؤيدها في نهجها ويوافق على اجراءاتها، فلاقت في الأول مناورة وتهرّباً من الملك يوسف (1912–1927) الاّ أنها ظفرت في النهاية بمبتغاها، فأصدرت الظهير البربري المعروف في 16 ماي 1930 (Droit coutumier Berbère) يحمل توقيع الملك محمد الخامس الذي ولي العرش سنة 1927 البالغ من العمر وقتئذ 17 سنة.

وقد أعطى هذا الظهير للجماعات البربرية المحلية صلاحيات عدلية لا تستند فيها إلى «الشريعة الاسلامية» وانما إلى العرف والتقاليد البربرية، فهو «ينشىء محاكم عرفية متركبة من الأعيان ومكلفة بالحكم في جميع القضايا المدنية والتجارية والمنقولات والقضايا العقارية وفي كل مادة تتعلق بنظام الأحوال الشخصية أو النظام الوراثي

ويؤسس أيضاً محاكم عرفية للاستئناف»[43].

أما الجنايات فهي من مشمولات التشريع الفرنسي وهو وحده الذي يملك صلاحيات زجر مرتكبيها «بالبلاد البربرية مهما كانت وضعية صاحب الجناية»[44] وقد أصاب علال الفاسي في ما قاله عن هذا الظهير: «والحقيقة أن هذه السياسة هي آخر ما اهتدى اليه الفكر الفرنسي للقضاء على مقومات المغرب العربي وادماجه في حظيرة العائلة الفرنسية»[45]. فهو ظهير لم يرد صانعوه احترام «الاعراف البربرية» كما يزعمون وانما لتنفيذ «السياسة البربرية» المرسومة:

- فمن ذلك ان الظهير كما ذكر الجنرال كارتو (أحد المقربين للمقيم العام الجنرال ليوتي) «تدخل فرنسي في أسس الاسلام وتصميم من جانب فرنسا بأن تقسّم المسلمين وأن تفرّق المغاربة البربر عن المغاربة العرب»[46].
- ومن ذلك تقوية العنصر البربري لما يمكن أن يقوم به من دور الموازنة ولما يمكن أن يؤدي اليه من اثارة الجماعات البربرية وقيام بعضها ضد البعض الآخر، وهذا ما نجده في أحد محاضر الجلسات التي عقدت لاعداد الظهير حيث جاء فيه: «لا مانع من تقويض وحدة التّنظيم القضائي في المنطقة الفرنسية اذا كانت المسألة مسألة تقوية جماعة البربر بالنظر إلى الدور الذي قد يدعون للقيام به بوصفهم جماعة قد تقف يوماً في وجه الجماعة الأخرى، وليس هذا فقط، فالأمر على عكس ذلك. فهناك من الناحية السياسية فائدة لا يشك فيها وهي أحداث مثل هذا الشقاق»[47].

ومن ذلك أيضاً تكون «جبهة بربرية» تكون كما يريدها المقيم لويسيان سان ـ في مواجهة السلطان والمخزن وذلك بعزل البربر عن محيطهم العام وعن المساهمة في الحياة السياسية للبلاد، وهو أمر يمكن بلوغه كما قال الجنرال كارتو: «بتشجيع النزعة البربرية لتظل في دورانها في دائرة مقفلة»[48] وكل هذا من شأنه غرس الروح الانعزالية وما يشبه الطائفية في صفوف البربر.

وأدركت الجماهير في القطر المغربي خطورة هذا الظهير فانتابها الفزع وهبت في جهات عدة محتشدة في المساجد وغيرها معبرة عن سخطها ورفضها للسياسة الفرنسية وما جاء في هذا الظهير منادية بالوقوف صفاً واحداً أمام ما يراد بها من كيد التقسيم والفتنة تالية أثر كل اجتماع هذا الدعاء: «اللهم يالطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير والاّ تفرّق بيننا وبين اخواننا البربر»[49].

كما ردّد الجميع الأناشيد الوطنية الحماسية لحفز الهمم والحثّ على التوحد والتضامن والتحذير من كيد المحتل ومؤامراته، ومن ذلك تلك الانشودة المؤثرة التي فاض بها وجدان أحد أبناء الأمازيغ تحذّر البربر من مخاطر الانخداع بالحكم الأجنبي ومؤكدة على أنهم والعرب شيء واحد تجمعهم الأخوّة وأواصر القرابة.

فالبربر أبناء أمازيغ وأمازيغ أبوه عربي، ومن المحال التفرقة بينهما ونقطف الأبيات التالية وترجمتها من هذه الانشودة التي أوردها علال الفاسي[50]:

ايغـــاء بين أوينـــا حكمنين	متا ثباطا ازرف ازلان الدين
ثمرم الـــرأي تـــزليم العـــزنون	تكرام الدين ارتكام سومر ذول
يتاغ الحال ثميماتا تصعا نكراخ	لسلام أمازيغ عربي أكان بامن
الارزون أمعيـــذان أذاخ يظون	اتمسلهو ذي كنـــاخ نقبـــاط
أهـــا يمازيغن انودم ذا يتـــاع	الا يتفافا الحر أكر ذيبخوان

1 ـ أيها القابضون على أزمة أمورنا الحاكمون في قضايانا ما هذا الحكم بالعرف المصادم للدين؟

2 ـ أترضون كل ما يحدث إلى ان رميتم عزتكم ورفضتم شرفكم فذهبا مع دينكم كما ذهبت معها ثروتكم؟

3 ـ لا نعرف من قديم الزمان الاّ أننا والعرب اخوان متحدون متصلون أليس اسلام الأمازيغ أبوه عربي؟

4 ـ يريد الأعادي أن يفرقونا ويذكوا نار العداوة بيننا لتتم سيادتهم علينا.

5 ـ أيها الأمازيغ ان النوم من طبائع الانسان ولكن الحر الذكي ينتبه ويبادر السارق المتلصص.

وفي مناسبة أخرى بالجزائر عندما عملت فرنسا على ضرب الحركة الوطنية عن طريق التفرقة وبثّ النزعة البربرية، تصدّى الوطنيون لذلك ومنهم المناضل «ديدوش مراد» القبائلي من مخبئه في «سالومبييه» حيث رفع شعار «البربر عرب»[51] وكان لهذا أثره «على كثير من المقالات والقصائد التي نشرت في الصحافة الوطنية»[52] ومن بين الشعراء الذين تجاوبوا مع ذلك ونافحوا بحمية ضد هذه النزاعات التقسيمية عيسى حمو النوري المزابي الذي يفتخر بالانتماء الشرقي وبالأصل العربي للبربر فيقول في مدح الشيخ بيوض[53].

للشرق أيّ من جمال خـــالـدِ	تعنو لها في العالَم الأقطابُ
من رائعات الشرق بيّوض الذي	نســل الشمال وانجبت مِيـزَابُ
والعبقـرية من فضائل نبته	ان أرجعت لأصولها الأعشـابُ
ودم العروبة في العروق مراجلٍ	تغلي وتُومضُ تحتها الأنســابُ
أكـذِّبُ بما قـال المعمّـر ضِلّةً	إنّ المعمّـر ساحــرٌ كـذّابُ

وتجاوزت ردود الفعل على «السياسة البربرية» حدود المغرب الأقصى فارتفعت أصوات الاحتجاج في أنحاء الوطن العربي في كل من الجزائر[54] وتونس ومصر وبغداد[55] وفي فرنسا ذاتها التي «حملت (فيها) بعض الصحف اليسارية»[56] على هذا المشروع،

وقام الطلبة هناك أيضاً بنشاط هام ضده، وبرز شكيب أرسلان كعادته بصفته مرشداً وموجّهاً من أجل تعبئة القوى لشد أزر المغاربة وللرد على الاستعمار الفرنسي وأساليبه العدوانية ومن نتائج هذه الحملة المنظمة بعث لجان مساندة في القاهرة والهند وأندونيسيا وبرلين(57) لفضح السياسة الاستعمارية والتنديد بها.

وتواصل غضب الجماهير في المغرب بربرا وعربا الأمر الذي اضطر معه «الكومندان ميلي رئيس الأمور الأهلية بفاس أن يذيع منشورا يطمئن الناس على اسلام البربر وعلى كل ما فعلته الحكومة هو تنظيم لقضاء قديم»(58).

وأفضت حملة الاحتجاج الواسعة «انتخاب وفد مكوّن من 24 عضوا يمثلون سائر الأوساط الشعبية من العلماء والأعيان والصناع والعملة والفلاحين والشباب العصري»(59) لعرض المطالب التالية «على المراجع العليا» والعمل على تحقيقها:

1 ـ الغاء ظهير 16 ماي وسائر الظهائر والقرارات التي اتخذت في معناه.

2 ـ تكوين قضاء موّحد لجميع المغاربة.

3 ـ ربط جميع الموظفين الدينيين والمدنيين بسلطة الملك الشخصية.

4 ـ ليس في المغرب دين قومي الا الاسلام واليهودية.

5 ـ منع الهيئات الأجنبية وادارة المعارف من استعمال وسائل التبشير.

6 ـ اللغة العربية وحدها لغة البلاد الرسمية ولذلك يجب أن تكون الأساسية في التعليم.

ولما علمت الاقامة العامة بما وقع العزم عليه، وزعت منشورا تعلن فيه «أن الحماية تقبل إخراج كل قبيلة تطالب بالقضاء الشرعي من حظيرة القبائل التي يشملها الظهير... فتقدمت قبيلة «آية يوسي» من نواحي صفرو وقبيلة «زمور» بالخميسات وغيرها بارسال وفود تطالب بتحقيق هذا الوعد فما كان من ولاة المراقبة الا أن ألقوا القبض على رجالها»(60).

والسياسة البربرية التي صممت فرنسا على تنفيذها بأي ثمن، شملت أيضا انشاء مدارس خاصة بالبربر لم تكن غايتها تعليمهم وتثقيفهم اجتماعيا، وانما هي كما قال الكولونيل مارتي: «خلايا للسياسة الفرنسية وأدوات للدعاية... لذا فقد دعي المعلمون الى اعتبار أنفسهم وكلاء لضباط القيادة ومعاونين معهم»(61).

وقال أيضا: «ان المدرسة الفرنسية البربرية هي مدرسة فرنسية بتعليمها وحياتها بربرية بتلامذتها وبيئتها»(62).

وطالب قودفروي ـ دومنبين Gaudefroy - Demonbynes بالا تستعمل «في أي حال من الاحوال اللغة العربية ولو في أوائل الدراسة»(63).

كما طالب موريك قلاي Mauric Glay مثلما رأينا بحذف تعليم الاسلام واللغة العربية في مدارس البربر «وأن تكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية»(64).

وفي خضم هذا الصراع انتعشت الحركة الوطنية في المغرب الأقصى وتعمقت

جذورها في أوساط الجماهير الشعبية. وكتب أحد المناضلين «اننا بمقاومتنا للسياسة البربرية نريد تقريب عناصر الشعب المغربي وتوحيده، نريد محاربة مبدأ التجزئة المكيافيلي الذي ينشره بتفنن ممثلو فرنسا الحربيون والدينيون، نريد أن نمنع خلق كتلتين ذاتي ثقافتين ومصالح متناقضة خلقا اصطناعيا»[65].

تشويه التاريخ:

ان تصميم الاستعمار الفرنسي على محو كل مقومات المنطقة جعلته يتناول تاريخها بالتحريف والتشويه في شتى العصور معتمدا بصفة خاصة على متخصصين في فروع متنوعة من المعرفة التاريخية. فكانت معظم الدراسات والمؤلفات ذات الطابع الأكاديمي محكومة بتوجه استعماري على نحو ما نجده عند المؤرخ الفرنسي استيفان قزال S. gsell الذي كان يعدّ في نظر الباحثين طوال الثلث الأول من هذا القرن المرجع الأساسي في تاريخ المنطقة في عهد ما قبل الاسلام فهو من رواد المدرسة التاريخية الاستعمارية الذين رسموا وحدّدوا اتجاهها وأهدافها كما جاء في قوله: «ان التاريخ حدد لنا أيضا واجباتنا، فعلينا أن نتسلّح بارادة لا تقهر في أن نكون أسيادا والى الأبد، كما أن هناك ضرورة تتمثل في اقامة استعمار معتمد على استيطان ريفي أوربي ضخم، وضرورة تقريب الأهالي منا على أساس الرغبة الصارمة والأمل في أن يتحقق انصهارهم في مستقبل قريب أو بعيد، فالتاريخ اذن لا يعتبر في أفريقيا هو أقل العلوم جدوى»[66].

ووفقا لهذا النهج فقد اعتبرت منطقة المغرب العربي جزءاً من أوربا، فيقول جوليان: «... هذه القطعة من أوربا المشدودة الى افريقيا...»[67].

وألّف بريموند G.L.E. Bremond كتابا بعنوان «بربر وعرب» (Berbères et Arabes) كتب على غلافه «بلاد البربر بلاد أوربية» (La Barbarie est un pays européen) كما نظر البعض الى تاريخ المنطقة خلال العهد الاسلامي على أنه «اقتطاعا تعسفيا لهذا الجزء من الغرب»[67أ].

وهكذا نلاحظ الارادة المتعمدة في تكييف تاريخ المنطقة بأجمعه وفق ما تطمح اليه سياسة الالحاق والدمج، فقد اعتبر تاريخها في فترة الاحتلال جزءاً من تاريخ فرنسا الحديث، وتاريخها القديم جزءاً من تاريخ روما التي يعود اليها الفضل في نظر المدرسة الاستعمارية التاريخية في نشر المدنية في ربوع بلاد البربر، هذه المدنية كان من الممكن لها ان تستمر وتزدهر وتخرج البربر من عهود الجهالة والهمجية لولا قدوم العرب الذين تسلطوا على المنطقة ودمروا ببداوتهم الانجازات الرومانية الحضارية مما حكم عليها بالركود والعيش في ظلام التخلف مدة طويلة الى أن تكرم عليها القدر مرة ثانية فأشرقت عليها شمس الحضارة الاوربية من جديد بمجيء فرنسا التي ستحررها من العرب وتسلطهم وتدخلها ضمن البوتقة الفرنسية في عالم الحضارة والتمدن الحديث.

وبقدر ما رفع من شأن العهد الروماني وبولغ في تمجيده وتقديره بقدر ما انهالت حملات الطعن والتشويه والاستنقاص على العهد الاسلامي وقد أثر هذا كما رأينا في موضوعات سابقة على بعض العقول، فظهرت نزعة جديدة في الحقل الثقافي والفكري هي «نزعة الرومنة» التي نجد صداها لدى كثير من الكتاب، وحتى في المهرجانات وما الاشادة بالقديس أوغسطين (ما بين القرن الرابع والخامس ميلادي) والتباهي به الا من آثار هذه النزعة مع أنه من الذين حاولوا تأييد الاستعمار الروماني اذ هو «برر دينياً ضغط الدولة على الأفراد بالاعتماد على قوة المسيح»(68).

والمعروف أن جانبا من البربر شايعوا الأسقف «دوناتوس» القرطاجي المغربي في انشقاقه العقائدي ضد البابوية، ورفضوا الانسياق وراء القديس «اوغسطين» الذي عاداهم وقاومهم فرأوا «فيه خائنا لوطنه يريد تعبيد مواطنيه لروحانية الدولة المستعمرة»(69). ويصدق عليه ما قاله في شأنه عثمان سعدي: «ان القديس أوغسطين لا يوجد فرق بينه وبين الكردينال لافيجري (1825–1892) والأب فوكو (1858–1916) أسماء كلها تدخل في قاموس مناهضة طموح الجزائريين والمغاربة في التحرر من ربقة الاستعمار الروماني في عهد لافيجري وفوكو»(70).

ولم يعامل الدور القرطاجي بمثل ما عومل به الدور الروماني مع ان الحضارة القرطاجية كانت أبعد أثرا في الحياة البربرية والثقافية والروحية، فظل تأثيرها متواصلا طوال العهد الروماني تقريبا وهو أمر لم يحققه الرومان الذين استمروا محتلين المنطقة قرابة ستة قرون وكذلك الوندال والروم من بعدهم الذين استمروا أكثر من قرنين وذلك لعدوانيتهم الشديدة وفضاضة معاملتهم القائمة على احتقار الاخرين واذلالهم، ولطبيعة نظامهم الاجتماعي الذي يحول دون اندماج البربر في هذا النظام اذ المواطنة الرومانية ذات التمييز العنصري لا تمنح بسهولة، وهو ما جعل دائرة معارف «يونيفرساليس Universalis» تقول:

«ان السيطرة الرومانية الطويلة لم تكن ذات فاعلية كبيرة»(71).

وهذا راجع الى أن «القبائل المهيمن عليها استمرت في تمرّدها ضدهم»(71أ).

والاكثر من هذا هو أن هذه الدائرة تعترف بأن «الحضارة» الرومانية لم تتمكن من دمج وتنصير الاّ عددا قليلا جدا من المغاربة»(71ب).

وهذا واضح من عملية الرفض بكل أبعادها وخاصة الثقافية والروحية كما يجسدها لجوء أولئك الذين انضووا تحت العقيدة المسيحية «الى الانشقاق الديني لتأكيد استقلاليتهم»(71ج).

وقد تزعّم هذا الانشقاق كما مرّ بنا الاسيف «دوناتوس Dinatus» وتعلّق دائرة يونيفرساليس على هذا كله بقولها بأن «المغرب ظلّ هو بكل شراسة»(71د)، أي ظل محافظا على ذاتيته التي لم تفلح الهيمنة الرومانية والحضارة الرومانية التأثير عليها، على العكس

من ذلك الحضارة الفينيقية التي استمر اشعاعها أكثر من ثمانية قرون وتحدّث حسن حسني عبد الوهاب عن الحالة العمرانية بأفريقيا عند مجيء العرب فيقول «ما عدا قرطاجنة. ماذا كان في البلاد؟ لا شيء يذكر من المدائن العظيمة بل كانت قرى مزجاة متفرقة هنا وهناك، ضعيفة المبنى قليلة السكان اللهم الا ما يقال عن بقية باقية في سوسة (حضرموت) وقفصة وتبسه وما سوى ذلك فبعض الحصون المتلاشية في البراري من بقايا آثار الرومان».

ويقول: «فمتى وجدت في البلاد مسرحا قديما متهدّم الجوانب أو معبدا مندك العرصات أو هيكلا منقض الاركان، فاجزم بأن معاول الجيوش البيزنطية عملت فيه وقوضته».

ويواصل: «والحقيقية التي لا يتطرق اليها شك ولا يعتريها وهم، هو ان العرب لما قدموا فاتحين لم يجدوا في البلاد سوى خرائب متهدمة تعلوها مسحة من زخرف قديم أبلاه الدهر... ولم يصيبوا غير مدائن ـ مثل جلّولا وغيرها ـ متداعية البنيان»[72].

ويعلق الاستاذ حسن حسني على كتاب الافرنج ذوي النزعة الاستعمارية المغرضة قائلا: «وعبثا يحاول بعض المغرضين من كتاب الافرنج اليوم اظهار البلاد التونسية في مظهر العمران الزاخر والزخرف البديع، وغزارة التمدين قبيل قدوم العرب وحين استيلائهم على افريقية فالتاريخ ـ وخصوصا علم الاثار ـ يكذّبان هذه الدعوة الملّفقة، وما هي في الواقع الا ترهات زائفة حمل كتاب الافرنج على محاولتها ليثبتوا بها أن ماضي افريقية الروماني الزاهر أصبح بعد الفتح العربي أثرا بعد عين»[73].

وكما تناول العلم الاستعماري العهود التاريخية للمنطقة تناول أيضا عهودها فيما قبل التاريخ التي كيّفها هي الاخرى وفق أغراضه. ونظرا لتعقيدات هذا الموضوع ولاننا سنتطرق الى جوانب منه في فقرات البحث القادمة نقتصر هنا على أهم النظريات التي ابتكرتها المدرسة الاستعمارية التاريخية في هذا الصدد.

النظرية الاولى:

تدعي بأن البربر من أصل أوربي وفيها أراء شتى منها من يقول:

ـ ان البربر من أصل هندي ـ أوربي، اذ هم جزء من تلك الجماعات القديمة التي قدمت من الهند ومرت بفارس والقوقاز ثم انتشرت في أنحاء أوربا واتجه منها فريق عبر أسبانيا صوب شمال افريقيا حيث استقر بها الى اليوم ويستدلون على ذلك ببعض الاثريات مثل المقابر «الميغالية» ذات الاشكال المتنوعة كالمصاطب (دولمن Dolmans) المعتمدة على الحجارة الكبيرة والمقابر المستديرة وغيرها التي وجدت حسب زعم اصحاب هذا الرأي على طول خط الهجرة، كما يستدلون بأشياء لغوية وبتشابه بعض أسماء القبائل مدعين ان قبائل «الكيماريين» بفينلانده والسويد تشبه في الاسم قبيلة خمير

في تونس وقبيلة بني عمارة في المغرب[74].

والمعروف ان قبيلة بن خمير قبيلة بربرية حديثة نسبيا وان قبيلة عمارة بطن من بطون مصموده كما يذكر ابن خلدون، وفي هذا ما يدل على خطل أصحاب هذا التقرير.

ـ ومنها يقول بالأصل الأوربي للبربر، ولكن لا يعممه على جميع البربر وانما يقصره على المجموعة البربرية ذات الشعر الأشقر والعيون الزرق والبشرة البيضاء التي يجعلونها مرّة من نسل الغاليين (Goulois) أو الجرمانيين على أساس أنهم قدموا مع الروم والوندال ومرة من أصل قوقازي[75]. بزعامة «هيركيل Hercule» قائد الشعب وسكنت (فزيانة Faziana)[76] بأرمينيا. ثم ساحت بعد ذلك فبلغت أوربا وشمال افريقيا، واتجه بعضهم نحو الجنوب فتقاتل مع الكنعانيين والاسرائيليين في فلسطين[77].

وذكر «رين» أن هيركيل ارتحل من ميسان واجتاز مقدونيا والتقى بأطلس (Atlas) في حديقة «الهزبيريد Hesperides» وتمثّل رحلته «أسطورة الهجرات الكبرى للشعوب»[78].

وفي حديث «رين» عن الكماريين وعلاقتهم بغيرهم ومرورهم بآسيا الصغرى الى البلدان والبقاع الأخرى، يذكر أسماء كثيرة لأشخاص وقبائل وأماكن تشبه ــ حسب زعمه ــ أسماء قبائل وأماكن بربرية ومما يذكره من هذه المشابهات على سبيل المثال[79]:

ـ هيركيل: تشبه «أركول» في نفزاوة وذات علاقة «بورقلة» في الجزائر.

ـ ادياسة Ideessa: تماثل كما قال اسم مجموعة بربرية هي بربر اديسا Addisa الذين خلفوا قرية أديسا او هديسا بأوراس Aores

ـ فزيانة Faziana: التي سكنها الكماريون بأرمينيا يوجد مثل اسمها في فاس وفي فزان.

ـ سارد، يوناني: يذكر بساريد في أوراس.

ـ رفايم، رفايت.. (Rephait, Rephaim) من القبائل الكمارية وهما يذكران بهذه الكلمات: ريفاي Riphée بأوربا وبريف وريفانه البربريتين.

ـ سوفاكس Sophax: ابن ديدور حفيد هيركيل يشبه اسم قبائل بربرية في جنوب مراكش وبه سمي الملك سيفاكس (Siphax).

ـ اسم الأطلس جبل البربر: له ارتباط بأطلس النهر بسيتي (Seythie) (منطقة بشمال البحر الأسود)[80].

ـ من المغرب الأقصى الى سوف الجزائرية توجد قرى قبائلية: قِمّور، أقمّور، قمار (Guemar, Aguemmour, Gummaur) وقبائل مستعربة الى درجة ما، موزعة في مختلف انحاء البلاد: غماريا ــ بنو قمري، غمرا الى آخره وهي على أية حال ذات علاقة بالكماريا (Koumaria)[81].

وهكذا وبهذه الكيفية يتحدث «رين» عن التشابه بين الأسماء لاقتناعنا بوحدة الأصل البشري واللغوي بين الشعوب الهندية ــ الأوربية ــ وبين البربر وهي طريقة

مفتعلة لا علاقة لها بعلم الأسماء الذي يستند اليه الباحثون في ظل جملة من الأوضاع والمعطيات للتدليل على الهجرات وانتقال الثقافات ووجود الصلات بين الشعوب.

ولرين فلسفة لفظية غريبة خاصة به من حيث تقطيع الكلمات واستخراج المعاني منها، وكتابه يزخر بذلك بشكل يبرز افراطه وشغفه بالمقابلة وتفكيك الالفاظ بأية كيفية تعنّ له وتخطر على باله، ومن سوء حظّه وحظ أمثاله أن باءت جهوده بالفشل الذريع ولم يكتب لأرائه أي نجاح، ولم نعد نجد من الكاتبين والباحثين من يردد اسمه.

ـ ومنها من يقول بالأصل الأوربي للبربر ولكن لا يعمّمه على جميع البربر وانما يقصره على المجموعة البربرية(*) ذات الشعر الأشقر والعيون الزرق والبشرة البيضاء التي يجعلونها مرّة من نسل الغاليين (Goulois) أو الجرمانيين على أساس أنهم قدموا مع الروم أو الوندال ومرّة من أصل قوقازي[82].

ومسألة الشعر الأشقر والعيون الزرق والبشرة البيضاء ما تزال تثير حيرة البعض فيما يخص العلاقة بأوربا. ولكن ما يجب تأكيده هو أن هذه المجموعة لا علاقة لها بأوربا وذلك لقدم وجودها بالمنطقة، فقد أشار اليها اليونان بجهة ليبيا قبل التوسع الروماني، وذكر البعض بأن العنصر الأبيض كان مقيماً ببرقة وأن العدد الكبير من الجنود الليبيين بمصر في عهد البطالمة كان من هذا العنصر[83].

والأهمّ من كل هذا ما جاء في الوثائق المصرية القديمة التي أشارت إلى مجموعة تسمى «التمحو» كانت في الألف الثالثة قبل الميلاد توجد في الناحية الغربية الجنوبية لمصر، ورد ذكرها في نص هيروغليفي يعود إلى عهد بيبي الأول من ملوك الأسرة السادسة (2423–2263 ق.م) دوّنه «أوني» حاكم الجنوب في مقبرة أبيدوس، كما ورد في نصوص أخرى سنذكرها عند الحديث عن هذه المجموعة (أنظر فصل: العصر الحجري الحديث وظهور البربر).

ومجموعة «التمحو» ذات بشرة بيضاء وشعر أشقر وعيون زرقاء وقد عرفنا ذلك من رسومات المصريين لهم في المعابد.

واذا كانت الوثائق المصرية القديمة ذكرت «التمحو» في أواسط الألف الثالثة قبل الميلاد تقريباً فانهم بالطبع أقدم من ذلك بكثير ثم إن انعدام الصلة بين هذه المجموعة وبين أوربا لا يؤكده الجانب التاريخي وحده، وانما أيضاً الجانب الثقافي، فلهذه المجموعة طابعها الثقافي الذي لا يمت بأي صلة إلى أي طابع ثقافي للعناصر الأوربية التي لم يدخل بعضها العصر الحجري الحديث بعد، ثمّ ان هذه المجموعة وسكان شمال افريقيا عامة كانوا في الألف الثالثة قبل الميلاد وما قبلها أرقى حضارياً وثقافياً من سكان أوربا في ذلك التاريخ(*) والمعروف أيضاً أن أوربا دخلت العصر الحجري الحديث في ما بين 3000 و2000 ق.م (في منطقة حوض الدنوب وسط القارة)[84].

ثم في سائر المناطق الأخرى بعد ذلك في حين أنّ الصحراء دخلته منذ الألف

السادسة والخامسة قبل الميلاد، ومصر كذلك في حدود الألف الخامسة قبل الميلاد.

ومنهم من يقول، ان البربر من أصل أوربي لاتيني مستندين على ذلك ببعض النقوش البربرية لها شبه من بعض الوجوه بنقوش وصور في أواني خزفية في ايطاليا[85]، كما استدلوا أيضاً بعدد من الكلمات البربرية التي وجدوا لها شبيهاً في اللاتينية[86].

وبالاضافة إلى هذا، فقد اتخذت اللغة بصفتها دليلاً على الأصل الأوربي للبربر، فأجريت مقارنات لغوية بين البربرية ولغة الاتريسك (بعض سكان ايطاليا القدماء) وبين البربرية ولغة الباسك (سكان شمال اسبانيا) وبين البربرية واليونانية القديمة[87].

واستندت نظرية الأصل الأوربي بالأساس على افتراض يقول بوجود معبرين بين القارتين الأوربية والافريقية أحدهما يتصل بجبل طارق والثاني يتصل بتونس عن طريق صقلية الواقعة بجهة ايطاليا، وظلت هذه الفكرة رائجة قبل أن تزدهر الأبحاث الجيولوجية والمعرفة المتعلقة بالرسوبات البحرية والشطوط الواطئة والمرتفعة التي سفّهت كلّها هذا الافتراض اللاّعلمي، فلم تكن هناك معابر أرضية حتى في العصر الجليدي الأخير حيث كانت كميات المياه في المحيطات والبحار أقلّ، وعندما دخلت المرحلة المطيرة الأخيرة (الخاصة بشمال الكرة الأرضية) منذ 10 آلاف سنة أو أكثر قبل الميلاد التي ما تزال متواصلة وأدت إلى ذوبان كمية كبيرة من الثلوج رفعت من مستوى المياه في البحار واستقرت على الحالة التي هي عليها اليوم منذ ستة آلاف سنة قبل الميلاد[88].

وخلاصة القول ان الصلة الأرضية بين أوربا وأفريقيا من المستبعد أن تكون موجودة خلال العصور الجليدية التي تغطي فترة 600 ألف سنة قبل الميلاد، وهي كلها تقع في عصر البليستوسين، وبقطع النظر عن هذا فالثابت علمياً أن مياه البحر كانت مستقرة على حالتها منذ ستة آلاف سنة قبل الميلاد حيث ما تزال أوربا تعيش في العصور الحجرية المتخلفة اذ هي لم تدخل في مرحلة العصر الحجري الحديث ـ كما مرّ بنا ـ الا في الفترة ما بين 3000 و2000 سنة قبل الميلاد. وبحكم هذا فهي لا تملك أية امكانيات لاقتحام عباب البحر كما نجد «ل. بالوت L. Balout»[89] المختص الفرنسي في عصور ما قبل التاريخ لافريقيا، ينفي أن تكون هناك علاقة بين أوربا وشمال افريقيا قبل العصر الحجري الحديث، فكان لرأيه دور في تنفيذ المزاعم السابقة ووضع حد لها ولذا أهملت لفجاجتها ولم نعد نجد من الباحثين والمطّلعين من يرددها منذ مدة طويلة.

وأقدم اتصال بشري عرف إلى حدّ الآن بين أوربا وافريقيا حصل في النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد حيث هاجرت جموع من الأوربيين يقال عبر البحر ـ واتصلت بالليبيين وسماها المصريون في وثائقهم «بشعوب البحر» شاركت تحت الزّعامة الليبية في هجمات على دلتا النيل في عهد الملك «مرنبتاح» (حوالي 1227 ق.م) وفي عهد رمسيس الثالث (1198–1166 ق.م).

ونظرية الأصل الأوربي للبربر روّج لها بالخصوص الفرنسيون في النصف الثاني من

القرن التاسع عشر حيث كانت السلطات الاستعمارية ترى كما لاحظ عبد الله العروي ـ «أن الدّمج ليس في الوسع نجاحه الاّ اذا كان للبربر مع الأوربيين أصل مشترك مهما كان قديماً»[89] ولم يقع التخلي عن هذه الفكرة حتى إلى وقت قريب، كما جاء في قاموس كي (Dictionnaire Quillet) الصادر في باريس سنة 1968.

«السكان أصيلو شمال افريقيا المتكوّنون من الفلاحين الحضريين (قبال الجزائر) ليسوا ساميين مثل العرب وقد سبقوهم على هذه الأرض وهم من وجهة نظر عرقية ينتمون إلى السكان الذين يعيشون في أوربا»[90].

وكشأن كل النظريات الاستعمارية المغرضة لابد وان تنهزم في نهاية المطاف وأن يضطّر أصحابها إلى الاعتراف بالحقيقة المرّة، فلقد كتب الدكتور (فالّو Vallous) تقريراً رفعه «إلى حاكم الجزائر العام في سنة 1949 والذي كان نتيجة لتحريات انتروبولوجية وأثرية منهجية يقضي في الحقيقة على جميع الآمال في دمج نهائي للمغرب بأوربا»[91].

وانهيار النظريات اللاعلمية والاستعمارية فسح المجال لنظرية جديدة، ولكنها في الحقيقة قديمة، هي نظرية الأصل الشرقي والآسيوي للبربر ولابد في خضم هذه القلقلة التي انتابت المدرسة التاريخية الاستعمارية أن تظهر نظريات أو أفكار متأرجحة حول افريقيا الشمالية كالتي عبّر عنها «كامبس G. Camps» في قوله: «فلا هي افريقية تماماً ولا هي شرقية أوسطية بأكملها، لقد تأرجحت على مرّ العصور في البحث عن مصيرها»[92].

وواضح من كلامه أنه يعترف ببعض الحقيقة دون ان يتخلّى تماماً عن نزعته الاستعمارية، فقد وجّه جهده الثقافي في مسار معيّن يتماشى وما جدّ من تطورات بعد الحرب العالمية الثانية وفي فترة الخمسينات. وقد حصر عبد الله العروي ما يرمي اليه في مؤلفاته كما يلي:

«تجزئة المغرب منذ العصر النيولوتي (الحجري المصقول) ابتداء من الألف الثانية بتأثير العمل الاستعماري لمختلف الحضارات، الايبيرية في المغرب والجنوب الايطالي في الشرق والصحراوي النيلي في الجنوب بالنظر إلى أن المغرب الأوسط هو منطقة انتقال بلا ميزات خاصة»[93].

والغاية من هذه التجزئة هو القضاء على وحدة المنطقة الحضارية وطابعها الشرقي الأصيل الأمر الذي يربكها ويدخل الذبذبة والاضطراب على تفكير ذويها.

وفي نهاية هذه الفقرة لابد من الاشارة ولو بصورة عابرة إلى نظرية أخرى تذهب على العكس فتقول بأن هجرات قدمت إلى أوربا من شمال افريقيا عن طريق اسبانيا وايطاليا وانشأت فيها طوراً من أطوار الحضارة الأوربية في العصر الحجري الأعلى يسمّى «الأورينياسي L'Aurignacien». وينسب هؤلاء المهاجرون إلى الحضارة القفصية الأسبق زمناً من هذا الطور الأوربي. ومما يستدلون به على هجرتهم ما عثر عليه في مقابر

بفرنسا حيث كان للهياكل العظمية ما يشبه الهيئة المقرفصة مع اصطباغها باللون الأحمر ومثل هذه العادة في دفن الموتى لم تكن معروفة ـ كما يقولون ـ في أوربا قبل الطور الاورينياسي بل كانت معروفة بشمال افريقيا.

ومن القائلين بهذا الرأي (ريفاس Rengasse) الذي كان موظفاً اداريا بتبسة والذي كان يهتم بأثريات المنطقة وساهم في اكتشاف بعض أطوارها، وسايره في رأيه الأب براي l'Abb Breuil الذي قال:

«من المحتمل جداً أن هذا التأثير الافريقي وصل الينا بقدوم الافريقيين عن طريق اسبانيا وأن وجود شبه في الخصائص البشرية لمّا يدعم النظرية القائلة بوجود هذه التقدمة الافريقية»(94).

وشاعت هذه النظرية ردحاً من الزمن في الأوساط العلمية حتى أننا نجدها مذكورة في بعض المدوّنات مثل «المختصر الكبير لاروس ـ Grand Memento Larousse» الذي جاء فيه «مهما كان نمو ذكاء الانسان النياندرتالي (Neanderthal) فانه لم يعد يظهر في آخر الطور المستيري (Mousterien) الا في شكل انسان متخلّف، وان غزو رجال جدد قادمين من افريقيا عن طريق ايطاليا واسبانيا سينشر عقلية مختلفة تؤدي إلى ولادة الفن. ويمكن للمرء أن يتساءل عن الاغراء الذي جذب القبائل وجعلهم يتركون أقطار ذات مناخ معتدل بافريقيا للبحث عن مغامرات وسط جهات حوّلتها الدورة الجليدية إلى سهوب، ذلك هو السر الخفيّ لهجرات الشعوب»(*).

وبعرض هذه النظرية والنظرية السابقة المتنوعة المشارب نلاحظ أن هناك تضارباً كبيراً في الآراء والمواقف سببه النقص في المعلومات من ناحية، وتلفيقات المدرسة التاريخية الاستعمارية من ناحية ثانية، وكذلك تلك القناعة التي جعلت من أوربا مركز الأشياء ومصدرها من ناحية ثالثة الأمر الذي نجمت عنه تشويهات في حقول المعرفة التاريخية والاجتماعية، ولكن وبفضل تطور المعارف الانسانية في النصف الثاني من هذا القرن ظهرت دراسات جديدة بدأت تساهم في وضع الأمور في نصابها، وخاصة علاقة أوربا بالمراكز الحضارية الأخرى وفي مقدمتها منطقة الشرق العربي، فهناك اعتراف كامل بين العلماء الآن بأنها أول من عرف الحضارات القديمة في مجال الزراعة وتربية الحيوانات والتعدين وغير ذلك من الانجازات الثقافية الأخرى كالكتابة واختراع الابجديات وكل هذا انتفعت به أوربا ومهّد لما نشأ فيها من مراكز حضارية مهمّة في كل من اليونان وايطاليا.

وبدأ العلماء في أوربا نفسها يميطون اللثام على هذه الحقائق ونكتفي هنا بذكر البحاثة الفرنسي «هيلير دوبار انتون» استاذ اللغات الشرقية والسامية (العربية القديمة) الذي ألّف كتاباً يحمل عنوان «الأيتروسكيون في غرب وفي أصولنا الفرنسية».

والايتروسكيون (Les Etrisques) هؤلاء هم مجموعة ظهرت في ايطاليا قبل الميلاد

بمدة طويلة وكانوا من أرقى المجموعات حضارياً في أوربا ولهم كما يقول البعض «مدنية عريقة لها شبه كبير بالمدنية الفينيقية»[95].

ويرى «هيلير» أن كلمة «الايتروسك» من الأسماء الكنعانية «وانهم نقلوا الينا العناصر الأولى لحضارتنا المادية والأدبية والسياسية والدينية وأنهم حرثوا أرضنا وأسسوا مدننا ونظّموا قواعد لغتنا وزادوا زيادة كبيرة في ثروة معاجمنا ولذلك فاننا نتكلّم بجزء كبير من لغتهم حتى هذا اليوم»[96].

النظرية الثانية:

ظهرت عندما أدركت المدرسة الاستعمارية أن نظرية الأصل الأوربي بات محكوم عليها بالفشل، وأنها محتاجة في ظل تطور الأوضاع وتقدّم العلوم الأثرية والتاريخية والأبحاث اللغوية المقارنة إلى نظرية جديدة تناسب أغراضها، وتكون مرتكزة ـ كما هو في الظاهر ـ على أساس علمي يسهّل ترويجها. فاتّخذت هذه المرة «مقولة الحامية» التي وقع اطلاقها منذ بداية هذا القرن على مجموعة من الشعوب الافريقية وأعلنت أن البربر من أصل «حامي» وأشاعت ذلك على نطاق واسع، وهي وان اعترفت هنا بأن البربر ليسوا من أصل أوربي جنساً ولغة، فإنّ لجوْها إلى النظرية الحامية وبصور مختلفة يعكس رغبتها في اثبات أن البربر لا صلة لهم بالعرب ولا يرتبطون معهم بأيّ أصل.

والنظرية الحامية ـ كما يذكر الباحثون ـ نشأت في ألمانيا استنبطها علماء اللسانيات عندما «كان علماء الانتوغرافيا في أوربا الغربية يؤكدون في بداية القرن العشرين، أن الشعوب الافريقية لا تاريخ لها»[97].

ومن ألمانيا انطلقت هذه النظرية نحو فرنسا وبريطانيا والجهات الأخرى وباعثها «س. ماينهوف» الألماني في كتاب له صدر سنة 1912 وهي تقول بوجود عرق حامي قدم من الجزيرة العربية واستقرّ بالسودان وأماكن أخرى، يتكلّم لغات متباينة ذات سمات مشتركة، اعتبرت أسرة لغوية سماها «س. ماينهوف»[98] وعلماء اللغة من بعده «الحامية».

ولكن علماء اللسانيات الألمان سرعان ما تخلّوا عن هذه النظرية لنقائصها، ولظهور حقائق لغوية ألقت أضواء جديدة على الأعراق البشرية والمجموعات اللغوية الاّ أن علماء المدرسة الفرنسية ظلوا متمسكين بهذه النظرية، ومنهم «م. دولا فوص» الذي وضع في العشرينات (1923) تصنيفاً في اللغات الافريقية، ومنها الحامية التي تشمل في نظره: البربرية والمصرية والكوشية[99] (لغات منتشرة في اثيوبيا والصومال).

وكانت هذه المدرسة لدواع استعمارية تتجاهل ما وقع الكشف عنه من قرابات لغوية بين ما سمي «بالمجموعة اللغوية الحامية والمجموعة اللغوية السامية» وكان الفرنسي «موي A-Meillet» يقول: «من المستحيل ارجاع السامية والبربرية إلى أصل واحد»[100]

وعلّق عالم اللسانيات الألماني «روسلر O. Rossler» على هذا الرأي الرافض لحقائق علمية لغوية ثابتة بقوله: «ونحن مع تقديرنا لهذا الحكم، فان مجرد التفكير في ارجاع السامية والبربرية إلى أصلين مختلفين غير معقول حتّى ولو لم نتمكّن اطلاقاً من البرهنة على انحدارهما من أصل واحد»(101).

والمشكل كما يلاحظ «روسلر» يكمن في عدم مراعاة قرابة البربرية بالسامية «حيث تمّ الاتفاق بكل بساطة على اعتبارها لغة حامية وهكذا أصبح حتّى غير المتخصّصين في البربريات يسقطون أحكامهم المستخلصة من الحامية على اللوبية»(102).

وهكذا تتضح عدم نزاهة المدرسة الاستعمارية في كل ما نشرته حول قضايا كثيرة حيث كانت تصدر في جميع أعمالها عن نوايا سياسية مغرضة، وقد لاحظ ذلك باحثون كثيرون سواء بالطعن في آرائها مباشرة أو بابداء أراء مخالفة لها، ومن بين هؤلاء عالم البربريات الانكليزي «فرانسيس وليام نيومان Francis William Newman» ألذي يرفض اعتبار البربرية حامية و(روسلر) الذي انتقد هذه المدرسة بلهجة لا تخلو من حدة في قوله: «نجد أن هذه المدرسة الفرنسية الكلاسيكية للبربريات والتي اقترن اسمها بروني باسي René Basset تترك عن عمد مسألة القرابات بين الساميات»(103).

واذا كان البحث اللغوي المقارن توصّل إلى وجود أواصر لغوية بين المجموعة المسماة: «بالحامية» والمجموعة المسماة «بالسامية» مما جعل البعض يدمج المجموعتين في مجموعة واحدة أطلق عليها «السامية ـ الحامية» الا أن هذا لم يرق لعالم الساميات «مرسيل كوهين Marcel Cohen»(104). لما في ذلك من ربط بين البربرية والعربية، ورأى أن تقسيم هذه اللغات إلى مجموعتين ثم جعلها في مجموعة واحدة أمر ليس له ما يبرره. فهناك حسب زعمه أربع مجموعات لغوية هي البربرية والمصرية والكوشيه والسامية، وأن ما بينها من مشابهات لغوية يرجع إلى أنها في الأساس متفرعة عن أصل قديم مشترك.

وبهذا جعل مرسيل كوهين «البربرية» مجموعة مستقلة وأنها والسامية فرعان متميزان لا يمكن أن تكون احداهما تابعة للأخرى وأنّ انتماءهما إلى أصل قديم مشترك لا يغيّر من هذه الحقيقة في شيء وبهذه الطريقة العلمية المزعومة تمّ فصل البربرية عن العربية وعزلها عنها، وهو بيت القصيد في توجّهات المدرسة الاستعمارية وما يزال الطائني الاقليمي سليم شاكر يردّد هذه النظرية(105).

والنظرية الحامية لافتقارها إلى أسس علمية ومنها الوحدة اللغوية الداخلية التي لم توجد أبداً، لم تلبث أن انهارت من كل الوجوه، وفقدت كل مبررات وجودها في حقل العلوم التاريخية واللسانية حتى أنّ بعض اللغات سحبت منها (المصرية القديمة) ولكن هذا لم يمنع ظهور نظرية أخرى تختلف عنها. وكانت هذه المرة على يد الاخصائي الامريكي في علم اللغات «ج. هـ. غرينبرغ J. H. Greenberg»(106) الذي أعدّ أشهر التصانيف حتّى الآن في المجموعات اللغوية الافريقية وكان ذلك سنة 1954 وفي سنة

1963 وتسمّى هذه النظرية «الأفرو آسيوية» وهي مشتملة على خمسة فروع متساوية التمييز تقريباً: «البربرية، المصرية القديمة، السامية، الكوشية، التشادية»[107].

وبقطع النظر عن أسس التصنيف وقواعده وعن الاضافات الجديدة مثل «الهوسا» فالنظرية الأفرو آسوية لا تختلف عن سابقتها من حيث نزع صفة «السامية» عن البربرية وعزلها عن العربية.

كما عوملت البربرية، عوملت أيضاً المصرية القديمة واعتبرت هي الأخرى حامية، وعدّت ضمن المجموعة اللغوية الحامية وضمن المجموعة «السامية ـ الحامية». ولكن هذا الادّعاء لم يمض عليه وقت طويل حتى سقط هو الآخر بالرغم من تمسك البعض به حتى الآن[108].

(سنتعرض لهذا في فصل: الهجرات وبداية انطلاقها ـ في الفقرة المتعلقة بالهجرة إلى مصر).

والمهم بالنسبة (للمصرية القديمة) هو أن عدداً من المختصين تفطّنوا إلى طبيعتها السامية، اذ هي كما قال «روسلر» اللغة الحامية الوحيدة التي تمّ الاعتراف بها من عهد قديم من بعض الباحثين على أنها سامية»[109].

النظرية الثالثة:

أشاعها علماء «الانتروبولوجيا» في المقام الأول وعلماء التاريخ في المقام الثاني حيث اعتبر بعضهم البربر من جنس يسمى «جنس البحر الأبيض المتوسط» عرف منذ ما قبل التاريخ بالعيش في جوار هذا البحر، يتميّز ـ في نظرهم بخصائص هيكلية، مثل طول الجمجمة والأسنان، وبقطع النظر عن الجهات الشمالية للبحر المتوسط، فلقد أدرجت تحت هذه المقولة مجموعات عدة:

- منها من تنتمي إلى العصر الحجري الأعلى مثل القفصيين[110].
- منها من تنتمي إلى العصر الحجري الحديث مثل المجموعة التي استقرت في حدود الألف الخامسة قبل الميلاد بتل «العبيد» (بالتصغير) و«أريدو» بجنوب العراق[111] ومثل المجموعة التي وجدت في عهد ما قبل الاسرات بمصر[112] حيث حدّد «فالكنبورجر Falkenburger» نسبة العنصر المنتمي إلى «جنس المتوسط» بـ33٪ ضمن العناصر المكوّنة للشعب المصري في ذلك التاريخ.
- منها من تنتمي إلى فترة التاريخ القديم مثل المجموعة المرموز اليها بحرف (ج)[113] التي ظهرت بالنوبة السفلى وساهمت في أطوار حضارتها في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد (في أواخر الأسرة السادسة الفرعونية).

ومدارس الانتروبولوجيا الاجتماعية والدراسات الفيسيولوجية في ظل اشتداد الهيمنة الاستعمارية لم تسلم من الانحراف والمبالغة، كما يتجلى ذلك في تناقضها وتضارب

آراء أصحابها الذين جنحوا أحياناً إلى المغالاة بحكم «الطبيعة التعسفية للمعايير المستعملة»[114] والتي من شأنها الانزلاق إلى قدر كبير من المماحكاة العلمية»[115] ومن الأمثلة على ذلك فقد صنّف «تومسون Thomson» وراندال ماكيفر Randall Mac Ivre» أصول المصريين القدامى في عهد ما قبل الأسرات (قبل الألف الثالثة قبل الميلاد) حيث قسّما الجماجم موضوع الدراسة إلى مجموعة زنجية ومجموعة غير زنجية ومجموعة ثالثة وسطى بين الأولى والثانية وعلّق «كيث kith» على المعايير التي طبقها الباحثون في تمييز الجماجم بأن هذه المعايير المطبقة في مصر لو طبقت «على الجماجم الانجليزية المعاصرة لتمخضت عن نتيجة فحواها أن العينة تحتوي على ما يقرب من 30٪ من النماذج الزنجية»[116].

ويقول الشيخ «انتاديوب» أثناء تناوله لهذا الموضوع في لهجة لا تخلو من تهكّم «لو أن المعيار طبق على 140 مليون زنجي الذين يعيشون الآن في افريقيا السوداء فسيكون لدينا 100 مليون زنجي على الأقل ممن يظهرون وقد طلوا بالطلاء الأبيض»[117].

ولم يسلم البربر الأوائل من مثل هذا التصنيف. والأبحاث التي أجريت على القبور جعلتهم والقفصيين ينتمون «الى سلالة البحر المتوسط» كما تناول التصنيف البربر في العصر الحاضر وتمخّض عن نماذج متنوعة، منها من له صلة بجنس المتوسط ومنها من له صلة بأجناس آسيا الصغرى، ومنها من له صلة بالجنس الأوربي الشمالي، وهو تصنيف لا يخلو من تعسّف وخلط لا يستند فيه أصحابه إلى قاعدة علمية مكينة[118].

وأمثال هذه الأبحاث الانتروبولوجية مدعاة لاثارة البلبلة وخلق قضايا معقّدة ذات نتائج سلبية وخطيرة في أحوال كثيرة ـ حتّى ان الأوربيين أنفسهم المعتدّين بترابطهم القومي باتوا ـ كما يقول الشيخ انتاديوب ـ «يحرصون على تجنّب بحث مجتمعاتهم وفقاً لفروض مثيرة للخلاف كهذه، ولكنهم يسترسلون دون تفكير في تطبيق مناهج البحث القديمة على المجتمعات غير الأوربية»[119].

ومن هنا يتضح لنا أن مقولة «الجنس المتوسط» مقولة فضفاضة لا تستند على أسس علمية لاطلاقها أحياناً بشكل معمم، ولكونها لا تستوعب عوامل التطور والهجرات المتنوعة في العصور السحيقة التي لا نعرف عنها الا الشيء القليل سواء في الحقل البيولوجي أو المناخي أو في غير ذلك من مجمل التطورات والتبدّلات غير المعروفة. وهذا ما حمل البعض على تجاهل هذه النظرية وعدم اللجوء اليها في التحليل وتقدير بعض المعطيات.

ومقولة «الجنس المتوسطي» حاولت في جانبها الثقافي الاستعماري أن تربط بين شرقي المتوسط وجنوبه بأروبا باعتبارها المصدر والجهة الفعالة ومركز الاستقطاب.

ومن يتصفّح التصانيف الكثيرة في زمن ما قبل التاريخ سيجدها تكثر من استعمال هذه المصطلحات: الشرق الأدنى، آسيا الغربية، آسيا الجنوبية، الغربية، شرق البحر

المتوسط ـ منطقة الهلال الخصيب.

أما الجزيرة العربية أو البلاد العربية، فلا تردان الا لماما وليس هذا من باب الصدفة والأمر العفوي وانما هو شيء متعمد لابعاد كلمة «عربي» وللحيلولة دون اشاعتها في حقول المعرفة والثقافة والابحاث المتنوعة.

الهوامش:

1 ـ أورد هذه القولة محمد الميلي في مقاله: الجزائر والمسألة الثقافية مجلة «**المستقبل العربي**» عدد 45 سنة 1986 ـ بيروت ص 37.

2 ـ الحصري ساطع: **ما هي القومية** ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1959 ص 73.

3 ـ الحصري ساطع: ما هي القومية ـ المصدر نفسه ص 73.

4 ـ د. رئيس حسين: بعض جذور الاشكالية الثقافية حالياً بالمغرب العربي **مجلة شؤون عربية** عدد 70 أغسطس 1983 ـ تونس ص 42.

5 ـ الفاسي علال: **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي** ـ لجنة تراث زعيم التحرير المرحوم علال الفاسي ـ الطبعة الرابعة ـ الرباط 1980 ص 142.

6 ـ مجلة شؤون عربية: المصدر السابق ص 44.

7 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية.. المصدر المذكور سابقاً ص 142.

8 ـ المصدر نفسه ص 143.

9 ـ الميلي محمد: الجزائر والمسألة الثقافية: مدخل تاريخي ـ **مجلة المستقبل العربي** عدد 41 سنة 1982 بيروت ص 59.

10 ـ Charles Robert: Politique coloniales au Maghreb - Paris 1972 p. 114.

11 ـ Revue Tunisienne (l'institut de Carthage) N° 73 Janvier 1909 p. 187.

12 ـ بوقرة هشام ـ **القضية اللغوية في تونس** ـ الشركة التونسية للتوزيع ـ تونس 1985 ص 68.

13 ـ **جريدة الصواب** ـ نظرة في المستقبل ـ عدد 242 ـ 31 مارس 1909 تونس (مشويل أول مدير للتعليم في عهد الحماية).

14 ـ **جريدة الصواب**: أسفي عليك يا أمّ اللغات ـ عدد 231 ـ 1 مارس 1909 تونس.

15 ـ **جريدة الصواب**: حياة جديدة ـ عدد 237 ـ 26 افريل 1959 تونس.

16 ـ د. الحوفي أحمد: **وحدة اللغة والوطن في الشعر الحديث** ـ جامعة الدول العربية ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة 1964 ص 16.

17 ـ الحوفي أحمد ـ وحدة اللغة... المصدر نفسه ص 16.

18 ـ الحوفي أحمد ـ وحدة اللغة... المصدر نفسه ص 16–17.

19 ـ عبد الجليل التميمي: التفكير الديني والتبشير لدى عدد من المسؤولين في الجزائر في القرن التاسع عشر ـ **المجلة التاريخية المغربية عدد 1** جانفي 1974 تونس ص 14.

20 ـ المجلة التاريخية المغربية: المصدر نفسه ص 14.

21 ـ المجلة التاريخية المغربية: المصدر نفسه ص 14.

22 ـ مجلة شؤون عربية: المصدر المذكور سابقاً ص 31.

23 ـ المجلة المغربية: المصدر المذكور سابقاً ص: 18.

24 ـ المجلة المغربية: المصدر نفسه ص: 21.

(*) لمعرفة بعض أدوار حركة التبشير والتمسيح في تونس. انظر:

1 ـ مقال عبد المجيد الشرفي (الحركة التبشيرية في تونس في القرن التاسع عشر بورغاد Bourgade ولافيجري Lavigerie) **حوليات الجامعة التونسية** عدد 8 سنة 1971.

2 ـ مقالة عبد الجليل التميمي: «دور المبشرين في نشر المسيحية في تونس 1830-1881 ـ **المجلة التاريخية المغربية** عدد 3 جانفي 1975.

25 ـ الابراهيمي أحمد طالب: **من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية 1962-1972** ترجمة حنفي بن عيسى ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ بيروت بلا تاريخ ص: 16.

26 ـ مجلة المستقبل العربي، المصدر المذكور سابقاً ص 59.

27 ـ المصدر المذكور سابقاً ص 116 ...Charles Robert Ageron: Politiques Coloniales

27أ ـ المصدر نفسه ص 116 ...Charles Robert: Politiques Coloniales

27ب ـ المصدر نفسه ص 117 ...Charles Robert: Politiques Coloniales

28 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر المذكور سابقاً ص 143.

29 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر نفسه ص 142 وروم لاندو تاريخ المغرب ص 176.

30 ـ Charles Robert Ageron: Les Algeriens musulmans et la France - Tome premier - presse universitaire de France - Paris, 1968 p. 270.

30أ ـ Charles Robert المصدر نفسه ص 270.

31 ـ روم لاندو Rom Landou: **تاريخ المغرب في القرن العشرين** ترجمة نيقولا زيادة دار الثقافة ـ الطبعة الثانية بيروت 1980 ص 103.

32 ـ روم لاندو: تاريخ المغرب... المصدر نفسه ص 104.

33 ـ روم لاندو: تاريخ المغرب... المصدر نفسه ص: 103.

34 ـ المستقبل العربي عدد 45 المصدر المذكور سابقاً ص: 39.

34أ ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية.. المصدر المذكور سابقاً ص 143.

35 ـ Charles Robert ...Politique coloniales المصدر المذكور سابقاً ص 116.

35أ ـ Charles Robert ...Les Algeriens musulmans المصدر المذكور سابقاً ص 273.

36 ـ Charles Robert ...Les Algériens musulmans المصدر نفسه ص: 269.

36أ ـ Charles Robert ...Les Algériens musulmans المصدر نفسه ص: 269.

36ب ـ Charles Robert ...Les Algériens musulmans المصدر نفسه ص: 269.

36ج ـ جوليان شارل اندري ـ **تاريخ افريقيا الشمالية**: تعريب محمد مزالي والبشير بنسلامة ـ الدار التونسية للنشر ـ النشرة الثالثة تونس 1978 ص 56.

37 ـ روم لاندو ـ تاريخ المغرب... المصدر المذكور سابقاً ص: 103.

38 ـ جوليان: تاريخ افريقيا... المصدر المذكور سابقاً ص 66.

39 ـ روم لاندو: تاريخ المغرب... المصدر المذكور سابقاً ص: 103 و104.

40 ـ جوليان: **افريقيا الشمالية تسير** ـ ترجمة المنجي سليم وآخرون ـ الدار التونسية للنشر تونس 1976 ص 169.

41 ـ روم لاندو: تاريخ المغرب... المصدر المذكور سابقاً ص: 178.

42 ـ جوليان: افريقيا الشمالية تسير... المصدر المذكور سابقاً ص 170.

43 ـ جوليان ـ افريقيا الشمالية تسير المصدر ص 170.

44 ـ جوليان ـ افريقيا الشمالية تسير المصدر ص 170.

45 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر المذكور سابقاً ص: 141.

46 ـ روم لاندو: تاريخ المغرب... المصدر المذكور سابقاً ص: 179.

47 ـ روم لاندو: تاريخ المغرب... المصدر نفسه ص: 179 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية ص: 142.

48 ـ روم لاندو: تاريخ المغرب... المصدر المذكور سابقاً ص 176.

49 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر المذكور سابقاً ص 145 أنظر أيضاً روم لاندو: تاريخ المغرب ص 181 وجوليان: افريقيا الشمالية تسير ص: 171.

50 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر نفسه ص: 152.
51 ـ عثمان سعدي: **عروبة الجزائر عبر التاريخ** ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 82 ص 118.
52 ـ عثمان سعدي: عروبة الجزائر المصدر نفسه ص 118.
53 ـ عثمان سعدي: عروبة الجزائر المصدر نفسه ص 118.
54 ـ مجلة المستقبل العربي عدد 45 المصدر المذكور سابقاً ص 38.
55 ـ روم لاندو: تاريخ المغرب... المصدر المذكور سابقاً ص 181.
56 ـ روم لاندو: تاريخ المغرب... المصدر نفسه ص 181.
57 ـ جوليان: افريقيا الشمالية تسير... المصدر المذكور سابقاً ص: 173.
58 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر المذكور سابقا ص: 145
59 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية.. المصدر نفسه ص: 164
60 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر نفسه ص 146
61 ـ روم لاندو: تاريخ الغرب... المصدر المذكور سابقا ص: 142
62 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر المذكور سابقا ص: 142
63 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر نفسه ص: 143.
64 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر نفسه ص 143.
65 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر نفسه ص: 148.
66 ـ مجلة (المستقبل العربي) عدد 41 المصدر المذكور سابقا ص 55
67 ـ جوليان: تاريخ افريقيا... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 67
67أ ـ مجلة المستقبل العربي عدد 41 المصدر المذكور سابقا ص: 56
68 ـ جوليان: تاريخ افريقيا المصدر المذكور سابقا ج 1 ـ ص: 311
69 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر المذكور سابقا ص: 5
70 ـ عروبة الجزائر... المصدر المذكور سابقا ص: 78.
71 ـ مجلد 3 ص 170 :.Ency clopaedia univarsalis. Paris 1981
71أ ـ univarsalis المصدر نفسه ص: 170.
71ب ـ univarsalis المصدر نفسه ص: 170.
71ج ـ univarsalis المصدر نفسه ص: 170.
71د ـ univarsalis المصدر نفسه ص: 170.
72 ـ ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية ج 1 ص: 40 تونس 65.
73 ـ المصدر السابق ص 41.
74 ـ Rinn Louis: les origines Berbères, Etudes linguistiques et Ethnologiques Alger 1889. ص: 282.
75 ـ Rinn ...les origines Berbères المصدر نفسه ص: 286.
76 ـ Rinn ...les origines Berbères المصدر نفسه ص: 286.
77 ـ Rinn ...les origines Berbères المصدر نفسه ص: 291.
78 ـ Rinn ...les origines Berbères المصدر نفسه ص: 214.
79 ـ الكلمات الموالية من المصدر نفسه ص 284، 285. 286. 288. 289.
80 ـ Rinn ...les origines Berbères المصدر نفسه ص: 214.
81 ـ Rinn ...les origines Berbères المصدر نفسه ص: 216-217.

(*) هذه النظرية شائعة ونجد صداها على سبيل المثال في قاموس كيبي الذي ذكر الفلاحين الحضريين مثل قبائل الجزائر على أنهم من الناحية العرقية ينتمون إلى سكان أوربا ـ سيأتي ذكرها هذا المصدر انظر ص 692.
82 ـ الميلي مبارك بن محمد: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث** ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر 1976 ـ ص 83 و84.
83 ـ د. مصطفى كمال عبد العليم: ليبيون واغريق من برقة، الوارد في «**ليبيا في التاريخ**» منشورات الجامعة الليبية

بنغازي 1968 ص 102.

(*) أكّد ماكبرني في اجابة عن سؤال يتعلق بالمستوى الثقافي العالي لليبيين بالمقارنة مع أوربا من «أنّ سكان جنوب شرقي المتوسط الأوائل كانوا متقدمين بشكل بارز في ذلك الوقت» ص 28 من المناقشة التابعة للبحث بعنوان: Libyan Role in Prehistory الوارد في ليبيا في التاريخ.

84 ـ موسوعة تاريخ العالم لوليام لنغر: ج 1 ص 33.

85 ـ محمد سعيد الزاهر: هل البربر عرب؟ وهل لغتهم لغة ضاد أخرى **الزمان** عدد 241 أوت 1934 تونس.

86 ـ محمد سعيد الزاهر: الزمان ـ المصدر نفسه.

87 ـ عثمان الكعاك: **البربر.** سلسلة كتاب البعث تونس 1956 ص 106 و107 و108.

88 ـ هـ. فور: الاطار الزمني للمراحل المطيرية والجمودية بافريقيا. الوارد في «**تاريخ افريقيا العام**» جون افريك ـ اليونسكو ـ تورينو (ايطاليا) 1983 ج 1 ص 400.

89 ـ افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ: الوارد ذكره في «تاريخ افريقيا العام» ج 1 ص 590.

89أ ـ **تاريخ المغرب**: ترجمة الدكتور درقان قرقوط ـ المصدر المذكور سابقاً ص 22.

90 ـ مجلد A. Bota ص 692 .Librairie Aristide Quillet Paris 1968

91 ـ العروي عبد الله: تاريخ المغرب ـ ترجمة الدكتور درقان، المصدر المذكور سابقاً ص 23.

92 ـ العروي عبد الله: تاريخ المغرب. المصدر نفسه ص: 23.

93 ـ العروي عبد الله: تاريخ المغرب ـ المصدر نفسه ص 22 هامش 1.

94 ـ صفر أحمد: **مدينة المغرب العربي في التاريخ** ـ دار النشر بوسلامة تونس 1959 ج 1 ص: 42.

(*) النص الفرنسي وترجمتها أوردهما أحمد صفر في كتابه: مدينة المغرب العربي في التاريخ ص 42، 43 مع تعديل طفيف في الترجمة، وتعذر العثور على المصدر الأصلي للنص.

95 ـ صفر أحمد: مدينة المغرب... المصدر نفسه ص: 263.

96 ـ احسان جعفر: اسم أوربه: الاسطورة واللغة تؤيدان ذلك ـ **مجلة اللسان** عدد 26 الرباط 1986.

97 ـ د. أولد روج: الهجرات والاختلافات السلوكية واللغوية ـ الوارد في «تاريخ افريقيا العام» المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 282.

98 ـ د. أولد روج: تاريخ افريقيا العام.. المصدر نفسه ص 283.

99 ـ انظر دراسة ج. هـ. غرينبرغ J. H. Greenberg: تصنيف لغات إفريقيا الوارد في «تاريخ افريقيا العام» المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 307.

100 ـ Rössler: Der semitisch Charakter der libyschen Sprach, ZA, 50 Leipyig 1952 ص 124 (السمات السامية في اللوبية).

101 ـ Rössler : Z A المصدر نفسه ص 124.

102 ـ Rössler : Z A المصدر نفسه ص 123.

103 ـ Rössler : Z A المصدر نفسه ص 121.

104 ـ انظر دراسته Langues chamito - Sémitiques الموجودة في الكتاب الذي أشرف عليه بمعية A. Meillet والذي عنوانه (Les langues du Mondem Paris 1924. P. 81).

105 ـ انظر مقالته: De quelques constantes du descours dominant sur les langues populaires en Algérie: de la maginalisation à l'exclusion - Annuaire de l'Afrique du Nord - C.N.R.C, Paris 1981.

106 ـ انظر دراسته بعنوان: تصنيف لغات افريقيا ـ الوارد في تاريخ افريقيا العام المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 301.

107 ـ تصنيف لغات افريقيا... المصدر نفسه ص 309.

108 ـ د. عبد المنعم محمد الحسن الكاروري: العنصر السامي في اللغة المصرية القديمة ـ **المجلة العربية للدراسات اللغوية**: مج 2 عدد 2 يونيو 1984 الخرطوم.

109 ـ Rössler : Z A المصدر المذكور سابقاً ص: 124.

110 ـ القول بأن القفصيين من جنس «البحر المتوسط» شائع ومتداول، ومن القائلين به «جيان ديسانج» في

دراسته: البربر الأصليون ـ تاريخ افريقيا العام ج 2 ص 432 ـ والأثري الانكليزي «ماكبري» في دراسته (Libyan Role in Prehistory) الواردة في ليبيا في التاريخ ص 1 و5 ـ الابراهيمي في كتابه: تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر ص 86.

111 ـ سوسة أحمد: **تاريخ حضارة وادي الرافدين** ـ دار الحرية للطباعة بغداد 1983 ج 1 152.

112 ـ الشيخ انتاديوب: أصل المصريين القدامى. الوارد في (تاريخ افريقيا العام) المصدر المذكور سابقاً ج 2 (1985) ص: 39.

113 ـ انظر دراسة د. فوزي فهيم جاد الله ـ مسائل في مصادر التاريخ الليبي قبل هيرودوت ـ الوارد في ليبيا في التاريخ المصدر المذكور سابقاً ص 65.

114 ـ الشيخ انتاديوب: أصل المصريين القدامى ـ الوارد في (تاريخ افريقيا العام) المصدر المذكور سابقاً ج 2 ص: 38.

115 ـ الشيخ انتاديوب: أصل المصريين... المصدر نفسه ص 38.

116 ـ الشيخ انتاديوب: أصل المصريين... المصدر نفسه ص 39.

117 ـ الشيخ انتاديوب: أصل المصريين... المصدر نفسه ص 39.

118 ـ انظر ما أورده جوليان في تاريخ افريقيا الشمالية ـ المصدر المذكور سابقاً ـ ج 1 ص: 68 و69.

119 ـ انظر دراسته السابقة: أصل المصريين... ص 42.

□ □ □

النزعة البربرية ومظاهر أخرى من تحريف التاريخ:

لقد رأينا أنّ «النزعة البربرية» تقوم في جوهرها على التفريق الجنسي بين العرب والبربر، وانها من مبتكرات الاستعمار الفرنسي لضرب وحدة السكان وابتلاع المنطقة، وقام علماؤه ومنظروه بابراز هذه النزعة والتأكيد عليها في كل المجالات وخاصة المؤرخون الذين فسروا كثيراً من أوجه الصراع الذي عرفته منطقة المغرب العربي منذ مجيء الاسلام على أنها مظاهر متنوعة قديمة لهذه النزعة وشكل من أشكال التعبير القومي للبربر.

ويتخذ هؤلاء المؤرخون على اختلاف مشاربهم من «كسيلة» و«الكاهنة» و«حركة الخوارج» ودولة برغواطة وارتداد بعض القبائل مثلاً على هذه النزعة والوعي «بالبربرية» موجّهين الانظار إلى أنّ البربر كانوا رافضين منذ البداية قدوم العرب «الغرباء» وأنهم في ذلك كانوا يصدرون عن دافع جنسي وقومي بيّن، وقد نسجت المدرسة التاريخية الاستعمارية صورة من خلال تفسيراتها وسردها للأحداث ليس للمرء معها الا أن يقتنع فعلاً بأن البربر والعرب مجموعتان متميزتان جنسياً وأن الأحداث والصراعات في القرنين الأول والثاني وحتى الثالث للهجرة كانت تفصح عن هذا التمايز وعن النزوع القومي والروح الاستقلالية للبربر، وترسخت هذه الصورة في القرن الماضي وصارت خلفية مقنّعة بثوب علمي ظهرت تأثيراتها في أعمال ثقافية وفكرية متنوعة المشارب، والمشتغلون عندنا بالتاريخ والعلوم الاجتماعية عامة ما يزالون إلى اليوم يكرعون من هذا العلم الاستعماري الجم، وما يزال أطفالنا وطلبتنا يتغذّون منه بمعلومات محرّفة ومشوّهة.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع من ناحية وتشعباته من ناحية ثانية فانه يمكن الاقتصار على القضايا المشار اليها: كسيلة والكاهنة والخوارج ودولة برغواطه باعتبارها قضايا أساسية وما تزال توظّف من قبل أعداء الانتماء العربي، ولكونها أيضاً من الموضوعات

التي ركّز عليها الاستعماريون بخلق النزعة البربرية وبثها في العقول وحقل المعرفة التاريخية للمنطقة.

وقبل التطرق إلى هذا لابد من الاشارة إلى أمرين هامين:

الأول: ان جماهير عريضة من البربر انحازت إلى جانب العرب منذ بداية الفتح، من ذلك بربر برقة الذين اعلنوا استعدادهم للقبول بالوجود العربي من قبل أن يأتي العرب فقد «أرسلوا إلى عمرو بن العاص قبل أن يخلص من فتح مصر يعرضون عليه الدخول في الاسلام»[1].

والمعروف أن زناتة من أوائل القبائل التي دخلت الاسلام وقد علل قوتيه ذلك بما بينها وبين العرب من تشابه، وهناك جماعات أخرى بالبادية والمناطق الصحراوية، وكذلك مؤازرة الزناتية بتلمسان[2] انحازت هي الأخرى في المراحل الأولى للفتح إلى العرب. وسنرى في الفقرات القادمة ان البربر لم يسعوا أبداً للقضاء على الوجود العربي في حد ذاته، وان قاومت جماعات بعناد غطرسة بعض الولاة وظلمهم واستباحتهم للأموال والنساء.

الثاني: ان المعارك التي دارت طيلة مرحلة الفتح الأولى كانت بين العرب والبيزنطيين ولم يشارك فيها البربر الذين ظلوا يتفرجون على الروم وعلى هزائمهم المتلاحقة.

- فقد غزا عمرو بن العاص في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (22هـ – 642م) برقة وزويلة من فزان وما جاورهما من المناطق، ثم طرابلس وجبال نفوسة[3].
- وغزا عبد الله بن سعد بن ابي سرح في عهد الخليفة عثمان سنة (27هـ – 647م) مناطق جديدة واستولى على أهم معقل للبيزنطيين وهي سُبَيْطَلَة وقتل ملكها «جرجير» فكانت ضربة قاضية للنفوذ الرومي في بلاد المغرب في ذلك التاريخ ولم يعودوا يعتمدون على أنفسهم وانما صاروا يحرضون قادة البربر وينضون تحت لوائهم كآخر أمل يتشبثون به في المنطقة.
- وغزا معاوية بن حديج الكندي أفريقية سنة (45–665م) بأمر من الخليفة معاوية ففتح حضرموت (سوسة) وحصن جلولاء على مقربة من القيروان من الناحية الغربية.
- وغزا عقبة بن نافع الفهري أفريقية سنة (50هـ – 670م) في عهد الخليفة معاوية واختطّ مدينة القيروان التي كانت البداية الحقيقية للاستقرار الدائم.
- وقدم أبو مهاجر دينار سنة (55هـ – 675م) في عهد معاوية أيضاً ففتح جزيرة شريك (الوطن القبلي) ثم توغّل في الداخل، وهو أول من أقدم على ذلك حتى بلغ تلمسان المنطقة التي يتركز فيها نفوذ البيزنطيين، وهناك كما تقول بعض الروايات ـ انهزم «كسيلة» قائد قبيلة أوربه وأسر[4].

ولكن أبا المهاجر لم يتركه أسيراً بل كرّمه وأحسن اليه (ويقال انه أسلم) وظل ملازماً

لأبي المهاجر يحظى بما يحظى به القادة من الاحترام والتبجيل حتى عاد عقبة مرّة ثانية إلى افريقية فتغيّر الحال وكانت البداية المؤلة لأحداث جسيمة.

وموقف أبي المهاجر من «كسيلة» القائد البربري كان نابعاً من وعي بأوضاع المنطقة ومن فهم سياسي لأحداثها وتطوراتها في تلك المرحلة فقد أدرك الموقف الايجابي لجموع البربر من عمليات الفتح منذ عهد عمرو بن العاص حيث تركوا الروم البيزنطيين الغرباء عنهم فعلاً من كل الوجوه يواجهون مصيرهم المحتوم بأنفسهم وبدون أية مساعدة منهم الا من بعض العناصر المتحالفة معهم والتي لا قيمة لها عددياً.

وهذا ما جعل أبا مهاجر يتوخّى سياسة اللين والمودّة ويتحالف مع البربر وما معاملته لكسيلة وصداقته له الا دليل على ذلك ـ ويذكر المالكي أنه «انصرف فنزل بدكرور مدينة البربر بالقرب من موضع القيروان»(5).

ويعلق الدكتور عبد العزيز سالم على هذا التصرّف بأنه قد يكون «نابعاً من رغبة أبي مهاجر في التقرّب إلى البربر والى الاقامة في قرية من قراهم حتى يوهم أنّ قيروانه لا يمثل احتلالاً أجنبياً لبلادهم»(6).

ويقول جوليان: «ويظهر أن أبا المهاجر خلافاً لسلفه فتح مع قواد البربر مفاوضات لكسب مساندتهم ضد البيزنطيين»(7).

ولكن وبكل أسف فان ما حققه أبو المهاجر في مستوى تنظيم العلاقة مع البربر لم يلبث أن بدّده عقبة بن نافع عندما عاد في المرّة الثانية بأسلوبه الذاتي وبدافع النقمة على أبي المهاجر.

وبقدوم عقبة ثانية سنة (62هـ 681م) (64–683م) انتهت مرحلة دامت حوالي 40 سنة ظلت فيها الجموع البربرية في بلاد المغرب من أقصاها إلى أدناها تقف موقف المتفرج، وهو في جوهر التحليل موقف سياسي ان لم يكن فيه انحياز نحو العرب ففيه بكل تأكيد تخل عن البيزنطيين، وأن تخليهم لا ينبغي أن يفهم على انه نتيجة منطقية تجاه البيزنطيين المحتلين فحسب ولكن أيضاً على أنه موقف تجاه القادمين الجدد وما يعلنون عنه من أفكار ودين جديد.

فالبربر لم يكونوا في عزلة تامة عما يجري من انقلابات كبرى في المنطقة الشرقية وهم على علم بما حدث في الجزيرة العربية وما حصل في العراق والشام وفلسطين ومصر حيث قضي على نفوذ أكبر امبراطوريتين: الفارسية والرومية.

ولو كتب لسياسة ابي المهاجر الاستمرار لكان الأمر مختلفاً وفي الاتجاه الايجابي بكل تأكيد بدليل ان حسان بن النعمان الغساني ما أن توخى سياسة مشابهة لسياسة أبي المهاجر حتى ظهر التجاوب من جديد وكذلك الأمر عند ولاية اسماعيل بن عبيد الله حفيد أبي المهاجر في عهد عمر بن عبد العزيز، والمهم هو ان موقف البربر المتفرج لم يقع ابرازه من قبل المؤرخين بل وقع طمسه وتجاهله، وقلّما عثرنا على من أشار إلى هذه

الحقيقة التي لا تروق لأعداء الانتماء العربي، ومن ذكرها من الأجانب فانه يسوقها بشيء من التأفّف وذلك مثل «دونيس بولم» الذي قال: «حتى هذه الساعة كان هذا العمل (يقصد عمل الفتح) يعد إهانة موجهة ضد بيزنطة ولذلك لم يحرك أحد سكان البلاد ساكنا ضدهم (يقصد ضد العرب)»[8].

قضية كسيلة:

وهي من القضايا التي كثر فيها الكلام وتناولها باحثون مختلفون، والغربيون هم الذين فسروها بما يتماشى وتوجهاتهم الاستعمارية فجعلوا من كسيلة بطلاً قومياً بربرياً كافح ضد العرب وتصدّى لغزوهم لأرض المغرب، وشاع هذا التفسير وصار مادة للدراسة، واستغله دعاة الاقليمية والنزعة البربرية فروّجوا له ما استطاعوا في كتاباتهم وأعمالهم الثقافية.

ويبدو أن عثمان سعدي أوّل من سفّه هذا التفسير وأطاح به في دراسته الممتازة «الأصول العربية للبربر»[9] بما قدّمه من تحليل جديد ينسجم في منحاه العام مع حقائق الواقع.

ومهما يكن من أمر فان قضية «كسيلة» ما تزال في حاجة الى المزيد من الدراسة وتسليط الأضواء لازاحة الملابسات الكثيرة التي حفّت بها وللقضاء على تلك القناعات المزيفة التي رسختها المدرسة الاستعمارية في أذهان الكثيرين، ويمكن في هذا السياق ذكر النقاط التالية:

أ ـ في عهد الاحتلال البيزنطي (534م–642م) برزت قيادات بربرية مرموقة قاومت هذا الاحتلال بأشكال مختلفة من أمثال بيداس وكازكزان وانطلاس وذلك طوال القرن السادس حيث ظل التمرّد متواصلاً والغارات التي تقوم بها القبائل مستمرة حتى أن أحدها بلغت أبواب قرطاج سنة 596م[10].

والملاحظ أن كسيلة لم يرد له ذكر في ملف الثائرين وان أوّل مرّة ظهر فيها اسمه كانت مع أبي المهاجر عندما غزا المغرب الأوسط وأسرّه بنواحي عيون تلمسان[11] (56هـ–675م) وهذا يعني أنه لم يكن من طراز القادة السابقين المناضلين ضد المحتل وانه، وان كان قائداً، الا أنه من القادة الموالين للروم الذين ذكرت المصادر القديمة بعض أسمائهم، وقبيلة كسيلة من القبائل البربرية التي اعتنقت المسيحية وكانت تربطها «بالبيزنطيين روابط وثيقة»[12] وأنها كما أورد جوليان: «من حضر قبيلة البرانس المتأثرة بالحضارة اللاتينية والمسيحية»[13].

وارتباط كسيلة بالروم وان كان للعلاقات الدينية والمؤثرات الحضارية الأخرى دور فيه، الاّ انه قائم في الأساس على المنفعة الذاتية واكتساب الحظوة والنفوذ كما تدل على ذلك تطورات الأحداث اللاحقة، فكسيلة ما ان وقع في الأسر حتى غيّر موقفه وقبل

الدخول في العهد الجديد اذ هو يدرك جيّداً أنّ موازين القوى تغيرت وان الروم محكوم عليهم بالانحدار والزوال ولا مفرّ له أمام هذه التطورات الخطيرة من مسايرة الظروف عساه ينجح في الاحتفاظ بمركزه المهدّد بدليل أن بعض الروايات تشكك في اسلامه وتعتبره من قبيل المصانعة والمداراة.

ب ـ كان من الممكن ان يستمر كسيله في موقفه الجديد لو عومل بالطريقة التي عامله بها أبو المهاجر من حيث الابقاء عليه في مركزه مبجلاً ومحترماً، وهو ما سيزيد في انجذاب البربر نحو القيادة الجديدة واطاعتها. ويقال أن أبا المهاجر نجح «بفضل مؤازرة كسيلة له في الاستيلاء على تلمسان»[14].

الا أن عقبة بن نافع ما أن وصل الى القيروان حتى بادر بوضع أبي المهاجر في القيد انتقاماً منه، وتعمّد اذلال كسيلة واهانته بالرّغم من أن أبا المهاجر عرّفه بمكانته.

«وأنه من ملوك البربر ولم يستحكم الاسلام من قلبه»[15] فاستخف عقبة بذلك وأمعن في الاساءة اليه اذ أمر باحضار ذود غنم وَذَبَحَها للعساكر وطلب من «كسيلة ان يسلخ مع السالخين، فقال له: «أصلح الله الأمير، هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني». فنهره عقبة وقال له: «قم»، فقام كسيلة مغضباً، فكان كلّما دحسَ في الشاة مسح يده بلحيته مما علق بيده من بلل ذلك. وجعل العرب يمرّون عليه وهو يسلخ يقولون له: يا بربري ما هذا الذي تصنع؟

فيقول هذا جيّد للشعر، فمر به شيخ من العرب فقال: كلاّ ان البربري ليتوعدكم، فقال أبو المهاجر لعقبة: أصلح الله الأمير. ما هذا الذي صنعت؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألّف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي وعيينه بن حصن، وأنت تجيء الى رجل هو خيار قومه في دار عزّه قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه؟ توثّق من الرجل فاني أخاف فتكه»[16] فتمادي عقبة في استخفافه واستهانته.

ومن الطبيعي أن يثير هذا التصرف السخط في كسيله ويجعله يضمر الانتقام ممن امتهنوه، وفعلاً فقد انتهز الفرصة وانفلت من المعسكر وتراجع في التزاماته «فنكث وقام في أهل بيته وقبائله من البربر»[17].

وأخذ يعدّ العدة للردّ على عقبة والانتقام منه والتقت رغبته برغبة الروم الموتورين وبرغبة الجماعات البربرية الغاضبة من تصرف عقبة معها، وخاصة تلك التي كان يهاجمها على حين غرّة وبدون سابق انذار، يستبيح نساءها وأموالها، فاجتمع لكسيلة جيش كبير من البربر والروم وأخذ يتحيّن الفرصة لعقبة الذي باغته بجهة «تاهودة» في قسم من جنوده عند عودته من غزو السوس بعد أن انفصل عن معظم جيشه الذي واصل السير الى القيروان وقتل عقبة وكذلك أبو المهاجر الذي ظل في قيده طوال تنقلات الجيش في الذهاب والإياب، ولم ينج ممن كان معهما من القتل الا بعض الوجوه التي وقعت في الأسر.

وهنا نلاحظ أن رد فعل كسيلة لم يكن بدافع النعرة القومية كما يزعمون وانما بسبب تصرف عقبة معه، وهو تصرف ليس بعيداً عن الحكمة فحسب وانما هو أيضاً تطغى عليه روح الغطرسة والتنكيل.

ت ـ والذي يؤكد أن ما قام به كسيلة ليس الا رد فعل على اهانة عقبة له تصرفه اللاّحق. فبعد عملية «تهودة» تحوّل بجيشه الكثيف الى القيروان التي تولى أمرها، في غياب عقبة، زهير بن قيس البلوي الذي اضطر هو ومعظم المسلمين الى مغادرتها خوفاً من الفتك بهم، لكن كسيلة زحف على المدينة ولم يقم بأيّ أعمال انتقامية بل أمّن من فيها وظل بها مدة خمس سنوات لم يمسّ خلالها بسوء من بقي من المسلمين عرباً وبربراً الذين عاشوا طيلة هذه الفترة أحراراً في ممارسة شؤونهم ومعتقداتهم.

والجدير بالذكر ان كسيلة لم يقم بأي عمل حربي ولم يلاحق الفارين الى برقة مع أنه كان قادراً على ذلك وفي وسعه الانتقام من العرب الباقين ومن كل الذين دخلوا في دينهم وآزروهم.

يضاف الى هذا ان كسيلة عندما أسّر في «تهوده» بعض الوجوه مثل محمد بن أوس الانصاري ويزيد بن خلف العبسي لم يصبهم بأي أذى بل قبل تدخّل «ابن معاذ» صاحب قفصة الذي افتدى هؤلاء الأسرى وبعث بهم الى زهير في برقة[18] فلو كان كسيلة يتصرف بدافع الانتقام ومقاومة الوجود العربي لفتك بهم وبغيرهم.

ومما هو لافت للنظر أيضاً هو أن كسيلة عندما علم بقدوم زهير واستعداداته الحربية، تخلى عن القيروان وقال لمن معه من «أشراف البربر: ... اني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة فان بها قوماً من المسلمين لهم علينا عهود ونحن نخاف ان أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا، ولكن ننزل على موضع «ممس» وهي على الماء، فانّ عسكرنا خلق عظيم، فان هزمناهم الى طرابلس، قطعنا آثارهم فيكون لنا الغرب الى آخر الدهر وان هزمونا كان الجبل منّا قريبا والشّعْراء فنتحصّن بهما»[19].

وهنا نلمس مرّة أخرى موقف «كسيلة» الذي يتجنّب فيه الاساءة الى المسلمين الموجودين تحت رحمته وسلطته بقطع النظر عن الدوافع الحقيقية لهذا السلوك.

ث ـ لا بد من التساؤل عن الدوافع الحقيقية لتصرفات كسيلة بعد مقتل عقبة حيث حافظ على حياة من أسّرهم في واقعة «تهودة» وأمّن مسلمي القيروان من عرب وبربر، وتخلّى عن هذه المدينة بدون أن يلحق بها أذى والحال أنها مقدمة لبداية الاستقرار الدائم لهذا القادم من الشرق.

ويرى الدكتور عثمان سعدي أن كسيلة «فشل في تصفية الوجود العربي الاسلامي، أمّا لأنه لم يكن مقتنعاً بما يفعل وبأن هدفه كان شخصياً وهو الانتقام من عقبة بن نافع، وامّا لأنه وجد أمامه جماهير غفيرة من البربر اعتنقت الاسلام واندمجت في العرب فعرقلت مساعيه لتصفية وجودهم»[20].

واذا كانت فكرة الفشل قابلة للنقاش اذ ليس لدينا ما يؤكد أنه قام فعلا بمحاولة التصفية وفشل فيها، فان هناك أمرين هامين في كلام عثمان سعدي، أولهما أن الانتقام من عقبة كان هدفاً شخصياً لكسيلة، وهذا واضح.

وثانيهما وجود جماهير غفيرة بربرية اعتنقت الاسلام وباتت ترفض مقاومة العرب وتصفية وجودهم، وهذا أيضاً أمر ثابت ويضاف الى ذلك أن المعركة التي دارت في (ممس) والتي قتل فيها كسيلة اشترك فيها عدد هام من فرسان البربر الى جانب زهير[21].

فهذه المبررات تجعل فكرة الفشل التي تحدّث عنها عثمان سعدي منطقية ومعقولة الاّ أنها ليست السبب الوحيد الذي جعل كسيلة يسلك مسلك اللّين والمهادنة والابتعاد تماماً عن أسلوب المناهضة والتحرّش فالذي حمله على ذلك ـ الى جانب ما تقدّم من الأسباب ـ حرصه على مصالحه الشخصية اذ الأمل ما زال يراوده في مصالحة القوة الجديدة للاحتفاظ بمركزه في ظلّها كما كان الشأن مع البيزنطيين، وحرصه على عدم القيام بأي عمل مناهض للعرب، ما هو الاّ محاولة يريد أن يلفت بها نظر الخلافة، ليفهمها بأنّه لا يكنّ لها العداوة ولا هو مناهض لبسط نفوذها على المنطقة. وهذا لربّما يجعلها تراعي له الصنيع فتبقي عليه وتحفظ له مكانته، ولكن ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه ولا في الامكان بعث أبي المهاجر من جديد فكانت التقديرات كلّها مخيّبة للآمال، وتمشياً مع هذا التحليل فانه يمكن القبول بتلك الرواية التي تحدّثت عن سبب هجوم «كسيلة» على عقبة في تاهوده اذ أنه كان يرغب في تخليص صديقه أبي المهاجر من قبضة عقبة ومن القيد الذي وضعه فيه.

فقد ذكر المالكي ما يلي: «وقيل ان كسيلة انّما أتى ناصراً لأبي المهاجر لأنه كان صديقه فقتل أبو المهاجر في التحام القتال ولم يعلم به»[22].

ج ـ ماذا نستنتج من التحاليل السابقة؟ انها تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك نفي الادعاء القائل بأن كسيلة كان بطلاً وطنياً وأن تصدّيه لعقبة وزحفه على القيروان انما كان بدافع الحمية الوطنية البربرية، وكم كان عثمان سعدي مصيباً في قوله: «مقاومة كسيلة لم تأت انطلاقاً من ايمانه ببربريته ضدّ غزو عربي كما يزعمون، وانما جاءت كردّ فعل شخصي عاطفي»[23].

وهذا ما تؤكده تصرفات كسيلة ومواقفه فقد كان من القادة الموالين للبيزنطيين وظل على ذلك الى أن قدم أبو المهاجر حيث لم ير مانعاً من القبول بموالاة جديدة، ومن كان على هذه الشاكلة لا يمكن أن يكون وطنياً.

ثمّ انه عاد الى تحالفاته ثانية مع البيزنطيين عندما تمكّن من الانفلات من قبضة عقبة. فيذكر المالكي ان الروم المتحصّنين بتاهودة عندما شاهدوا عقبة متّجهاً نحوهم بعثوا «الى كسيلة الأَوْرَبي فأعلموه بقلّة من معه، فجمع له جميعاً كبيراً من الروم والبربر وزحف اليه ليلاً حتى نزل بالقرب منه»[24].

ويقول جوليان: «لكن كسيلة الذي انسلخ عنه في مكان مجهول ووحّد القبائل البربرية مع جيوش الروم حاصره في حدود الصحراء قرب تاهودة على مصب الوادي الأبيض وقتله مع ثلاثمائة من فرسانه»[25].

ويقول أيضاً: «فانهزمت الجيوش البربرية والبيزنطية بعد قتال عنيف قتل فيه كسيلة سنة 686م»[26].

ويتضح من هذا ان الروم قد وجدوا في كسيلة رجلاً مناسباً في مثل تلك الظروف لتحريضه ودفعه ضد العرب حتى انّ «قوتيه» نفسه لم يجد بدّاً من الاقرار بهذه الحقيقة عندما قال: «ان الانتصار على سيدي عقبة كان انتصاراً بيزنطياً في معظمه»[27].

ومن المفارقات المثيرة للسخرية أن الذين يشيدون ببطولة كسيلة وبروحه الوطنية، انما يفعلون ذلك عندما يتعلق الأمر بالعرب فقط أما بالنسبة للروم فانهم يصمتون، يغضّون النظر عن ذلك، ولا ندري كيف يكون المرء وطنياً ولا وطنياً في نفس الوقت، الا اذا كان الاحتلال البيزنطي في نظر هؤلاء لا علاقة له البتة بالكرامة الوطنية.

والأمر هنا لا يتعلّق باجتهادات فردية، منها المصيب، ومنها المخطىء وانما بالدوافع الاستعمارية وبوريثتها النزعة الاقليمية والبربرية لمحاربة الانتماء العربي.

ح ـ تؤكد الوقائع التي وقع استعراضها والتحاليل المتعلقة بها أن عقبة بن نافع هو المسؤول عن تمرد كسيلة وأنه تعمد اذلاله بدافع من الحنق على أبي المهاجر ورغبة في القضاء على ما حققه من مكاسب يكره عقبة أن يكون شاهدا له بالفضل والمعروف أن عقبة عندما بلغ المنطقة الشمالية من الغرب لم ير مانعا من مصالحة «اليان» الرومي حاكم سبتة الذي «أقرّه على بلاده»[28] وقبل منه «هدية عظيمة»[29].

وهنا تظهر جوانب من ذاتية عقبة والأسباب الحقيقية لكثير من تصرفاته، فأي شيء يكون فيه فضل لأبي المهاجر الاّ وعمل عقبة على ازالته ومحو أثره، من ذلك أنه عندما اجتاز المغرب الأوسط متجها الى طنجة نصحه أبو المهاجر بألا يهاجم من أسلموا وكانت منهم «أوربه» البرنسية قبيلة كسيلة قائلا له: ليس بطنجة عدّو لك لأن الناس قد أسلموا وهذا رئيس البلاد ـ يريد كسيلة ـ فابعث معه واليا، فأعرض عن ذلك وتمادى في غزواته»[30].

وخطأ عقبة الفادح ليس في التنكيل بأبي المهاجر ولا في اهانة كسيلة ولا في غزوه لقبائل أعلنت اسلامها وانما في منهجه واسلوب تعامله وما وراءه من أهواء المجد الشخصي، فقد رفض مصالحة البربر وتوخّى سياسة اللين والمودّة ازاءهم، بل ان الامر بلغ به الى حد التخلي عن تلك القاعدة التي عمل بها بعض قادة المسلمين والمتمثلة في اعذار الطرف المقابل وجعله يختار واحدة من ثلاث: الاسلام أو الجزية أو الحرب ومن الطبيعي أن يرفض عقبة أسلوب المصالحة والاعذار طالما أن أبا المهاجر طبقها وكسب بها نجاحا مرموقا على صعيد المنطقة ساعد على عزل الروم من ناحية ومكّن القيادة

العربية من وضع حسن ومن سمعة طيبة من جهة ثانيا، ومن هنا فان عقبة تمشيا مع نوازعه الذاتية، فضّل مسلك القوة واستعمال السيف ولم يعرف عنه أنه جنح في حق البربر الى السلم ما عدا ما ذكر عن بلاد «دكالة» من انه عرض عليها الاسلام فرفضت فقاتلها[31].

وقد أودى ذلك بعدد كبير من أصحابه وكان من الممكن تفادي هذه الخسارة الجسيمة لو تخلى عقبة عن العناد والأسلوب الذاتي وسمي موقع هذه المقتلة «بمقبرة الشهداء» ويقول ابن عذارى عن عقبة «أوغل في المغرب يقتل ويأسر أمة بعد أمة وطائفة بعد طائفة»[32].

ومن اندفاع عقبة غير المحسوب إقدامه على غزو السوس الأدنى والأقصى وما صاحبه من رعب وسفك للدماء فيذكر ابن عذارى أنه «قتل منهم خلقا عظيما وأصاب منهم نساء لم ير الناس في الدنيا مثلهن»[33] وكانت النتيجة أن دفع ثمنا غاليا بما قتل من جنوده وألّب جانبا كبيرا من البربر وجعلهم يعادون العرب ويحقدون عليهم.

وفي عقبة خصال ظلّ كثيرا من المؤرخين يتجاهلونها لما فيها من الاساءة الى شخصه، فهو من الذين تنزع بهم نفوسهم الى اذلال الآخرين والتصرف معهم بشكل لا يخلو من عنصرية. من ذلك:

ـ أنه جدع أذن ملك«ودّان»[34] بعد فتحها وعندما قال له: «لم فعلت هذا بي وقد عاهدتني؟» [35] قال له «فعلت هذا بك أدبا لك، اذا مسست أذنك ذكرته فلم تحارب العرب.»[36].

ـ ما فعله مع ملك «جرمه» عاصمة فزان الذي استجاب هو واتباعه وأطاعوا، ولما خرج هذا الملك لملاقاته، أرسل عقبة خيلا فحالت بينه وبين موكبه فأمشوه راجلا حتى أتى عقبة وقد لَغِبَ وكان ناعما فجعل يبصق الدم. فقال له: لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا؟ فقال: عقبة: أدبا لك اذا ذكرته لم تحارب العرب»[37].

ـ انه قطع اصبع ملك «قصور كوار»[38] بعد فتحها تأديبا له.

والذي يبدو من هذه التصرفات، ومنها ما فعله مع كسيلة، أن عقبة ذو نزعة سادية، ثم ان اهانة الآخرين وربط ذلك بالعرب يعد مسلكا عنصريا ومدعاة لخلق الأحقاد والنزاعات العدائية المضادة.

وهكذا فان عقبة وان كان من المثبتين الأوائل للاسلام في المنطقة فان أسلوبه وغزواته وذاتيته كان البذرة الاولى لغرس الاحقاد ولثورات البربر التي اندلعت في القرن الثاني الهجري.

قضية الكاهنة:

يذكر ابن خلدون أن الكاهنة عاشت 127 سنة منها 35 سنة[39] قضتها رئيسة على

قبيلة جراوة بجبال الأوراس، ويقول أيضا: وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط باغرائها برابرة «تهودة» عليه)[40].

ورغم هذا فالكاهنة كانت مغمورة وان الصورة التي أعطيت لها من كونها ملكة عظيمة واسعة النفوذ يهابها البربر والروم انما كانت لها بعد أفول نجم كسيلة. وكان الروم من غير شك وراء ذلك حيث أصبحوا عاجزين تماما عن صدّ العرب وليس أمامهم الا تأليب البربر وقادتهم، ومن هنا وجدنا عساكر الروم ومجنديهم ضمن جيش كسيلة وكذلك الكاهنة اذ يذكر ابن أبي دينار أن الكاهنة لما علمت بأمر حسان بن النعمان الغساني «قدمت اليه في عسكر عظيم من البربر والروم»[41] والتقت به على «وادي مسكيانه»[42] بشرق القطر الجزائري وهزمته وطاردته (حتى خرج من عمل قابس)[43] واستقرّ به المقام في برقه وكانت أسرت من اصحابه 80 رجلا منهم خالد بن يزيد القيسي. وبهذا النصر ـ وهو ليس بربريا صرفا ـ كسبت لأول مرّة أوسع نفوذ لها.

وصوّر لها تفكيرها البدوي المضاد لروح العمران والتمدن «أن العرب انما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة»[44] فاذا حيل بينهم وبين مرادهم فان ذلك قد يجعلهم يعدلون عن التفكير في القدوم الى هذه البلاد ولذا قالت لقومها: «فلا نرى لكم الا خراب بلاد افريقية كلّها حتى ييأس منها العرب. فلا يكون لهم رجوع اليها الى آخر الدهر»[45] ووجهتهم «الى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدّمون الحصون»[46]. وكانت البلاد «ظلا واحدا من طرابلس الى طنجة قرى متصلة ومدائن عظيمة»[47].

وقد أغضب هذا التصرف البدوي المتخلف أصحاب تلك البساتين والمدائن من روم وبربر وحقدوا عليها، وما ان قدم حسان مرة ثانية حتى هبوا مستغيثين به.

فيقول ابن الرقيق: «فلقيه من النصارى في طريقه ثلاثمائة رجل يستغيثون اليه من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب، ومضى حتى وصل الى قابس؟ فخرج اليه أهلها وكان قبل ذلك يتحصنون من كل أمير مرّ بهم، فاستأمنوا اليه وأدخلوا عامله فأمنهم على مال معلوم فاستطال طريق القيروان فمال الى طريق قفصة. وقصطيلية ونفزاوة وبعثوا اليه يستغيثون من أمر الكاهنة فسرّه ذلك»[48].

وهذا التجاوب مع حسان لا يمكن الا أن يكون أوسع بكثير مما ذكره المؤرخون وكان لذلك أثر في هزيمة الكاهنة التي انتصر عليها حسان وقتلها.

وفي قضية الكاهنة ـ كما في قضية كسيلة من قبل، ملابسات تحف بها يمكن استجلاء بعضها فيما يلي:

أولا: ان الكاهنة مثل كسيلة، تصرفت تصرفا بعيدا عن المعاداة الكاملة للعرب بعد هزيمتها لحسان واخراجه من افريقية وذلك بدليل:

1 ـ عدم المساس بمسلمي البربر وغيرهم وقد اصبحوا كثرة وفي سائر أجزاء بلاد المغرب.

2 ـ أنها لم تتعرض للقيروان بسوء ولم تدخلها وتركتها على حالها وعادت الى جبال أوراس مع ادراكها لأهمية هذه المدينة لا باعتبارها البداية الفعلية للاستقرار الدائم فحسب ولكنها ايضا المنطلق الذي يفيض منه هذا المد الشرقي الزاخر على كامل المنطقة، والأولى أن يُقضي عليها تفاديا لهذا التحول الجديد الذي بدا يلوح في الأفق، وكان من الممكن أن تعاملها بمثل ما عاملت به «باغاية» التي هدّمتها بعد أن اخرجت منها الروم ظنا منها أن حسان يريد أن يتحصّن بها[49].

3 ـ الاحسان للأسرى الذين وقعوا في يدها، واطلاق سراحهم بدون مقابل ويقول ابن عذارى: «وكانت الكاهنة لما اسرّت ثمانين رجلا من أصحاب حسان أحسنت اليهم وأرسلت بهم الى حسان وحبست خالد بن يزيد»[50].

وهذا التصرّف ينبي بتغيير نظرتها للعرب، ويؤكد على أنها تتوقّع عودتهم ويتعين عليها أن تقرأ لذلك الحساب، اذ أن تورطها في قتالهم لم يكن في صالحها وصالح البربر وانما كان في صالح الروم المدحورين وهذا أمر لا طائل ولا جدوى سياسية من ورائه.

ثانيا: تتحدث المصادر المختلفة عن احتفاظ الكاهنة العجوز بخالد بن يزيد القيسي وأبرزت اعجابها بشجاعته ووسامته وكيف أنها نزّلته منزلة ابنيها فآخت بينه وبين ولديها، ففاتحته يوما برغبتها في ذلك قائلة له: «ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع، وأنا أريد أن ارضعك فتكون أخا لولديّ»[51].

وبما أن هذا الامر مثير للدهشة اذ من كان في سنه لا يمكن أن يكون أخا بالرضاع فقالت له الكاهنة: «نحن جماعة البربر لنا رضاع اذا فعلناه نتوارث به»[52].

وعمدت «الى دقيق الشعير فلتته بزيت وجعلته على ثديها ودعت ولديها وقالت: كُلاَ معه على ثديي ففعلا فقالت: قد صرتم اخوة»[53] وقال المالكي: «وذلك عند البربر من أعظم العهد في جاهليتهم اذا فعلوه»[54]. واقدام الكاهنة على هذا التبني وان كان يظهر ميلها الى العرب الا أنه أيضا كان لدواع سياسية، فالكاهنة عندما أحسنت للأسرى وأرسلتهم مكرمين الى حسان أرادت من وراء ذلك أن تكون لها يد على العرب اذ تعلم ان مثل هذا العمل سيقابل بالرضا والاستحسان وتقدير صانعه، وعندما احتفظت بخالد ونزلته منزلة ابنها أرادت أيضا أن تضمن لولديها سندا قد يحتاجانه في مستقبل الأيام خاصة وان خالدا من الوجوه المعتبرة التي تحظى بمكانة مرموقة لدى القيادة الاسلامية، فخالد بحكم هذا التبني صار أخا لولديها وهذا يقضي بحكم الاعراف والمروءه أن يكون له ما لهما وعليه ما عليهما وأن يكون في صفهما دوما وشد أزرهما عند الشدة وهذا من تقاليد البربر والعرب وعاداتهم من قديم.

وبالفعل فعندما عاد حسان لقتالها ثانية قالت لولديها «اني مقتولة»[55] وقالت لخالد: «انما تبنيتك لمثل هذا اليوم أما أنا فمقتولة ولكن أوصيك بأخويك هذين خيرا، تريد ولديها ـ فانطلق بهما الى العرب فأخذ لهما أمنا»[56].

واستقبلها القائد العربي حسان بن النعمان استقبالا حسنا ولم يكتف بذلك بل جعلها من قواد جيشه وعقد لها على لوائين من البربر.

ثالثا: هل الكاهنة بعد احتكاكها بالعرب صارت تميل اليهم؟ هذا ما تفصح عنه المعلومات السابقة وما يؤكده عثمان سعدي: «ان الكاهنة حاربت العرب لانها كانت تجهل عنهم أي شيء، وعندما احتكت بهم من خلال نقاشها للأسرى العرب الذين وقعوا بين يديها... اكتشفت في لغتهم وعاداتهم وطريقة حياتهم تشابها كبيرا بل وتطابقا مع لغتها وعاداتها وطريقة حياة قومها، فاهتز الاصرار على دحر العرب في نفسها»[57]

وما يقوله عثمان سعدي لا يجد مبرراته في تصرفات الكاهنة خلال السنوات الخمس الاخيرة فحسب وانما ايضا في حياة الجماعات البربرية عامة وفي حياة قبائل زناتة خاصة اذ هي قبائل بدوية من أهل الوبر تتشابه فعلا تشابها تاما مع العرب في سلوكهم وطريقة عيشهم ونظامهم الاجتماعي، وزناتة كما سيأتي تقول عن نفسها انها من أصل عربي، فليس من الغريب في شيء أن ينبع من ذلك التشابه تجاوب بين الطرفين، وما اسلام قبائل زناتة في أيام الفتح الاولى الا دليل على ذلك.

ثم ان عقبة بن نافع رغم مسلكه العنيف فانه عندما حاصرته قبائل مصموده بجبال درن نهضت اليه زناتة وفكت حصاره وساهمت معه في حملهم على الطاعة والدخول في الاسلام[58].

فلا غرو والحالة هذه أن نلمس مع عثمان سعدي ميل الكاهنة الزناتية الى العرب. وهو أمر لا يمكن أن يخفيه كبرياؤها الشخصي ونزعتها اليهودية.

رابعا: يستخلص مما تقدم ان الكاهنة التي نالت شهرة لم تعرفها من قبل على أثر هزيمتها لحسان، لم تكن أبدا بطلة وطنية ولا هي في معركتها الأولى والثانية قاومت العرب من أجل الوطن البربري، وأن الذي حرّكها لقتال العرب في البداية أمران:

1 ـ عقيدتها اذ كانت هي وقبيلتها «جراوه» على دين اليهودية ومن الطبيعي ان تدفعها عقيدتها الى مقاومة الدين الجديد وأصحابه خاصة وأنها على علم بما حدث ليهود خيبر الذين وصل بعضهم مهاجرا الى المنطقة في فترة سابقة[59].

2 ـ تحالفها مع الروم حيث أن لكل منهما مصلحة في صد العرب والوقوف في وجوههم.

ومما يدل على أن الكاهنة لم تتصرف مطلقا من منطلق وطني ما فعلته مع ابنيها اللذين وجهتهما الى حسان ليكونا في رعايته. وهذا ما جعل مؤرخاً استعمارياً مثل «قوتيه» يقول: «ان هذا الصنيع طبيعي بالنسبة لقائد بربري يضع سلطان عائلته فوق كل اعتبار»[60] وبقطع النظر على ان هذا التصرف ليس غريبا الّا أن «قوتيه» عندما خصصه بالقائد البربري يكون قد شوّه الحقيقة وتعمّد الطعن.

وذكر ابن الرقيق أن الكاهنة قبل خضوعها للمعركة الثانية قال لها أولادها: «فما الذي تخافين على قومك؟ قالت: اذا أنا مت فلا أبقى الله منهم أحدا على الدنيا»[61].

وقال جوليان في معرض الحديث عنها وعن قومها: «ليس لهم جذور تصلهم بماضي البلاد ولا مصلحة تشدهم الى افريقية القديمة»[62] وهذا اعتراف منه بانعدام الروابط الوطنية البربرية المزعومة لدى الكاهنة وقومها، ومع هذا فلا بد من السؤال عن سبب دخولها في المعركة الثانية والحال أنها متيقنة من هزيمتها وأن البربر وكذلك الروم قد انفضوا من حولها في كثير من الجهات. والسبب يكمن في كبريائها الشخصي اذ أن تخليها عن القتال تراه عارا مشينا لا تقبل به، وان توجيه ابنيها الى حسان لا يقلل من شأنها طالما انها اختارت المواجهة والموت المحتوم اللذين عُدّا في أحوال كثيرة دليلا على علو الهمة التي يرفض صاحبها في أحلك الظروف أي هوان، وتبرز الروايات القديمة الموقف الأخير الحرج للكاهنة، فيذكر المالكي أن خالد بن يزيد أشار عليها بالرحيل فقالت: «وكيف وأنا ملكة من الملوك، والملوك لا تفرّ من الموت فأقلد قومي عارا الى آخر الدهر؟»[63].

قضية المقاومة البربرية:

المراد بها تلك الثورات التي اندلعت ببلاد المغرب في عهد ولاة الدولة الاموية والعباسية والتي امتدت حتى نهاية القرن الثالث عندما سيطر المد الشيعي على المنطقة واسقط الدولة الرسمية في تاهرت والدولة المدرارية في سجلماسة، وقد اعتبر الاستعماريون واعداء الانتماء العربي هذه الثورات دليلا على النزوع القومي لدى البربر وعلى رغبتهم في الاستقلال والتحرر الوطني وانتقوا من الاحداث ما شاء لهم وفسروها وفق هذا التوجه الفرضي. وهذا يدعو الى اعادة النظر وتناول القضية في اطارها التاريخي والواقعي لكي نفهم الدواعي الحقيقية لتلك الثورات هل هي ثورات جنسية قومية كما يزعم اليوم اصحاب النزعة البربرية ومن لفّ لفهم من الاقليميين الانتهازيين، أم هي ثورات لها دواعي اخرى بعيدة على ان تكون موجهة ضد الجنس العربي والوجود العربي في المنطقة.

وبما ان ثورات البربر ضد الخلافة الاموية في دمشق والخلافة العباسية في بغداد اندلعت باسم الخوارج وتحت تأثير آرائهم ودعواتهم فلا بد من التعرف عليهم فمن هم؟ وما هو محتوى تعاليمهم؟ ومتى ظهروا ببلاد المغرب؟ وكيف تعاملوا مع الاحداث؟ وما هي علاقاتهم بالمشرق؟.

الخوارج احدى الفرق الاسلامية الكبيرة افرزتها احداث (الفتنة الكبرى) في صدر الاسلام وظهرت على وجه التحديد اثر واقعة (صفين) التي اوشك فيها معاوية واصحابه على الهزيمة وعند عودة علي بن ابي طالب الى الكوفة خضوعا لارادة التحكيم انفصل عنه نحو حوالي 12 الف من رجاله رفضوا التحكيم وطلبوا منه ان يقر بالكفر ويتوب

عنه[65] ورغم ما بذله معهم من محاولة التوفيق الا انه اضطر الى قتالهم حيث اوقع بهم هزيمة نكراء كادت ان تضع حدا لقصتهم، ومن هنا سموا (بالخوارج) لخروجهم على علي وأصحابه، وبالرغم من الضربة الماحقة التي انزلت بهم فانهم تمكنوا بالعدد القليل من الاستمرار والتزايد والانتشار.

ويعدّ العراق مركزهم الاساسي ومنه انتشروا الى الجهات الاخرى وكانوا في الاول (على رأي واحد)[66] الا ان الخلافات عصفت بهم سنة 64هـ بعد مغادرة مكة ورفض ابن الزبير مسايرتهم[67] فانقسموا الى اربع فرق رئيسية هي:

الازارقة: وهم اتباع نافع بن الازرق الحنفي استولوا على الاهواز وما وراء بلاد فارس وكرمان ولكن انقسامهم وقتل قادتهم قد وضعا حدا نهائيا لنشاطهم وهم أكثر فرق الخوارج شدة وبأسا وتطرفا.

النجدات: وهم اتباع نجده بن عامر الحنفي استقلّ ومن معه باليمامة والبحرين ولم تطل مدتهم فمزقتهم الاهواء وقضى عليهم حربيا.

الصّفرية: بضم الصاد وسكون الفاء وهم حسب كتب الفرق من اتباع زياد الاصفر[68] ومن القدماء من ينسبهم الى عبد الله بن الصفّار[69].

وقيل سموا «بالصفرية» لانهم «قوم انهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم»[70] وهو رأي أكثر المتكلمين. وكانت هذه الفرقة اميل الى المهادنة وانتفاضتها محدودة.

الاباضية:

نسبة الى عبد الله بن اباض المريّ وهو الناطق العلني باسم الحركة والمدافع عنها ضد مناوئيها. أما مؤسسها الحقيقي فهو جابر بن زيد الازدي الذي لم تنسب اليه الحركة حفاظا عليها وعلى سرية فقيهها ومنظم دعوتها. انتشرت اساسا في اليمن وعمان وحضرموت.

وبعد جابر تولى امرها ابو عبيدة مسلم ابن ابي كريمه التميمي وهي لاعتدالها لم تنتفض الا قليلا.

هذه الفرق الخارجية الأربع انقسمت الى فرق عديدة ورغم ذلك فهناك مسائل توحد بينها نحوصلها في هذه النقاط لأهميتها:

1 ـ رأيها الموحد في الخلافة اذ ترى كلها ان هذا المنصب الخطير لا يتبوأه الا من كان جديرا به واصلح بشؤون المسلمين والا ينصب فيه الا باختيارهم دونما اعتبار لاصله وجنسه ولونه.

2 ـ نظرتهم المتقاربة في الكفر والايمان المتشددة والتي تقوم على درجة عالية من النقاوة المثالية في ربط الظاهر بالباطن فاعتبروا الافعال جزءاً من الايمان وعدوا مرتكب الكبيرة وحتى الصغيرة كافرا وتشدد الكثير منهم تجاه غيرهم من المسلمين وعدوهم كفارا[71].

3 ـ اجماعهم على تكفير عثمان وعلي وأصحاب الجمل والحكمين ومن صوبهما ورضي بالتحكيم. وكذلك اجماعهم في الخروج عن السلطان الجائر[72].

والخلاصة ان هذه الفرق الأربع قضي على اثنتين منها تماما وهما الازارقة والنجدات في عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان، اما الصفرية والاباضية فقد اضطرتا في ظل شدة المجابهة الى الانتقال الى بلاد المغرب، والراجح انهما قدمتا اليه في بداية القرن الثاني للهجرة[73] وتزامنتا في ذلك حيث قدم عكرمه مولى ابن عباس الصفري وسلمى بن سعيد الحضرمي الاباضي وحل ركبهما معا بالقيروان التي كانت المركز الاول لانتشار هذه الموجة الجديدة من الفكر الشرقي الخارجي، واتخذ كل من الداعيين سبيله الخاص الى الجماعات البربرية. فاتصل عكرمه[75] بميسرة المطغري وأبي القاسم المكناسي وأبي صالح طريف البرغواطي وعبد الله بن حديج الافريقي واستعان بهم على نشر المذهب الصفري بالمغرب الاقصى وخاصة أجزاءه الجنوبية وكذلك بالمغرب الاوسط وافريقية. واتصل سلمى بن سعيد من جهته بعناصر من طرابلس وجبل نفوسه مما ساعد مذهبه الاباضي على الانتشار في المغرب الادنى والاوسط.

وهكذا انتشر الفكر الخارجي الشرقي ببلاد المغرب وقد وجد مناخا سياسيا واجتماعيا ملائما فيه بسبب النقمة القوية على خلفاء بني امية وعلى ولاتهم وعمالهم. فاعتنق البربر هذا الفكر لبساطته وعدالته وروحه الديمقراطية اذ هو يسوي بين الناس جميعا فكلهم لادم وآدم من تراب ولا فرق بينهم جميعا الا بالتقوى والعمل الصالح واعتبار الامامة حقا لجميع المسلمين يتولاها أيّاً كان باختيارهم حتى ولو كان عبدا حبشيا. والخوارج كلهم يعتبرون خلفاء بني امية وخلفاء بني العباس ايمة جور قد اغتصبوا الخلافة بدون وجه حق، ولذا فلا طاعة لهم ولا بد من قتالهم شرعا واحتسابا لوجه الله.

ولكن الشيء الذي يختلف فيه خوارج المغرب على خوارج المشرق هو ان خوارج المغرب لم يبادروا مثل الشرقيين برفع راية العصيان بل نجدهم تريثوا واظهروا من جانبهم عدم الرغبة في ازعاج الخلافة واحداث الانقسام في صفوف المسلمين[76] فاختاروا وفدا من خيرة قادتهم توجه الى دمشق ولكن الخليفة هشام بن عبد الملك اعرض عن مقابلتهم وسماع شكواهم فعادوا مكسوري الخاطر وبخيبة مريرة، ولم يجدوا بدّاً ازاء اعراض السلطة المركزية من الرد عليها بالثورة.

فكانت الصفرية المبادرة الاولى باعلان هذه الثورة سنة (122هـ ـ 739م) بقيادة ميسرة المطغري الذي بادر بقتل عبد الله المرادي عامل طنجه وقتل اسماعيل بن عبد الله الحبحاب عامل السوس اذ هما من اسوأ العمال الذين ساموا الناس الخسف باستباحة اموالهم وبناتهم، ولكن امر ميسرة لم يطل فانهزم قرب طنجه وثار عليه اصحابه وقتلوه وولوا مكانه خالد بن حميده الزناتي الذي هزم جيش الامويين الذي يرعاه واليهم عبيد الله بن الحبحاب وأباده عن آخره في (واقعة الاشراف) حول وادي الشلف[77] كما انتصر

في معركة «بقدوره»[78] بالقرب من تاهرت انتصارا ساحقا وكان على رأس الجيش الاموي هذه المرة والي القيروان كلثوم بن عياض.

ومما هو جدير بالملاحظة ان الحشود الصفرية تذكرت في هذه المعركة امجادها وابطالها في واقعة (النهروان) فاقتدوا بهم وبخوارج الشرق عامة، فحلقوا رؤوسهم وتعالت اصواتهم بشعارات الخارجية[79] (التحكيم).

وكان لانتصار خوارج الصفرية صداه البعيد لا في بلاد المغرب والاندلس فحسب ولكن ايضا في بلاد المشرق الذي انتعشت فيه حركة الخوارج من جديد فانتفضت الصفرية هناك بقيادة الضحاك[80] وانتفضت الاباضية بقيادة عبد الله بن اباض[81] وعبد الله بن يحيى (طالب الحق)[82]. ولكن الدولة الاموية لم تستسلم وتمكنت من دحر الحشود الصفرية في واقعتي القرم والاصنام بالقرب من القيروان مما فلّ في عضد الصفرية وكسر شوكتها الا انه بالرغم من ذلك انتفضت مرات اخرى[83] وأهمها انتفاضة ورفجومه بزعامة عاصم بن جميل[84] وهي بطن من نفزاوه ومن غلاة الصفرية تمكن زعيمها من توحيد عشائرها حتى صيرها قوة قادرة على الغزو مما مكنها من الاستيلاء على القيروان سنة (138هـ ـ 745م) وعاثت فيها فسادا.

وبهذا التحرك تكون الصفرية مدت نفوذها على المغرب الاقصى منذ واقعة الاشراف ثم افريقية باستيلائها على القيروان ولم يبق خارجا عنها الا المغرب الادنى وجزء من المغرب الاوسط لكنها لم تلبث ان تقهقرت عندما هب اباضية طرابلس بقيادة امامها ابي الخطاب واخرجوا ورفجومه عنوة من القيروان.

وبهذا التقهقر تمحور النفوذ الصفري في منطقتين هما تلمسان وتفلالت. ففي تلمسان تزعم الصفرية ابو قره المغيلي[85] وانتشر نفوذه في شمال المغرب الاقصى والاوسط واتخذ من طنجه في الاول وتلمسان في الثاني قاعدتين له ومن اهم تحركاته مشاركته في الزحف على القيروان تحت قيادة عبد الواحد الهواري الذي انهزم في موقعة الاصنام، وبصفة عامة استقر في تلمسان وتكونت فيها ما يشبه الامارة اذ بويع بالخلافة[86] سنة (148هـ ـ 765م) واهم حدث شارك فيه على اثر هذا مساهمته مع جماعات خارجية اخرى في محاصرة الوالي العباسي عمر بن حفص في «طنجه» سنة (153هـ ـ 770م) الا انه انسحب من هذه المحاصرة مما الحق الخذلان والهزيمة بالاخرين.

وبمجيء والي القيروان الجديد يزيد بن حاتم تمت تصفية الوجود الخارجي الصفري في المغرب الاوسط وفي افريقيا وقد قضى على آخر تحرك لهم في منطقة الزاب سنة (164هـ ـ 780م)[87] قامت به ورفجومه بزعامة أيوب الهواري.

أما المنطقة الثانية فهي اقليم (تافلالت) الصحراوي بجنوب المغرب الاقصى حيث تكونت ما يشبه الدولة سنة (140هـ ـ 757م) اختطت سجلماسه عاصمة لها، تحمل اسم دولة بني مدرار ويسميها ابن خلدون (دولة بني واسول)[88] امامها الاول زنجيا وهو

عيسى بن يزيد الأسود مولى العرب مات مقتولا وجاء بعده المؤسس الحقيقي لهذه الدويلة ابو القاسم سمكوين واسول تلميذ عكرمه، وظلت الامامة محصورة في نسله الى ان سقطت هذه الدولة تحت وطأة الزحف الشيعي سنة (297هـ 909م).

هذا عن الصفرية أما الاباضية فانها عملت بشكل منظم وسري وان كان هذا لم يمنع بعض العناصر من التمرد(89).

وظلت على ما هي عليه الى ان آنست من نفسها القدرة على الثورة وعندها انتخبت وفدا من مختلف الجهات وارسلته الى البصرة مركز القيادة والتوجيه الاصلي لعموم الحركة الاباضية شرقا وغربا للاتصال بابي عبيده مسلم بن ابي كريمه للاستزادة من علمه وتلقي توجيهاته والتشاور معه في ما يجب القيام لاعلان الثورة، وسمي هذا الوفد (بحملة العلم)(90) وهم عبد الرحمان بن رستم الفارسي وعاصم السدراتي واسماعيل بن درار الغدامسي وابو داود القبلي النفزاوي وانضم اليه عبد الاعلى بن السمح المعافري المعروف بأبي الخطاب. وظل هؤلاء الخمسة طيلة خمس سنوات في صحبة ابي عبيدة وعادوا الى المغرب وقد أشار عليهم بمبايعة ابي الخطاب ليتولى امامة الظهور(91) وأن يظلوا على اتصال به.

وفي سنة (140هـ ــ 757م) اعلنت الاباضية ثورتها واستولى ابو الخطاب على طرابلس وأبلغ أبا عبيدة بما حدث وتوسع في ثورته حتى بلغ جربه وقابس، بل امتد نفوذه الى المغرب الادنى وقسما من المغرب الاوسط وهو الذي قاد الحملة ضد ورفجومة الصفرية وأطردها من القيروان وتصدى لجيش الخلافة العباسية القادم من الشرق بقيادة عمر الاحوص وهزمه في سرت في مغمداس(92) وفي معركة ثانية تمكن الجيش العباسي بقيادة محمد الاشعث الخزاعي من دحر الاباضيين (بتاغورا)(93) وقتل أبي الخطاب وتشتيت شملهم في زويله وودان (94) وطرابلس وهو ما أجبرهم على العودة الى العمل المتكتم، وتولى أبو الحاتم الملزوزي سنة (145هـ ــ 762م) ما سمي عند الاباضية (بولاية الدفاع)(95) وتواصل العمل السري حتى سنة (150هـ ــ 767م) حيث تمكن ابو حاتم من الاستيلاء على طرابلس ثم على القيروان.

وواجه كسلفه الجيش العباسي بقيادة يزيد بن حاتم وهزم مقدمته في مغمداس، الا ان جيش يزيد الذي تقهقر الى الوراء لم يلبث ان تكاثف بانضمام عرب افريقية وقبيلة مليلة البربرية(96) وعندما وقعت المعركة مرة ثانية بجبل نفوسة انهزم الاباضيون «وقتل ابو حاتم ومن معه من أهل البصائر»(97) وبهذا ركدت ريحهم ولم نر منهم الا بعض التمردات الضعيفة(98) ولكنهم في النهاية تمكنوا من تأسيس دولة بتاهرت سنة (161هـ ــ 777م).

وكان عبد الرحمان بن رستم الفارسي اول امام لها. وما ان بلغ نبأ تأسيس هذه الدولة الاباضيين الشرقيين حتى هبو ا لاعانتها بالمال والسلاح وكانت اكثر اشعاعا وازدهارا ثقافيا من دويلة بني مدرار.

واستمرت الامامة في آل البيت الرستمي حتى ان الدولة سميت باسمهم فيقال (دولة بني رستم) او (الدولة الرستمية) وسقطت على يد الشيعيين سنة (297هـ ـ 909م).

وهكذا يتضح من هذا العرض الموجز ان ثورات الخوارج بالمغرب ليست الا امتدادا لثوراتهم بالمشرق وأن تسميتها (بالمقاومة البربرية) دونما اعتبار لعلاقات التواصل ولمحتواها ولفكرها الخارجي الشرقي ينم بكل جلاء عن دوافع تحريفية مغرضة لحقائق التاريخ.

وهذا ما سأحاول الكشف عنه في الفصل التالي.

تـعـقـيـب

يتضح مما سبق ذكره أن انتفاضة البربر على أوسع نطاق لم تكن في الحقيقة لأسباب قومية وصراع بين جنسين مختلفين وانما هي رد فعل على تلك المظالم السياسية والاجتماعية التي سلطت عليهم بشدة وزيادة على ما تقدم نضيف النقاط التالية بقصد الزيادة في تسفيه ما يروجه أعداء الانتماء العربي على أصعدة مختلفة:

أولا: ان البربر لم يكونوا من الراغبين في العصيان ولا المبادرين به، وكانوا قابلين للسلطة المركزية وممتثلين لها، يصفهم الطبري بقوله: «فما زالوا من أسمع أهل البلدان وأطوعهم الى زمن هشام بن عبد الملك، أحسن أمة اسلاما وطاعة»[99] وحتى عندما بلغت معاملة العمال لهم حدا لا يطاق فضلوا التريث وعدم الانسياق وراء دعاة الثورة المتصلبين من الخارجية الذين حاججوهم بقولهم:

«انّا لا نخالف الأيمة بما تجنى العمال ولا نحمل ذلك عليهم».

فردّ المتصلبون:

«انما يعمل هؤلاء بأمر أولئك».

فأجابوهم:

«لا نقبل ذلك حتى نبورهم»[100] (نختبرهم).

وفعلا فقد توجه وفد الى دمشق يقوده الشيخ ميسره المطغري المعروف بعلمه وحنكته وحسن الرأي، واختلفوا في عدد أفراد هذا الوفد، فقيل يتركب من «بضعة عشر انسانا»[101] وقيل من «بضعة وعشرين رجلا»[102].

ويذكر الشيخ عبد العزيز الثعالبي ان الوفد يتركب من 17 رجلا منتخبين قصد دمشق في أربعين رجلا[103]. ويتضح من عدد الوفد أهميته وخطورة المهمة التي تكفل بها الا أنه لم يتمكن من مقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك فعرضوا على وزيره «الأبرش» أن يرفع شكواهم الى الخليفة من واليه عبد الله بن الحبحاب ومضمونها كما أوردها الطبري:

«ان أميرنا يغزو بنا وبجنده فاذا أصاب نفلهم دوننا وقال: هم أحق به، فقلنا: هو أخلص بجهادنا... واذا حاصرنا مدينة قالوا: تقدّموا وأخر جنده، فقلنا تقدموا فانه

ازدياد في الجهاد ومثلكم كفى اخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكيفيناهم. ثم انهم عمدوا الى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد، فقلنا: ما أيسر هذا لأمير المؤمنين، فاحتملنا ذلك، وخليناهم وذلك، ثم انهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، فقلنا لم نجد هذا في كتاب الله ولا سنته، ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟»[104].

فوعدهم الأبرش بابلاغ شكواهم ولكن بدون جدوى فانتظروا طويلا حتى نفذت نفقاتهم وعندما قرروا العودة خائبين وشعور المهانة يملأ نفوسهم «كتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها الى الوزراء، وقالوا: هذه اسماؤنا وأنسابنا فان سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه»[105]. وتأكد لديهم مسؤولية الخليفة التامة في السياسة المتبعة من قبل عماله وانه لا بد من خلع طاعته والثورة ضده، وما أن بلغوا أوطانهم حملوا السلاح ودخلت المنطقة في دوامة الانتفاضات الدامية، ولما «بلغ هشاما الخبر وسأل عن النفر فرفعت اليه أسماؤهم فاذا هم الذين جاء الخبر أنهم صنعوا ما صنعوا»[106].

ثانيا: وينسجم مع هذا الموقف، موقف سابق له في الزمن يكشف هو الآخر على أن البربر في توجههم العام لم يكونوا رافضين للسلطة المركزية.

فقد أقدم برابرة القيروان على قتل الوالي يزيد بن أبي مسلم لما بدر منه من صلف وامتهان لكرامتهم، ورأوا أن يكتبوا للخليفة يزيد بذلك مؤكدين ولاءهم له قائلين في رسالتهم: «اننا لم نخلع أيدينا من طاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك» وهو القائد العربي محمد بن يزيد الذي كان غازيا بصقلية فأقرهم الخليفة على ما فعلوه وعبر لهم عن عدم رضاه عن تصرفات واليه.

ثالثا: ان الافكار التي دفعت البربر الى الثورة أفكار شرقية عربية الأصل انتقلت الى بلاد المغرب واعتنقها البربر فكانت من العوامل الايجابية التي زادت في تعميق الارتباط العقائدي والثقافي والروحي بين الطرفين، فقد مثلت الأفكار الخارجية من صفرية واباضية الصياغة النظرية لثورة البربر خلال القرن الثاني للهجرة ومما هو ملفت للنظر في هذا السياق أن الموالي لم يقبل منهم على الفكر الخارجي الا القليل، بينما أقبل عليه البربر بحماس وتغلغل في نفوسهم وظل حيا في بعض مظاهره الى اليوم، وما هذا الاقبال والتجاوب الا بسبب ما بين العرب والبربر من تشابه في الطباع والعادات ونمط الحياة.

رابعا: ومما يؤكد على أن ثوراتهم لم تكن بدوافع قومية كما يزعم الطالبي ومن نهل منهله من المدرسة التاريخية الاستعمارية وانما كانت رد فعل مشروع على «أيمة الجور» وهو ما تكشف عنه شعاراتهم في المعارك التي خاضوها والتي لم يعبروا فيها مطلقا عن شيء مما يسمى المشاعر القومية والوطنية البربرية ولا يوجد ما يدل أبدا على أنهم قصدوا من ثوراتهم القضاء على الوجود العربي لذاته، فكانوا في معاركهم لا ينادون ببربريتهم وانما كان يتشبهون بخوارج الشرق اسوة بهم وبأهل النهروان عامة وكانوا يحلقون رؤوسهم

مثلهم، وفي واقعة «بقدورة» التاريخية التي انهزم فيها الجيش الأموي انهزاما شنيعا، ذكر صاحب كتاب «أخبار مجموعة...» أن البربر قاموا فيها «بحلق الرؤوس اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان وأصحاب الراسبي عبد الله بن وهب وزيد بن حصن»[107].

وقال ابن خلدون أيضا ان البربر «فحصوا عن أوساط رؤوسهم ونادوا بشعار الخارجية»[108] الذي ظهر لأول مرة عند قبول التحكيم، اثر واقعة «صِفين» سنة (38هـ ـ 658م) وظل الخوارج يرددونه في مختلف وقائعهم في الشرق والغرب.

فأين حينئذ البربرية؟ وأين شعاراتها؟ ولماذا لم يتحدث عنها المتقدمون؟ ان المكابرين أعداء الانتماء العربي من استعماريين واقليميين وشبه طائفيين لا تنفع معهم أبدا الحجة وقول الحق، وانما يتعين أيضا دحر توجهاتهم وفضح ما يقومون به من تشويهات وتحريف للحقائق.

خامسا: ان خوارج المغرب الاباضية كانوا على صلة باخوانهم الاباضيين في المشرق وكانوا يستشيرونهم ويحتكمون اليهم ويستفتونهم في مسائل كثيرة سياسية وفقهية. وقد تقدم ان الاباضيين لم يقدموا على ثورتهم الا بعد أن رحل الوفد المسمى «بحملة العلم» الى البصرة للاتصال بعميد المذهب لكل الاباضيين شرقا وغربا أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة لاستزادة من عمله ودراسة أصول المذهب والتشاور معه فيما يجب عمله، وعند العودة طلبوا رأيه فيمن يتولى أمرهم بالمغرب، أيكون منهم أو من غيرهم؟ فأشار عليهم بتولية أبي الخطاب المعافري العربي اليمني الأصل وهذا ما يذكره أبو زكرياء والدرجيني.

«كلموا أبو عبيدة واستشاروه في شأنهم فقالوا: يا شيخنا ان كانت لنا في المغرب قوة ووجدنا من أنفسنا طاقة، أفنولي على أنفسنا رجلا منا أو ما ترى، فقال لهم أبو عبيدة: توجهوا الى بلادكم فان يكن في أهل دعوتكم ما يجب به عليكم التولية في العدد والعدة من الرجال، فولوا على أنفسكم رجلا منكم فان أبى فاقتلوه، فأشار الى أبي الخطاب رضي الله عنه»[109].

ومن المسائل التي عمل فيها المغاربة بنصائح اخوانهم في المشرق، مسألة الخلاف الناشب بين الرفقاء حول قتل الحارث وعبد الجبار فقد أورد أبو زكرياء «أن مسألة الحارث وعبد الجبار اتصلت الى أرض المشرق وكان بينهم اختلاف وفرقة، وفي المغرب أشد من ذلك حتى كتب اليهم أبو عبيدة مسلم وأبو مودود حاجب رحمهما الله يأمران جماعة المسلمين بالكف عن ذكرهما، فأراد أبو عبيدة أن يقطع الخلاف من جماعة المسلمين واماتة ذلك، فقالوا لك ذلك علينا»[110]

كما احتكم أيضا اباضية المغرب الى المشارقة في النزاع الذي جد بين الامام عبد الوهاب وبين يزيد بن فندين المعروف بالنكار الذي رفض امامة عبد الوهاب لعدم اعترافه بجماعة «المشورة» وتوجه رسول لهذا الغرض الى مصر ثم مكة وجاء الردّ كتابيا وكان لصالح الامام عبد الوهاب.

ونجد الامام عبد الوهاب نفسه يتوجه الى «أهل الدعوة بالمشرق»[111] يستفتيهم في فريضة الحج من حيث وجوبها وعدم وجوبها لمن كان في وضعه. «وكان المقدم في ذلك العصر في الفضل والعلم والورع أبو الربيع ابن حبيب وابن عباد»[112] فأجاباه بعدم وجوبها.

وهناك قضية أخرى سياسية، تدخل فيها المشارقة، ذات أهمية لدور العامة فيها: فلقد حدث نزاع مع الامام عبد الوهاب الذي رفض أن يستجيب لأهالي طرابلس الذين رغبوا في أن يولي عليهم خَلَفا حفيد أبي الخطاب.

فاجتمعوا وكاتبوا أبا سفيان محبوب بن الرحيل بالبصرة «وهو انذاك رأس أهل الدعوة والمقدم بعد انقضاء طبقته»[113] فكتب اليهم يخطئهم ويطلب منهم طاعة الامام عبد الوهاب.

ودور اباضية المشرق لا يتمثل فقط في الدعم الفكري والسياسي والتوجيه وتقديم النصيحة وانما أيضا في الدعم المادي، فما ان تأسست الدولة الاباضية في المغرب حتى بادروا باعانتها وشد أزرها فقدموا لها اعانة مالية أولى وثانية، الا ان الثانية وقع ارجاعها للاستغناء عنها ولأنه قد يوجد في المشرق من الاخوان من هو أولى بها، وهو ما يعبر عن التعاضد والرأفة المتبادلة بين أهل العقيدة في الخافقين.

وهكذا نلاحظ التواصل الروحي والثقافي والسياسي بين أهل المغرب والمشرق يجسده المذهب الاباضي في أحسن صورة، ونلاحظ أيضا المكانة المثلى والممتازة التي يحتلها المشارقة لدى اخوتهم واشقائهم بالمغرب، واذا كنا لا نجد نظير هذا في المذهب الخارجي الصفري فذلك راجع الى أن الصفرية في المشرق قضي عليها تماما، واذا وجد تواصل فليس سياسيا ولا مذهبيا وانما من باب الاطلاع واكتساب المعرفة، فقد ظل المشرق على الدوام مقصد المغاربة لهذا الغرض.

سادسا: ومما يفند مزاعم أعداء الانتماء العربي وافتراءاتهم هو أن القادة الذين قاموا بدور التعبئة وتأليب الناس والعمل الحربي وتأسيس الدولة لم يكونوا كلهم بربرا، ففيهم العناصر الأخرى ومنها العنصر العربي.

فأول امام لدولة سجلماسة الصفرية من أصل زنجي وهو عيسى بن يزيد الأسود (من موالي العرب) ويقول ابن خلدون في هذا الموضوع، عن مواطني سجلماسة كانوا «من مكناسة يدينون لأول الاسلام بدين الصفرية من الخوارج لقنوه عن أيمتهم ورؤوسهم من العرب لما لحقوا بالمغرب وانتزوا عن الأصقاع»[114].

أما الاباضية فان أول امام لها كما مر بنا هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المغافري من أصل عربي يمني ومن «حملة العلم الخمسة» في المذهب الاباضي، دامت امامته أربع سنوات وثاني أيمة الاباضية، عبد الرحمان بن رستم، وكانت الدولة الاباضية منذ نشأتها الى سقوطها يتولى رئاستها أيمة من نسل عبد الرحمان وهو من أصل فارسي

وكان للعنصر العربي دور هام في هذه الدولة، فكان السمح حفيد أبي الخطاب وزيرا للامام عبد الوهاب، فطالب برابرة طرابلس وما حولها بأن يكون واليا عليهم، فلبّ الامام رغبتهم، وكان هذا الحفيد يتمتع بمكانة عظيمة لدى عامة الناس، يقول عنه أبو زكرياء: «وقد بلغ في الناس حب السمح غاية عظيمة»[115].

وعندما توفي «بلغ في الناس موته مبلغا عظيما»[116] وكان له ولد يدعى خلفا، أبى العامة الاّ أن يأخذ مكان أبيه في الاشراف على شؤونهم وتسييرها. ويقول أبو زكرياء: «تأبت العامة الا أن يولوه عن أنفسهم فولوه»[117].

ولم يرض بذلك الامام عبد الوهاب خوفا من تجمع الناس حوله الا أنهم أصرّوا على موقفهم وتمادوا فيه حتى جاء ردّ المشارقة بعدم تأييدهم ومطالبتهم الامتثال للامام.

كما بلغ محمد بن عرفة العربي الوالي على تاهرت أعلى المناصب في الدولة الاباضية، فقد سلّم له الامام أبوبكر بن أفلح عبد الوهاب مقاليد الدولة فكان بمثابة الوزير الأول عندنا وأكثر، فلو كانت هناك دوافع من العصبية القومية المزعومة لما كان للعناصر غير البربرية هذه المكانة، ولما حظي العنصر العربي بالذات بهذا النفوذ الشعبي الى درجة أن عامة الناس من البربر في الجبل وطرابلس والمغرب الأدنى عامة رفضوا امامة عبد الوهاب وابنه أفلح من بعده ولم يجدوا حرجا في حمل السلاح معتبرين أن امامهم هو خلف المعافري العربي، وعرفت هذه الحركة الانشقاقية «بالخلفية» وظلوا موالين له ولابنه الطيب من بعده.

ومما يذكر في هذا الصدد أن أبا حاتم المزوزي عندما استولى على القيروان، ولّى عليها عبد العزيز المعافري العربي وهو ما يؤكد تعلق البربر في المغرب الأدنى قادة وشعبا بأبي الخطاب وأحفاده العرب.

سابعا: أثناء الصراع بين خوارج الاباضية والخلافة العباسية لم تر «مليلة» وهي قبيلة بربرية من هواره حرجا في مساعدة الجيش العباسي بقيادة يزيد بن حاتم، وأن أبا حاتم الملزوزي عندما علم بها دعا عليها: «اللهم ذلّ مليلة»[118] لا يقصد من غضبه عليها أنها انحازت الى قوم والى جنس من غير قومها وجنسها وانما لانها انحازت الى الظالمين والكفرة.

كما أن مليلة عندما عزفت على مؤازرة أبي حاتم الملزوزي لم تر في عمله الحربي صراعا قوميا يقف فيه الجنس البربري ضد الجنس العربي وانما كانت ترى فيه صراعا خارجيا له محتواه العقائدي والسياسي يعم المنطقة بأسرها شرقا وغربا وللناس منه مواقف مختلفة بحسب ظروفها وموقعها:

تذكر كتب الاباضية أن رجالا من نفوسة انحازوا هم الآخرون الى الصف العباسي، وكذلك فان جماهير واسعة من البربر تعصبت لهشام بن الشامخ المضري الذي ثار على قائده ابن الأشعث لنزعته اليمنية وتبعه عدد كبير من البربر بلغ حسب تقدير بعض

المصادر 20 ألف رجل[119].

ان هذا وما ذكر في هذه الفقرة وغيرها ماكان ليحدث بهذه الصورة لوكانت هناك نزعة قومية طاغية وشعور قوي بالبربرية التي يتزعمها اعداء الانتماء العربي ويتشدقون بها.

ثامنا: ان دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى المعاصرة للدولتين الخارجيتين في سجلماسه وفي تاهرت قد انبثقت من التفاف الجماهير البربرية حول ادريس بن عبد الله بن الحسن من نجل فاطمة بنت الرسول قدم فارا من الحجاز بعد أن فشلت ثورة ابن أخيه الحسين بن علي ضد العباسيين في مكة، وما ان استقر ادريس بمدينة «وليلي» حتى استجاب البربر لدعوته خلال مدة قصيرة فبايعوه بالامارة عليهم سنة (172هـ 788م).

ومن القبائل التي بادرت بذلك أوربة، ومغيله، وتبعتهم قبائل أخرى من زناته وزوارة وسدراته ونفزاوه ومكناسه وغمارة وغيرهم على مر الايام، ويتحدث ابن عذارى عن التفاف البربر التلقائي فيقول: «اجتمعت القبائل على ادريس بن عبد الله من كل جهة ومكان فأطاعوه وعظّموه وقدموه على أنفسهم وأقاموا معه مغتبطين بطاعته ومتشرفين بخدمته طول حياته وكان رجلا صالحا مالكا لشهواته فاضلا في ذاته مؤثرا للعدل مقبلا على أعمال البرّ»[120].

ولا يمكن أن يفسر اقبال البربر على ادريس وعلي أبي الخطاب وأحفاده من قبله بأنه راجع الى العامل الديني الذي حلّ ــ كما يمكن أن يزعم أعداء الانتماء العربي ــ محلّ العصبية والروح القومية.

تاسعا: نموذج آخر يسفّه دعاة البربرية في هذه المرحلة، ذلك أن رجلا حميرياً يقال له، صالح بن منصور من عرب اليمن الأوائل تمكن من انشاء سلطة سياسية مستقلة على ضفاف المتوسط قرب «مليلة» متخذا من حصن «نكور» قاعدة لها أقامه على ضفة وادي نكور وفي هذا المكان اجتمعت عليه قبائل غماره وصنهاجه وأسلموا على يديه ودخلوا تحت امرته، وظلت سلالته في موقع المسؤولية حتى أوائل القرن الرابع الهجري[121].

وقد تعرضت هذه الأسرة الحميرية الحاكمة الى اضطرابات داخلية وخارجية، الا أن البربر في هذه المنطقة ظلوا عموما متمسكين بها حتى انقرض أمرها، ويكفي أن نذكر للتدليل على ذلك ما يلي:

1 ــ ان صالح بن منصور مؤسس هذه السلطة المستقلة الصغيرة خلعته القبائل لارتدادها عن الاسلام عندما «ثقلت عليهم الشرائع والتكاليف»[122] وولوا مكانه رجلا من نفزة يعرف بـ«الرندي» ثم لم يلبثوا طويلا حتى عادوا الى الاسلام من جديد، فقتلوا الرندي وأرجعوا صالحا الذي ظل أميرا عليهم الى أن مات.

2 ــ عندما قتل العبيديون سعيد بن صالح بن ادريس بن صالح بن منصور عمد

البربر الى مبايعة ابنه المسمى صالحا وذلك سنة (305هـ ـ 915م)[123] ولقبوه باليتيم لصغر سنه.

3 ـ وعند قتل اسماعيل بن عبد الملك أحد أحفاد صالح بن منصور الجد على يد العبيديين أيضا بايع البربر حفيدا آخر هو موسى بن المعتصم.

واقبال البربر في جهات مختلفة على العناصر العربية ووضعها في قمة المسؤولية لم يحصل بهذه الصورة مع أي دخيل على المنطقة حتى الان، الا يدل هذا على شيء عميق الأثر يجعل المرء يتساءل عن دواعيه الحقيقية وعما اذا كان في أغوار التاريخ البعيدة من الأسباب ما يفسر هذه الحالات وما يشابهها، فالمكابرون وأعداء الانتماء العربي هم وحدهم الذين يتجاهلون مثل هذه الحقيقة لانهم منكرون وجاحدون لها.

عاشرا: من الموضوعات الملفتة للنظر أن البربر لم تظهر عندهم النزعة الشعوبية كتلك التي ظهرت عند الفرس، وهي نزعة تقوم على معاداة العرب وكراهيتهم.

وبقطع النظر عن ملابساتها وظروف بروزها، وما للسياسة الأموية والعناصر العربية المتعصبة من دور في ذلك، فانها في العهد العباسي اتخذت شكلا من أشكال الصراع القومي والجنسي وأخذت العناصر الفارسية المثقفة في هذه المرحلة تفصح بحدة غير معهودة عن مواقفها وتطعن بصراحة وأكثر جرأة في العنصر العربي وفي قيمته الذاتية، ولم تكتف بالتأليف في المباهاة بالاصل الفارسي واعتباره متفوقا على الاصل العربي فقط بل ألفت في مثالب العرب وكل ما يحقّر من شأنهم(*).

وذهب بعضهم حتى لاستنقاص والطعن فيا عدّ من مزايا العرب وخصالهم مثل البلاغة والخطابة وحضور البديهة والكرم(*).

ونشأ عن الصراع بين العرب والموالي في المشرق، نشاط ثقافي غزير في الأدب والشعر والتاريخ والعقائد، وظهرت صورة من هذا الصراع وان أقل شأنا في الأندلس لها أقطابها نذكر منهم ابن غرسية[124]. الذي ألف رسالة في الشعوبية يفضل فيها العجم على العرب ويعقد مقارنات عدة منها ما يتعلق بالصفات الخلقية الطبيعية فيفخر ببياض العجم على سمرة العرب، ومنها ما يتعلق بالحياة الاجتماعية اذ «يقابل بين حياة العرب القدامى بين الابل والشاة وحياة الاكاسرة والقياصرة في ظل السيوف والرماح ويعقد مقايسة بين هاجر أم العرب وسيدتها سارة أم العجم... ويذكر أن العجم يمتازون في لباسهم وطعامهم وشرابهم ثم يفخر بامجاد العجم السياسية والحربية والعلمية، وأما محمدا عليه السلام و إن كان عربيا فلا فخر في ذلك للعرب فان التبر من التراب والمسك بعض دم الغزال»[125].

هذه النزعة الشعوبية المريرة لم تظهر عند البربر ولم يعرفوا بها، ولا يمكن أن تعدّ منها تلك الاقوال والأحاديث الموضوعة التي فيها ذم البربر اذ هي قليل جدا لا يعتد بها ومن نوع المشاحنات المألوفة فليست نابعة من ضغائن جنسية وعنصرية قديمة ولا من صراع

قومي طويل كما هو الحال مع الفرس، وكما وجدت أقوال وأحاديث تذمّ البربر وجدت كذلك أقوال وأحاديث تمدحهم وتمجدهم وترفّع من شأنهم.

والعرب كانوا يفرقون بين البربر وغيرهم من سائر العجم، ويعتبرونهم من أكثر المجموعات التي تشبههم، فيقول عنهم موسى بن نصير: «هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وفروسية وسماحة»[126].

أما ابن خلدون فان ما قاله في شأنهم يعد من أعظم الشهادات التي تعرف بقيمة البربر وبأصالتهم وبما لهم من المكارم والخصال الحميدة.

ونجد مواقف كثيرة تعبر عن التوحد بين العرب والبربر وترفض التفرقة بينهما بل وتعتبرهما أخوة من نسب واحد وأصل واحد، ولذا لا نستغرب أن نجد الشاعر العربي ينافح عن هذه الأخوة التي هي ركن منيع في وجه الأعداء المتربصين بها، فيقول في قصيدة[127]:

ألا أيّها الساعي لفرقة بيننا ... توقّف هداك الله سبل الأطايب
فأقسم أنا والبرابر اخوة ... نمانا وهم جدّ كريم المناصب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى ... وفي حومة يسقي غليل المحارب
فنحن وهم ركن منيع واخوة ... على رغم أعداء لئام المعاقب

وقضية اعتبار البربر والعرب من أصل واحد وما قيل عن انتماء عدد هام من القبائل البربرية الى الانساب العربية وقول نسّابيهم بذلك لا نجد له نظيرا عند الشعوب الأخرى، وهو أمر ملفت للنظر لا يعقل أن يكون في عمومه قائما على التزييف والانتحال والادعاء بالباطل.

وعلى كل فان ما قيل من شتائم قليلة في البربر لم يتأثروا لها على صعيد الاحساس العام بدليل أنهم لم يؤلفوا مثل الفرس وموالي آخرين في مثالب العرب، ولم يظهر في بلاد المغرب على المستوى الثقافي والعقائدي صراع من هذا النوع الذي جرى في المشرق بين العرب والموالي، وهناك من مثقفي البربر وعلمائهم لم يتحرج أبدا من امتداح العرب بل وتقديمهم على البربر والفرس معا.

وهذا الدرجيني المتوفي في القرن السابع للهجرة يقول: «قلت وانما قدّم الشيخ رحمه الله ذكر الفرس والبربر تنبيها على فضيلة أيمتنا اذ كانوا من الفرس وفضيلة من انتهى عليه مذهبنا بالمغرب كانوا جلّهم من البربر ولم يقصد بذلك تأخير العرب عن الفضيلة، اذ فضيلة العرب أفضل وشرفهم أقدم فمنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعلى ألسنتهم أنزل القرآن ومنهم كان أسلافنا من الصحابة والتابعين»[128].

الحادي عشر:

النزاعات بين المجموعات البشرية ليست دائما مظهرا للصراع القومي والاّ لكان صراع القيسية واليمنية من أكبر الصراعات القومية ولكانت حرب البسوس التي دامت

أربعين سنة من الحروب المعتبرة ولكانت الباشوية والحسينية في تونس عندنا من العلامات الدالة على تكون قوميات حديثة وخاصة اذا ما جارينا الطالبي[129] في طريقة تحليله(*) ثم ان الصراعات بين البربر أنفسهم، بين البرانس والبتر وبين المستقرين المزارعين وبين الرحل والرعاة، لم نجد أحد اعتبر هذه النزاعات دليلا على الوعي بالذات القومية ان ما يجب النظر اليه هو الانصهار العام بين البربر والعرب واندماجهم في بعضهم وهو أمر لم يتم الاّ مع الفينيقيين من قبل ولم يحدث البتة مع الأوربيين منذ قدوم الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد حتى الفرنسيين في العصر الحديث. وقد اندهش المؤرخون الأوربيون لسرعة اسلام البربر وتعريبهم واندماجهم في العرب واندماج العرب فيهم، فيقول الاستاذ جورج مارسيه G. Marçais[130] «في أقل من قرن واحد اعتنق العدد الأعظم من أبناء أولئك المسيحيين الاسلام في حماس يجعلهم راغبين في اغتنام الشهادة وقد تمت النقلة بصورة نهائية خلال القرنين الأول والثاني للهجرة أو القرون الثلاثة التالية غير تاركة من بلاد المغرب سوى بقع ضئيلة أصبح حتى مجرد الاعتقاد في وجودها أمر مشكوك فيه. بينما كانت معظم البلاد التي انتشر فيها الاسلام تحتفظ بطوائف مسيحية كانت لها مكانة مرموقة في الدولة في بعض الأحيان كالشأن مع سكان جبل لبنان في بلاد الشام والأقباط في مصر والمعاهده المستعربين في الأندلس الذين كانوا يعيشون جميعا جنبا الى جنب مع ساداتهم المسلمين فان وطن سان اوجستين لم يعرف نظيرا لذلك»

ومن نتائج هذا التحوّل الكبير تبرير فضائل عربية الأصل بحكم المصاهرة والنزاعات السياسية والعيش في أحضان القبائل البربرية من مثل «أهالي وادي مزاب في جنوب الجزائر»[131] وغيرهم كثيرون.

والأوربيون رغم اندهاشهم فانهم لا يقدمون تفسيرا لذلك من الناحية التاريخية والثقافية، وغير ذلك من العناصر العريقة التي يمكن أن تجمع البربر والعرب على صعيد واحد.

وقد علّل قوتيه gautier اقبال زناته وهي من أكبر القبائل البربرية على الاسلام بما بينها وبين العرب من تشابه في نمط الحياة دون أن يردّ هذا التشابه الى الأرومة المشتركة في أصول النظام الاجتماعي والثقافي لكل منها.

الثاني عشر:

عرفت بلاد المغرب في تاريخها الاسلامي الطويل دولا كبيرة وأخرى صغيرة أسسها البربر عبر مراحل مختلفة وكان لبعضها دور تاريخي بارز على مستوى المنطقة بكاملها، ولا نعرف أبدا أن واحدة من هذه الدول انشئت على النزعة البربرية أو نادت بها وصدرت عنها في تصرفها السياسي.

وهذه الفكرة سبق للاستاذ محمد سعيد الزاهري أن عبّر عنها كما في قوله: «لم تقم

واحدة على العصبية البربرية بل قامت كلها على دعوات دينية محضة لا أثر للبربرية فيها»[132].

وذكر أيضا أن «الأسر البربرية التي أسست هذه الدول والامارات قد ادّعت لنفسها العروبة وادّعت أن نسبها يتصل بآل البيت فبنوا عبد الواد، وبنو زيّان، وبنو مرين والموحّدون كلهم ادعوا أنهم عرب وأنهم من السلالة الهاشمية أما محمد بن تومرت البربري فلم يكتف بادعاء العروبة وبالانتساب الى آل البيت النبوي الكريم، بل زعم أنه المهدي المنتظر وألفوا كتبا كثيرة في اثبات شرف هذه الأسرة البربرية مثل: قلائد العقيان في شرف بني زيّان»[133].

والملاحظ أن قادة البربر الكبار عوض أن يعلنوا ـ كما هو المظنون ـ بربريتهم نجدهم على العكس، يعلنون ان صحيحا أو باطلا الانتساب الى العرب والانتماء اليهم. ويقال ان ابن تومرت فقيه السوس ومؤسس أكبر دولة بربرية، دولة الموحدين لم يجد غضاضة بعد عودته من الشرق في تبديل اسمه واسم أبيه فصار يسمى «محمد بن عبد الله»[*] تيمنا وتبركا[134].

وعرف ابن تومرت بالمناهضة الحازمة ضد ما يعتقده انحرافا عن الدين وخروجا عن قواعده مما سبب له متاعب كبيرة، ولم يعرف مطلقا أنه عبر ذات مرة عن «العصبية البربرية» أو أظهر ميلا اليها.

والمعروف عن يوسف بن تاشفين عظيم الدولة المرابطية أنه استنكف في الأول من تلقيب نفسه «بأمير المؤمنين» عندما أشار عليه بذلك المقربون وأعيان الدولة قائلا: «حاشا الله أن نتسمى بهذا الاسم انما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة لانهم ملوك الحرمين: مكة والمدينة ـ وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم»[135].

وعندما تلقب بهذا اللقب كان على النحو التالي «أمير المسلمين وناصر الدين» وهو في جوهره وبمفاهيمنا الحديثة الشعار السياسي لمسلك الدولة المرابطية العام.

واذا كان الأمر على هذا النحو فكيف يعقل أن نتصور أن وراء هذا الشعار تكمن النزعة البربرية؟ يضاف الى هذا أن هناك ما يؤكد أن يوسف بن تاشفين[*] لم يقطع الصلة بسلطة الخلافة في بغداد اذ طلب وهو في قمة مجده من الخليفة العباسي المقتدي بالله «الخلع والاعلام والتقلد»[136]. وقد أجابه الى طلبه كما استخدم المرابطون شعار العباسيين وهو السواد في ملابسهم وأعلامهم»[137].

فأين النزعة البربرية في كل هذا؟ ولكن ما الحيلة؟ وهل تنفع هداية مع مكذّب ضال؟

الثالث عشر:

نورد أيضا في هذا السياق ما قاله أبو الفتح المنصور الأمير الصنهاجي عن نفسه وعن أجداده عندما تولى الامارة في القيروان سنة 374هـ (983م)، فقد خطب في

الحاضرين وقال لهم: «انّ أبي وجدّي أخذا الناس بالسيف قهرا وأنا لا آخذهم الاّ بالاحسان. وما أنا في هذا الملك ممن يولي بكتاب الله أو يعزل بكتاب لأني ورثته عن آبائي وأجدادي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير»[138].

فاذا جارينا أدعياء النزعة البربرية الذين لا يرون في الدول البربرية الا تعبيرا عن الروح القومية للبربر، فكيف تستقيم دعوتهم مع ما قاله هذا الأمير، والحال أنه في قمة المسؤولية السياسية التي تفرض عليه المجاراة وعدم معاكسة الميول العامة حتى لا ينفر منه الناس أو تخامرهم أنفسهم بالعصيان وعدم الامتثال. وهذا يوضح فجاجة هذه الآراء وتفاهتها.

وهكذا وفي كل ما تقدم تكذيب لمزاعم الاستعماريين والاقليميين وأعداء الانتماء العربي عامة، وكم كان عثمان سعدي مصيبا عندما قال: «وفكرة النزعة البربرية فكرة دخلت مع الاستعمار الفرنسي، حمل لواءها فلاسفته والمبشرون بأفكاره»[139]

وعندها أخذها المتفرنسون والاقليميون من ذوي المشارب المختلفة وكانت من حيث الاصول الثقافية شكلا من أشكال الاستعمار الثقافي، كما أصبحت لها مضامينها السياسية والطبقية والطائفية في بعض صورها.

الـهـوامـش:

1 ـ مؤنس حسين: **فتح العرب للمغرب ـ** مكتبة الاداب مصر بلا تاريخ ص 54 و55.

2 ـ تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 206.

3 ـ ابن ابي دينار: **المؤسس في أخبار افريقيا وتونس ـ** تحقيق محمد شمام ـ المكتبة العتيقة تونس 1967 ص 67 وابن عذاري: البيان المغرب ج 1 ص: 8.

4 ـ السلاوي ابو العباس احمد خالد الناصري: **الاستقصاء** ج 1 ص 37.

5 ـ المالكي ابو بكر عبد الله: **رياض النفوس ـ** اشرف على نشره حسين مؤنس ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة 1951 ج 1 ص 20.

6 ـ د. السيد عبد العزيز سالم: **المغرب الكبير ـ** دار النهضة العربية بيروت 1981 ج 2 ص: 215.

7 ـ جوليان شارل اندري: **تاريخ افريقيا الشمالية ـ** تعريب محمد مزالي والبشير بنسلامة ـ الدار التونسية للنشر ـ النشرة الثالثة تونس 1978 ج 2 ص: 20.

8 ـ **الحضارات الافريقية**: ترجمة علي شاهين ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت 1974 ص: 44.

9 ـ نشرت هذه الدراسة أولاً في مجلة **«آفاق عربية»** عدد 9 بغداد 1979 ثم طبعت ضمن كتاب: **عروبة الجزائر عبر التاريخ ـ** الصادر في الجزائر 1982.

10 ـ د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ـ المصدر المذكور سابقاً ج 2 ص: 72 والشيخ مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث تقدّم ذكره ص 370.

11 ـ السلاوي: الاستقصاء ـ المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 37.

12 ـ د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير المصدر المذكور سابقاً ج 2 ص: 215.

13 ـ جوليان: تاريخ افريقيا... المصدر المذكور سابقاً ج 2 ص: 21.

14 ـ السلاوي: الاستقصاء ـ المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 29.
15 ـ ابن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب** ـ تحقيق ج. س. كولان والبني بروفنسال. دار الثقافة. الطبعة الثالثة بيروت 1983 ج 1 ص 29.
16 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر نفسه ص 19 والمالكي رياض النفوس ج 1 ص 26.
17 ـ ابن عذارى: البيان المغرب.. المصدر نفسه ج 1 ص 29 والمالكي: رياض النفوس ص: 26.
18 ـ ابن خلدون عبد الرحمان: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**. دار الكتاب اللبناني بيروت 1959 ج 6 ص: 299 وابن عذارى: البيان المغرب ج 1 ص 29.
19 ـ ابن عذارى: البيان المغرب، المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 32.
20 ـ عروبة الجزائر عبر التاريخ: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ 1982 ص 28.
21 ـ المالكي أبو بكر عبد الله: رياض النفوس ـ المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 21.
22 ـ المالكي ابو بكر: رياض النفوس المصدر نفسه ص: 25.
23 ـ سعدي عثمان: عروبة الجزائر... المصدر المذكور سابقاً ص: 28.
24 ـ المالكي أبو بكر: رياض النفوس ـ المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 25.
25 ـ تاريخ افريقيا الشمالية... المصدر المذكور سابقاً ج 2 ص: 22.
26 ـ تاريخ افريقيا الشمالية... المصدر نفسه ص: 24.
27 ـ تاريخ افريقيا الشمالية... المصدر نفسه ص: 21.
28 ـ ابن أبي دينار: المؤنس... المصدر المذكور سابقا ص: 30.
29 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر المذكور سابقا ص: 63.
30 ـ المالكي ابوبكر: رياض النفوس ـ المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 26.
31 ـ ابن عذارى: البيان المغرب.... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 28.
32 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر نفسه ص: 26.
33 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر نفسه ص: 27.
34 ـ تقع في داخل ليبيا جنوب خليج سرت.
35 ـ ابن عبد الحكم: **فتوح افريقية الاندلس**: تحقيق عبد الله أنيس الطباع. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني بيروت 1964 ص: 51.
36 ـ ابن عبد الحكم: فتوح افريقية... المصدر نفسه ص: 51.
37 ـ ابن عبد الحكم: فتوح افريقية... المصدر نفسه ص: 51–52.
38 ـ حصن بفزان.
39 ـ ابن خلدون كتاب العبر.. المصدر المذكور سابقا ج 7 ص: 17.
40 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص 17 و18.
41 ـ ابن أبي دينار: المؤنس... المصدر المذكور سابقا ص: 34.
42 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر المذكر سابقا ج 1 ص 36.
43 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر نفسه ص 36.
44 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر نفسه ص: 36. والرقيق تاريخ افريقية والمغرب ص: 61.
45 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر نفسه ص 36. والرقيق ص: 61.
46 ـ الرقيق القيرواني: **تاريخ افريقية والمغرب**: تحقيق وتقديم المنجي الكعبي الناشر رفيق القسطي ـ تونس 1968 ص: 61. وابن عذارى: البيان المغرب ج 1 ص: 36.
47 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر المذكور سابقا ص 36.
48 ـ الرقيق: تاريخ افريقية... المصدر المذكور سابق ص: 61 و62.
49 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 35 و36.
50 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر نفسه ص: 37.
51 ـ ابن عذارى: البيان المغرب.. المصدر نفسه ص: 37. والرقيق ص: 58. والمالكي ح 1 ص 34.

52 ـ المصادر نفسها وبصفحاتها.
53 ـ ابن عذارى البيان المغرب.. المصدر المذكور سابقا ج 1 ص 37. والرقيق: تاريخ افريقية والمغرب ص: 58 و59.
54 ـ المالكي: رياض النفوس ـ المصدر المذكور سابقا ج 1 ص 34.
55 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 38. والرقيق: تاريخ افريقية والمغرب ص 62.
56 ـ المالكي: رياض النفوس ـ المصدر المذكور سابقا ج 1 ص 35.
57 ـ عروبة الجزائر.. المصدر المذكور سابقا ص: 30.
58 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6، ص: 217.
59 ـ بنعبد الله عبد العزيز: **المعجم التاريخي** ـ نشر مكتبة السلام ومكتبة المعارف ـ الدار البيضاء ـ بلا تاريخ ص: 78.
60 ـ جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية.. المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 26.
61 ـ الرقيق: تاريخ افريقية: المصدر المذكور سابق ص: 62–63.
62 ـ تاريخ افريقيا الشمالية... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص 24.
63 ـ المالكي: رياض النفوس ـ المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 36.

65 ـ المبرد ابو العباس محمد بن يزيد: الكامل علق عليه محمد ابو الفضل ابراهيم ـ مكتبة نهضة مصر ـ بلا تاريخ ج 3 ص: 165.
66 ـ المبرد: الكامل المصدر السابق ج 3 ص: 276.
67 ـ الطبري ابو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الامم والملوك ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار سويدان ـ بيروت بلا تاريخ ج 5 ص: 565 و566.
68 ـ الشهرستاني ابو الفتح محمد بن عبد الكريم: كتاب الملل والنحل ـ تخريج محمد بن فتح الله بدران ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة بلا تاريخ ج 1 ص: 123.
69 ـ الطبري: تاريخ الامم... المصدر المذكور سابقا ج 5 ص: 566.
70 ـ المبرد ـ الكامل... المصدر المذكور سابقا ج 3 ص: 275.
71 ـ احمد امين: فجر الاسلام ـ مكتبة النهضة المصرية ـ طبعة ثانية القاهرة 1961 ص: 262 و263.
72 ـ الاسفرائيني عبد القاهر بن محمد البغدادي ـ الفرق بين الفرق ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. الناشر مكتبة علي صبيح. بلا تاريخ ص: 73 والمسعودي: مروج الذهب ج 3 ص: 167 ـ والرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 46.
73 ـ قال بهذا الدكتور محمود اسماعيل عبد الرزاق في كتابه: الخوارج في بلاد المغرب ص: 47 والدكتور السيد عبد العزيز سالم تاريخ المغرب الكبير ج 2 ص 302.
74 ـ ابو زكرياء يحيى بن ابي بكر: كتاب السيرة واخبار الايمة تحقيق عبد الرحمان ايوب ـ الدار التونسية ـ تونس 1985 ص 42.
75 ـ ذكر الدكتور محمود اسماعيل عبد الرزاق انه من اصل مغربي: الخوارج.. ص 47.
76 ـ الطبري: تاريخ الامم... المصدر السابق ج 4 ص: 254.
77 ـ ابن خلدون عبد الرحمان: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر... دار الكتاب اللبناني بيروت 1959 ج 6 ص: 222.
78 ـ اخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر امرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم لمؤلف مجهول ص 32.
79 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 243.
80 ـ الشهرستاني: الملل والنحل ـ المصدر المذكور سابقا ص 114.
81 ـ الشهرستاني: الملل والنحل: المصدر نفسه ص 121.
82 ـ المسعودي: مروج الذهب ـ المصدر المذكور سابقا ج 3 ص 293.

83 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 223.
84 ـ قال ابن خلدون: (وكبيرهم يومئذ عاصم ابن جميل وكان كاهنا ويدعي النبوة) كتاب العبر... ج 4 ص: 409 انظر ايضا ما قاله عنه ابن الاثير في هذا المعنى: الكامل ج 4 ص: 280.
85 ـ ابن خلدون كتاب العبر... المصدر نفسه. ج 6 ص: 225.
86 ـ د. محمود اسماعيل عبد الرزاق: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري. دار الثقافة ـ طبعة اولى ـ الدار البيضاء 1976 ص: 81 وتاريخ المغرب الكبير ج 2 ص: 358.
87 ـ ابن خلدون: كتاب العبر.. المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 267.
88 ـ ابن عبد الحكم: فتوح افريقية والاندلس ـ تحقيق عبد الله انيس الطباع. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1964 ص: 51 ـ د ـ محمود اسماعيل عبد الرزاق ـ كتاب الخوارج ص: 83 هامش 109.
89 ـ ابو زكرياء يحيى: كتاب السيرة... المصدر المذكور سابقا ص 57.
90 ـ الدرجيني ابو العباس احمد بن سعيد: طبقات المشايخ بالمغرب ـ تحقيق ابراهيم طلاي ـ الجزائر بلا تاريخ ص: 19.
91 ـ البكري ابو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز: المغرب في ذكرى بلاد افريقية والمغرب مكتبة المثنى ـ بغداد بلا تاريخ ج 1 ص: 71.
92 ـ الدرجيني: طبقات.... المصدر المذكور سابقا ص: 94.
93 ـ ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال ـ دار الثقافة الطبعة الثالثة بيروت 1983 ج 1 ص: 29.
94 ـ ابو زكرياء يحيى: كتاب السيرة... المصدر المذكور سابقا ص 78.
95 ـ ابو زكرياء يحيى: كتاب السيرة المصدر نفسه ص: 83.
96 ـ الرقيق القيرواني: تاريخ افريقية والمغرب ـ تحقيق وتقديم المنجي الكعبي ـ الناشر رقيق القسنطيني تونس 1968 ص: 160.
97 ـ ثورة ابن فرياس الهواري بناحية طرابلس: ابن عذارى ج 1 ص: 79 ـ وانتفاضة قبيلة نفزاوة بباجة: الرقيق القيرواني ص: 168 وابن خلدون ج 6 ص: 232 ـ واباضية هواره ـ ابن الاثير الكامل ج 4 ص: 96.
98 ـ ابو زكرياء يحيى: كتاب السيرة... المصدر السابق ص: 88.
99 ـ الطبري تاريخ الامم... المصدر المذكور سابقا ج 4 ص: 254 ـ وابن عذارى: البيان المغرب ج 1 ص: 14.
100 ـ الطبري: تاريخ الأمم... المصدر نفسه ص: 254.
101 ـ الطبري: تاريخ الأمم... المصدر نفسه ص: 254.
102 ـ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب ـ المصدر المذكور ج 2 ص: 303 هامش 1.
103 ـ تاريخ شمال افريقيا جمع وتحقيق الدكتور احمد ميلاد ومحمد ادريس دار المغرب الاسلامي بيروت 1987 ص: 136.
104 ـ الطبري: تاريخ الملوك. المصدر المذكور سابقا ج 4 ص: 254: 255.
105 ـ الطبري: تاريخ الأمم... المصدر نفسه ص: 255.
106 ـ الطبري: تاريخ الأمم... المصدر نفسه ص: 255.
107 ـ اخبار مجموعة: المصدر المذكور سابقا ص 32.
108 ـ ابن خلدون: كتاب العبر.. المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 243.
109 ـ أبو زكرياء يحيى: كتاب السيرة ـ المصدر المذكور سابقا ص: 60 وطبقات الدرجيني ص: 20 و21.
110 ـ ابو زكرياء يحيى: كتاب السيرة.. المصدر نفسه ص: 63 و64.
111 ـ ابو زكرياء يحيى: كتاب السيرة.. المصدر نفسه ص: 116.
112 ـ ابو زكرياء يحيى: كتاب السيرة.. المصدر نفسه ص: 116.

113 ـ ابو زكرياء يحيى: كتاب السيرة.. المصدر نفسه ص: 120.
114 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 267.
115 ـ ابو زكرياء يحيى: كتاب السيرة.. المصدر نفسه ص: 120.
116 ـ ابو زكرياء يحيى: كتاب السيرة.. المصدر نفسه ص: 120.
117 ـ ابو زكرياء يحيى: كتاب السيرة.. المصدر نفسه ص: 120.
118 ـ أبو زكرياء يحيى: كتاب السيرة... المصدر نفسه ص: 83.
119 ـ ابن الاثير: الكامل في التاريخ ـ المصدر المذكور سابقا ج 4 ص: 282.
120 ـ ابن عذارى: البيان المغرب... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 93 و84.
121 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 446.
121 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 439 و440.
123 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 442.
(*) من الذين الفوا في مثالب العرب من الفرس ـ الهيثم بن عدي فقد ألفّ: كتاب المثالب الصغير وكتاب المثالب الكبير وكتاب مثالب ربيعة واسماء بغايا قريش في الجاهلية واسماء من ولدن. ـ عيلان الشعري فقد ألّف: الميدان في المثالب وكتاب المثالب (مثالب قريش وغيرها). ـ أبو عبيده معمر بن المثنى فقد ألف: كتاب لصوص العرب، أدعياء العرب، فضائل الفرس. ـ ابن الكلبي: مثالب العرب. ـ سعيد النختكان: انتصاف العجم من العرب، فضائل العجم على العرب وافتخارها.
(*) سهل بن هارون: وضع رسالة في البخل ويقال ان الفرس اشتهروا بهذه الصفة على عكس العرب الذين اشتهروا بالكرم ولذا عدّ في رسالته الكرم رذيلة والبخل فضيلة.
124 ـ هداره مصطفى: **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري** ـ دار المعارف. القاهرة 1963 ص: 403.
125 ـ من مقدمة رسالة ابن غرسيه ـ انظر هداره مصطفى: اتجاهات الشعر ص: 403.
126 ـ ابن قتيبة: الامامة... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 107.
127 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 187.
128 ـ الدرجيني: طبقات المشايخ... المصدر المذكور سابقا ص: 19
129 ـ انظر دراسة الطالبي بعنوان: المغرب من الفتح الى أواخر الربع الاول من القرن الثاني وبذور الشعور بقوميات محلية ـ المنشور بكتاب «**الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع**» مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية ـ تونس 1979 ص: 205.
(*) والطالب تحدّث في دراسته عن وجود شعور بقوميات محلية في ذلك الوقت الا انه لم يبيّن ما هي هذه القوميات وما هو مضمونها، واذا ما ربطنا هذه الدراسة بالظروف التي كتبت فيها وأخذنا بعين الاعتبار أن صاحبها كان رئيس اللجنة الثقافية القومية للحزب البورقيبي، فاننا ندرك أنها ليست تعبيرا عن النزعة الاقليمية الانفصالية فحسب وانما هي أيضا تدخل في سياق نوع من التبريرات والمقدمات لفكرة القومية التونسية والأمّة التونسية.
130 ـ النص من ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم أخذ من كتابه المغرب الكبير ج 2 ص: 291 وهو نقله من كتاب جورج مارسين.
Les Berberie musulmane er l'orient au Moyen Age, Paris 1946, P 36
131 ـ محمد سعيد الزاهر ـ هل البربر عرب وهل لغتهم لغة ضاد أخرى ـ **الزمان** عدد 241 أوت 1934 تونس 19.
132 ـ هل البربر عرب... مجلة الزمان: المصدر نفسه.
133 ـ هل البربر عرب... الزمان: المصدر نفسه.
(*) لقبت عائلته بالاشراف ويرى عبد المجيد النجار أن «هذا النسب النبوي أمر له من المبررات والمؤيدات اكثر مما عليه من النواقص» ويقول: «وأما انكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم» ويقدم من الآراء ما يراه كفيلا بترجيح انتساب ابن تومرت الى أهل البيت ـ انظر كتابه. المهدي بن تومرت «حول نسبه»
134 ـ السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير.. المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 769 هامش:

135 ـ **كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية لمؤلف مجهول اندلسي من أهل القرن الثامن الهجري** ـ تحقيق الدكتور سهيل زكار ـ والاستاذ عبد القادر زمامه، دار الرشاد الحديثة ـ الدار البيضاء 1979 ص: 39.

(*) من قبيلة لمتونه الصنهاجية يقول عنها صاحب الحلل ليس بينها «وبين البربر نسب الا الرحم» (ص 17) وان صنهاجه من حمير قدمت من اليمن واستوطنت الصحراء وان أفرادها «تبربرت ألسنتهم بمجاورتهم البربر وكونهم معهم ولمصاهرتهم اياهم» (ص 19) وابن تاشفين «هو يوسف بن تاشفين بن ابراهيم.. بن ونمالي الصنهاجي الحميري» (ص 24).

136 ـ السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير.. المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 717.

137 ـ السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير.. المصدر نفسه ص: 717.

138 ـ ابن عذارى: البيان المغرب.. المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 241.

139 ـ عروبة الجزائر... المصدر المذكور سابقا ص: 32.

□ □ □

قضية الديانة البرغواطية
ومزاعم القومية البربرية

من الموضوعات التي استغلها الاقليميون وأعداء الانتماء العربي عامة، موضوع البرغواطية، سواء باعتبارها دولة أو باعتبارها دينا.

فلقد كانت في نظرهم مثلا ساطعا على الاتجاه البربري والروح البربرية وما يعبران عنه من ذاتية ونزوع الى الاستقلال ولا يسعنا الا مواجهة هذا الشكل الفض من التشويه الاقليمي للتاريخ، وذلك بتناول هذه القضية من حيث مكوناتها والملابسات التي حفت بها.

فذكر ابن حوقل والبكري خاصة أن قبيلة برغواطية انتحلت لنفسها دينا جديدا في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري وكانت هذه القبيلة من مصموده[1] تنتشر في ذلك العهد «في بسائط تامسنا»[2] مما يلي المحيط الأطلسي من «سلا» شمالا الى «أسفي» جنوبا وعمل كبيرها طريف أبو صالح سنة (122هـ ـ 739م) على ارساء دولة مستقلة. وبما أن الاجل لم يطل به فتولى الامر من بعده ابنه صالح (122هـ ـ128م /739، 745م) فكان المؤسس الحقيقي لهذه الدولة.

ولصالح تنسب النحلة البرغواطية فيقال انه «انسلخ من آيات الله وانتحل دعوة النبوة وشرع لهم الديانة البرغواطية التي كانوا عليها من بعده»[3] وان الوحي كان يأتيه وقرآنا نزل عليه باللغة البربرية مؤلفا من ثمانين سورة، قسم منها بأسماء الأنبياء وأشخاص معروفين وقسم بأسماء الحيوانات، فهناك على سبيل المثال: سورة آدم، وسورة نوح، وسورة موسى، وسورة أيوب وسورة يوسف وسورة فرعون، وسورة هاروت وماروت، وسورة نمرود.... وسورة الجمل وسورة الديك، وسورة الحجل، وسورة الجراد وسورة غرائب الدنيا ذات العلم العظيم[4].

والنحلة البرغواطية كما تصورها الروايات ـ تقر بالانبياء السابقين وتعد صالحا منهم،

فهو من الذين ورد ذكرهم في القرآن اذ هو النبي المقصود في الاية «وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير»[5]

وقد أرسل الى قومه بلسانهم على غرار النبي العربي ومصداقا للآية «وما أرسلنا من رسول الا بلسانه»[6] وتنسب اليه تشريعات متنوعة في مجال العبادات والمعاملات:

في مجال العبادات:

ـ فرض خمس صلوات في النهار، وخمس صلوات في الليل بعضها على كيفية صلاة المسلمين وبعضها بكيفيات أخرى، وعند الاحرام يقول المصلي: «اسمن ياكش» أي باسم الله و«مقر ياكش» أي الكبير الله، وأشياء أخرى مختلفة في خاتمة الصلاة.

ـ الطهارة ولها كيفياتها الخاصة، فالمصلي يبدأ بغسل السرّة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة وغير ذلك.

ـ الغاء الاذان والاقامة وتعرف الأوقات «بزفاء الديوك»

ـ صلاة الجماعة تكون في الخميس بدل الجمعة.

ـ الصوم في رجب لا في رمضان.

ـ التضحية في اليوم الحادي عشر من محرّم.

ـ تحريم أكل بعض الحيوانات: فلا يؤكل رأس الديك، ورؤوس الحيوانات ولا يؤكل الحوت الا بعد أي يذكّى، والبيض حرام، والدجاجة مكروهة الا عند الاضطرار.

في مجالات المعاملات والاحوال الشخصية:

يؤخذ العشر من الزكاة، ويقتل السارق وينفى الكاذب ويسمى «امغير» والدّية مائة من البقر.

ـ يباح للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء، ولا يتزوج من بنات العم الا بعد ثلاثة جدود، وله أن يطلق ويراجع متى شاء، ويحرم على الاتباع التسري والزواج من المسلمات وعدم تزويجهم.

وصالح لم يعلن في الناس نبوئته وقرآنه وتشريعاته، وانما ظل متكتما ولم يفض بشيء من ذلك الا لابنه الياس الذي أوصاه بالا يظهره الا اذا قوي أمره، أما هو فقد رحل الى الشرق ـ كما تقول الروايات ـ وأخبر انه سيعود في دولة السابع من ملوكهم وأنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه وأنه يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وان اسمه في العرب صالح وفي السرياني مالك وفي الاعجمي عالم وفي العبراني وربّيا وفي البربري ورْياوري أي الذي ليس بعده نبي.

وتولّى الياس الحكم سنة (128هـ ـ 745م) وظلّ فيه ما يقارب نصف قرن، وخلال هذه المدة كان يظهر الاسلام ويخفي ـ حسب الروايات ـ ما أوصاه به أبوه «خوفا وتقية»[7].

وتولى بعده ابنه يونس حوالي (176هـ–792م) فأفضى اليه أبوه الياس بالعقيدة الجديدة وأوصاه بقتال من يخالف دعوته وفعلاً فان يونس الملك الرابع قد تهيأت له ظروف أحسن وامكانيات لم تكن متوفرة من قبل اضافة إلى خبرته ومراسه، بادر بالاعلان عن هذه العقيدة وقام بأعمال حربية عنيفة في سبيل فرضها وحمل الناس على اتباعها[8].

وتعاقب على الدولة رجال آخرون من العائلة نفسها حملوا هذه العقيدة وكانت لهم وقائع مشهودة[*] وعمّرت الدولة البرغواطية ما يزيد عن أربعة قرون، وقد وجّه اليها المرابطون ضربة قاسية حوالي منتصف القرن الخامس الهجري وقضى عليها الموحدون بالكامل[9] في القرن السادس الهجري.

هذه هي النحلة البرغواطية في جملتها تلقّفها الاقليميون والانفصاليون وأعداء الانتماء العربي واعتبروها انبعاثاً جديداً لاستقلالية البربر ومظهراً طريفاً لنهوضهم القومي ووعيهم الوطني وأشادوا بذلك أيّما اشادة وهذا ما يقوله الطالبي في شأنها:

«ان الشعور بالذاتية، والعمل عن وعي كامل لتصفية التأثير العربي بل الأسمي أيضاً، قد بلغ ذروته في الدولة التي أنشأها طريف بالمغرب الأقصى»[10]. ويذكر أنّ عوامل عملت «على سبك قومية محلية كانت دعامة الدولة طوال أربعة قرون»[11].

ويقول ان ما قامت به الأسر الحاكمة كان «خطوة جديدة حاسمة في طريق تدعيم القومية البربرية... فلقد ألغى الأمير الرابع يونس... الاسلام ومنح أهل مملكته نبيّاً بربرياً منهم ـ زعم أنّ جدّه صالح ـ وقرآنا في لغتهم وديناً خاصاً بهم»[12].

وأنّ بربر تامسنا يكونون بهذا قد «تخلّصوا من مركبّاتهم ووضعوا أنفسهم في مقدمة البشرية وغسلوا أيديهم من كلّ تبعية»[13].

والطالبي المغدق لهذا الكلام نسي أن يتساءل حول هذه العقيدة وما قيل في شأنها، هل هي صحيحة؟ وثابتة تاريخياً؟ ألا يجوز أن تكون مجرد تهمة ملفّقة والحال أنّ الدولة البرغواطية عاشت في جوّ عدائي شديد متّصل من كل القوى والمذاهب والاديولوجيات المخالفة لها التي لم تدّخر جهداً في التشنيع بها والطعن عليها. لم يفعل الطالبي شيئاً من هذا شأنه شأن أولئك الذين لا تهمهم الحقيقة بقدر ما تهمهم المقاصد السياسية الاقليمية التي يخدمونها.

ونجد في هذا السياق عدداً من الباحثين يسلمون هم أيضاً بصحة العقيدة البرغواطية، ولهذا انصرفوا إلى البحث في أصولها ومدى تأثّرها بالعقائد الأخرى و إلى استغلالها في المستوى السياسي لضرب الانتماء العربي والوحدة، ولم نجد من رفض

التسليم بصحة ما نسب إلى برغواطه الا الدكتور سعد زغلول عبد الحميد والدكتور محمود اسماعيل وكل منهما متخصص في تاريخ المغرب الاسلامي.

فالأوّل شكك صراحة في أن يكون صالح بن طريف ادّعى النبوة ويرى أن ما نسب اليه و إلى قومه من صنع «الكتاب الذين يخدمون أغراضاً مذهبية وسياسية معادية لبني طريف»[14].

والثاني تناول المسألة «البرغواطية» في بحث مستقل تطرّق فيه إلى جوانبها التاريخية والعقائدية، وقدّم أدلّة متعدّدة تطعن في صحة الديانة البرغواطية، ومما قاله في هذا الصدد:

«فلا مندوحة من رفض الروايات الأسطورية التي تزعم أنّ صالحا ادّعى النبوّة، وشرّع شريعة جديدة أوصى بها ابنه الياس أن يدعو لها من بعده»[15].

والخلاصة أن الديانة البرغواطية ديانة مشكوك فيها، ولا غرابة في ذلك طالما أن هناك فعلاً ما يدعو إلى هذا الشك.

1 ـ الدولة البرغواطية عاشت أكثر فترات حياتها في صراع مرير مع كلّ أعدائها من الادارسة والفاطميين والأمويين الاندلسيين (على عهد المنصور بن أبي عامر) والمرابطين والموحدين، وقد سعوا جميعاً إلى تدميرها، اذ هي مختلفة عنهم في توجهها السياسي ومذهبها العقائدي، فلا مندوحة في مثل هذه الظروف أن تكون هدفاً للمذاهب الأخرى يشوّهونها ويرمونها بشتّى الطعون والنقائص، ولنا في ابن أبي زرع[16] مثل على ذلك فهو من أكثر الكتاب الحاقدين عليها فلا يمكن أن يكون في ما كتبه موضوعياً ونزيهاً، وكذلك ابن الخطيب[17] فهو أيضاً من المتحاملين عليها.

2 ـ المصدر الأساسي لما نقل من أخبار الديانة البرغواطية، البكري، ولكن ما يقدّمه من معلومات فيه ارتباك وتناقض فقد روي عن «زمور» أنّ صالحا هو الذي ادّعى النبوّة وأنّه آخر الأنبياء اذ أنّ اسمه في البربرية «ورياوري» أي الذي لا نبيّ بعده. وروي أيضاً عن أبي العباس المذحجي أن يونس هو الذي ادّعى النبوّة، يضاف إلى هذا أنّ ابن خلدون أورد رواية تقول: انّ طريفاً «تنبّأ وشرّع لهم الشرائع»[18]. فأين الصحيح في هذه الروايات الثلاث؟

3 ـ جعل طريف باعث الدولة الأول وقيل ابنه صالح[19] من أصل يهودي من ولد شمعون بن يعقوب بن اسحاق نشأ بوادي برباط بالأندلس، ولما ادّعى النبوّة قيل له «برباطي» ثم عرّبته العرب فصار «برغواطي» يذكر هذا البكري وينقل عنه الآخرون، الاّ أنّ ابن خلدون طعن في ذلك وخطأه واعتبره «من الأغاليط البيّنة»[20].

فنفى نفياً مطلقاً أن يكون صالح يهودياً أندلسيا، وهكذا تتضح النيّة المبيتة لمروّجي

هذا الخبر الزائف المكذوب فلا يرومون من ربط القادة البرغواطيين باليهودية الاّ لمزيد التشنيع عليهم وتكريه الناس فيهم.

4 ـ ما نراه من مبالغة في تحقير البرغواطيين، اذ نسبوا اليهم أشياء لا يمكن تصديقها مهما كانت درجة الجهالة التي هم عليها، فنقلوا أنهم «يكتفون بمعرفة الأوقات بزفاء الديوك»[21] وأنهم لا يأكلون الحوت الا بعد أي يذكّى وغير ذلك من الترهات والحال أننا نعلم جميعاً ما يتمتع به رجالات هذه الدولة من علم وخبرة ورجاحة عقل وفيهم من له اطلاع على علم الفلك والمواقيت.

وهكذا نلاحظ أن هذه المبالغة في التجهيل هي في ذاتها نفي لمثل هذه الأقاويل.

5 ـ لقد عرف رجالات الدولة البرغواطية بخصال عظيمة كانت محل تقدير واعجاب المؤرخين.

فطريف من الشخصيات التاريخية المرموقة، فهو من الذين تتلمذوا على عكرمة مولى ابن عباس وحامل لواء المذهب الصفري وناقله من المشرق إلى المغرب.

وطريف من الذين ساهموا مع رجال من قبيلته في فتح الأندلس وقد أطلق اسمه على جزيرة هناك فصارت تسمى «جزيرة طريف» وهو من شخصيات الوفد[22] الهام الذي توجّه إلى دمشق للتشكي من عسف الولاة ويقال انّه خرج مع بعض المنتخبين قبل ذلك إلى المدينة لتلقي العلم على كبار التابعين[23]، ثمّ هو بالاضافة إلى ذلك أحد قوّاد ميسرة العسكريين البارزين في انتفاضة الخوراج الصفرية.

وعرف ابنه صالح بأنّه «من أهل العلم والخير»[24] شارك إلى جانب أبيه في انتفاضة ميسرة، وارتحل إلى الشرق ـ كما هي عادة أهل المغرب من ساسة وعلماء ـ فزار الشام والعراق، «فقرأ على عبيد الله المعتزلي القدري»[25]، وهناك «درس شيئاً من النجوم وصلت منزلته في علمها إلى أن قوّم الكواكب وعمل التقاويم والمواليد وأصاب في أكثر أحكامه»[26] والياس ابنه كان «طاهراً عفيفاً زاهداً»[27]، وأبو عفير كان من الذين دعا قومه: «الى النسك وترك الدنيا والاقبال على التقلّل والزهد وتناهى هو وخاصته في ذلك»[28].

وأبو الانصار عبد الله «كان سخياً ظريفاً يفي بالوعد والعهد ويحفظ الجار ويكافىء على الهدية بأضعافها»[29].

الا يجعلنا هذا نستبعد أن يكون هؤلاء القادة قد ادّعوا النبوّة خاصة وأنهم من أهل الرأي والمروءة يعرفون أنّ ادعياء النبوّة كانوا دوماً من الكذّابين وهو شيء تأباه أخلاقهم العالية ولا يرضون به أبداً لأنفسهم وقد مرّ بنا أن تشريعاتهم الاجتماعية تمقت الكذاب وتقرّ نفيه.

6 ـ انّ العقيدة البرغواطية التي أوردتها بعض المصادر تبدو كما قال الفريد بل ـ «تقليداً تافهاً لشريعة الاسلام»[30].

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية «ان هذا الدين لا يختلف عن الاسلام اختلافاً جوهرياً»[31] وكان من المظنون أن تتضمّن بنود هذه العقيدة جانباً من الأعراف البربرية الاجتماعية القديمة التي ما تزال موجودة في عدد من المناطق إلى اليوم والتي حاولت فرنسا استغلالها لخلق تشريع بربري متميّز يساعدها في تمزيق منطقة المغرب العربي وضرب وحدة سكانه، لكننا لم نجد شيئاً من تلك الاعراف في هذه العقيدة وفي هذا ما يشير إلى الافتعال والتلفيق في ما رواه المؤرخون، يضاف إلى ذلك ما ذكره ابن حوقل من أن في البرغواطيين على عهده: «من يقرأ القرآن بغاية الاحترام ويحفظ منه السور»[32]. وكل هذا لا يؤدي إلى الشك فحسب وانما يؤكد أن العقيدة البرغواطية مزعومة لفّقها الخصوم لغرض التشنيع والتشويه لا غير.

7 ـ من الجوانب الأخرى التي تلقي الشك في صحة العقيدة البرغواطية موقف القدامى الذين تناولوا هذا الموضوع.

فمنهم المناهض المتحامل مثل البكري (المصدر الأساسي) وابن أبي زرع والخطيب وان اختلفت درجة مناهضتهم وتحاملهم، فممّا يؤخذ على البكري انحيازه ونقله لأخبار متناقضة وغير مدقّقة من شأنها أن تشوّه البرغواطيين وتعطي عنهم صورة قبيحة.

أما ابن ابي زرع فهو أكثر الجميع تطرّفاً وكراهية لهم فيقول في عنوان الفصل الذي كتبه عنهم «الخبر عن غزو عبد الله بن ياسين مجوس برغواطه وذكر مذهبهم الخسيف وديانتهم الخسيسة التي تمسكوا بها»[33].

ويأتي بعده ابن الخطيب الذي يقول: «ذكر المنتحلين للامارة وأشنع من ذلك برغواطة» ثم يتصوّر أنّ ذكره لهم قد يكون خطأ ارتكبه فيقول: «وان أنكر علينا منكر أن نجعلهم من ملوك الاسلام، فنقول انما اتيناهم حسبما شرطنا من انجرار الكلام»[34].

أما ابن حوقل (المصدر الثاني والأقدم) فلم نجد عنده هذا التحامل رغم نزعته الشيعية.

ومن القدامى من اقتصر على النقل فقط مثل ابن عذارى وهو موقف ينبىء بتحفظ صاحبه ازاء الأخبار المروية.

ومنهم من كان له موقف متميّز مثل ابن خلدون حيث نلاحظ أمرين: الأوّل يتعلّق بالعقيدة البرغواطية نفسها فما أورده في شأنها لا يدل على اليقين أو الاقتناع بصحتها وهذا واضح من استعماله للأفعال التي لا تفيد الجزم أو التي تضع مسؤولية ما يروى على الغير مثل: «يقال انه تنبّأ»[35]. ومن مثل «كانوا يسمونه صالح المؤمنين كما حكاه البكري عن زمور»[36] ومن مثل «وقد قيل أن ظهوره كان

لأول الهجرة وانّه انما انتحل ذلك عنادا أو محاكاة»[37].

والثاني يتعلّق بنسب برغواطه وأمرائها، وهنا نجد ابن خلدون يقف موقف المحقّق، فيفنّد المزاعم التي تعتبر برغواطه من زناته لا من مصموده والتي تجعل طريفاً أو صالحاً من أصل يهودي حيث عدها «من الأغاليط البيّنة»[38] وقال: «وليس القوم من زناتة ويشهد لذلك كلّه موطنهم وجوارهم لاخوانهم المصامدة وأمّا صالح بن طريف فمعروف منهم وليس من غيرهم»[39].

• • •

واذا كان التحليل السابق يستبعد أن يكون البرغواطيون ادّعوا النبوّة أو جاؤوا بدين جديد، وأنّ ما نسب اليهم هو في الراجح تلفيق وتشويه متعمد من خصوم ألداء، فانّ السؤال المتبادر إلى الذهن: ما الذي جعلهم عرضة لهذا وكانوا بسببه ممقوتين من الجميع؟

الاجابة على هذا هي أن برغواطه من الخوارج الصفرية المعروفين بتشدّدهم ازاء مخالفيهم، وهم كالأزارقة ـ يكفّرون ما عداهم ويوجبون قتالهم ومن هنا كان عداء الآخرين عليهم أمر طبيعي.

وكون برغواطه صفرية فهذا واضح لاغبار عليه، فزعيمها ومؤسس دولتها الأول طريف أبو صالح من كبار دعاة المذهب الصفري، تلقاه عن عكرمة بالقيروان ونشره بين أفراد قبيلته وساهم في الثورة الصفرية وكان أحد قادتها البارزين، ثمّ انّ أكثر من كتب عن هذا الموضوع يقرّ بشكل أو بآخر الأصول الخارجية في العقيدة البرغواطية.

ومن هؤلاء «موتيلنسك Motylinsk» الذي يرى أنّ «ياكوش ليس اله برغواطه فحسب بل اله البربر الخوارج والكلمة تعني «الله» عند المسلمين عموماً»[40].

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية في حديثها عن قبائل برغواطه «واعتنقت هذه القبائل أراء الخوارج»[41] وقال «ويظهر أن كلمة ياكش، ومعناها الله، هي ترجمة للكلمة العربية وهّاب وهي صفة من صفات الله، ويذكّرنا وجود هذه الكلمة عند الاباضية»[42].

وقال الدكتور محمود اسماعيل: «ونحن نجزم بالاصل الاسلامي لعقيدة برغواطه وأنها صورة متطرفة من صور المذهب الخارجي الصفري»[43] ذاكراً مجموعة الأدلة على ذلك.

والخلاصة أن برغواطه ذات معتقد اسلامي ما في ذلك ريب وكان لها كما قال ابن خلدون «في صدر الاسلام التقدّم والكثرة»[44] وذكر ابن حوقل أن في البرغواطيين من يقرأ القرآن ويحفظ بعضاً منه.

وللتأكيد على عقيدتهم الصفرية نسوق ما يلي:

1 ـ انّ زعماء برغواطه كانوا ممّن يكفّرون غيرهم ويظهر هذا من وصيّة صالح لابنه الياس بأن يلازم التقية ولا يجاهر بدعوته الاّ اذا قدر على ذلك فظلّ «مسرّاً لما قاله

أبوه من كلمة كفرهم»[45] وعندما آل الأمر إلى يونس بن الياس جاهر بالدعوة «ودعا إلى كفرهم»[46].

2 ـ استعمال العنف وقد أفرط في ذلك فسفك دماء كثيرة ويقال انّه أحرق مدائن تامسنا ومدائن أخرى وكذلك أبو عفير الذي خاض في سبيل فرض عقيدته معارك مشهودة منها معركة تيمغسن (تامغرا) التي أقام القتل فيها ثمانية أيّام[46أ] ومعركة بهت التي عجز الاحصاء عن عدّ من قتل فيها[47].

3 ـ رفض التزوّج من المسلمين من غير الخوارج وكذلك تزويجهم[48] وهذا ما عرفت به الأزارقة والصفرية من الخوارج.

4 ـ الاستقامة وحسن السلوك وهو أمر مشهود به لقادة الدولة البرغواطية ولعامة مواطنيها الذين يقول عنهم ابن حوقل «ففيهم أمانة وبذل للعطاء وتجنّب للكبائر من الحرام والمحظورات من الاثم»[49] فلا غرو ان يعتبر الكذب عنهم جناية يعاقب عليها.

فالتكفير واستعمال العنف والاستقامة كلّها مما عرف عن الخوارج وخاصة الأزارقة والصفرية.

وهكذا يتّضح ان الديانة البرغواطية ديانة مزعومة ملفّقة حتى وهي في صبغتها المتحلة لا تعكس مطلقاً أيّ توجه قومي للبربر فلو كان شيء من هذا صحيحاً لما ظلّت محصورة في نطاق محلّي لم يقدر حتى على التوسّع في المناطق المجاورة شمالاً وجنوباً، ولكن ماذا عسانا نفعل مع الموتورين من أعداء الانتماء العربي، فهذا دأبهم، ولكن باع الكذابين قصير كما يقال، وأنّ هذه المواقف مهما أوغلت في الجناية فمآلها الفشل.

والحقيقة الدامغة والمؤلمة بالنسبة لهؤلاء هو أن المنطقة خلال تاريخها الطويل الحافل بالأحداث الجسام لم يظهر فيها أبداً زعيم دعا إلى وحدة البربر القومية كما أن الحركات التي ظهرت ببلاد المغرب كانت كلّها على أساس ديني محض وعلى أساس الفكر الخارجي الشيعي العربيين القادمين من المشرق.

الهوامش:

1 ـ ابن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر** ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1959 ج 6 ص: 428

2 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ص: 428.

3 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ص: 429.

4 ـ البكري: أبو عبيد الله بن عبد العزيز: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص: 140

5 ـ من سورة التحريم: الاية: 4.

6 ـ البكري: المغرب... المصدر المذكور سابقا ص: 140

7 ـ البكري: المغرب... المصدر نفسه ص: 136.

8 ـ البكري: المغرب... المصدر نفسه ص 136 ـ كتاب العبر لابن خلدون ج 6 ص: 43.

(*) مثل تلك التي خاضها أبو عفير في تيمغيسن (تامغزا) التي دام القتال فيها 8 أيام وفي «بهت» التي عجز الاحصاء عن عدّ من قتل فيها ـ البكري ص: 136.

9 ـ أبو بكر الصنهاجي: **البيدق** تحقيق عبد الحليم حاجيات 1974 ص 126.

10 ـ دراسة بعنوان: «المغرب من الفتح إلى أواخر الربع الأول من القرن الثاني وبذور الشعور بقوميات محلية ـ المنشور في كتاب بعنوان: **الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع** مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية تونس 1979 ص: 221.

11 ـ الدراسة نفسها ص: 222.

12و13 ـ الدراسة نفسها ص: 222.

14 ـ د. محمود اسماعيل: **مغربيات ودراسات جديدة** ـ المكتبة المركزية بفاس ابريل 1977 ص: 20.

15 ـ د. محمود اسماعيل: مغربيات... المصدر نفسه ص: 26.

16 ـ ابن ابي زرع علي بن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب** وتاريخ مدينة فاس. دار المنصور للطباعة الرباط 1972 ص 103.

17 ـ ابن الخطيب لسان الدين محمد: **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام** ـ تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني. الدار البيضاء 1972 ج 3 ص 180.

18 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقاً ج 6 ص: 428.

19 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص 435.

20 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص 435.

21 ـ البكري: المغرب... المصدر المذكور سابقاً ص: 139.

22 ـ الثعالبي عبد العزيز: **تاريخ شمال افريقيا**. دار الغرب الاسلامي. بيروت 1987 ص 136.

23 ـ الثعالبي: تاريخ شمال افريقيا المصدر نفسه ص: 136.

24 ـ البكري: المغرب... المصدر المذكور سابقاً ص: 135.

25 ـ ابن ابي زرع: القرطاس... المصدر المذكور سابقاً ص 131.

26 ـ ابن حوقل ابو القاسم: **كتاب صورة الأرض** ص 82.

27 ـ البكري المغرب... المصدر المذكور سابقاً ص 136.

28 ـ ابن حوقل: صورة الأرض المصدر المذكور سابقاً ص: 83.

29 ـ البكري: المغرب... المصدر المذكور سابقاً ص: 137 ـ ابن عذارى: البيان المغرب ج 1 ص: 224.

30 ـ الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ـ ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار العرب الإسلامي الطبعة الثانية بيروت 1981 ص 175.

31 ـ مادة «بوغواطه» ج 3 ص: 551.

32 ـ ابن حوقل: صورة الأرض: المصدر المذكور سابقاً ص: 83.

33 ـ ابن ابي زرع: القرطاس... المصدر المذكور سابقاً ص 30.

34 ـ ابن الخطيب: أعمال الاعلام ـ المصدر المذكور سابقاً ج 3 ص: 180.

35 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقاً ج 6 ص: 428.

36 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 428.

37 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 428.

38و39 ـ ابن خلدون: كتاب العبر ـ ص: 428 و429.

40 ـ د. محمود اسماعيل: مغربيات ـ المصدر المذكور سابقاً ص 43.

41و42 ـ مادة (برغواطه) ج 3 ص 551.

43 ـ د. محمود اسماعيل: مغربيات ـ المصدر المذكور سابقاً ص: 43.

44 ـ ابن خلدون كتاب العبر.. المصدر المذكور سابقاً ج 6 ص: 428.

45و46 ـ ابن خلدون كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 430.

46أ ـ ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب ـ دار الثقافة تحقيق إ. ليفي بروفنسال ـ الطبعة الثالثة بيروت 1983 ج 1 ص 224.

47 ـ البكري: المغرب... المصدر المذكور سابقاً ص: 136 وابن عذارى: البيان المغرب ج 1 ص: 224.

48 ـ البكري: المغرب... المصدر نفسه ص: 136.

49 ـ البكري: المغرب... المصدر نفسه ص 139 «ولا ينكحن للمسلمين ولا ينكحون فيهم».

50 ـ ابن حوقل: صورة الارض ـ المصدر المذكور سابقاً ص. 83.

السامية ـ الحامية
مقولة الفكر الأوربي اللاهوتي والاستعماري
حقيقة أم خرافة؟

في القسم السابق، وقع تناول نظريات وأطروحات المدرسة التاريخية الاستعمارية وما دار في فلكها من فكر اقليمي متخلّف، وارتباط ذلك باستراتيجية الاستعمار الفرنسي الهادفة إلى الحاق منطقة المغرب العربي بكيانه ودمجها فيه دمجاً تاماً.

وفي هذا القسم نتطرّق إلى قضية «الحامية ـ السامية» وهي أيضاً من مبتكرات الفكر الأوربي، وهل هي من القضايا المؤسسة على أساس علمي سليم؟ أم هي مجرّد خرافة وأسطورة من الأساطير؟ آن الأوان لرفضها والتخلّي عنها، هذا ما سنحاول توضيحه في فقرات هذا الفصل.

ومرّ بنا أن المدرسة الاستعمارية بعد فشلها في تصنيف البربر ضمن الشعوب الأوربية، صنّفتهم ضمن ما سمي «بالشعوب الحامية» ثمّ صنّفتهم في مرحلة لاحقة مرّة ضمن «الشعوب الحامية ـ السامية» ومرّة ضمن الشعوب «الأفرو آسيوية» ونضيف إلى هذا تصنيفاً آخر لبعض الباحثين، لم يذكر مع التصنيفات السابقة لعدم خضوعه للتوجّه الاستعماري ولأنه بني أساساً على معطيات البحث والدراسة المجرّدة من الأغراض اللاعلمية، بقطع النظر عن استعمال مقولة «السامية» وعمّا اذا كان هذا المصطلح في حدّ ذاته صحيحاً أم لا؟ وهو تصنيف يضع البربر ضمن الشعوب السامية ويستبعد تماماً اعتبارهم حاميين وذلك استناداً إلى الدراسات اللغوية المقارنة التي يعد «روسلر» الألماني من أبرز الباحثين فيها.

وتقدّم أن المصرية هي اللغة «الحامية» الأولى التي وقع اخراجها من المجموعة الحامية وادراجها ضمن المجموعة السامية. وأن الدارسين للبربرية بعد ذلك تبيّن لهم أن هذه اللغة أكثر سامية من المصرية وأن علاقتها بشقيقتها الساميات أمتن وأقوى لعدم تعرّضها إلى ما تعوضت له المصرية من تنوّع في الحياة ومن تمازج بالعناصر غير السامية.

ولذا وجدنا عالم البربريات والساميات «هنزستمّا Hans Stumme» يقول: «من وجهة نظري أن البربرية أقرب إلى السامية بكثير من المصرية»[1] بل أن الأمر تجاوز هذا التقدير إلى الاقرار بأنّ البربرية سامية صميمة وهذا ما نسب إلى العالم الانكليزي (فرنسيس وليام نيومان Francis William Newman)[*] وأكّده «روسلر» في قوله: «ان اللوبية سامية في واقعها ولا يمكن ولا يجوز فصلها عن السامية»[1أ]. وفي قوله «فاللوبية ذات علاقة متينة مباشرة بالسامية»[1ب]. وفي قوله «فالتصريف في اللوبية برهن على أنها جدّ سامية»[1ج].

وتكمن أهميّة هذا التصنيف في أنه جعل البربر لأوّل مرّة أشقاء للعرب ومنتسبين معاً إلى أصل واحد وأرومة واحدة وكان هذا أول انتصار يسجل ضد المدرسة التاريخية الاستعمارية على صعيد المعرفة، وأوّل خطوة في كنس المعلومات المغلوطة التي تحوّلت لدى المثقّفين الغارقين في حمأة الاستعمار الثقافي إلى قناعات لا تدحض.

وبما أن البربر صنّفوا ضمن المجموعتين: الحامية والسامية فانه من الأحسن اعطاء فكرة ولو باقتضاب حول ما ينضوي تحتها من مجموعات لغوية متنوعة، لكي يكون الاطار البشري واللغوي الذي وضع فيه البربر واضحاً للجميع، ولا يغيب عن البال أن التصانيف المقدّمة من مختلف الباحثين في هذا الميدان أقيمت كلّها على أساس لغوي.

المجموعة الحامية: ينتظم فيها المتكلمون باللغات التالية:

1 ـ **المصرية**: وهي تشمل المصرية القديمة (المدوّنة بالهيروغليفيه، والهيراتيكية، والديموتيكية) والقبطية (السائدة منذ مجيء المسيحية حتى العهد الاسلامي).

2 ـ **الكوشية**: نسبة إلى بلاد كوش، وهي كلمة مستعملة في مصر القديمة تطلق على البلاد الواقعة في الجهة العليا من الشلال الثاني وتنظم فيها لغات السكان للقسم الشرقي من افريقيا من جنوب مصر حتى جنوب خط الاستواء باستثناء المناطق ذات لغات سامية افريقية أخرى منتشرة أساساً في السودان وإثيوبيا وكذلك كينيا.

3 ـ **البربرية**: حسب من يصرّ على تصنيفها ضمن الحامية، وهي لهجات عديدة.

المجموعات السامية: وهي توزّع كما يلي:

أولاً: المجموعة السامية الشمالية وتضمّ:

أ ـ الشمالية الشرقية، مركزها العراق وتضم المتكلمين بالأكّدية بلهجاتها التالية:

ـ البابلية (القديمة والوسطى والحديثة).

ـ الآشورية (القديمة والوسطى والحديثة).

ب ـ الشمالية الغربية مركزها بلاد الشام القديمة وشمال افريقية وتضمّ المتكلمين باللغات التالية:

- الكنعانية ـ ولهجاتها: الأمورية والفنيقية والأوغريتية والعبرانية والموآبية (شرق الأردن) والفنيقية الحديثة (في قرطاج).
- الآرامية ـ وهي بحكم امتدادها للعراق صارت شرقية وغربية فاللهجات الشرقية هي: الحضرية والسريانية والمندائية واللهجات الغربية هي: النبطية والتدمرية وغيرها من اللهجات المحلية.

ثانياً: المجموعة السامية الجنوبية وتضم المتكلمين باللهجات التالية:

أ ـ لهجات عرب شمال الجزيرة العربية وهي الصفوية واللحيانية والثمودية وعربية الحجاز (عربية القرآن).

ب ـ لهجات عرب جنوب الجزيرة العربية وهي المعينية والسبئية والقتباتية والحميرية وما تفرع منها.

ج ـ اللهجات الحبشية وهي الأمهرية والجعزية والتيجيرية.

التسمية بالسامية وقصة الطوفان:

وسميت هذه الشعوب العريقة بالسامية استناداً إلى ما جاء في التوراة من أنها من نسل سام بن نوح وكان أوّل من استعمل هذا المصطلح عالم اللاهوت النمساوي ـ الألماني شلوزر Schlozer سنة 1781 الذي قال: «من المتوسط إلى الفرات ومن بلاد النهرين إلى شبه الجزيرة العربية تسود كما هو معروف لغة واحدة، وعليه فالسوريون والبابليون والعبرانيون والعرب كانوا أمّة واحدة، والفينيقيون الحاميون أيضاً يتكلّمون بهذه اللغة التي أودّ أن أدعوها «سامية»[2].

وكانت هذه التسمية تتويجاً لمرحلة طويلة من الأبحاث حول أصول اللغات الشرقية، فقد قادت الدراسات اللاهوتية المسيحية والتوراتية اليهودية إلى معرفة القرابة اللغوية بين العربية والعبرية والكلدانية والسريانية والفنيقية (اللغات الشرقية المعروفة).

فكان اهتمام علماء اللاهوت بالعقيدة المسيحية من وجوه مختلفة مدعاة لمعرفة «العبرية» كما كانت أهداف التبشير والأطماع في استعمار المسيحية للعالم الاسلامي وخاصة البلاد العربية مدعاة أيضاً لدراسة العربية ولغات شرقية أخرى.

أما علماء التوراة من يهود وغيرهم فانّ اهتمامهم باللغات الشرقية من عربية وغيرها انما كان أساساً لتفسير النصوص التوراتية وفهم ألفاظها وتعابيرها.

في خضمّ هذه الدراسات المتنوعة الأغراض والمشارب ظهرت «النظرية السامية» وأخذت صورتها المعروفة حالياً في العلوم الانتروبولوجية والتاريخية واللغوية والسياسية على يد «شلوزر» في بداية الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وشاعت بداية من هذا التاريخ وصارت مستعملة من الجميع بما في ذلك الكتاب العرب مجاراة وتقليداً لغيرهم.

ووجد الاستعمار الأوربي الحديث في هذه النظرية أداة مناسبة لترويج اطروحاته وتفتيت المنطقة وبعثرة شملها، فهي بحكم مضامينها العرقية استند اليها لفصل شمال افريقيا وسكّانه باعتبارهم من جنس حام لا علاقة له بالجنس العربي، وهي على صعيد آخر أدّت إلى ولادة النزاعات الاقليمية كالفرعونية في مصر والبابلية في العراق والفينيقية في الشام (سوريا ولبنان) وصوّر العرب رغم الاعتراف بساميتهم كعنصر دخيل على هذه المناطق كما لو كان لا علاقة له بالأقوام التي استوطنتها.

ونظراً لفجاجة هذه النظرية وافتقارها إلى سند علمي فقد تعرضت إلى الطعن والنقد اذ تسميتها:

1 ـ اعتمدت أساساً على فكرة الانساب والقرابات الواردة في التوراة وأنّ هذه القرابات بنيت فيه «على اعتبارات سياسية وعاطفية وعلى الآراء التي كانت شائعة عند شعوب العالم في ذلك الزمان»[2أ].

ومن هنا وجدنا التوراة تقحم شعوبا أجنبية كالعلاميين والليديين ضمن مجموعة الشعوب السامية وتخرج منها من هو من صميم المجموعة كالكنعانيين[3].

2 ـ فكرة الانساب التوراتية لا سند تاريخي لها، ولذا أهملها العلماء وأهملوا اطارها الجغرافي والسياسي واعتمدوا في معرفة تلك الشعوب على سند آخر هو «اللغة» حيث تبيّن لهم بالدراسات المقارنة أن مجموعة تلك الشعوب تتكلم لغات متشابهة ومتقاربة مما جعلهم يعتقدون بوجود أصل لغويّ وثقافيّ مشترك لهذه الشعوب، ولذا أضافوا اليها أقواماً جديدة ومناطق جغرافية جديدة لما بينها وبين تلك المجموعات من قرابات لغوية.

3 ـ نضيف إلى هذين النقطتين أن النظرية السامية والنظرية الحامية أقيمتا معاً على أساس أسطوري وخرافي، فقد أخذنا من فكرة الانساب التوراتية التي جعلت من نوح الأب الثاني للبشرية ضمن نسل أبنائه الثلاثة: سام وحام ويافث ومنهم تمّ تعمير الأرض مرّة ثانية بعد أن أهلك الطوفان ما عليها.

وكشفت الوثائق المسمارية على أن قصة الطوفان كانت شائعة في أدب العراق القديم، وسابقة لظهور التوراة بعهود طويلة، ونجدها على العموم في:

أولاً: الوثائق مثل:

ـ قائمة باثبات الملوك السومريين، رتبها الكاتب على قسمين: قسم تضمن سلالات وملوك حكموا في خمس مدن قبل الطوفان، وقسم تضمن سلالات وملوك حكموا بعد الطوفان، ويذيّل الكاتب القائمة بهذه العبارة:

«ثمّ حلّ الطوفان وجرف البلاد، ومن بعد الطوفان هبطت الملوكية من السماء وحلت في مدينة كيش»[4].

فالطوفان في العراق القديم صار يؤرخ به على غرار ما نجده لدى شعوب أخرى تؤرخ ببعض الأحداث لها قيمتها في حياتها وتاريخها.

- نصوص مسمارية عديدة، منها السيرة الشخصية للملك الآشوري (آشور بانبال) الذي حكم في القرن السابع ق.م حيث جاءت فيها هذه العبارة:
«لقد دُرست نقوش الاحجار مما قبل الطوفان وهي عويصة وعسيرة الفهم»[5].

ثانياً: الملاحم والقصص المتضمنة لحادثة الطوفان والتي تمّ العثور عليها خلال التنقيب والحفريات وهي:

أ ـ ملحمة «جلجامش» المكتوبة باللهجة البابلية القديمة في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، قبل ظهور موسى في القرن الثالث قبل الميلاد وقبل تدوين التوراة. وهي عبارة عن قصيد شعري طويل في اثني عشر لوحاً تدور حول أحداث مختلفة منها حادث الطوفان الوارد في اللوح الحادي عشر بكامله.
وخلاصتها أن الآلهة قررت افناء الجنس البشري الآثم الا أن الاله «أيا» أعلم «أتونبشتم» بذلك وأمره بأن يصنع سفينة ينجو فيها ومن معه من الهلاك، واستمرت العاصفة والمطر المدرار ستة أيام وست ليالي عمّ فيها الطوفان على كل الأرض وفي اليوم السابع هدأت الطبيعة واستقرت السفينة على جبل «نصير» وأطلق «أتونبشتم» حمامة لكنها عادت اليه فأطلق عصفوراً فعاد هو الآخر، وأرسل أخيراً الغراب الذي وجد أرضاً فمكث عليها.

ب ـ ملحمة «زيوسدرا»[6] وهي سومرية دوّنت على ما يبدو خلال النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، وخلاصتها أن «زيوسدرا» كان ملكاً صالحاً يقال انه حكم في مدينة (شروباك) موطن أتونبشتم بطل الطوفان البابلي (مما يوحي بأن الملحمتين من أصل واحد) وأنّ الاله «أنكي» الذي رفض قرار الآلهة بافناء البشر أعلمه بذلك وطلب منه أن يصنع فلكاً وينجو بنفسه، وحدثت الطامة وجرف الطوفان البلاد سبعة أيام وسبع ليال ثم هدأت الطبيعة وحمل «زيوسدرا» «دلمون» والقصة ناقصة لوجود انخرام في النص المدّون على لوح الطين.

ت ـ ملحمة «اتراحاسس»[7] وهي بابلية دوّنت في ثلاثة ألواح في القرن السابع عشر قبل الميلاد، وهي عبارة عن قصيد شعري طويل يناهز 1300 بيت، وهي أكمل وأكثر تفصيلا من ملحمة «جلجامش» وخلاصتها ان البشر بتكاثرهم أزعجوا الاله «أنليل» فقرّر اهلاكهم بالطاعون أولاً ثم بالجفاف والمجاعة ثانياً وأخيراً باغراقهم بالطوفان وتأتي أخبار الملحمة اللاحقة مشابهة إلى حد كبير لما في ملحمة «جلجامش».

ث ـ رواية «بيروسس»[8] الكاهن ببابل في القرن الثالث قبل الميلاد الذي ألف كتاباً

ضمنه رواية الطوفان وضاع هذا الكتاب وبقيت منه مقتبسات في مؤلفات اليونانيين منها ما يتعلق بالطوفان.

والخلاصة ان الملك «خيسثروس» أعلمه الاله «كرونوس» في الحلم بأن الطوفان سيحدث وأمره بدفن الكتابات في مدينة (سيبار) وان يصنع فلكاً وينجو فيه ومن يحمله معه، وحدث الطوفان، وعند انحسار الماء أطلق (خيسثروس) بعض الطيور فعادت اليه، وبعد أيام أطلق أخرى فعادت وأرجلها ملطخة بالطين، وعندما أطلقها للمرة الثالثة لم تعد وكان ذلك دليلاً على انتهاء الطوفان وظهور اليابسة.

ج ـ قصة الحكماء السبعة[9] وهي أسطورة عثر عليها في لوح طيني ذكر فيه ان الحكماء السبعة «يطابقون أو يضاهون الملوك السبعة الذين حكموا قبل الطوفان»[10].

وجاء ذكر هؤلاء الحكماء في نص مسماري آخر مزدوج اللغة اذ كتب بالسومرية والبابلية وذيل هذا النص بالعبارة التالية:

«طبق الحكماء السبعة القدماء في ما قبل الطوفان»[10أ].

ويظهر من هذه القصص والوثائق إلى أي حد كان خبر الطوفان منتشراً وراسخاً في ذاكرة الناس ومن بيئة العراق انتقل إلى ارجاء واسعة من العالم المحيط.

فقد عثر على نصوص من ملحمة «جلجامش» في أقاليم الاناضول وفي جنوب تركيا وفي مجدو بفلسطين يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كما عثر في رأس الشحرا (أوغاريت القديمة) قرب اللاذقية على «رواية قصيرة عن الطوفان في النصوص المسمارية المكتشفة»[11].

هذا الطوفان الذي ظلّ آماداً طوالاً عالقاً بأذهان الناس والذي قسم التاريخ العام إلى عهدين كبيرين منفصلين، عهد ما قبل الطوفان وعهد ما بعد الطوفان فأصبح مصدراً للانبعاث الثقافي ولنشوء الأساطير والملاحم الرائعة، يحدد الدارسون الاثريون وقوعه في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، ما بين دور جمدة نصر وبين عصر فجر السلالات الأول (3000–2900 قبل الميلاد) ويقول الاستاذ طه باقر بأن هذا التاريخ هو أقرب الاحتمالات[12].

ويذكر الاثري البريطاني «سير ليونارد وولي» أنه وقع في زمن ما من دور العُبَّيد (في حدود 4000 قبل الميلاد) استناداً إلى طبقة كثيفة من الغرين عثر عليها أثناء التنقيب في «أور» بجنوب العراق خلال الفترة (1929–1934).

وتوجد آراء أخرى تجعل حدوث الطوفان في حدود 3500 قبل الميلاد اعتماداً على الدراسات الجيولوجية التي قامت بعثة ألمانية والتي أظهرت أن ارتفاعات عدة حصلت في مستوى المياه منها ما كان قبل هذا التاريخ وسببها ارتفاع مياه البحر والخليج وتهاطل الأمطار وفيضانات الأنهار.

ومن الآراء الافتراضية[13] أن هذا الطوفان قد يكون حدث في العصر الجليدي الرابع الذي انتهى في حدود 15000 قبل الميلاد والذي تقابله فترة مطيرة شديدة الغزارة في العراق وغيره، فلعلّ كثرة الأمطار وديمومتها كانت سبباً في حدوث هذا الطوفان، وهذا الاحتمال بعيد لأن جنوب العراق كان خالياً من السكان وان الذين تحدثوا عن الطوفان من سومريين وأكديين بابليين كانوا من الشعوب المهاجرة، فالراجح اذن أن الطوفان حدث في فترة استقرارها مما جعلها تتأثر به تأثيراً بليغاً ظلّ حيّا في نفوسهم عهوداً طويلة.

والذي جعل الدارسين يقتنعون بحدوثه ليست الوثائق المسمارية وحدها وانما أيضاً العثور على ترسبات غرينية في مواقع أثرية عديدة مثل كيش (تل الاحيمر) والوركاء وشروباك (تل فاره) ولجش وهي تفصل ما بين الطبقات العائدة إلى دور جمدة نصر وبين عصر فجر السلالات الأول أي أن هذه الترسبات حدثت في الفترة (3000–2900 قبل الميلاد) أما الترسبات التي عثر عليها «وولي» والتي بلغ سمكها 11 قدماً(*) لم تؤخذ بعين الاعتبار لعدم العثور على مثيلاتها في المناطق المجاورة.

ويتضح من هذا أن السهل الرسوبي في جنوب العراق هو ميدان هذا الطوفان ولا غرو في ذلك لانخفاضه ولأنه ملتقى النهرين العظيمين الفرات ودجلة ذي المياه الأكثر انحداراً واللذين تتدفق اليهما مياه كثيرة من الروافد ومن المنطقة الجبلية ذات الثلوج المتراكمة على طول السنة التي كلما كان ذوبانها أكثر كانت الفيضانات أشدّ(*).

علاقة التوراة بخبر الطوفان ومأثورات العراق القديم:

من يطلع على خبر الطوفان الوارد في الاصحاح السادس والسابع والثامن والتاسع يدرك بكل جلاء أنه مستمد من أساطير وملاحم بلاد الرافدين القديمة.

ففي الاصحاح السادس تبدأ قصة الطوفان حيث يقرر الرب اهلاك الانسان لفساده وكل ما على الأرض ما عدا نوحا الذي وجد «نعمة في عين الرب»[14] والذي أُمر بأن يصنع فلكاً حسب مواصفات معينة يركبه مع أبنائه سام وحام ويافث ومع امرأته ونساء بنيه ومعه أزواج من جميع المخلوقات.

وفي الاصحاح السابع طلب الرب من نوح أن يدخلوا جميعاً الفلك لأنّ المطر سينزل على الأرض بعد سبعة أيام ولمدة 40 يوماً، وفي اليوم المعلوم «انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم، وانفتحت طاقات السماء.... وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض»[15] وبذلك «محا الله كل قائم كان على الأرض»[16].

وفي الاصحاح الثامن تهدأ المياه وتأخذ في التناقص ويستقر الفلك على جبل «أراراط» وبعد 40 يوماً أرسل نوحا الغراب فتردّد فأرسل حمامة لكنها عادت لأنها لم تجد مستقراً لرجلها، فلبث سبعة أيام وأرسل الحمامة فعادت اليه في المساء وهي تحمل ورقة

زيتون في فمها، فعلم أن المياه قلّت، وانتظر سبعة أيام أخرى وأرسل الحمامة مرّة ثالثة ولم تعد اليه فكان ذلك دليلاً على نهاية الطوفان، واذن الله لنوح ومن معه بالخروج من الفلك لتعمير الأرض من جديد، وفي الاصحاح السابع تتمّة تتضمن الحديث عن ميثاق الرب مع نوح ومن معه في العهد الجديد.

وبهذا السرد الموجز لخبر الطوفان في التوراة نكون قد تأكدنا لا من التشابه بينه وبين ما ورد في الملاحم المذكورة وأنه أخذ منها ما في ذلك ريب، وكان عالم الآشوريات البريطاني جورج سميث أول من أعلن للناس جميعاً هذا التشابه في لندن سنة 1782.

فقد عثر على خبر الطوفان في لوح طيني بالمتحف البريطاني، وقال جازما ان الطوفان الذي حدث في جنوب العراق هو «نفسه الطوفان المذكور في الكتاب المقدس»[17].

ويقول جورج رو «هناك احتمال كبير في كون العبرانيين قد استعاروا هذه الأسطورة التي كانت تشكّل تراثاً ثابتاً لدى سكان وادي الرافدين من العراق فضمنوها كتابهم المقدم خصوصاً اذا أخذنا بنظر الاعتبار أن التشابه بينهما جد كبير»[18].

ويقول رالف لينتون: «ان هناك فيضاناً عظيماً حدث حوالي 3500 ق.م وربما كان الأساس الذي قامت عليه أسطورة طوفان نوح وسفينته التي وردت في التوراة»[19].

ويقول طه باقر: «وبالنظر إلى أوجه الشبه الكثيرة بين رواية الطوفان في ملحمة جلجامش وملحمة أتراحاسس وبين التوراة، فاننا نعتقد أن كلتا الروايتين ترجعان إلى نفس الحادثة وان هذه الحادثة وقعت في العراق القديم ولا سيما في القسم الجنوبي منه أي السهل الرسوبي»[20].

ويقول في مناسبة أخرى: «يكاد الاجماع ينعقد بين الباحثين على أن خبر الطوفان الوارد في الكتب المقدسة ولا سيما التوراة هو الطوفان الوارد في مآثر حضارة وادي الرافدين نفسه»[21].

واذا كانت العلوم الأثرية ترجح حدوث الطوفان في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، فان الشعوب المسماة بالسامية موجودة قبل هذا الحادث بأزمان طويلة، فكيف يعقل ان تسمى هذه الشعوب باسم خرافي هي من الناحية التاريخية أقدم منه، ثم ان التوراة تجعل الكنعانيين من أبناء حام والحال ان الدراسات اللغوية المقارنة لا تصنفهم ضمن المجموعة الحامية وانما ضمن المجموعة السامية.

وقد جرت العادة أن نسمي الأسر اللغوية بأقدم اسم لغة فيها، لكن هذا لم يحصل مع العربية التي هي أقدم تلك اللغات المسماة بالسامية وأكثرها تمثيلاً لها الأمر الذي يؤكد على أن هذا الانحراف عن الحقيقة انما هو نتيجة لأغراض استعمارية ماكرة، القصد منها اقصاء كلمة «عرب» وعزل أصحابها عن تلك الشعوب باعتبارهم الممثلين الحقيقيين لهم والوارثين عنهم أقدم مجد حضاري عرفته المعمورة قاطبة.

عربية لا سامية:

وكان لا بد، أمام الحقائق العلمية من رفض هذه التسمية المصطنعة تمشياً مع نضال الأمة العربية على كل الأصعدة ومع ما تعيشه من تحولات في هذه المرحلة بدأت تفضي في بعض النواحي إلى المراجعة الجذرية لكل ما كتب عن المنطقة العربية وتاريخها.

لذا وجدنا بعض الدارسين ينادون بتعويض هذه التسمية بأخرى أكثر تطابقاً مع الواقع التاريخي ويؤكدون على أن تحل كلمة «عربي» و«عربية» في القاموس السياسي والثقافي عامة محلّ كلمة «سامي» و«سامية» مدعمين وجهة نظرهم بما يلي:

1 ـ وحدة المكان: فهم يرون ان الجزيرة العربية والهلال الخصيب يكوّنان وحدة جغرافية متكاملة اذ لا وجود لحواجز طبيعية بين المنطقتين وان صحراء الشام أو بادية الشام هي امتداد طبيعي للصحراء العربية.

2 ـ ان الشعوب التي قطنت الهلال الخصيب من أكديّين (بابليين وآشوريين) وكنعانيين وآراميين منذ الألف الخامسة قبل الميلاد هي باتفاق العلماء شعوب مهاجرة من داخل الجزيرة العربية في موجات متعاقبة خلال آماد طويلة.

وحتى اذا رجعنا إلى مختلف النظريات حول الوطن الأصلي للشعوب السامية التي تبلغ حوالي الستة، فان أربعة منها تجعل الجزيرة العربية موطن تلك الشعوب، وما دام الأمر هكذا فايّ التسميتين أصحّ في اطلاقها على شعوب المنطقة؟ العربية أم السامية؟

ومن الباحثين المنادين بالتسمية الجديدة الحقيقية نذكر:

ـ الدكتور جواد علي الذي قال: «فالذين عاشوا قبل الميلاد بقرون عديدة وبألوف السنين هم (عرب) بالطبع وان لم يدعوا (عرباً) لأن هذه الكلمة لم تكن معروفة بهذا المعنى في أيامهم وهم عرب أصالة، ومن أحق وأجدر بأن تطلق عليه هذه اللفظة منهم، هم سكان الجزيرة وأصحابها الشرعيون مهما اختلفت لهجاتهم وتباينت لغاتهم، وتعددت أماكنهم هم الأصل، ومن جاء بعدهم الفرع، وليس الفرع كالأصل»(22).

ويقول: «ولعلني لست مخطئاً أو مبالغاً اذا قلت ان الوقت قد حان لاستبدال مصطلح «سامي» و«سامية» بـ«عربي» و«عربية» فلقد رأينا أن تلك التسمية تسمية مصطنعة تقوم على أساس فكرة الانساب الواردة في التوراة، وهي ـ كما قلت آنفا ـ فكرة لا تستند إلى أسس علمية وانّما قامت على بواعث عاطفية وعلى أساس حبّ الاسرائيليين أو بغضهم لمن عرفوا من الشعوب.

أما مصطلح «العرب» الذي يقابل «السامية» فهو أقرب في نظري إلى العلم، ولا أقول انه اصطلاح علمي متفق عليه، ولكنّه على كلّ حال أدقّ وأصحّ من اصطلاح شلوتسر الشائع المعروف»(23).

ومن الملفت للنظر هو أنّ جواد علي تراجع عن رأيه هذا في كتابه «المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام»(24).

ـ المهندس الدكتور أحمد سوسة الذي يعدّ من أكثر المتحمسين لهذه التسمية الجديدة يقول: «هذه الأقوام من أصل عربي هاجرت من جزيرة العرب واستقرّت بالهلال الخصيب وكوّنت الحضارات التي سميت بالسامية خطأ، لأن اسم العرب ورد منذ القديم في الآثار البابلية والآشورية والعبرية كما أطلق الفرس واليونان والرومان على سكان جزيرة العرب اسم العرب منذ الألف الأولى قبل الميلاد»[25].

ـ الاستاذ محمد عزّة دروزة الذي يقول: «وهي تسمية ليس لها سند من تاريخ وعلم وآثار ومن العجيب أنها انتشرت بين علماء الغرب وسرت إلى مؤرخي العرب وكتّابهم بطريق العدوى الاقتباسية المعتادة مع أن تسمية الجنس العربي واللغات العربية هي على كل حال أصح منها لأنها موطن الأقوام التي سميت بها أي الكلدانيين والعموريين والآشوريين والأكاديين والمصريين والأثيوبيين والعرب القدماء والمتأخرين في جنوب الجزيرة العربية وشمالها والأقطار المتاخمة لها»[26].

ـ الاستاذ طه باقر الاثري المرموق يقول «يجدر بنا أن نبيّن أن هذه التسمية الشائعة أي السامية واللغات السامية غير موفّقة ولا صحيحة في رأيي رغم شيوعها في الاستعمال ولو أنّنا سمينا هذه اللغات بلغات الجزيرة أو اللغات العربية والأقوام السامية بالأقوام العربية وأقوام الجزيرة لكان ذلك أقرب إلى الصواب»[27].

ويقول في مناسبة أخرى: «واللغات الأكدية لمختلف لهجاتها وأدوار تطوّرها هي الفرع الشرقي مما يسمّى اللغات السامية والأصحّ أن يقال عائلة اللغات العربية القديمة»[28].

ـ الدكتورة بازكه رفيق حلمي التي ترفض التسمية السامية فتقول:

«وأصبح لذلك من الأفضل تصحيح ما تعمّد اغفاله العلماء والمستشرقون من خطأ، وتسمية لغات شعوب الجزيرة العربية بلغات الجزيرة العربية كما هو متّبع لدى علماء اللغة في تسمية الأسر اللغوية بالاسم الذي يدل على مواطنها الأولى هو الاسم الذي تحمله عادة أقدم لغاتها وأهمّها، للدلالة على مدى علاقة كلّ منها بهذه اللغة وبالأرض التي تحمل اسمها، وجميع الدراسات المقارنة التي أجريت في نصف القرن الذي مرّ في قواعد لغات الجزيرة القديمة والحديثة كما قلنا انّ العربية هي أقدم هذه اللغات وأكثرها احتفاظاً بالقواعد والأسس اللغوية التي تمثل كل المراحل التاريخية التي مرّت بها وأوضحها تاريخاً»[29].

ـ سبرنجر الذي يقول: «ان جميع الأقوام التي تنسب إلى العراق السامي كالاشوريين والبابليين والفنيقيين والعبرانيين والأروميين وغيرهم من الأقوام التي كانت تضطرّ إلى النزوح والهجرة من الجزيرة العربية... هم عرب»[30].

ـ بيير روسيه Pierre Rossi المؤرخ الفرنسي الذي يقول: «انّ التسمية السامية خالية من كل معنى، لدرجة أن (دائرة المعارف الاسلامية) نفسها ـ التي نسبت العرب

للساميين ـ لا تفرد لكلمة (سامية) مادة في فهرست موادها... ان كلمة سامية لا أثر لها في المعجم اليوناني ولا في المعجم اللاتيني... وهي لم تظهر للوجود الا في نهاية القرن الثامن عشر على يد العلامة الألماني (شلوتز) الذي ابتكر اصطلاح (سامي) في كتابه المعنون (جدول للأدب التوراتي والشرقي)»[31].

ويقول أيضاً بشكل أكثر وضوحاً يجعل العرب هم الحقيقة الواقعية الملموسة: «كل شيء يمكن أن يكون بسيطاً لو أننا بدل أن نتحدّث عن الساميين الأبطال الوهميين ـ نتحدّث عن العرب، عن الشعب الذي وجد في الواقع له كيان اجتماعي وثقافي ولغوي دائم، الشعب الذي منح الحياة والتوازن للبحر المتوسط منذ آلاف السنين»[32].

تكملة:

ما قيل عن السامية يقال أيضاً عن الحامية فلا بد من الغاء هذه التسمية ولا بدّ من تفسير ذلك التشابه اللغوي الذي بينها وبين اللغات العربية القديمة بشكل علمي يستقيم مع المنطق وحقائق التاريخ وهو تشابه أساسه في الحقيقة الهجرات من ناحية والفيض الثقافي للجزيرة العربية من ناحية ثانية الذي عمّ أرجاء واسعة، منها بكل تأكيد شرق افريقيا. وهذا أمر طبيعي طالما أن الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب أوّل من عرف التطورات الاقتصادية والاجتماعية المصاحبة للعصر الحجري الحديث وقد نجمت عنها تطوّرات لغوية وثقافية واسعة، ونكتفي للتدليل على ذلك بما يلي:

1 ـ النضج اللغوي الذي عرفته المنطقة من حيث الغزارة والخضوع للضوابط (قواعد).

2 ـ ظهور الأديان السماوية بالذات باعتبارها مرحلة كبيرة في تاريخ التطور الثقافي على صعيد المنطقة وغيرها.

وما كان لهذين الأمرين ان يحصلا لو لم تكن المنطقة مرت بتطوّرات ثقافية لا نجد لها نظيراً في جهات أخرى اذ الأمر ليس تخميناً لأنه يتعلق بفترة تصل إلى 10 الاف سنة أو أكثر دخلت فيها المنطقة مرحلة العصر الحجري الحديث التي بدأت حسب التقديرات حوالي 10 آلاف سنة قبل الميلاد وحسب ما يذكره المختصون فانه أكمل عصر حجري شهدته المعمورة.

الهوامش:

1 ـ المرجع التالي ص: 124.

1 أ ـ Der Semitisch Charakter der libyschen Sprach in ZA, 50, leipzeg 1952 (السمات السامية في اللوبية).

1 ب ـ ZA :...der Semitich المصدر نفسه ص 125.

(*) ذكر روسلر وجهة نظره وقال عنه: (عالم البربريات الشهير) ص 122 بالمرجع الموالي.

1 ج ـ ZA :...der Semitich المصدر نفسه ص 150.

2 ـ نقلاً عن الشيخ نسيب وهبه الخازن من كتابه: **من الساميين إلى العرب** ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت بلا تاريخ: ص 9.

2 أ ـ علي جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الثانية بيروت 1976 ج 1 ص: 223.

3 ـ التوراة: سفر التكوين ـ الاصحاح العاشر.

4 ـ باقر طه: **ملحمة جلجامش** ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ وزارة الاعلام الطبعة الخامسة بغداد 1986 ص: 244.

5 ـ باقر طه: ملحمة... المصدر نفسه ص: 246.

6 ـ النص في المصدر نفسه ص: 203.

7 ـ النص في المصدر نفسه ص: 214.

8 ـ النص في المصدر نفسه ص: 109.

9 ـ باقر طه: ملحمة... المصدر المذكور سابقاً ص: 245.

10 ـ باقر طه: ملحمة... المصدر المذكور سابقاً ص: 245.

10 أ ـ باقر طه: ملحمة... المصدر نفسه ص: 246.

11 ـ باقر طه: ملحمة... المصدر نفسه ص: 60.

12 ـ باقر طه: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**. دار الشؤون الثقافية العامة ـ وزارة الاعلام ـ الطبعة الثانية بغداد 1986 ـ ج 1 ص: 303.

13 ـ باقر طه: مقدمة في تاريخ... المصدر نفسه ص: 303.

(*) ـ يرى «وولي» أن هذه الطبقة السميكة تدل على حدوث فيضان لا يقل ارتفاع مناسيب مياهه عن 15 متراً. وان فيضاناً كهذا لابد أن يغطي مساحة يصل طولها إلى ما يقارب ثلاثمائة ميل وعرضها مائة ميل ـ انظر العراق القديم لجورج رو ـ ترجمة حسين علوان حسين ـ بغداد 1984.

(*) ومما يدل على ان الفيضانات الكبيرة مألوفة، حدوث فيضان كبير في عهد هارون الرشيد الذي اضطره أن ينتقل من قصوره مع أهله وأمواله إلى السفن حتى هبط مستوى مياه دجلة وذلك في سنة 86هـ. مناقب الامام أحمد بن حنبل ص: 27 للجوزي.

14 ـ التوراة: سفر التكوين ـ الاصحاح السادس الآية: 8.

15 ـ التوارة: سفر التكوين الاصحاح السابع من الآية 11 إلى الآية: 18.

16 ـ التوراة: سفر التكوين الاصحاح السابع الآية: 23.

17 ـ جورج رو: **العراق القديم** ترجمة وتعليق حسين علوان حسين. منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ الجمهورية العراقية بغداد 1984 ص 162.

18 ـ جورج رو: العراق القديم... المصدر نفسه ص: 161.

19 ـ باقر طه: مقدمة في تاريخ... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 206.

20 ـ باقر طه: ملحمة... المصدر المذكور سابقاً ص: 46.

21 ـ باقر طه: مقدمة في تاريخ... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 303.

22 ـ **تاريخ العرب قبل الاسلام** ـ مطبوعات المجمع العلمي العراقي ـ بغداد 1952 ج 2 ص: 287.

23 ـ تاريخ العرب قبل الاسلام... المصدر نفسه ص: 287.

24 ـ مقدمة هذا الكتاب ص: 8، وهو كتاب منقّح عن كتابه: تاريخ العرب قبل الاسلام.
25 ـ سوسه أحمد: **تاريخ حضارة وادي الرافدين** ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد 1983 ج 1 ص: 232.
26 ـ دروزة محمد عزة: **تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار**. الطبعة الأولى ـ المكتبة العصرية. صيدا ـ بيروت 1956 ج 1 ص 7.
27 ـ باقر طه: مقدمة في تاريخ... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 67.
28 ـ باقر طه: ملحمة... المصدر المذكور سابقاً ص: 25.
29 ـ لغات الجزيرة العربية: العربية أم اللغات سامية ـ **مجلة المجمع العلمي العراقي** ـ مج 24 سنة 1974 ص: 177.
30 ـ سوسه أحمد: تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 234.
31 ـ سعدي عثمان: **عروبة الجزائر عبر التاريخ** ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982 ص: 14.
32 ـ سعدي عثمان: عروبة الجزائر... المصدر نفسه ص: 14.

الحضارات
والأنواع البشرية في ما قبل التاريخ
بشمال افريقيا

تعرضنا في السابق إلى بعض النظريات المتعلقة بأصل البربر ومنها النظرية الحامية والسامية التي تجعل البربر فرعاً من المجموعتين وذلك بناء على ما يوجد من مشابهات لغوية تم التوصّل اليها بواسطة علم اللغة المقارن بين لغات المجموعتين وهذا التصنيف من شأنه أن يجعل المرء يتصوّر بسهولة أن البربر هجرات، لأن موطن تينك المجموعتين ليس شمال افريقيا كما هو معروف حتى الآن.

وبقطع النظر عن العنصر السامي، فان هناك من الباحثين من يرى أن الحاميين من أصل آسيوي[1].

وكان س. ماينهوف الألماني يعتبرهم من أصل آسيوي من الجزيرة العربية فيقول: «ثم تظهر الشعوب من العرق الحامي الوارد من الجزيرة العربية مروراً بأفريقيا الشمالية وهي تتكلّم لغات اعرابية وتتعاطى المواشي»[2].

وبالرغم ما للنظرية الحامية ـ السامية من أهمية في الدلالة على هجرة البربر فان الرأي الشائع من خلال الفكر الاقليمي هو أن البربر من أصيلي المنطقة، من غابر الازمان ومن جنس غير جنس العرب، ونجد هذا الرأي مبثوثاً في شتى المجالات التعليمية والثقافية والاعلامية وغيرها، وعلى سبيل المثال:

ففي «كتاب التاريخ»[3] للسنة الأولى ثانوي، ذكر البربر في الدرس الثاني وكان محتواه مقسماً إلى عناوين فرعية، فالثاني منها: «تونس قبل التاريخ» جاء فيه: «ان تونس قد شهدت مختلف العصور الحجرية المعروفة، وكان الانسان التونسي الأول في العصر الحجري القديم يسكن في الغابات»[4].

وهنا نلاحظ إلى أيّ حدّ بلغ الفكر الاقليمي من الاستهتار اذ هو لا يقيم أيّ وزن لأيّ قيمة علمية، والمهم حشو أذهان التلامذة بأفكار معينة وهي أفكار الكيان التونسي

الذي يبدو أزليا يغوص في أغوار التاريخ السحيقة حتى العصر الحجري القديم الذي ظهر فيه الانسان التونسي الأول.

والعصر الحجري القديم في أذهان تلامذة السنة الأولى ثانوي هو بداية وجود الانسان على الأرض أي أن الانسان التونسي الأول ظهر منذ بدء الخليقة البشرية، ومنه تناسل التونسيون عبر الأجيال حتى اليوم، وكما يقولون: ولله في خلقه شؤون.

ومؤلفو هذا الكتاب وان كانوا يعرفون أن هناك عصوراً حجرية متباينة الآ أنهم يجهلون جهلاً تاماً أن انسان العصر الحجري القديم الأوّل والأوسط هو من نوع «الانسان القرد» المسمى «الانسان المستقيم» وان هذا ما يقوله علماء ما قبل التاريخ بدون استثناء في كامل أنحاء المعمورة.

ومن الراجح أن مؤلفي الكتاب لوكانت هذه الحقيقة واضحة في أذهانهم فامّا أن يتردّدوا فما قالوه أو تجاهلوه على غرار ما يحدث كثيراً، وامّا أن يبتكروا «انساناً ـ قرداً» تونسياً يكون منطلقاً لتحقيق الثبات لجوهرنا عبر مختلف العصور كما يريد لنا الفكر الاقليمي أن نكون.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، ففي العنوان الفرعي الثالث «السكان: أصلهم» يقع الانتقال مباشرة إلى الحديث عن البربر مما يوهم بأنهم في أصولهم يرتبطون بالعصور الحجرية القديمة، ولا داعي في الاسترسال أكثر من هذا فهناك استخفاف بالمعرفة والحاق الضرر بالناشئة وبمصالحنا القومية.

يضاف إلى هذا ما قاله بعض الآثريين الذين يربطون البربر الممثلين باللوبيين القدامى الوارد ذكرهم في الوثائق المصرية الفرعونية بمن سبقهم من مجموعات العصر الحجري الأعلى.

ومن هؤلاء «س. ب. م ماكبرني» الذي يذهب به الظن أن البربر منحدرون من أصحاب الحضارة القفصية، وان كان لا يجزم بذلك اذ يقول: «حسب ظني فان أقرب من يكون أجداد اللوبيين هم الذين كانوا خالقي صناعات الحضارة الليبية القفصية الذين كانوا دخلوا البلاد حسب ظني حوالي 9000–1000 سنة من الوقت الحالي»[5] أي حوالي الألف السابعة أو الثامنة قبل الميلاد.

ومن المؤرخين ج. ديبو الذي يقول هو الآخر عن القفصيين: «والغالب على الظن أنهم أسلاف عامة البربر»[6] وهناك أيضا من يجعل القفصيين أيضا أجداد البربر ولكن بشكل غير مباشر باعتبارهما ينتميان معا إلى «انسان البحر المتوسط» ومن هؤلاء ك. ابراهيمي الذي يذكر أن القفصيين «أطلق عليهم أوائل المتوسطين»[7].

وهكذا نلاحظ أن هناك تهويشا مثيرا للبلبلة ومؤثرا في حقل المعرفة التاريخية يفرض علينا أن نتناول اثريات المنطقة للوقوف على نتائجها وعلى ما أمكن التوصل اليه من معرفة النماذج البشرية التي يمكن أن تكون عاشت على هذه الأرض.

الأنواع البشرية في ما قبل التاريخ
بشمال افريقيا

أول ما تجدر الاشارة اليه في هذا المضمار هو أن الأحفورات التي تمّ التنقيب فيها من ليبيا إلى المغرب الأقصى لم يعثر في أي واحدة منها على ما أسماه علماء ما قبل التاريخ «بالمقدمات البشرية»[8] (Hominidés) وهي مقدمات متنوعة، وقع التعرف عليها بأفريقيا الشرقية مثل: القرد الكيني الافريقي والقرد الكيني فيكيري، وقرد راما وقرد أوريو، وقرد راما البنجابي الذي عثر عليه بشمال الهند وباكستان(*).

وهذه البشريات القردة شكّلت المقدمة التي تطوّر منها جنس الانسان وهي تعود إلى عهود قديمة جدا، تميزت عن فصيلة البنجديات (القردة الكبيرة كالشنبزي والغورلا) منذ ملايين السنين، وليس بين علماء ما قبل التاريخ اتفاق حول العهد الذي تمّ فيه هذا التميّز، فهناك من يرجعه إلى 25 مليون سنة [9] بناء على تأويل شواهد إحاثيه، وهناك من يرى أن ظهور المقدمات البشرية حدث في المدة ما بين 10 و20 مليون سنة [10].

أما ر. لايكي الانكليزي فيعتبر أن التميّز وقع منذ 14 مليون سنة[11].

ومهما تباينت هذه الآراء فهي تؤكد على ان هذا التميّز حدث على الأقل منذ ما يزيد عن 10 ملايين سنة، وهناك من الأدلة القاطعة لدى علماء ما قبل التاريخ على وجود البشريات المتميّزة منذ 5.000,000 سنة[12].

خلال الحقبة التي ظهر فيها هذا التميّز كان يوجد جنس آخر أطلق عليه اسم «قرد الجنوب Australopithéque» وهو فصائل متنوعة منها قرد الجنوب القوي وقرد الجنوب الرشيق، كانت منتشرة في المناطق الشرقية والجنوبية لافريقيا.

ويذهب «ل. بالوت» و«واي كوبنس» إلى أن مجموعة قردة الجنوب ظهرت منذ حوالي 6 أو 7 ملايين سنة[13].

ويذكر ر. لايكي ان المواقع التي «تؤرخ بـ 3 ملايين سنة أو أقل تبيّن أنه كان يوجد مجموعتان متميزتان من البشريات البدائية... شكل الانسان وشكل قرد الجنوبي»[14].

وقرد الجنوب جنس متطور بيولوجيا ولذا عدّ من البشريات، انقرض حسب المختصين منذ مليون سنة، ويرى لايكي وعدد من زملائه أن قرد الجنوب ليس سلفا للبشريات المذكورة بل ان للجنسين معا سلفا مشتركا يختلف عن كل منهما[15].

وهناك ما يسمى «بالانسان الماهر» أو «القرد الماهر» وقع التعرّف عليه إلى حد الآن في افريقيا الشرقية ويقال انه يقترب من قرد الجنوب الرشيق، ولكنه يعدّ عموما شكلا بشريا قديما أرّخت الأحفورات التي عثر فيها على بقاياه بـ 2.000.000 و175.000 ق.م.

هذه الأصناف المختلفة من المقدمات البشرية وقرد الجنوب والانسان الماهر لم تعرف إلى حدّ الآن بشمال افريقيا، كذلك فان صاحب الحجارة المهيئة (المنحوتة) أو «ثقافة الحصاة» التي تعدّ حسب تقدير عدد من العلماء الصناعة الحجرية الأولى السابقة للصناعية «الأشولية» لم يعثر عليه هو الآخر، واذا كان الاثريون يذكرون أن هذه الحصاة عثر عليها بالمغرب (ساحل المحيط الأطلسي) والجزائر (منطقة قسنطينة) والصحراء الجزائرية (منطقة عين صالح) وفي ليبيا (بير دوفان بمحاذاة وادي مردومة) فانه لم يعثر عليها في تونس[16].

واذا كانت الأصناف السابقة التي تظهر في افريقيا الشرقية وبعض المناطق الأخرى والتي لم تعرف بعد بشمال افريقيا، فان الجنس الانساني الأكثر تطوّرا من الأصناف السابقة والتي برز في المرحلة التالية ظهر بشمال افريقيا كما ظهر في آسيا وأوربا. ويمكن أن نصنّفه إلى نموذجين بحسب تطوره البيولوجي.

النـمـوذج الأول:

يسمى هذا النموذج «بالانسان المستقيم Homme-erectus» وهو نوع من البشر أكثر تطورا من كل أصناف البشريات السابقة، ويمثل تشكّله الفسيولوجي قفزة بيولوجية جديدة متقدمة مكّنته من «الوقوف المستقيم والتكيّف للمشي والتخصص برجلين تشابهان رجلي الانسان المعاصر.

أما درجة الذكاء فهي قابلة للتقدير اجمالا وذلك بتقدير حجم الجمجمة. وتختلف تلك السعة من 750 سنتيمتر مكعب إلى 1,000 سنتيمتر مكعب»[17].

والانسان المستقيم هذا مازالت به سمات من القردة، ولذا يسمى أيضا «الانسان القرد» الا أنه بفضل القفزة البيولوجية غلبت عليه الخاصيات الانسانية، وهو منتشر في أفريقيا وآسيا وأوربا.

ويرى العلماء أن المواقع التي اكتشف بها يؤرخ لها عموما من 500,000 إلى 1.000,000 سنة[18]، وبناء على نموذج ينسب اليه اكتشف بافريقيا الشرقية يؤرخ له بـ 1.600,000 فان بعض الباحثين يرون أن الانسان المستقيم من أصل افريقي، فقد وجد بهذه القارة بكثرة، ومنها هاجر إلى أنحاء الدنيا الأخرى وذلك في بداية «البليستوسين». ثم ان أفريقيا نفسها بحكم مناخها وموقعها الطبيعي وفّرت للانسان مكانا ملائما ساعد في الحفاظ عليه وعلى تطوره.

هذا الانسان المستقيم أو «الانسان ـ القرد» عرف بشمال افريقيا وعثر على بقايا عظمية له نوردها فيما يلي:

- قطعتان من فك أسفل باحدى مغارات محجر بسيدي عبد الرحمان على مقربة من الدار البيضاء وسمي صاحبها عادة «انسان سيدي عبد الرحمان».

- بقايا من جمجمة (قوس) وبقايا لفك أعلى وفك أسفل شبه كامل في محجر قرب الرباط.
- فك أسفل شبه كامل بتماره قرب الرباط من الناحية الجنوبية الغربية.
- فك أسفل بطوماس جنوب الرباط.

وسمي صاحب هذه البقايا في المناطق الثلاث «انسان الرباط».

- ثلاثة فكوك سفلى وقطعة من جمجمة يمنى بترنيفين بالقرب من البكاو (الجزائر) ويدعى «انسان الأطلس».

وقد أطلق على هذه النماذج الثلاثة الاسم الأخير أي انسان الأطلس الذي يعود إلى العصر الحجري القديم الأسفل الذي يتميّز بصناعة الحجارة ذات الوجهين Bifaces باعتبار هذا المظهر الثقافي الأساسي له والمسماة اصطلاحا «الأشولية Acheulien»(*).

وذكر ل. بالوت ان هذه النماذج لانسان الأطلس لا يمكن ضبط تواريخ ظهورها «الا بكثير من التجاوز أي على الأقل من 400 إلى 500 ألف سنة. وهذا ما يعتبر فرضية مقبولة»[19].

أما لايكي فيرى أن هذا الضبط يجب أن يعتمد فيه «على قواعد تؤرخ بالبليستوسين الأوسط»[20].

وفي العصر الحجري الوسيط الذي يحدد عادة ما بين 40,000 و25,000 سنة قبل الميلاد لم يعثر إلّا على بقايا محدودة للانسان المستقيم رغم كثرة المواقع الحجرية المنتشرة في كامل أقطار المغرب العربي وهي عبارة عن:

- جمجمتين وجزء من جدار جمجمة عثر عليها بمغارة جبل أرجود شرقي مدينة آسيفي بالمغرب الأقصى.
- أجزاء من فك عثر عليها بكهف «هوافطيح» غرب درنه بليبيا أرّخ له في حدود 43,000 سنة قبل الميلاد.

وانتشرت بشمال أفريقيا في هذا العصر الحجري الوسيط حضارتين متميّزتين ومرتبطتين ببعضها: الحضارة الموستيرية والحضارة العاترية.

فالحضارة الموستيرية(*) اعتمدت على صناعة حجرية معينة أكثر تطورا من الأشولية لها ميزاتها الخاصة اذ هي تختلف مثلا عن الانواع الموستيرية في أوربا، ولذا قال عنها ل. بالوت «فمن المؤكد أنه كانت توجد في بلدان المغرب مناجم موستيرية ولكنها كانت واقعة في ظروف جغرافية لا تكاد تصدق ومخالفة لكل المفاهيم المتعلقة بعرقية ما قبل التاريخ»[21].

ومن خلال تحاليله وملاحظته في المنة ما بين 1955 و1965 تبيّن له أن هذا اللون الثقافي الموستيري الخاص بشمال افريقيا له أصول شرقية اذ يقول: «ان الموستيري المغربي لم يأت إلّا من الشرق»[22].

ويؤكد هذا «ماكبرني Mc. Burney» الذي وجد تماثلا بين هذا النوع من الصناعة الحجرية الموجودة في ليبيا وبين نظيرتها في الشرق فيقول: «ونوع الصناعات الصوانية المستعملة في هذا العصر «هوافطيح» يتطابق بوضوح مع آثار في السودان ومصر وآسيا الغربية»[23].

وتحدّث في دراسة أقدم[24] عن وجود تشابه بين الصناعة الحجرية الصوانية في موقع وادي درنه وبين صناعة حجرية في فلسطين تابعة لهذه المرحلة اضافة إلى التشابه في العنصر البشري، وهذا ما جعل رشيد الناضوري يقول: «وكل ذلك يؤكد وجود صلات حضارية وبشرية بين جنوب غربي آسيا وبصفة خاصة منطقة فلسطين وبين المغرب وبصفة خاصة منطقة شمال شرقي ليبيا أي برقة في ذلك الوقت»[25].

وصاحب الحضارة الموستيرية لم نعرف من بقاياه البشرية إلّا ما عثر عليه في جبل «أرحود» وفي كهف «هوافطيح» ويعتبر في نظر المصنفين من نوع «نياندرتال». وهذه الكلمة (نياندرتال Néanderthal) اسم لواد صغير بألمانيا اكتشف فيه أول ممثل لمجموعة من جنس الانسان كانت تعيش في أوربا، ثم عمّ هذا الاسم على طريقة باحثي ما قبل التاريخ، وهو في كل الاحوال ليس إلّا الانسان المستقيم، الانسان القرد.

وانسان النياندرتال في كهف «هوافطيح» هو في نظر ماكبرني «مرتبط بالمجموعات المعاصرة النياندرتالية في أوربا وفلسطين ولبنان»[26].

ويضيف رشيد الناضوري في شأنه «وقد ثبت بالدراسات المقارنة تشابه هذا الانسان مع انسان نياندرتال في فلسطين»[27].

والخلاصة أن أقدم صلات حضارية وبشرية بين منطقتي المشرق العربي والمغرب العربي الحاليتين، تعود كما كشف عنها علم ما قبل التاريخ ـ إلى العصر الحجري الأوسط، وهو ما يوضح قدم الهجرات وامكانية التنقل التي تسمح بها البيئة والظروف المناخية العامة، وهذا في حد ذاته يجعلنا نتصور أن الصلات بين المنطقتين ليس ممكنا فحسب ولكنها في المراحل التالية، لابد وأن تكون أعمق وأبعد مدى لما حدث فيها من تطورات وتوفر فيها من امكانيات وقدرات أفضل.

أما الحضارة العاترية التي أخذ اسمها من بئر العاتر الواقع جنوب تبسه حيث وقع التعرف عليها لأول مرة (من قبل ريفاس Reygasse) الموظف الفرنسي الاداري بتبسه سنة 1922 فلها ثقافتها وتقنياتها الحجرية المتميزة فهي وان ارتبطت من وجوه كثيرة بالصناعة الموستيرية في الشفرات والمكاشط والمخارز والشظايا الا أنها تفرّدت بما أدخلته عليها من تطوير تمثّل أساسا في اضافة مقابض (ذنبيات، ساق Outillige Pédonculé) إلى تلك الأدوات، وهذا يعني وجود صناعة جديدة غير معروفة من قبل.

ويرى بالوت «ان الموستيري المغربي قد طرأ عليه تحوّل مغاير لتطور كان أنواع الموستيري الأخرى»[28] وأن العاتري «ليس سوى مظهر متطور من الموستيري خاص بجزء

من افريقيا»[29].

وفي هذا تأكيد على ارتباط الحضارتين ببعضها ومما يدل على ذلك وجود الأدوات العاترية في المواقع الموستيرية كما هو الحال في القطار وعين المرشم وغيرهما، الأمر الذي أعدّه البعض مظهرا من المظاهر الدالة على معاصرة الحضارتين لبعضهما في طور من الأطوار والحضارة العاترية منتشرة في كامل بلاد المغرب العربي وفي الصحراء وان وجودها في ليبيا يعطي انطباعا بوجود وحدة حضارية وثقافية للمنطقة في ذلك العصر الحجري السحيق.

ويذكر ماكبرني ان الحضارة العاترية منتشرة في الأجزاء الغربية من ليبيا (نواحي طرابلس) ولكنها قليلة في الأجزاء الشرقية (منطقة برقه وواحة سيوه)[30].

واذا كان الأمر هكذا فان انتشارها يكون بدأ غربا ثم اتجه فيما بعد شرقا.

والحضارة العاترية وان وجدت في العصر الحجري الأوسط الاّ أنها امتدت كما تشير التقديرات إلى بداية العصر الحجري القديم الأعلى، أمّا صانعها فإلى حد الآن لم يعثر عليه، ولم تحتفظ المواقع العاترية المكتشفة بأية بقايا هيكلية له (عظمية) بخلاف الموستيري فقد عثر له على تلك البقايا السالفة الذكر.

ومما هو جدير بالملاحظة أن بالوت يميل إلى اعتبار صاحب الحضارة العاترية من نوع الانسان العارف، وهذا يبدو جليا في قوله: «لقد أخذت العقبة الاساسية ذات الطابع الانثروبولوجي تتلاشى لان كل الاكتشافات الأخيرة التي وقعت بالمغرب تدعّم الفرضية القائلة بأن الانسان العاتيري ليس انسانا نياتدرتاليا مثل موستيري جبل أرحود قد أصبح انسانا عارفا»[30أ].

ومهما يكن من أمر هذه الفرضية وعلاقتها بالتقدم الثقافي والتقني وتطور العمل الذهني للانسان العاتيري فان ما يهمنا في هذا المجال هو أن الانسان المستقيم الذي مثل وحدة حضارية عالمية بوجوده في أنحاء مختلفة من المعمورة قد انقرض تماما بشريا وثقافيا، ولا نعلم بعد بشكل متأكد فيما اذا كانت النار وأوليات اللغة من ابتكاراته أم لا؟ ومن المحتمل ان تكون الصناعات الحجرية بمختلف أشكالها في عهد الانسان المستقيم وما تدل عليه من تطور في الرغبات والحاجيات مدعاة لخلق شكل من أشكال التعبير المتبادل مصحوبا في بعض الاحيان بكيفيات صوتية ذات دلالة، وهذه الكيفيات الصوتية ودلالتها تعدّ المقدمات الأولية لولادة ظاهرة اللغة بصفتها وعاء فكريا وعلاقة اجتماعية مكيّنة.

النموذج الثاني:

هو «الانسان العارف أو الانسان العاقل (Homme - sapiens) وهي تسمية أطلقها عليه س. ليني سنة 1953»[31].

وهو متفوق على «الانسان المستقيم وأرقى منه، فكان ظهوره أعظم تطور بيولوجي عرفه النوع الانساني منذ نشأة البشريات الأولى حتى الآن، وقد حوصل المختصون مظاهر هذا التطور البيولوجي، نذكر بعضها على سبيل الاطلاع كما في هذين النصين:

الأول: «ان تحرير يدي الانسان قد خلّص العضلات وعظام الفكين والجمجمة من أعمال كثيرة فنشأ عن ذلك تحرر وتزايد القحف الجمجمي حيث تطورت المراكز الحساسة المحركة بالقشرة الجمجمية يضاف إلى ذلك ان اليد جعلت الانسان يجابه العالم الطبيعي، فهي وسيلة يتلقى بها عدد لا نهاية من البلاغات التي تنظم المخ وتجعله قادرا على الحكم لاسيما لبلوغ أهداف معيّنة بوسائل معيّنة»[32].

الثاني: «فالدراسات المقارنة لقوالب قشرة الجمجمات لانسان العصر الحجري القديم وللانسان العارف يبيّن فعلا ان الاجزاء القشرية الجمجمية المربوطة بوظائف العمل وتنظيم سلوك الشخص ضمن المجموعة بلغت تطورا هاما لدى الانسان العارف»[33].

ومن أبرز مظاهر التطور البيولوجي للانسان العارف اتساع الجمجمة فهي لدى الانسان المستقيم تختلف من 750 سنتيمترا مكعبا إلى 1.000 سنتيمتر مكعب بينما معدلها عند الانسان العارف يتجاوز 1400 سنتيمترا مكعبا[34].

والانسان العارف ظهر عموما «خلال المليون الأخير من السنوات» ولكننا لا نعلم حتى الآن في أي فترة، وأقدم هيكل بدائي له عثر عليه الدكتور ل. س. ب. لايكي عام 1932 في غرب كينيا بموقع «كنجيرا» حيث عثر على دماغين وقطع من عظم الفخذ تعود حسب التقدير إلى 200.000 سنة وتعدّ هذه البقايا من أقدم الشواهد التي عرفت حتى الآن للانسان العارف. كما عثر هذا الباحث على أجزاء من شخصين بأثيوبيا بموقع في «وادي أمو» وهي عبارة عن قطع دماغية وأخرى من الهيكل ما وراء الدماغ ومن قحف دماغ آخر، وأعطى لهذه البقايا تاريخ يعود إلى ما قبل 100.000 سنة، وعلى العموم فمعارفنا حول الانسان العارف البدائي ماتزال محدودة، لقلة الأحفورات التي كشفت عنه[*].

ويأتي هذا الانسان من حيث السلم التاريخي بعد الانسان المستقيم الأمر الذي جعل بعض العلماء يميلون إلى الاعتقاد بأنه تطوّر منه، لكن من حيث الأدلة لا يوجد لدينا ما يؤكد على ان «الانسان المستقيم هو المرحلة النهائية من التطور الذي آل به إلى الانسان العارف»[35]. فهذه قضية ماتزال مطروحة وفي حاجة إلى معلومات جديدة لتوضيحها والاختلاف الأهم بين العلماء حول الصورة التي ظهر بها، فهل تطور عن الانواع السابقة «أو ظهر عن طريق التبدّل الفجائي أو حصل بطريق التزاوج أو التهجين بين الأنواع»[36].

وعلى أية حال فالانسان العارف وان عاصر الانسان المستقيم في بعض أطواره

السابقة فانه ساد المعمورة منذ العصر الحجري القديم الأعلى الذي يأتي ضمن العصر الجليدي الأخير «ورم: Wurm»[37]. ومنه تناسلت الاعداد المهولة من البشرية الحالية بمختلف سلالاتها وتنوّع فصائلها.

ومن غير شك فان هذا التطور البيولوجي سمح له لا بالتكيّف مع الوسط وبالتفكير والتأمل فحسب وانما أيضا مكّنه من أن يحدث ثورة تقنية وثقافية لا مثيل لها من قبل تجسّد فعلا رقيّه البيولوجي وما أصبح يمتلكه من مؤهلات متنامية على الدوام، فقد تخلى عن أسلوب التقنية الأساسي (المسماة اصطلاحا اللوفلوازية Levalloisian) في الحصول على شظايا ذات حدود قاطعة، والاستعاضة عنه بأسلوب جديد أكثر اتقانا وتعقيدا من حيث تهيئة النواة ونزع الشظايا فكانت النصال والشفرات والمدقات والعظام المصقولة وأدوات حجرية صغيرة راقية وغير ذلك، كل هذه الثورة التقنية والثقافية التي تميّز بها العصر الحجري القديم الأعلى كانت بكل تأكيد ثمرة لتجارب طويلة الأمد وتمهيدا لتطورات جديدة أعظم من ذلك وأتقن.

هذا الانسان العارف ، العاقل ظهر في شمال افريقيا في عصره الحجري القديم الأعلى، وصنع حضارات متنوعة وأهم ما اكتشف منها: الحضارة الضبعانية والحضارة الوهرانية والحضارة القفصية.

الحضارة الضبعانية:

سميت بهذا الاسم نسبة إلى «كهف الضبعة» الواقع في المرتفعات الوسطى بالجبل الأخضر بليبيا وأول من اكتشفها «ماكبرني C. B. M. Mc Burny» سنة 1947 وهو يضعها في اطار زمني يمتد من 40.000 إلى 500. 14 سنة ويغطي عنده فترة العصر الحجري القديم الأعلى.

ويقول عن الأدوات الحجرية بهذا العصر المكتشف في «كهف الضبعة» انها شبيهة جدا بالصناعات الحجرية في كل من لبنان والأردن وفلسطين المسماة بالعمرونية أو اميريه Emiran[38].

ويبدو أن صانعي هذه الحجارة لم يعثر لهم بعد على هياكل عظمية وهم في نظر ماكبرني «قد يكون أصلهم من الجزيرة العربية أو الأردن أو العراق»[39].

وفي موقع آخر يقول عن هذه الحضارة ان أصلها: (في جنوب غرب آسيا)[40]. وليس بين الرأيين تناقضا بل هما متكاملان ومما يؤيد ذلك تشابه الثقافات والصناعات الحجرية بين المناطق الليبية وخاصة الشرقية وبين الشرق العربي، ويذكر ماكبرني في دراسة سابقة، أنه خلال 12.000 إلى 10.000 سنة انتشرت هذه الحضارة في برقة واتجهت غربا إلى جنوب شرقي الجزائر وتونس في منطقة سادت فيها من قبل الحضارة الوهرانية[41].

والملاحظ أن الاثريين الفرنسيين من أمثال (ل. بالوت) لم يتحدثوا عن وجود الحضارة الوهرانية في هذه المنطقة الشرقية الجنوبية في كل من الجزائر وتونس[42].

كما يذكر ماكبرني في دراسة أحدث في سياق الحديث عن أصل الوهرانيين بأن ما توصل اليه في مصر (من مكتشفات اثرية) قد يفترض وجود فرع للضبعانيين في مصر[43].

ويرى ماكبرني من جهة أخرى أن الوقت الذي بدأت تسود فيه الوهرانية في المغرب في الفترة ما بين 15.000 و12.000 سنة كانت صناعة النصال في برقة في منطقة الجبل الأخضر من النوع الممثل بأدوات الحضارة الضبعانية[44]. وهذا يعني أن الوهرانية حسب ماكبرني عاصرت الضبعانية في مرحلتها الأخيرة.

الحضارة الوهرانية:

اكتشفها أول مرة ب. بالاري: P. Pallary وهو معلم ابتدائي بمدينة وهران وذلك في (مويه Moullah) قرب مرينه غربي وهران سنة 1909 وسماها «الايبيرية ـ الموريسية Ibéro - Maurisien) كما سماها البعض «المويي Mouillen» وهي تسمية كانت قليلة الاستعمال ثم وقع التخلي عنها، ومازال تسمية (بالاري) تتردد في كتابات كثيرة، وكان أساسها الاعتقاد بأن هذه الحضارة كانت موجودة في كل من اسبانيا والمغرب العربي وهو اعتقاد أوحت به المدرسة الاستعمارية التاريخية، لكن الأيام لم تطل حتى سقط هذا الاعتقاد، وهذا ما اعترف به أهل الذكر والمختصون في علم ما قبل التاريخ.

فقد أورد «جوليان» أقدم الأراء على ما يبدو، فقال:

«ولقد اجمع الباحثون اليوم على رفض صحة العلاقات الاثرية بين هذه الصناعة وصناعة اسبانيا التي أريد من لفظ «ايبيرية ـ موريسية» التعبير عنها»[45].

ورغم قدم هذه الفكرية، فان الرأي الذي اعتبر في نظر الباحثين هاما وحاسما في هذا الموضوع، هو رأي ل. بالوت الذي انتهى اليه سنة 1967. حيث أكد على انعدام العلاقة بين ما قبل التاريخ في شمال افريقيا ومثيله باسبانيا في العصر الحجري القديم الأعلى[46].

وكرّر هذا الرأي في الدراسة التي كتبها عن «افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ»[47].

حيث يرى أن العلاقة بين المنطقتين لم تبدأ الا في العصر الحجري الحديث خلال الألفيتين: الخامسة والثانية قبل الميلاد، فقد شهدت المناطق البعيدة عن العصر الحجري الحديث القفصي ومنها الساحل الأطلسي «تكوين علاقات مبكرة مع أوربا البحر الأبيض المتوسط، ولقد وقع ذلك ابتداء من الألفية الخامسة، ومنذ ذلك الحين أصبحت قضية الملاحة مطروحة»[48].

وردد كثير من الباحثين رأي بالوت سواء بذكر اسمه أم لا وأهمية رأي بالوت الذي

يحظى بالمكانة الأولى في عصور ما قبل التاريخ المغربية تنبع من أنه اعتمد على معطيات ومعلومات حديثة تمثلت:

1 ـ في تقديم قائمة ضبط فيها تواريخ التكوينات الجيولوجية في مواقع ما قبل التاريخ بواسطة كربون 14. وقام بهذا العمل دي بايل دي هيرمنس سنة 1965.

2 ـ ما قام به ج. كامبس من اعداد تواريخ جديدة اعتمادا على الكربون 14 أيضا قدمها بعد مدة وجيزة إلى «الجمعية الفرنسية لما قبل التاريخ».

ورغم هذا فقد ظلت التسمية: «ايبيرية ـ موريسية» شائعة[49]. لدى العديد من الباحثين والكتاب، الا أن البعض تخلّى عنها وكان أول من فعل ذلك (براي Preul) الذي اقترح أن تسمى «الوهرانية Oranian» نسبة إلى وهران التي اكتشفت بالقرب منها فكانت تسمية محلية وواقعية مناسبة.

تميّزت هذه الحضارة التي يرجع أقدم تاريخ لها إلى 13,000 ق. م بصغر أدواتها ذات النواة المسطحة والمستطيلة والمفلطحة وتتألف من نصال متنوعة ومن شفرات ومكاشط وشظايا ومخارز وأزاميل وسنديانات للطرق على ما يبدو وأدوات عظمية مصقولة، كما استعمل البيض للزينة وكأوعية.

وتنتشر الحضارة الوهرانية على طول سواحل المغرب العربي[50] وكذلك في مناطق قارية، تلّية كما في تيارت وبوسعادة، ويفهم مما كتبه بالوت في دراسته السالفة الذكر، أن الوهرانية موجودة في المغرب والجزائر وتونس فقط، وسايره في ذلك ابراهيمي حيث صمت كل منهما عن وجودها في أماكن أخرى، وهو خلاف الواقع فقد أفصحت التنقيبات عن وجودها في ليبيا ومصر[*] أما أشهر مواقعها[51] فهي:

ـ تافورالت شمال وجده، شرقي المغرب الأقصى.
ـ المويلح قرب مغنية بالجزائر.
ـ كلومناطه، قرب تيارت بالجزائر.
ـ أفالوبورمل بخليج بجايه بالجزائر.
ـ مغارة راسل (شنوه) بالجزائر.
ـ وشتاته بالساحل الشمالي لتونس.
ـ كهف «هوافطيح» غربي درنه على مقربة من البحر بليبيا.
ـ منطقة «سلسلة» قرب كوم أمبو بمصر.

وقد عثر على هياكل عظمية كثيرة لصانعي هذه الحضارة وبالخصوص في المقابر الثلاث بتافورالت وكلومناطه وأفالوبورمل، ويبدو أن ليبيا لم يعثر فيها بعد على هياكل عظمية، أما مصر فيذكر فرنان دي بونو الانكليزي أن القبور البيضوية الشكل التي عثر عليها باحد المواقع «كشفت عن جنس بشري قريب جدا من جنس الكرومانيين بالمغرب»[52].

كما يقول عن موقع السلسلة: «أما البقايا البشرية فهي تشير إلى جنس شبيه بالكرومانيين بالمغرب»[53]. والكرومانيون هم فرع من الجنس الذي ينتمي اليه الوهرانيون.

ويلاحظ الدارسون وجود تنوّع في النماذج التي عثر عليها، الاّ أنها تنتسب كلها إلى جنس واحد أطلق عليه في المغرب العربي «انسان مشتى العربي» وهو اسم موقع بين سطيف وقسنطينة بالجزائر ولهذا الجنس سمات(*) تميّزه على باقي الأجناس والأعراق الأخرى.

والى هنا نلاحظ أن الحضارة الوهرانية من الحضارات الهامة الواسعة الانتشار وهو ما يدعونا إلى التساؤل عن أصل صانعها.

معظم الباحثين يقولون ان أصله من شرقي البحر الأبيض المتوسط[54] أي من منطقة الشام (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) وما حولها، هاجر من تلك المنطقة سالكاً طريقين: طريق شمال البحر المتوسط وهم الذين أطلق عليهم اسم الكرومانيين Cro-Magnon المأخوذ من مكان في فرنسا حيث وقع التعرف عليه لأول مرة، وطريق جنوب هذا البحر حيث انتشر في الأماكن المذكورة سابقاً، وعلى العموم، هناك تباينات في آراء الباحثين نستعرضها في ما يلي:

ـ ل. بالوت: في دراسته عن «شمال أفريقيا في ما قبل التاريخ» يبدي رأياً مخالفاً، ولكنه في النهاية لا يخلو من تردّد وتحفظ، فيقول «ولم تثبت الفرضية التي أصبحت اليوم تقليدية والقائلة بوجود أصل شرقي قد تفرّع عنه تيار الكرومانيون الأوربيون المتجه نحو شمال البحر المتوسط. وتيار آخر هو تيّار «مشتى العربي» المتجه إلى الجنوب على طول السواحل الأفريقية»[55].

وبما أن بالوت هو الذي أكّد بقوة على انعدام الصلة بين شمال أفريقيا وبين أوربا في ما قبل التاريخ قبل العصر الحجري الحديث. وبما أن أصحاب الحضارة الوهرانية ليسوا أفارقة (زنوجاً) فلا مفرّ اذن من اعتبارهم محليين تولّدوا من الجنس السابق في المنطقة فيقول: «الا أننا اذا أخذنا بعين الاعتبار المستوى الاثروبولوجي، يمكن لنا أن نعتبرهم منحدرين من اليناندرتاليين بواسطة الانسان العاتري»[56].

ويدرك بالوت ان هذه الفكرة غير مكينة وهو ما يظهر تردّده، لأن الصناعات الحجرية الوهرانية خالية من أي أثر للصناعات الحجرية السابقة، ومنها العاترية، بل هي كما يقول عنها بالوت «لا تعتمد على جذور محلية» وهذا يعتبره من الاشكاليات القائمة كما في قوله: «ولكن هذه الفرضية ـ مهما تكن مغرية ـ فانها لا تفسّر بحال وجود صناعات لا أثر فيها لأي وجه شبه بالموستيري العاتري فالقول بأن الايبيريين ـ الموريسيين ليسوا أصحاب تلك الحضارة ليس قولاً معقولاً لأن تلك الحضارة لا تعتمد على جذور محلية»[57].

وطالما أن الأمر على هذا النحو فان رأي بالوت سواء في رفض فكرة الهجرة (الأصل الشرقي) أو في اعتبار الوهرانيين منحدرين من الانسان العاتري ضعيف وغير وجيه. يضاف إلى هذا أن «الانسان العاقل» من الوجهة المنطقية في تحليل المعطيات المتوفرة ليس متطوراً في كل مكان وبصورة مباشرة عن النوع الانسان الذي يسبقه، ولم يظهر أي احتمال ولو كان ضعيفاً يدل على هذا، والمظنون أن الانسان العاقل حدث بكيفية ما، في ظل ظروف معينة ثم انتشر في العالم، وأن شمال أفريقيا لم يظهر فيها ما يدل على أنها بيئة نشأ فيها هذا الكائن البشري المتطوّر، وفكرة بالوت حتّى وان وضعناها في باب الاحتمالات لا يمكن أن تكون مقبولة الاّ بشرطين:

1 ـ أن يثبت بشكل قاطع أن الانسان العاتري من جنس «الانسان العاقل».

2 ـ أن يعثر على صناعات حجرية تمثل على الأقل مرحلة الانتقال حتى لا تنعدم الصلة بين الطورين: العاتري والوهراني.

ومن الباحثين الذين سايروا بالوت في وجهة نظره، ك ابراهيمي الذي يقول: «لا يزال أصل الانسان الأيبيري ـ مغربي موضوع نقاش. وكان يعتقد لمدة طويلة أن أصله من الشرق، وأنه وصل إلى المغرب عن طريق الجنوب التونسي. غير أن اكتشاف أوائل انسان اليناندرتال بجبل أرحود سمح بجذر في الأصل المحلي لانسان مشتى العربي»[58].

وكلمة «بجذر» تدل على أن صاحبها ليس مقتنعاً بما يقوله ثم ان نقطة الضعف عنده فهمه الميكانيكي في ظهور الانسان العاقل اذ هو يربطه بصورة آلية بالنوع الذي يسبقه، وهو فهم خاطىء اذ ما تزال الكيفية التي ظهر بها الانسان العاقل مجهولة لدى العلماء، وهذا الانزلاق ليس سببه قلة الحذر والجهل بالأشياء وبجملة من المعطيات والأوضاع فحسب ولكن أيضاً النزعة الاقليمية المبتذلة والمسايرة غير الدقيقة لبالوت.

ـ ماكبرني: في دراسته المشار اليها آنفا التي قدمها في «المؤتمر التاريخي» المنعقد بكلية الاداب بالجامعة الليبية سنة 1968 تحدث عن الحضارة الوهرانية ضمن الطور الرابع الممتد ما بين 14,500 و10,000 سنة ويعتبر أصحابها من المهاجرين اذ يقول: «في نهاية مرحلة حضارة الضبعة حدث تحوّل حضاري فجي وراديكالي يدلّ بدون شك تقريباً على مجيء مجموعة عرقية جديدة.

فأصل الصناعات الجديدة تنتمي إلى ما يسمى المجموعة الوهرانية أو الايبيرية ـ الموريسية التي اكتشفها الفرنسيون منذ زمان بالمغرب. وقد تبيّن أخيراً أن الوهرانية (بالجزائر) يرجع تاريخها إلى 13,000ق.م[59]. فهذا العرق بالاضافة إلى أنه هجرة «فأصله غير أفريقي»[60] في نظر ماكبرني، واذا كان الأمر هكذا فمن أين قدم؟

سبق لماكبرني أن قدّم فرضية ذات نقاط متعددة ذكر في احداها أن الوهرانية ظهرت بالمغرب في حدود 15,000–12,000 سنة ق.م وكانت نتيجة لتأثيرات ثقافية وهجرة من غرب أوروبا. ثم في ما بين 10,000 و9,000 سنة قبل الميلاد انتشرت على

طول الساحل حتى وصلت منطقة برقة وحلّت محلّ الضبعانية السابقة لها[61].

وتأثر رشيد الناضوري بهذه الفكرة كما في قوله: «ويتّجه العلماء إلى اعتبار انسان مشتى العربي الذي يمثل الحضارة الوهرانية من أصل غربي»[62] أي أوربي. أما ماكبرني فانه تخلى عن هذه الفرضية فلم يذكر منها شيئاً في الدراسة التي قدمها في «المؤتمر التاريخي» كما انه طرح امكانية جديدة يعتبر فيها أن الوهرانيين قد يكونون من عرق هجين ناشىء عن امتزاج بين عنصر الضبعانيين الشرقيين وبين سلالة افريقية من سكان البلاد الأصليين. الا أن هذه الامكانية لم يتيّسر له اعتمادها اذ هي في نظره متوقّفة على تواريخ الكربون في مصر العليا التي لم تظهر بعد، وفي حالة صحة هذه الفرضية فان أصل الوهرانيين يكون «من فرع مصر للضبعانيين»[63].

ـ جيان دي سانج: اخصائي فرنسي في تاريخ افريقيا القديم مطلعاً على رأي بالوت السابق كما تدل على ذلك استشهاداته به والاعتماد عليه في بعض الآراء، كتب دراسة بعنوان «البربر الأصليون»[64] تعرض فيها إلى الوهرانيين الذين يعتبرهم شرقيين اذ يقول: «ولم تأت هذه الثقافة من أوربا حيث أنها قامت قبل بداية الملاحة: ... وهناك ما يحمل على الظن بأن أصولها كانت شرقية»[65].

ويورد جيان في دراسته رأياً آخر لـ ج. تكيير J. Tixier الذي يرى أن الثقافة الوهرانية «أتت من شمال سودان وادي النيل»[66] وهنا نلاحظ بعض القرابة بين تكيير وماكبرني في فكرته السابقة.

والخلاصة أن الوهرانيين هم بالتأكيد سلالة مهاجرة، وبالوت نفسه يعترف بذلك ولو بشكل غير مباشر عندما يقول عن صناعتهم انها «لا تعتمد على جذور محلية» ثم ان وجودهم بمصر وبكامل أقطار المغرب العربي وأنهم أيضاً من عنصر غير افريقي يؤيّد بل ويثبت أنهم مهاجرون ولا يمكن الاّ أن يكونوا شرقيين.

أما فيما يخص مصير هؤلاء الشرقيين فان بالوت يذهب إلى أنهم «تمكنوا من البقاء إلى العصر الحجري الحديث»[67] وسايره ابراهيمي كعادته اذ يقول عن انسان مشتى العربي: «فقد عاش هذا حتى العصر الحجري الحديث حيث بقيت آثاره في اقليم وهران ثم اختفى في ما يبدو أواخر ما قبل التاريخ»[68] ويضيف بالوت أنّ الوهرانيين «استطاعوا ان يستعمروا الجزر الخالدات حول نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد»[69] وردد ابراهيمي الفكرة نفسها في قوله: «ويعتقد حالياً أن قسماً من أحفاد انسان مشتى العربي يسكن جزر الكناري»[70].

والحقيقة أن ربط بالوت ومن شايعه بين سكان جزر الخالدات (الكناري) ليس له ما يبرره، ولا يمكن في مجال التقدير العلمي ان نعتمد في هذا الربط على الناحية الانتروبولوجية، اذ هي وحدها غير كافية لاثبات شيء أو نفيه. ولذا وجدنا جيان دي سانج يقول عن الثقافة الوهرانية «وأنه لأمر بعيد الاحتمال جداً أن تكون جزر الكناري كما

هو شائع الآن لا الجوانشيين (Guanches) رغم أنهم مشابهون انتروبولوجيا لرجال مشتى العربي، فانهم لا يماثلون هؤلاء الأخيرين في الحرف الصناعية والعادات»[71].

ويمكن أن نضيف إلى هذا أن اللغة الجوانشية مشابهة للبربرية مما يدل على أنها شعبة من شعب البربر مما ينفي أن تكون لهم علاقة بالشعب الوهراني القديم المنقرض.

الحضارة القفصية:

استمدت اسمها من قفصة الواقعة في الجنوب الغربي لتونس ويعتبرها البعض معاصرة للحضارة الوهرانية ولكن الرأي السائد هو أنها ظهرت بعدها. وفي التحاليل المتداولة تقسم عادة إلى طورين هما: القفصي النموذجي، والقفصي الأعلى.

وهناك خلاف بين الباحثين حولها. فهل هما معاصران لبعضهما أم أن الأول أقدم من الثاني. وأقدم تاريخ سجل للحضارة القفصية كان في الألفية الثامنة قبل الميلاد وامتدت حتى الألف الخامسة(*) عندما طرأ عليها العصر الحجري الحديث.

واذا كانت الحضارة الوهرانية انتشرت أساساً في السواحل فان الحضارة القفصية على العكس منها انتشرت في الداخل ولم يوجد حتى الآن ما يدل على أنها وصلت إلى السواحل»[72].

وهذا ما يجعلنا لا نعير أهمية لتلك الآراء القديمة التي تزعم حيناً بأن القفصيين هاجروا إلى أوربا وأسسوا حضارة الأورينياس L'auriganien بفرنسا، وتزعم حيناً آخر بأن القفصيين من أصل أوربي وهاجروا إلى افريقيا.

والحضارة القفصية بالاضافة إلى منطقة قفصة التي تعد مركزها الأساسي، فهي منتشرة على الحدود التونسية الجزائرية في جهات سطيف وقسنطينة وتبسة ووصلت في تقدمها إلى الغرب الجزائري وجزء من الصحراء، أما المغرب فلم يعثر لها على أثر فيه حتّى الآن[74].

وكما رأينا في الحضارة الوهرانية، فان بالوت في حديثه عن الحضارة القفصية لا يتجاوز تونس والجزائر والصحراء ونجده يدعو إلى الحذر من تجاوز ذلك فيقول:

«وان الأمر يستوجب ملازمة الحذر، والاّ نرتكب الخطأ الذي وقع فيه ر. فوفري بأن مدّد عصره الحجري ذا التقاليد القفصية باضافات متواصلة إلى جزء كبير من القارة الافريقية»[75].

وبقطع النظر عن ر. فوفري وتحليلاته وتوسعاته فان قصر بالوت ومن شايعه للحضارة القفصية على تلك المناطق المذكورة ليس له ما يبرره من الناحية العلمية، فالحضارة القفصية تأكّد وجودها في ليبيا من خلال الحفريات التي قام بها «ماكبرني» في كهف (هوافطيح) حيث عثر في احدى طبقاته التي أطلق عليها الطور الخامس على صناعة حجرية قفصية سماها «الحضارة الليبية ـ القفصية» وهي في نظره متأخرة زمنياً

عن الطور القفصي النموذجي في كل من تونس والجزائر.

والمواقع القفصية كثيرة، وهي عبارة عن تلال صغيرة اهليلجية الشكل متكوّنة من ركامات مختلفة من الرماد والحجارة المحروقة وأصداف الحلزون وعظام الحيوانات وأدوات حجرية وعظمية وبقايا انسانية وتسمى هذه التلال «المحلزات Escargotier» لوجود كميات كبيرة من أصداف الحلزون المستهلك.

وأوّل من سماها بذلك (لاتابي Latapie) والصناعات القفصية متقدمة ومتنوعة بتنوّع طوريها، نجد فيها المكاشط الكبيرة المعقوفة الأكثر انتشارا، ومناقش صغيرة ذات أشكال هندسية مختلفة، مثلثة ومربعة ومنحرفة وأزاميل ومخارز وأدوات عظمية مصقولة تمثل ابرا وسكاكين وقواطع وغير ذلك.

كما استعمل العظم الانساني وبيض النعام للزينة وغير الزينة ويتضح من التحريات ان القفصيين وان كانوا يسكنون العراء فانهم عرفوا سكنى المخابىء الصخرية وسكنى الأكواخ المعدة من القصب والأغصان المدعومة بالطين المشدودة بالجلد[76].

وهكذا نجد ان الحضارة القفصية من الحضارات الهامة في العصر الحجري الأعلى ولا بد لنا أن نتساءل عن صاحبها فمن هو يا ترى؟

الهياكل العظمية المكتشفة في عدد من المواقع تؤكد انثروبولوجيا بأن الانسان القفصي من سلالة مغايرة لانسان مشتى العربي(*) ويصنفه الباحثون ضمن الجنس المسمى: جنس البحر الأبيض المتوسط[77].

وقد تقدم أن هذه المقولة فضفاضة ولا قيمة علمية لها، ولابد من البحث بشكل أكثر دقّة، في ضوء المعلومات المتوفرة عن أصل هذه الفصيلة البشرية بالمغرب العربي فبالوت في دراسته المعتمدة في هذا البحث لا يذكر شيئاً هاماً في هذا الموضوع سوى قوله: «ان صانع حضارة القفصي (الأنموذجي) يكاد يكون مجهولاً لدينا»[78].

وهنا نلاحظ أن هناك اجماعاً على أن الانسان القفصي لا علاقة له بالأجناس السابقة له في المنطقة، واذا كان بعض الباحثين سمحوا لأنفسهم بأن ربطوا انسان مشتى العربي بالعاتري (بالوت) والموستيري (ابراهيمي) فانهم لم يفعلوا ذلك مع الانسان القفصي، فلم يقع ربطه بأية سلالة كانت، وفي هذا دليل على أنه انسان مهاجر.

وهذا ما نجده لدى بعض الباحثين وخاصة «ماكبرني» الذي يقول خلال المدة «10,000–7,000 من الآن حدث تحوّل عرقي آخر نستطيع استنتاجه من التحوّل الراديكالي الذي حدث في الحضارة المادية في تلك الفترة حيث سجّل مجيء شكل ليبي للحضارة القفصية»[79].

ويذكر لهذا المجيء مصدرين:

ـ المصدر الأول:

ايطاليا وصقلية وجزيرة «لوفنصو Levanso» حيث تنتشر حضارة «والايبي قرافيتان Ipo-Gravettian» اذ من المحتمل في رأيه أن يكون القفصيون الأوائل قدموا من هناك إلى تونس ومنها نزح بعضهم في فترة لاحقة إلى قورينه حيث أنشأوا ما يسمى بالحضارة الليبية ـ القفصية والذي أدّى إلى وجود هذا الاحتمال وجود تشابه ـ كما يعتقد ـ في الناحية الفنية والرسوم الهندسية[80] بين الحضارتين القفصية والايبي قرافيتان، ولعلّ الذي حمل «ماكبرني» على هذا الافتراض هو أن «القفصية الليبية» ظهرت متأخرة على شقيقتها في تونس. ودون أن نجادل ماكبرني في هذا، يكفي أن نشير إلى ما سبق ذكره من انعدام الاتصال بين جنوب البحر وشماله قبل ظهور العصر الحجري الحديث وبداية الملاحة.

ـ المصدر الثاني:

آسيا الغربية لوجود حضارات مشابهة وهو ما عبّر عنه بقوله: «والامكانية الأخرى هي أن الحضارة القفصية متفرعة عن آسيا الغربية حيث توجد نماذج أولية نعتقد أنها توجد في حضارات مثل الكبران والسكفتيان Kabaran, Skifitan»[81] وهذه الامكانية الثانية التي يضعها «ماكبرني» في الحسبان واقعية وأكثر معقولية من السابقة ولعله من المفيد أن نذكر أن فوفري يرى ـ حسب ما أورد جوليان ـ أن للقفصي أصولاً في مصر من الأفضل أن يبحث عنها هناك[82].

ويتضّح مما تقدّم أن القفصيين لا يمكن أن يكونوا الاّ هجرات شرقية ما في ذلك ريب.

أما مآلهم فان المخلفات الاثرية تشير إلى أن بعضهم قد استمروا إلى أن طرأ العصر الحجري الحديث في منطقة المغرب العربي بشمال الصحراء وكان القفصي أحد تيارات هذا العصر سماه بعضهم «بالعصر الحجري الحديث ذي التقاليد القفصية» اختلف الباحثون في مدى انتشاره، فبالوت لا يتعدى به حدود مكانه القديم، ويقول ان هذا التيار «لا يمكن ان يتسّع كما أراده ج. كامبس إلى الصحراء الشمالية وأقلّ من ذلك إلى الصحراء الأكثر جنوباً حيث يوجد الفن الجدار بالهقار وبتاسيلي ـ من آجر»[83].

وعلى العكس منه نجد «ابراهيمي» و«هوغو» يعمّمانه إلى شمال الصحراء حيث يمده ابراهيمي من الشرق إلى الغرب بجوار الحجري الحديث ذي التقاليد السودانية متجاوزاً حدود الجزائر حتى المحيط الأطلسي[84].

أما «هوغو» فيرى أن هذا التيار «يتحرك نحو الجنوب فيصل إلى شمال شرقي موريطانيا والهقار حتى منيت حيث ينتشر على سطح مواقع الحجري الحديث ذي التقاليد السودانية»[85].

واذا انتقلنا إلى جهة الشرق إلى قورينه فاننا لا نجد ذكرا للحجري القفصي الحديث، فماكبرني تحدّث في الطور السادس عن تحولات العصر الحجري الحديث في هذه المنطقة ولكنه لم يذكر شيئاً عن القفصيين الذين بدا مصيرهم غامضاً في الكتابات المتداولة، وان ربطهم بالمجموعة البربرية الأولى (اللوبيون) كما فعل البعض ـ كان اعتباطياً اذ ليس هناك من الأدلّة والمعلومات ما يشير إلى ذلك ولا يمكن لمقولة جنس المتوسط ان تنهض دليلاً علمياً على اثبات العلاقة بين الطرفين وسنرى ذلك اعتماداً على الجانب اللغوي بالذات، وما ينفي نفياً قطعياً انعدام الصلة بين المجموعة البربرية الأولى التي عرفت في العصر الحجري الحديث وبين المجموعة القفصية. وهذا يعني انهم انقرضوا تدريجياً.

ومما يشهد بذلك التحول الواسع الذي عرفته المنطقة بشرياً واجتماعياً خلال الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد والذي يمتد من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي اذ لا يعقل لمثل هذا التحول المشهود الكبير أن يكون منبثقاً من جماعات ضعيفة بشرياً وثقافياً كالقفصيين فأهمّ ما ينسب اليهم انهم توصلوا إلى صقل الحجارة والعظام وصناعة بعض النماذج الفخارية.

ثقافات أخرى: إلى جانب الثقافة الضبعانية والوهرانية والقفصية، هناك ثقافات أخرى تنتمي إلى العصر الحجري الأعلى، تحدث عنها علماء ما قبل التاريخ ولم يسندوا لها حتى الآن أي اسم ومعلوماتهم عنها ما تزال محدودة وهي عبارة عن صناعات حجرية متنوعة وجدت في عدة مناطق:

- فهناك صناعات حجرية صفيحية (نوع من النصال) عثر عليها بالجنوب التونسي في قفصة والجريد وقابس، يقول عنها بالوت: (لقد ثبت اليوم بالحجة وعلى أسس طبقية أرضية وجيومرفولوجية ان الصناعات الصفيحية بالجهات التونسية المتاخمة للصحراء (قفصة ومناطق الجريد..) كانت سابقة لكل المراحل القابسية)[86].
- وهناك صناعات اكتشفت بالساحل الوهراني منها سمي (بالكريمي) والكريستيلي وهما حسب بالوت يرجعان إلى الالفية الثامنة[87].
- وهناك صناعات صغيرة ميكروبيتية وقع ادراجها بين الوهرانية والقفصية[88].
- هناك صناعات أخرى ذكرها ابراهيمي عثر عليها في السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي بموقع (الحويته) قرب الاغواط وفي الصحراء الشمالية في موقع (حاسي مويلح) قرب ورقلة[89].

ويتضح من هذا التنوع الثقافي ان القائمة (ما تزال مفتوحة)[90] والباحثون لم يتمكنوا بعد من تحديدها بدقة ومن التعرف على أصحابها وما يهمنا في شأن هذه الثقافات ما قاله

بالوت عن صناعة الصفائح التي عثر عليها بالجنوب التونسي من أنه «ينبغي البحث عن الأصل باتجاه الشرق (برقة، مصر، الشرق الأدنى)»[91] وهذا اعتراف صريح منه بوجود ثقافات قديمة بالمغرب العربي ذات أصل شرقي وان الشرق الأدنى هنا لا يمكن الا ان يكون الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب.

الهوامش:

ـ ملاحظة: نرمز للمرجع: **تاريخ افريقيا العام**، المجلد الأول د دوت ا.ع.ج. 1 والمجلد الثاني بـ (ت.ا.ع) ج 2 في هذا الفصل لكثرة تكرارهما فهما جزءان من موسوعة كبيرة.

1 ـ د. أولدروج: الهجرات والاختلافات السلوكية واللغوية: الوارد في (ت.ا.ع) ج 1 ص: 283.

2 ـ د. أولدروج: الهجرات والاختلافات... المصدر نفسه ص: 283.

3 ـ ألفه: محمد الأمين خلفه ومحمد علي المرابط ومحمد قدره ـ منشورات وزارة التربية القومية ـ تونس 1977 ص: 15.

4 ـ نفس المصدر المذكور سابقاً.

5 ـ Libyan Role in Prehistory (دور ليبيا في فترة ما قبل التاريخ) الوارد في «**ليبيا في التاريخ**» منشورات الجامعة الليبية بنغازي 1968 ص: 6 و8.

6 ـ ديبو: **تونس**ـ تعريب الصادق مازيع ـ الدار التونسية للنشر تونس 1969 ص: 58.

7 ـ ابراهيمي: **تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر** ـ ترجمة محمد البشير شنيتي ورشيد بوروبيه ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982 ص: 86.

8 ـ أنظر على سبيل المثال الفصل 17 من (ت. إ. ع)، ج 1.

(*) ـ القرد الكيني الافريقي اكتشفه ل. س. ب. لايكي بكينيا وبقاياه تعود إلى 20 مليون سنة.

ـ القرد الكيني فيكيري اكتشفه أيضا س. ب. لايكي وبقاياه تعود إلى 14 مليون سنة وموضع اكتشافه في فوترنان بكينيا.

ـ قرد أوريو Oréopithèque اكتشفه جرفي ووصفه الاحاثي السويسري يوهانيس وتعود بقاياه إلى 12 مليون سنة.

ـ قرد راما البنجابي اكتشفت نماذج منه في الصين وتركيا والمانيا واليونان والنمسا واسبانيا والمجر ونظيره في افريقيا القرد الكيني فيكيري.

هذه المعلومات تجدها بصفة عامة في الفصل السابع عشر من ص 417 إلى 420 ـ تاريخ افريقيا العام ج 1 المصدر السابق.

9 ـ ج. دسموند كلارك: افريقيا الجنوبية قبل التاريخ ـ الوارد بـ «ت. إ. ع» ج 1 ص: 501.

10 ـ ل ـ بالوت وواي كوبنس: ظهور الانسان المشاكل العامة ـ الوارد بـ «ت. إ. ع» ج 1 ص: 417.

11 ـ ر. لايكي: البشريات الاحفورية الافريقية ـ الوارد بـ «ت. إ. ع» ج 1 ص: 454.

12 ـ ر. لايكي: البشريات الاحفورية الافريقية ـ الوارد بـ «ت. إ. ع» ج 1 ص: 454.

13 ـ ل. بالوت وواي كوبنس: ظهور الانسان.. المصدر المذكور سابقا ص: 425.

14 ـ ر. لايكي: البشريات ... المصدر المذكور سابقا ص: 459.

15 ـ جاء في قائمة المصطلحات الواردة بـ «ت. إ. ع» ج 1 ص: 444 ما يلي الانسان الماهر Homme-habiles تسمية أطلقها لايكي وتوبياس.

16 ـ ابراهيمي: تمهيد حول... المصدر المذكور سابقا ص: 19.

وتحدث بالوت عن وجود الحصاة في المغرب والجزائر والصحراء ولم يذكر تونس في دراسته: افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ الواردة بـ «ت. إ. ع» ج 1 ص: 575.

وتحدث ماكبرني عن وجود الحصاة بليبيا في دراسة.... Libyan Role المصد المذكور سابقا ص: 1.

17 ـ ر. لايكي: البشريات.. المصدر المذكور سابقا ص: 461.
18 ـ ل. بالوت وواي. كوبنس: ظهور الانسان... المصدر المذكور سابقا ص: 429 ولايكي: البشريات... المصدر المذكور سابقا ص: 459.
(*) أول مرة اكتشف فيها هذا النوع من الصناعة الحجرية كان في (سانت أشول) بضواحي مدينة (أميان) بفرنسا ولذا أطلق هذا الاسم على سائر الانواع المشابهة في كل البقاع.
19 ـ افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ الوارد في «ت. إ. ع» ج 1 ص: 580.
20 ـ ر. لايكي: البشريات... المصدر المذكور سابقا ص: 459.
(*) ـ عرفت هذه الصناعة الحجرية لاول مرة في (موستير) بفرنسا ثم وقع تعميم هذا الاسم.
21 ـ افريقيا الشمالية قبل التاريخ ـ الوارد في «ت. إ. ع» ج 1 ص: 580.
22 ـ افريقيا الشمالية... المصدر نفسه ص: 580.
23 ـ ماكبرني: ...Libyan Role المصدر المذكور ص: 4.
24 ـ طبعت بلندن سنة 1960 بعنوان: The Stone age of North Africa.
25 ـ د. عبد العزيز سالم: **تاريخ المغرب الكبير** ـ دار النهضة العربية بيروت 1981 ج 2 ص: 98.
26 ـ ماكبرني: ...Libyan Role المصدر المذكور سابقا ص: 4.
27 ـ د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب... المصدر المذكور سابقا ج2 ص: 61.
28 ـ افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ ـ الوارد في «ت. إ. ع» ص: 581.
29 ـ افريقيا الشمالية في... المصدر نفسه ص: 581.
30 ـ طه باقر عصور ما قبل التاريخ في ليبيا ـ الوارد في «**ليبيا في التاريخ**» منشورات الجامعة الليبية ـ بنغازي 1968 ص: 28 و29.
30أ ـ افريقيا الشمالية في... المصدر المذكور سابقا ص: 583.
31 ـ قائمة المصطلحات بالمرجع (ت. إ. ع) ج 1 ص: 444.
32 ـ ج. زيربو: من الطبيعة الخام إلى انسانية متحررة ـ الوارد بـ (ت. إ. ع) ج 1 ص: 745.
33 ـ أورد هذا النص (ج. زيربو) في دراسته أعلاه ص: 747 نقلا عن (فسيولود ب. ياكيموق).
34 ـ ل. بالوت وواي كوبنس: ظهور الانسان... المصدر المذكور سابقا ص: 434.
(*) ـ في سنة 1921 عثر على جمجمة وبقايا عظمية في بروكن هيل بزامبيا حاليا (روديسيا الشمالية سابقا) أطلق على صاحبها انسان روديسيا أو الانسان العارف الروديسي اقترح له 35.000 سنة ق. م وقد يكون اكثر من ذلك. ص: 455 تاريخ افريقيا المجلد الاول.
35 ـ ر. لايكي: البشريات... المصدر المذكور سابقا ص: 461.
36 ـ طه باقر: عصور ما قبل التاريخ... المصدر المذكور سابقا ص: 29.
37 ـ يمتد من 120.000 سنة ق. م إلى 15.000 أو 10.000 سنة ق. م.
38 ـ ماكبرني: Libyan Role المصدر المذكور سابقا ص: 4.
39 ـ ماكبرني: Libyan Role المصدر نفسه ص: 5.
40 ـ ماكبرني: Libyan Role المصدر نفسه ص: 28 (المناقشة).
41 ـ أورد طه باقر هذا الرأي بالمصدر المذكور سابقا ص: 37 وأورده رشيد الناضوري في كتابه: تاريخ المغرب الكبير ج 1 ص: 118.
42 ـ كما هو واضح من دراسته: افريقيا الشمالية ما قبل التاريخ المذكورة اعلاه.
43 ـ ماكبرني: Libyan Role المصدر المذكور سابقا ص: 4.
44 ـ ماكبرني: Libyan Role المصدر نفسه ص: 5.
45 ـ **تاريخ افريقيا الشمالية** الذي طبع سنة 1931 ثم طبع طبعة ثانية مزيدة ومنقحة سنة 1951 وهي التي وقع تعريبها ـ ج 1 ص: 55.
46 ـ الميلي محمد ابراهيم: **الجزائر في ضوء التاريخ** ـ مطبعة البعث قسنطينة 1980 ـ ص: 16.
47 ـ تقدم ذكرها.

48 ـ افريقيا الشمالية في... المصدر المذكور سابقا ص: 590.
49 ـ أخذت هذه المعلومات من الميلي محمد ابراهيم ـ المصدر المذكور سابقا ص: 16.
50 ـ يذكر بالوت: أن هذه الصناعة لا توجد بالساحل التونسي وبجنوب وادي مجردة انظر: افريقيا الشمالية في... المصدر المذكور سابقا.
51 ـ أخذت هذه المعلومات من عدة مصادر اعتمدت في البحث.
(*) ـ يذكر ماكبرني انه خلال 10.000-9.000 سنة ق. م انتشرت الحضارة الوهرانية بحذاء الساحل المغربي حتى برقة وحلت محل الضبعانية وربما وصلت إلى مصر السفلى انظر المغرب الكبير ج 1 رشيد الناضوري ص: 118.
52 ـ فرنان دي بونو: وادي النيل قبل التاريخ: الوارد في (ت. إ. ع) ج 1 ص: 648.
53 ـ فرنان دي بونو: وادي النيل... المصدر نفسه ص: 649.
(*) تحدث بعض الباحثين عن سمات «انسان مشتى العربي» ونقطف هنا ما ذكره ك. ابراهيمي في شأنه: «يتصف رأس انسان مشتى العربي بالخشونة للجمجمة شكل مخمّس أو بيضوي، وهي ذات طول أكثر من العرض في نموذج أفالوا وتافورالت بينما عرضها أكثر من طولها في نموذج كلومناطه أما الجبهة فقليلة البروز ومتراجعة نسبياً، وأقواس الحواجب متصلة، وتكون نقطة اتصالها نتوءاً عظيماً بارزاً جداً عند الذكور. يمتاز الوجه بالقصر والعرض. أما محاجر العيون فهي مستطيلة ومتباعدة الذقن بارز جداً أما زوايا الفك الأسفل الداخلية والخارجية فكثيراً ما تكونان منحرفتين والعرف الصاعد للفك الأسفل عال وسميك... كان قويّاً أطرافه طويلة وكتفاه عريضتان.
54 ـ هذا الرأي شائع وهو الغالب ـ موجود ضمن مراجع البحث.
55 ـ افريقيا الشمالية في... المصدر المذكور سابقاً ص: 584.
56 ـ افريقيا الشمالية في... المصدر نفسه ص: 584.
57 ـ افريقيا الشمالية في... المصدر نفسه ص: 584.
58 ـ ابراهيمي: تمهيد حول... المصدر المذكور سابقاً ص: 77.
59 ـ ماكبرني ...Libyan Role المصدر المذكور سابقاً ص: 4.
60 ـ ماكبرني ...Libyan Role المصدر نفسه ص: 4.
61 ـ أورد كل من طه باقر ورشيد الناضوري هذه الفرضية ـ المصدران المذكوران سابقاً ص: 37 وص: 118.
62 ـ الناضوري رشيد: **تاريخ المغرب الكبير** ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1981 ـ ج 1 ص: 65.
63 ـ ماكبرني ...Libyan Role المصدر المذكور سابقاً ص: 5.
64 ـ وردت في (ت.ا.ع) جـ2 الفصل السابع عشر ص: 431.
65 ـ وردت في المصدر نفسه ص: 432.
66 ـ وردت في المصدر نفسه ص: 432.
67 ـ افريقيا الشمالية في... المصدر المذكور سابقاً ص: 584.
68 ـ تمهيد حول... المصدر المذكور سابقاً ص: 77.
69 ـ افريقيا الشمالية في... المصدر المذكور سابقاً ص: 584.
70 ـ تمهيد حول .... المصدر المذكور سابقاً ص: 77.
71 ـ البربر الأصليون ـ الوارد في «ت.ا.ع» ج 2 ص: 432.
(*) ذكر بالوت في دراسته السابقة انه درس مجموعة حلزوزية (بعين ذاكرة جهة تبسه) دلت على اقامة بشرية امتدت من أواسط الألفية السابعة إلى منتصف السادسة قبل الميلاد ص: 586.
وأن القفصي النموذجي يغطي الألف السابعة اعتماداً على التواريخ الراديومترية وان القفصي الأعلى نزل إلى الالفية الخامسة ـ ويذكر ابراهيمي في كتابه السابق ص: 80 ان أبعد تاريخ لموقع عين ناقة (مسعد) القفصي هو 7350 ق.م وآخر تاريخ لموقع قفصي في كلومناطه 4390 ق.م.
ويذكر ماكبرني ان الطور القفصي يقع خلال المدة 10,000-7,000 من الآن أي خلال 8,000-5,000 ق.م وهذه التواريخ كلها متقاربة في تحديد الحضارة القفصية زمنياً.

72 ـ تمهيد حول... المصدر المذكور سابقاً ص: 80.
73 ـ راجع نظرية الاصل الاوربي المتقدمة.
74 ـ ابراهيمي: تمهيد حول... المصدر المذكور سابقاً ص: 80.
75 ـ افريقيا الشمالية المصدر المذكور سابقاً ص: 586.
76 ـ افريقيا الشمالية في... المصدر نفسه 588 (وابراهيم تمهيد حول... ص: 87).

(*) يقول بالوت م. س، ص: 588: «فالانسان القفصي لا ينتسب إلى نوع الكرومانيين الموجود بمشتى أفالو أو مشتى العربي» ـ ك ابراهيمي مصدر سابق ص: 86.

77 ـ هذه الفكرة شائعة ذكرت في نقد أطروحات المدرسة التاريخية الاستعمارية.
78 ـ افريقيا الشمالية... المصدر المذكور سابقاً ص: 586.
79 ـ ماكبرني: ...Libyan Role المصدر المذكور سابقاً ص: 5.
80 ـ ماكبرني: ...Libyan Role المصدر المذكور نفسه ص: 5.
81 ـ ماكبرني: ...Libyan Role المصدر المذكور نفسه ص: 5.
82 ـ تاريخ افريقيا الشمالية... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 54.
83 ـ افريقيا الشمالية في... المصدر المذكور سابقاً ص: 590.
84 ـ ابراهيمي: تمهيد حول... المصدر المذكور سابقاً ص: 121.
85 ـ الصحراء في ما قبل التاريخ الوارد في (ت.ا.ع) ج 1 ص: 607.
86 ـ87 ـ 88 ـ افريقيا الشمالية في... المصدر نفسه ص: 585.
89 ـ تمهيد حول... المصدر المذكور سابقاً ص: 92.
90 ـ افريقيا الشمالية في ما قبل... المصدر المذكر سابقاً ص: 585.
91 ـ افريقيا الشمالية في ما قبل... المصدر نفسه ص: 585.

الجزيرة العربية
مصدر الحضارات والهجرات القديمة

لقد رأينا أن تصنيف البربر ضمن «الحامية» و«الحامية السامية» يعدّ اعترافاً ضمنياً بأنّ البربر هجرات كما أن دراستنا السابقة للنماذج البشرية التي تمّ التعرف عليها في المنطقة تؤكد هي الأخرى أن البربر هجرات. ذلك أن الجماعة الوهرانية كانت من جنس مختلف تماماً انقرض على ما يبدو في حدود العصر الحجري الحديث، وبالنسبة للجماعة القفصية فرغم انها عرفت العصر الحجري الحديث فقد تلاشت بالتدريج، ولا يمكن أن تكون لضعفها ومحدودية ثقافتها ـ أصلاً لزخم بشري هائل متنوّع ومتعدد اللهجات، ينتشر من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي وقد دلت الوثائق المصرية قبيل عهد الأسرات وفي مراحله الأولى على كثرة الجماعات التي تنتشر غرب مصر، هذا فضلاً عن الجماعة القفصية ثبت أنها مهاجرة وأنها مثل الوهرانية شرقية النسب.

وكل هذا يشكل مدخلاً مهماً يوضح أن البربر هجرات وما يهمنا هنا هو أن نعرف مصدر هذه الهجرات لنرى الصورة الواقعية ـ التاريخية لأهم مرحلة تحوّلت معها المنطقة إلى نسق حضاري وثقافي جديدين.

وما دام البربر ليسوا أفارقة جنساً ولغة ولا أوربيين كما سبق ذكره، فهم اذن آسيويون، ولقائل أن يقول من أية منطقة؟

هنا تتجه الانظار إلى الجزيرة العربية لا بحكم سيطرة ثقافتها ولغتها على منطقة الشرق العربي الحالية منذ ما قبل التاريخ بآلاف السنين فحسب، ولكن أساساً بصفتها في نظر الجميع من أهم مراكز الهجرة العالمية وأقدمها في منطقة غرب آسيا(*).

فما هي هذه الجزيرة؟ وماذا يمكن أن نعرف عنها؟ وما الذي جعل منها مصدراً قوياً للهجرات؟ ومتى كان ذلك على سبيل التقريب؟

هذه نقاط هامة، لها صلتها بموضوعنا سنخوض فيها بالقدر الذي أمكن جمعه من المعلومات المتوفرة.

الجزيرة العربية في ما قبل التاريخ:

ليس من السهل اجراء تنقيبات واسعة وعامة في أرض الجزيرة العربية، نظراً لطبيعتها الصحراوية الشديدة ولقساوة ظروفها، وهو ما جعل المجهودات المبذولة في هذه الناحية محدودة، ولذا كانت المعلومات حول عهود ما قبل التاريخ قليلة الا انها ذات أهمية من حيث دلالتها التاريخية، فما عثر عليه من عاديات وأدوات في شتى الانحاء أكدّ انها عرفت الاطوار الحجرية القديمة ومنها العصر الحجري الحديث، فقد عثر على مخلفاته في (الحملة، ورأس عوينات علي، وجنوب دخان من قطر)[1] و(في الكويت والبحرين وحضرموت ومواضع أخرى من الجزيرة العربية واليمن)[2] وكذلك في المنطقة الممتدة بين الاحساء (الهفوف) والحجار في الربع الخالي.

والجزيرة العربية عرفت الاستيطان في هذا العصر ويبدو أنه كان قديماً، فالمظاهر التي عثر عليها بشمال الجزيرة في «كِلوه» الواقعة في سفح جبل (الطبيق) تعود إلى الألف الثامنة قبل الميلاد[3].

كما عثر في البحرين على رؤوس حراب وسكاكين صنعت من الصوّان قدّر عمرها بأنه يتراوح بين 10 و12 ألف سنة قبل الميلاد. «وهي ترجع إلى أواخر أيام الرعي وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة ومن بين ما عثر عليه من هذه الأدوات أحجار سنت وشذبت لكي تكون بمثابة آلات لحصد المزروعات ولقطع الحشائش واجتثاثها من الأرض»[4].

ومن هذه المعلومات يتضح لنا مدى قدم ثورة العصر الحجري في الجزيرة العربية، واذا كان التصحّر وكثافة الرمال قد حجبا عنّا مخلفات هذا العصر، فهناك من الدلائل والمؤشرات ـ كما سنرى بعد حين ـ ما يثبت عراقة هذه الثورة وشمولها واشعاعها، وهي متقاربة زمنياً مع تلك التي وقع التعرف عليها في مناطق الهلال الخصيب.

ففي شمال العراق حدثت ثورة العصر الحجري الحديث في حدود الألف الثامنة قبل الميلاد[5] وتحدّثت وسائل الاعلام في المدة الأخيرة أن التنقيبات في «ملفعات» بشمال العراق ومحافظة «نينوى» كشفت عن قرية زراعية أثرية يعود تاريخها إلى تسعة آلاف سنة قبل الميلاد(*).

وفي أريحا بفلسطين حدث العصر الحجري الحديث في حدود الألف السابعة قبل الميلاد[6]. أما في شمال سوريا في تل مريبط فقد اكتشفت أقدم مستوطنة سكنية قبل الاعلان عن قرية ملفعات الأثرية يعود تاريخ هذه المستوطنة إلى الألف التاسعة قبل الميلاد(*).

وبصفة عامة فانّ الباحثين يجمعون على أنّ أقدم ثورة للعصر الحجري الحديث كانت في الشرق الأدنى في حدود ما بين 10 و8 آلاف سنة قبل الميلاد، وهي أغنى وأكمل ثورة حجرية عرفتها المعمورة وذلك لما تهيّأ لمنطقة الشرق الأدنى لم يتهيّأ لغيرها، فلقد

عرفت الاستيطان واستئناس الحيوانات والاشتغال بالزراعة وصناعة الفخار إلى جانب تقنيات جديدة في صناعة الحجارة وصقلها تمشياً مع هذا التحوّل.

وبالطبع فان الجزيرة العربية تحتل مكان الصدارة في الشرق الأدنى وهو ما يؤكد على أنها والهلال الخصيب خضعا معاً لتطورات داخلية مشتركة ساعد عليها التكامل الجغرافي وجسّمها ذلك التشابه الحضاري العريق، فالاثريون يذكرون أن الأدوات الحجرية التي عثر عليها في اليمن وحضرموت هي من النوع الموجود في فلسطين وبلاد الشام[7].

كذلك عثر على أدوات من الصوان في الربع الخالي وفي حضرموت تابعة للعصر الحجري المعدني (الكالولتيك chalolithic) وهي من النوع الذي عثر عليه في جنوب فلسطين[8].

ويقول الاثري أحمد فخري: «فانّ أمامنا حقيقة ثابتة، وهي وجود ثقافة من العصر الحجري القديم في بلاد العرب، وأن هذه الثقافة تشبه إلى حدّ كبير ما عثر عليه في افريقيا[*] (يقصد أساساً افريقيا الشرقية) كما تشبه أيضاً ـ مع اختلافات غير قليلة ـ ما عثر عليه الباحثون من رجال عصر ما قبل التاريخ في سوريا والعراق»[8أ].

وكل هذا يوضّح أن المنطقة العربية خضعت منذ أقدم عهودها إلى عوامل ثقافية متشابهة، ومن غير شك فان تحولات العصر الحجري الحديث والتطورات اللاحقة له كانت العامل الرئيسي في ما تجلى من تشابه ووحدة حضارية ظلت ماثلة إلى اليوم مع تنوّع مضمونها واتساع مداها. هذا وانّ الجماعات التي عرفت في العصر الحجري الحديث في المنطقة قديمة بها ومنحدرة من العصر الحجري الأعلى، وهي التي صنّفها البعض في ما بعد ضمن «جنس البحر الأبيض المتوسط» وأطلق عليها «الشعوب السامية» ولم يعد أحد يبالي الآن بتلك الآراء التي كانت تزعم أنّ أصل الساميين من موطن خارج الجزيرة العربية، هذا لا يؤكده الاثريون وعلماء ما قبل التاريخ وحدهم بل وأيضاً الباحثون في ما سمي بالغات السامية ذات الأصول ما قبل التاريخية وفي مقدمتهم الانكليزي سايس Sayce ولعلّه أول من أعلن ذلك في كتاب ألّفه في قواعد اللغة الآشورية ظهر سنة 1862 قال فيه:

«ان جميع التقاليد السامية تدل على أن الجزيرة العربية هي موطن الساميين الأول، فانّها البلاد الوحيدة التي بقيت سامية أي لم يؤثر فيها نفوذ أجنبي يخرجها عن طبيعتها وأنّ ميزات الجنس السامي التي منها القوّة في العقيدة الدينية والشجاعة الخلقية وقوّة الخيال لابدّ أن يكون مصدرها الصحراء»[9].

وينسب ذلك إلى شريدر Schrader أحد علماء الألمان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أنه كان يعتبر بلاد العرب مهد جميع الأمم السامية قبل تفرقها وقد تبيّن له من دراسته لتاريخها ومن بحثه في «العلائق الدينية والجغرافية واللغوية التي كانت تربط

الأمم السامية بعضها ببعض»[10].

درجة التطوّر الاجتماعي والثقافي في الجزيرة:

الوحدة الحضارية المشار اليها، هي من ناحية نتيجة لمخاض طويل الأمد وهي من ناحية ثانية مظهر لتطور اجتماعي وثقافي تعود أولياته إلى ما قبل عهد التدوين (حوالي 3000 ق.م) بآلاف السنين وما زلنا في الوقت الحاضر نفتقر إلى المعلومات التي تجعلنا على بيّنة من الظروف والكيفية التي نجم فيها هذا التطوّر ذلك أن الجزيرة العربية ما زالت تشكو نقصاً أساسياً في التنقيبات الاثرية وفي الدراسات الاحاثية والبنولوجية والرسوبية، ولكن هذا لا يعني أن التصحّر الرهيب قد أفقدنا كل شيء. فهناك دلائل ومؤشرات يمكن الاستعانة بها في معرفة درجة هذا التطور في تلك العصور الغابرة.

ومن هذه الأدلّة والمؤشرات ما يلي:

1 ــ قدم ظاهرة الاستيطان بالجزيرة العربية كما تدل على ذلك مخلفات «كلوه» التي يعود تاريخ الاستيطان فيها إلى الألف الثامنة قبل الميلاد[11]، بل هو أقدم من ذلك اذا أخذنا بعين الاعتبار تلك الأدوات المكتشفة في البحرين وما قاله البعض عنها من أنها تعود إلى بداية الاستيطان والاشتغال بالزراعة وأن عمرها يتراوح ما بين 10 و12 ألف سنة قبل الميلاد[12] كما عثر على آثار قرى سكنية بالقطيف والاحساء لم يحدد زمن ظهورها.

وفي هذا ما يشير إلى ان الاستيطان قديم ومنتشر بالجزيرة العربية.

2 ــ وفي حديث الباحثين عن الهجرات المنطلقة من الجزيرة العربية من جنوبها نحو العراق ومصر ما يؤكد أنها ذات رقيّ وتقدّم.

يقول الاثري الدكتور أحمد فخري «ليس من المعقول أن يتمكن المهاجرون من فرض أنفسهم على شعب ذي حضارة مثل السومريين الاّ اذا كان هؤلاء المهاجرون قد وصلوا إلى مرحلة من التقدّم تجعلهم يعرفون كيف يستفيدون من غيرهم وتصبح لهم السيطرة على البلاد، وأن تظلّ لغتهم الأصلية وكثير من مظاهر ثقافتهم ملازمة لهم قروناً طويلة فان هذا التماسك وهذه المحافظة على الميزات دليل على أن الساميين الذين وصلوا إلى العراق قبل خمسة آلاف عام من جزيرة العرب لم يكونوا قوماً بدائيين بل كانوا ذوي ثقافة خاصة ولهم نظمهم وحياتهم الاجتماعية»[13].

وبالنسبة لمصر يقول الدكتور فخري أيضاً:

«وهناك حقيقة مهمة وهي أنه في الألف الرابعة قبل الميلاد وصلت هجرات من جنوب بلاد العرب إلى مصر وكان هؤلاء المهاجرون على قدر غير قليل من الثقافة»[14].

فهذه الثقافة التي حملها المهاجرون معهم وطبعوا بها البيئات الجديدة التي استقروا بها (العراق ــ مصر) تعتبر جزءاً من ثقافة أوسع وأعمق ظفر بها أصحابها في الموطن الأصلي بعد تجارب طويلة وصراعات قاسية ضد الطوارىء المناخية وفيها أيضاً (أي في

ثقافة المهاجرين) ما يشير إلى أسبقية الجزيرة على سائر المناطق الأخرى وأن خبراتها ومكتشفاتها كانت الأساس الأول لتلك الحضارات التي أُبدعت في كل من العراق ومصر اذ أنّ وصول الهجرات اليهما كما في النصين كان قبل 5 و4 آلاف سنة قبل الميلاد قبل نشوء الحضارة فيهما بزمن طويل.

3 ــ بدأت ثورة العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى عامة في الفترة ما بين 10 و8 آلاف سنة قبل الميلاد ومن المؤكد أن الانسان في الجزيرة العربية، إلى حدود هذا التاريخ، قد عرف الحبوب من قمح وشعير وذرة، وصار يميزها ويفصلها عن غيرها، ويعرف مواسم ظهورها.

فمن الجائز أن الجفاف ــ الذي لم يعرفه قبل 20 ألف سنة ــ كان دافعاً لتوجيه نظره نحو تلك الحبوب للانتفاع بها، وهذا بدوره يؤدي إلى الانتقال من الانتفاع بتلك الحبوب في حالتها البرية إلى الانتفاع بها عن طريق الزراعة.

فالجزيرة العربية كما يبدو قد تهيأت بحكم موقعها الجغرافي وأعمال الجفاف المبكرة لأن تنتقل قبل غيرها إلى مرحلة الرعي والزراعة، وهذا ما يؤكده بعض العلماء الدارسين لتقلبات أحوال المناخ العالمية والمهتمين بأثر الجفاف على الجزيرة العربية ومن هؤلاء:

فايلد الذي يقول: «ونحن الآن على أبواب انقلاب عظيم اذ سنجد بعد قليل جماعات من البشر، هم المهيمنون على موارد عيشهم بحيازتهم على الحيوانات المدجنة وزراعة الحبوب. ولا بد لنا من أن نربط ذلك الانقلاب بالأزمة التي سببها ذوبان الثلوج الشمالية وما استتبع ذلك من تقلص ضغط القطب الشمالي وتحوّل أعاصير الأمطار من المنطقة جنوبي البحر المتوسط إلى دورتها الحالية في أوربا الوسطى»[15].

وليون كيتاني الايطالي الذي يقول: «وكان الناس يعيشون من صيد السمك ويسكنون متفرقين متباعدين، ولذلك يمكن القول ان سكان الجزيرة ظلوا على حياتهم هذه إلى أن أخذوا يشعرون بقلة الزاد والمحصول بسبب ندرة الأمطار فانصرفوا إلى تدجين الحيوانات البرية ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع»[16].

وتويني الانجليزي الذي يقول: «هذا الجفاف استثار للجماعة البشرية من جانب البيئة الطبيعية الآخذة في الجفاف، فانتقلت تلك الجماعات البدائية من طور الصيد وجمع القوت في العصور الحجرية القديمة إلى طور انتاج القوت أي الزراعة وتدجين الحيوانات والى طور الحضارة أيضاً»[17].

ولا يغرب على البال، من الناحية الجغرافية ان منطقة الهلال الخصيب تشكل مع الجزيرة العربية وحدة جغرافية متكاملة، وأن صحراء الشام، باطن الهلال، جزء من صحراء الجزيرة وامتداد لها اذ لا توجد حواجز طبيعية بينهما، وهذا ما جعل الهجرة والتنقل من السمات المميزة لهذه المنطقة وانها بالأساس كانت من الجنوب إلى الشمال كما

هو ثابت تاريخياً.

ويقول العالم الايطالي «موسكاتي» في هذا الصدد «ان المناطق الثلاث الجزيرة العربية وسورية ومن ضمنها فلسطين وبلاد ما بين النهرين، كلّها تكوّن وحدة جغرافية مترابطة الأجزاء وكانت في تلك الأزمان مسرحاً رئيسياً للنشاط البشري»[18].

ويضيف: «والمنطقة بأسرها كانت مفتوحة ومكشوفة أمام أهل جزيرة العرب، بحيث كان يسهل عليهم التوغّل في جميع الجهات وهكذا فقد انصبت عليها موجات الهجرة المتتالية لما تخللته من مغريات الخصوبة ووفرة وسائل العيش»[19].

4 ـ ان الباحثين الذين تناولوا مصر في زمن قبل التاريخ ذكروا أنها انتقلت إلى العصر الحجري الحديث في حدود الألف الخامسة قبل الميلاد، وفيه مارست زراعة الحبوب من قمح وشعير وذرة وتربية الحيوانات من ضأن وماعز وبقر، وهذه كلّها لم تكن موجودة في مصر وانما انتقلت اليها من الجزيرة العربية التي توصلت في مرحلة سابقة إلى تأهيل النباتات والحيوانات المذكورة.

وهذا أيضاً ما نبّه اليه «شوينفرت» الذي يرى «أن الشعير والذرة الرفيعة والقمح وتأنيس الماشية والماعز والضأن وان ظهرت كلها في مصر وبلاد ما بين النهرين من أقدم العهود غير المدونة لا توجد في حالتها البرية الطبيعية في مصر بل في بلاد آسيا الغربية وبخاصة في بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة وهو يستدل على هذا أن الحضارة ـ وهي هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة ـ قد ظهرت في العهود القديمة غير المدونة في بلاد العرب ثم انتشرت منها في صورة «مثلث ثقافي» إلى ما بين النهرين (سومر وبابل وآشور) والى مصر»[20].

وهذا اعتراف صريح بأن الجزيرة العربية تمثل المنبع الأول لنشوء الحضارات القديمة في كل من العراق ومصر واليمن.

5 ـ تميزت الجزيرة العربية في عهودها القديمة بظاهرة «نظام الإرواء» المتمثل في التحكم في المياه وتصريفها لأغراض فلاحية وغيرها، سواء كانت هذه المياه مصدرها السيول أو الينابيع أو الأودية.

فقد أكدت المعلومات الاثرية انتشار السدود والصهاريج والري من الآبار بواسطة الأنابيب الخزفية والمعروف ان هذا النظام من الارواء اشتهر به القسم الجنوبي من الجزيرة العربية ومن بين السدود المشهورة سد مأرب وسد الخانق وسد سيان، وسد جيره وسدود يحصب التي يقال انها بلغت 80 سداً، وفيها يقول الشاعر:

وفي البقعة الخضراء من أرض يحصب ... ثمانون سداً تقذف الماء سائلاً

وغير ذلك من السدود الأخرى الكثيرة العدد[21].

وظاهرة نظام الارواء لم تتوفر معلومات دقيقة عن زمن ظهورها فما نعرفه أن سد مأرب الشهير بني في القرن الثامن قبل الميلاد ودام قرابة 1300 سنة، وأن الصهاريج

التي اشتهرت بها عدن(*) والمبثوثة بين شعاب الجبال المجاورة لها من الناحية الجنوبية الغربية، ينسبها بعضهم إلى الحميريين في القرن الأول الميلادي[22].

ويعود بها البعض إلى تاريخ أبعد من هذا إلى 1500 ق.م[23] والواضح أن تقسيمات سد مأرب وتقنياته المتطورة تؤكد أن نظام الارواء قديم وأن صورته البدائية قد تكونُ أكثر ايغالاً في التاريخ مما نتوقّع ومن الجائز أنّ اليمن والمناطق الجنوبية قد أخذته عن غيرها أو نقلته اليها جماعات كانت توصلت إلى معرفته بحكم ظروفها وظروف البيئة التي كانت تعيش فيها.

وممّا يؤيد هذه الاكتشافات الآثرية المهمة في العربية السعودية ما ذكره جواد علي من أن «رجال شركة النفط العربية السعودية الامريكية عثرت حديثاً على صهاريج أرضية متصلة ببعض أنفاق وعليها فتحات من مواضع متحددة لاستسقاء الماء منها، عثر عليها في القطيف والاحساء وفي الفلج وأواسط نجد وأماكن أخرى تعد اليوم من المناطق الصحراوية. كما وجدوا على مقربة منها آثار قرى كانت عامرة ومزارع واسعة»[24].

ثم يردف جواد علي قائلاً: «لم يكن يعرف العلماء سابقاً أن أواسط شبه جزيرة العرب والأقسام الشرقية منها كانت تستخدم هذا النوع من نظام الارواء، بل كان المعروف أن الصهاريج المرتبطة بأنفاق انما كانت تستخدم في الشام وفي فلسطين وايران والأقسام الشمالية في العراق»[25].

وتتميّز الجزيرة العربية بشبكة هامة من الأودية تقطعها في اتجاهات مختلفة بعضها من الأودية الكبيرة[26] يقارب طولها حوالي 1000 كلم، ويعتقد عدد من الباحثين أنها كانت في ما مضى متدفقة بالمياه.

يضاف إلى هذا وجود عدد هام من البحيرات منها ما جفّ واندرس ومنها ما يزال باقياً إلى اليوم.

وهذا يعني أن الجزيرة العربية توفرت فيها الأرضية المناسبة لنشوء نظام الارواء كما أنّ حالة الجفاف والتصحّر من شأنها في ظل هذه الوضعية، دفع الانسان إلى التفكير في مثل هذا النظام حفاظاً على حياته.

وبناء على هذا فقد «اتخذ أصحاب النظرية القائلة بأثر الجفاف في شبه جزيرة العرب من وجود هذه القنوات للارواء في مناطق صحراوية دليلاً على تأييد نظريتهم في جفاف جوّ شبه جزيرة العرب»[27].

ويرى حسن ظاظا أن «الساميين عرفوا أول ما عرفوا النهر لا الجبل اذ عاشوا في النهرين الكبيرين اللذين كانا يشقان شبه الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها»[28].

والذي يستخلص من هذا كله أن الجزيرة العربية أسبق في اكتشاف نظام الارواء من غيرها ومنها انتقل جنوباً إلى اليمن وشمالاً إلى الشام والجهات الأخرى، ومما يؤكد هذا كثرة المفردات والمصطلحات التي تزخر بها لغاتها، وهو ما لاحظه الدكتور جواد علي وعبّر

عنه بقوله: «وتدلّ كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود والمسالك والنحايت وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء»[29].

وهكذا نصل إلى نتيجة سبقت الاشارة اليها، هي أن الجزيرة العربية كانت المسرح الأول لنشوء الحضارات الزراعية القديمة، وهذا ما يجزم به الدكتور أحمد سوسة في كتابيه «حضارة العرب ومراحل تطوّرها عبر العصور ـ 1979» و«تاريخ حضارة وادي الرافدين ـ 1983» اذ يحوصل حضارة العرب في ثلاث مراحل: الأولى نشأت في الجزيرة العربية، والثانية في بلاد وادي الرافدين بعد ان انتقلت اليها من موطنها الأول مع القبائل المهاجرة، والثالثة كانت في جنوب الجزيرة. وهو في هذا التحليل يلتقي مع ما يقوله شوينفرت من أن الحضارة ظهرت في العهود القديمة في بلاد العرب ثم انتشرت منها في شكل مثلث ثقافي إلى ما بين النهرين ومصر[30].

6 ـ من الموضوعات التي يمكن اثارتها في هذا السياق للتدليل على ما يمكن أن يكون قد تحقق من تقدم في الجزيرة العربية، موضوع التكوين الاجتماعي للانسان في عصر ما قبل التاريخ عامة حيث أن التطور لم يشمل الجانب المادي والثقافي فحسب ولكن أيضاً الجانب الاجتماعي، تمثل ذلك في ظهور المجتمع الأبوي الذي يعتبر الرجل الركيزة الأساسية في بنائه، والمعلومات المستقاة من الاثريات أو من مصادر أخرى تشير في الألف الرابعة قبل الميلاد إلى أن المشتغلين بالزراعة في مصر أو في بلاد ما بين النهرين[31] كانوا منظمين اجتماعياً في أسر أبوية. وأن هذا التنظيم ليس وليد هذه الفترة وانما يعود إلى عهود أقدم.

ومن الواضح أن الجزيرة العربية كانت البيئة الأولى التي عرف فيها المجتمع الانساني أسرة الأب، ولكن سبق هذا الانتقال عهد كانت السيادة فيه لمجتمع الأم، والجزيرة العربية مثل غيرها عرفت عهد الأمومة، والشواهد على ذلك عديدة، ولكن تنقصها المعلومات التي تمّ بها هذا التحوّل وكيف أخذت أسرة الأم تتراجع وتختفي شيئاً فشيئاً تاركة المجال لأسرة الأب التي مثلت انقلاباً نوعياً في الأوضاع القديمة وفي ميدان الحقوق والواجبات ولا مفر لنا، نظراً لقدم التحوّل في الجزيرة العربية، من الاستعانة بما أنجز من دراسات حول الجماعات البدائية التي عرفت في أمريكا واستراليا وأفريقيا ومناطق أخرى والتي من شأنها أن تمدّنا ببعض المعلومات التي تساعد في معرفة المرحلة التاريخية الهامة لظهور أسرة الأب.

والمستخلص من هذه الدراسات هو أن أشكال الزواج والنظام العائلي مرتبطان بمجمل الأوضاع الاجتماعية والمادية للانسان البدائي، وكان ماركس يعتبر وضع الهنود الحمر البدائي «المفتاح لفهم ماضينا بالذات»[32].

والرأي لدى الدراسين أن جميع الشعوب عرفت هذين الدورين: الأمومة

والأبوة، ومنذ أن ظهرت العشيرة فان الأم سواء في ظل الزواج الجماعي أو حتى في ظل الزواج الثنائي المرحلة التالية كانت لها السيادة، ومن الطبيعي أن يعترف لها بذلك لعلاقتها المتميزة بالابناء ولأنه يتعذر معرفة أبيهم بحكم اتصال المرأة بأكثر من رجل.

ولذا فان العشيرة في هذا الطور البدائي تقوم على الانتساب إلى الأم، وترتب على هذا النوع من التنظيم حقوقاً معينة تتعلق بالارث. ففي الأول ترث الجماعة أو العشيرة ما يتركه الهالك، وفي مرحلة الزواج الثنائي. فان الارث للأقارب من ناحية الأم.

واذا كان الأمر هكذا فما الذي أدى إلى زعزعة هذه الوضعية والى انتقال السيادة وما رافقها من تغيير في الحقوق والواجبات من المرأة إلى الرجل ومن الأم إلى الأب. انّ الأمر كما سبقت الاشارة إلى ذلك ـ يكمن عامة في تطور الحياة المادية للمجتمع البدائي.

وأهم انقلاب عرفته العصور الحجرية القديمة تمثل في تحوّل الجماعة من مرحلة تحصيل القوت إلى مرحلة إنتاجه، وهي المرحلة التي أخذ فيها الانسان يقوم بتدجين الحيوانات وممارسة الزراعة، ونجم عن ذلك تطور في العلاقات الاجتماعية كان من ضمنها ظهور الملكية الخاصة، والمعروف أن قطعان الماشية كانت ملكية خاصة لرؤساء العائلات، وقد أدى هذا التطور إلى تقوية مركز الرجل شيئاً فشيئاً والى الغاء حق الارث السابق بتحويله إلى أبناء الزوج حيث أبوهم بات معروفاً وأن ما يملكه والدهم لا يمكن أن يؤول لغيرهم من أقرباء الأم.

وهكذا وفي ظل هذه العوامل التاريخية ظهرت أسرة الأب والأسرة البطريركية على نطاق واسع. ويمكن تحديد تاريخ هذا الظهور بفترة العصر الحجري الحديث.

ومن هنا نعرف قدم أسرة الأب في الجزيرة العربية وهي من حيث ما آلت اليه من زواج أحادي كانت قفزة بالرغم من تدني وضعية المرأة التي سببها ليس الزواج الأحادي كما قد يتبادر إلى الذهن وانما الملكية الخاصة والتحكم في الناحية الاقتصادية الأمر الذي عزز من نفوذ الرجل وزاد من قوّة مركزه الاجتماعي.

ومما يؤكد ظهور أسرة الأب قديماً في الجزيرة العربية وما حولها، قصة آدم المتداولة في الكتب الدينية، بدءاً من التوراة فهذه القصة تقوم أساساً على ابراز مكانة آدم في الخليقة بصفته أبا للبشرية جميعاً، وأن حواء الأقل شأناً لا تبرز قيمتها إلا من حيث هي ضرورة للنسل وتعمير الأرض اذ هي ليست ذات رسالة أصلاً وانما من متطلباتها.

ومن هنا فان هذه القصة بصفتها انعكاساً لظروف في أذهان الناس ليس الا تعبيراً عن سيادة مجتمع الأب الذي أدّى إلى انتصار الرجل وجعله الخليفة ومركز الكون.

أما المرأة فقد انحدرت في هذا المجتمع الجديد وفقدت ما كانت تحظى به من مكانة واعتبار قوي في مجتمع الأم، كما يتضح لنا أيضاً أن آدم ما هو الا انسان العصر الحجري الحديث لا بصفة رمز انتصار أسرة الأب فقط، ولكن أيضاً لكونه حسب القصة ـ امتهن العمل الفلاحي بزراعة الحنطة التي نزلت عليه[33].

وكانت هذه القصة شائعة من قبل أن تدوّن في التوراة بزمن طويل في نقش سومري يعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد.

ويذهب أحمد سوسة إلى أن السومريين أخذوها عن الساميين وأنهم أبدلوا شجرة التفاح بشجرة النخيل تمشياً مع بيئتهم في جنوب العراق حيث يوجد شجر النخيل[34].

طبيعة الجزيرة العربية والتطورات المناخية:

عرفنا الآن أن الجزيرة العربية ليست بلاد التصحّر فحسب ولكنها أيضاً بلاد الحضارة القديمة في طورها المبكر (ممارسة الزراعة وتربية الماشية) وكانت ـ كما تؤكد ذلك أدلة مختلفة ـ النقطة التي أشعت على ما حولها والمهد الذي انبعث منه أقوى الثقافات في عصور ما قبل التدوين مما جعل لها الغلبة على امتداد تاريخها الطويل.

هذه الجزيرة تعرضت إلى تغيرات مناخية كبيرة فأثرت على طبيعتها وعلى حياة الانسان فيها الأمر الذي يتعين علينا معرفته لعلاقته بحركة الهجرة وظروفها. وما جد بالجزيرة العربية من تغيرات مناخية وبيئية وانما هو نتيجة لتلك التبدّلات الكبرى في الجو العام للكرة الأرضية.

والمعروف أن الجيولوجيين يقسمون الزمن الجيولوجي لعمر الأرض إلى أربعة دهور جيولوجية، ويقسّم كل دهر إلى طبقات وأطوار مختلفة(*).

ولذا نجدهم يقسمون الدهر الرابع الأخير إلى طبقتين: البليستوسين Pléistocene والهولوسين Holocène وقد اختلف المختصون في تقدير زمن البليستوسين وبدايته، وبالنظر لما جاء في مؤتمر الجمعية الدولية لبحوث الدهر الرابع المنعقد سنة 1955 فقد حدّد بدايته بـ: 1.800,000 سنة ونهايته بالحقبة الهولوسية التي تبتدىء منذ 10.000 سنة قبل عهدنا.

والبليستوسين يعتبر أحدث تاريخا في عمر الأرض قد عرف فيه النوع الانساني والاحوال المناخية والبيئة تطورات في غاية الأهمية.

ويقسم عصر البليستوسين الى قسمين كبيرين: ما قبل التجمدات الكبرى وهي حقبة تاريخية طويلة تميل الى الدفء، والتجمدات الكبرى التي عرفتها الكرة الأرضية والتي تبتدىء حسب أغلب التقديرات منذ 600.000 سنة.

وقد تمكن العلماء من التعرف على اثنتي عشرة موجة هامة من البرد نتيجة تحليلهم للترسبات المتراكمة باستمرار في أعماق البحار «ولم يعرف منها سوى ثمان في الترسبات القارية بأوربا الشمالية»[35].

وتميزت الـ 600.000 سنة البليستوسينية بتقلبات مناخية واسعة وبزحوفات جليدية كبرى شملت تقريبا سبع الكرة الأرضية وكان سمك الكتلة من الجليد في بعض الأحيان تبلغ ميلا أو أكثر[36] وبذلك غطت هذه الزحوف معظم النصف الشمالي للكرة

الأرضية فشملت مساحات واسعة من آسيا وأوربا وأمريكا.

وما زال التصنيف الكلاسيكي الذي وضع في اوائل هذا القرن من قبل العلماء البيولوجيين معتمدا لدى الباحثين والدارسين من مختلف المشارب حيث تمكن من تحديد أربعة أدوار أو زحوف جليدية ثلجية بدراسته لمنطقة الألب ولا سيما الأودية.

وتزامنت هذه الأدوار الجليدية مع فترات أمطار غزيرة متداخلة في المناطق المدارية، أي أن كل دورة جليدية تهيمن على القارة الأوربية وخطوط العرض الشمالية، تقابلها دورة مطيرة في أفريقيا والجزيرة العربية وايران وكلما تلقّصت الثلوج وتراجعت الى الشمال أي أخذت تذوب وتغمر البحر بكميات هائلة من المياه قابل ذلك أيضا في المناطق المدارية والاستوائية مناخات دافئة وجافة أصبحت تعرف باسم «الفترات الدافئة» أو «الفترات ما بين الجليدين».

والأدوار الجليدية المشار اليها الأربعة هي:

	بدايتها	نهايتها	مدتها
1 ـ دورة (كنتز Guns)	600.000	540.000	60.000
الفترة الدافئة الاولى (كنتز ـ مندل)	540.000	480.000	60.000
2 ـ دورة (مندل Mindel)	480.000	430.000	50.000
الفترة الدافئة الثانية (مندل ـ رس)	430.000	240.000	90.000
3 ـ دورة (ريس Riss)	240.000	180.000	60.000
الفترة الدافئة الثالثة (ريس ـ روم)	180.000	120.000	60.000
4 ـ دورة (ورم Wurme)	120.000	180.000	102.000

الفترة الدافئة الرابعة 18.000 قبل الميلاد ما تزال متواصلة.

الجدير بالذكر أن هذه الدورات الجليدية حدثت أيضا خلال الزمن المغناطيسي «برونس» والعصور المغناطيسية بحسب ترتيبها من الأقدم الى الأحدث هي:

جلبار من (ـ 5,4 مليون سنة) الى (ـ 3,32 مليون سنة)

كوس من (ـ 3,32 مليون سنة) الى (ـ 2,43 مليون سنة)

ماتوياما من (ـ 2,43 مليون سنة) الى (0,69 مليون سنة)

برونس من (ـ 0,69 مليون سنة) قبل الميلاد.

في «جلبار» الاتجاه المغنطيسي الى الجنوب وفي «كوس» الاتجاه الى الشمال وفي «ماتوياما» الاتجاه الى الجنوب وفي «برونس» الاتجاه الى الشمال.

والملاحظ في هذا السياق، انعدام الدراسات العلمية المحددة لتطورات المناخ في

الجزيرة العربية على غرار ما حصل في أفريقيا التي حظيت فيها مناطق كثيرة بمثل هذه الدراسات كما في التشاد وبلاد العفر وشرقي أفريقيا ووادي النيل التي تحدد فيها تطور المناخ بناء على عوامل قارية داخلية قائمة على تسلسل الترسبات والتحفرات النهرية وعلى أحوال البيئة النباتية والحيوانية، كما يتحدد هذا المناخ أيضا بالقياس الاشعاعي والمغناطيسي الطبقي (*) مما يمكن في النهاية من وضع سلم يبرز مختلف الظواهر المناخية التي عرفتها الجزيرة العربية في عصر البليستوسين.

واذا كنا نسلم بأن مثل هذه الدراسات يجب أن تكون الأساس الاول في معرفة المناخات وتغييراتها. ونعترف كذلك بأنه لم يتم بعد اقامة الدليل القاطع على اثبات الصلة بين ما جد من أحداث مناخية في أفريقيا والشرق الأدنى وبين ما طرأ في أوربا وفي النصف الشمالي للكرة الارضية من تحولات مناخية كبرى، ولكن هذا لايعني النفي لاية صلة بينهما، فالمختصون الذين قاموا بدراسات في العديد من المناطق الافريقية، رغم تحفظهم واعتمادهم على المعطيات الداخلية فانهم لاحظوا في كثير من المرات ذلك الارتباط(*). وهذا يرجع الى أن التجمدات الكبرى بأوربا كانت ذات طابع عالمي وليس محليا، وهو ما يجعل الفترات المطيرة والجافة في أفريقيا والشرق الأدنى عامة متأثرة بها وخاضعة بشكل أو بآخر لتقلباتها.

ولذا فانه يمكن لنا أن نتناول الوضع في الجزيرة العربية من خلال الاطار العام لهذه المعطيات وما عرفته في عصر البليستوسين والهولوسين من فترات طويلة مطيرة وأخرى جافة(*).

ومعنى ذلك، وانطلاقا من التجمدات الكبرى وتأثيرات العالمية (كنز، مندل، ريس، ورم الالبيه) عرفت الجزيرة العربية مثل غيرها من المناطق المشابهة لها أربع فترات مطيرة، وأربع فترات جافة خلال مدة 600.000 سنة البليستوسنية، أي أنها شهدت أجواء ملائمة من الرطوبة وغزارة الامطار وخصوبة النباتات والمناخ المعتدل كما شهدت الجفاف وقلة الامطار في الفترات الدافئة.

ونظرا للموقع الجغرافي الذي جعلها والنصف الجنوبي لافريقيا بعيدين عن التيارات الثلجية الكبرى وهو ما وفر المناخ المناسب لحياة الانسان في تلك المراحل الحجرية.

ولذا فان بعض العلماء يرجح بأن الانسان المستقيم: Homme - Érectu ظهر في الجزيرة العربية أي أنها كانت مسرحا لاحدى المراحل الهامة للتطور البيولوجي للنوع الانساني ومنها انتشر الى أصقاع المعمورة، ولكن المؤسف ان التصحر الذي يكاد يكون تماما وكذلك عدم الاقبال على انجاز بعض الحفريات والدراسات لحالة البيئة القديمة حال دون الظفر بمعلومات أساسية عن العصور الحجرية الأولى، وان كانت المعلومات التي بدأت تتوفر الآن رغم محدوديتها تأتي مرجحة بل مؤكدة على الأهمية الفائقة للجزيرة العربية في عصر البليستوسين.

ويهمنا في هذا المجال أن نتوقف عند الدورة الدافئة الاخيرة المتزامنة مع دورة «ورم» الجليدية والتي دامت حسب معظم التقديرات حوالي 100 ألف سنة (من 120,000 الى 18,000ق.م) والراجح أنها انتهت في حدود 20 الف سنة أو 18 الف سنة قبل الميلاد.

ولا يعني هذا ان الفترة المطيرة (100 ألف سنة) لم تخل من تطورات وتغييرات مناخية مغايرة وانما هي بصفة عامة ذات جو مطير وحياة مزدهرة ومأهولة بالانسان على عكس أوربا وأمريكا في ذلك التاريخ المغطاتين بأكبر دورة جليدية تمثل مساحتها ـ حسب بعض التقديرات ـ 90 أو 95٪ من المساحة التي احتلتها كل التجمدات السابقة في الدهر الرابع[37].

وبلغت نهايتها القصوى في حدود ما بين 25 ألف و18 الف سنة قبل الميلاد[38].

فقد اكتسحت الثلوج مساحات واسعة غطت «أكثر الجزر البريطانية وهولنده والمانيا الشمالية وأكثر بولنده والدول البلطيقية وروسيا شمال غرب موسكو»[39].

وكذلك المناطق المرتفعة من جبال الألب والقوقاز وهمالايا، وهذا يعني انعدام وجود النوع الانسان في جل تلك المناطق، خاصة اذا علمنا أن «سمك الكتل من الجليد كان في بعض الاحيان ميلا أو أكثر»[40] كما تشهد على ذلك المناطق الشاسعة من سبيريا في الوقت الحاضر المقفرة بسبب تراكم الثلوج فيها، ويقول العالم «فايلد»: «في الوقت الذي كانت فيه أوربا مغطاة بطبقات الثلوج الى مسافات بعيدة وصلت الى الهاوز... كان ضغط القطب الشمالي الشديد يسوق أعاصير الامطار... فتصل الى بلاد ما بين النهرين وجزيرة العرب حتى بلاد فارس والهند فكانت الصحارى التي يلفحها العطش الان تتمتع بأمطار منتظمة... كانت موزعة على جميع فصول السنة بدلا أن تكون مقصورة على الشتاء»[41].

والذي يؤكد على أن الجزيرة العربية في الماضي كانت وفيرة المياه وخصيبة خلال الدورة المطيرة الطويلة، واقعها الجغرافي وما يحمله من شواهد على ذلك ما زالت باقية اليوم. منها:

1 ـ كثرة الأودية التي تشقها في كل الجهات، بعضها قصير وعميق كالذي يصب في البحر الأحمر وبحر العرب، وبعضها الآخر من الأودية الطويلة الهامة مثل:

ـ وادي الدواسر الذي يبدأ من شرقي مرتفعات عسير ويحاذي جنوب نجد ويقارب الربع الخالي ويفيض بمائه في الرمال المغذية لكثير من الواحات. وتتصل بهذا الوادي روافد كثيرة منها تلك التي تمده بسيول سلاسل جبال اليمن.

ـ وادي الرمه الذي يبدأ من شرقي حرة خيبر، تصب فيه عدة أودية ثم يمتد في تعريجات حتى يقترب من جبل القصيح في نجد ويخترق صحراء النفوذ منتهيا الى شط العرب قرب البصرة طوله حوالي 950 كلم.

ـ وادي الحمض الذي يبدأ من جنوب حرة خيبر الواقعة الى الشمال من المدينة ويتجه نحو الجنوب الغربي الى أن يقترب من المدينة حيث يتصل به وادي العقيق ثم وادي القرى وينتهي في البحر الأحمر.

ـ وادي حنيفه الذي يبدأ من غرب جبل الطويق في الوسط الشرقي من نجد مخترقا العروض ومتجها شرقا نحو الخليج العربي.

والدارسون لهذه الأودية يرجحون أنها كانت انهارا متدفقة بالماء خلال الفترة المطيرة الاخيرة شأنها شأن تلك الأودية الجافة بالصحراء الكبرى الافريقية بدليل أن بعض السيّاح عثروا على بعض العاديات والاثار مما يدل على أن الانسان عاش حول هذه الأودية واستقر بجوارها.

2 ـ وجود البحيرات بعضها جاف كما هو واضح من قيعانها مثل تلك التي توجد قرب تيماء وتلك التي اكتشفها المستر فيلبي المسماة «أبو البحر» بالربع الخالي، وكذلك البحرية التي عثر (برترام توماس) على بعض بقاياها في الربع الخالي، وبعضها الاخر ما يزال محتفظا بمياهه الى اليوم.

ففي منطقة الخرج جنوب شرقي الرياض توجد خمس بحيرات «منها أربع بحيرات الى الجنوب من اليمامة أما الخامسة فتقع في الأراضي الصحراوية الواقعة الى الجنوب من منطقة الخرج»[42].

وتقوم السعودية حاليا باستغلالها لزراعة المناطق المجاورة:

3 ـ وجود الغابات وغطاء من الاشجار في أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية، وهناك مناطق عديدة وان بدت الآن عارية فقد كانت خلال العهد الاسلامي مكسوة بالاشجار. فقد كانت منطقة (حسمي) وأعالي الحجاز ذات غابات[43] وكانت «جبال الطائف تموّن مكة بالاخشاب الصالحة للبناء والوقود»[44].

كما أن «المنطقة الواقعة بين العلاء ومعان من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر من أراضي ثمود قديما كانت من مناطق الغابات المكتظة بالاشجار»[45].

وكانت المنطقة بين مكة وعرفة في القرن السادس عشر الميلادي مغطاة بالاشجار والعوسج حتى أنها كانت مخبأ مفضلا للصوص يهاجمون منه القوافل»[46].

وكست الأحراش والغابات جبال اليمن وحضرموت وعمان ومما يؤكد أهمية الغابات في منطقة الجزيرة العربية ارتباطها بالمعطيات الثقافية حتى أن الانسان كان يعبد إلهاً اسمه «ذوغابة» أي اله الغابات[47].

ومن المنطقي أن دورة مطيرة تقارب أو تزيد عن 100 ألف سنة كافية بأن تعطينا فكرة واضحة على ما يمكن أن تكون عليه الجزيرة العربية في تلك الدورة من خصوبة وكثافة أعشاب والاشجار ولذا يقول فايلد: «يجب أن نتوقع وجود المروج والبطائح في شمال حوض افريقيا وجزيرة العرب وفارس ووادي السند على نحو ما يزدهر الآن شمال

حوض البحر الابيض المتوسط»[48].

وبما أن الجزيرة العربية كانت تتوفر فيها النباتات الزراعية في حالتها البرية من قمح وشعير وذرة وأنواع كثيرة من الخضروات والثمار فان هذا جعل منها بيئة مناسبة لتكاثر الانسان وتناميه اجتماعيا وثقافيا وحوّلها على حد تعبير بعضهم الى «خزان بشري هائل» وهذه الحقيقة ليس مبالغ فيها بل أكدتها الاحداث التاريخية اذ أن الجزيرة العربية تعد في نظر الجميع مصدرا عالميا للهجرات البشرية، ومما يؤيد هذا ما قاله فايلد:

«وكان من الطبيعي أن تكون الاراضي الخصبة المعيشية في شمال أفريقيا وفي جنوب آسيا مأهولة بالسكان ومزدحمة بهم»[49]. وكذلك ما قاله «فليب حتي»: «وبمقارنة تاريخ الهجرات المذكورة آنفا ودراستها بدت لبعض علماء السامية الفكرة في أن الجزيرة العربية كانت في حقب متعاقبة تبلغ الواحدة منها الألف سنة تقريبا تزدحم بالسكان كخزان هائل ضاق فلم يجد محيصا عن افاضة ما يزيد عن سعته»[50].

الهجرات وبداية انطلاقها:

ان تحوّل الجزيرة الى خزان بشري هائل، لا ينضب معينه كان من الدواعي المساعدة على الهجرات التي يربطها الباحثون بعامل الجفاف وتزايده وطغيان التصحّر وغلبته على المنطقة شيئا فشيئا.

وكان اتجاه ما عرف من الهجرات الى الشمال الى ما يسمى في العصر الحديث بالهلال الخصيب، والى مصر والشرق الافريقي عامة، وأقدم تاريخ أسند على هذه الهجرات هو 5000 سنة قبل الميلاد[51] لمن استقر من الجماعات بالعراق والشام و4000 سنة قبل الميلاد[52] لمن اتجهت منها الى مصر[53].

أما قبل هذين التاريخين فلا نجد الا أراء قليلة لاحظ لها من الشيوع من ذلك ما قاله المؤرخ والخبير فيلبي من أن الساميين عرب «هاجروا من أوطانهم الاصلية في جنوب الجزيرة العربية بعد اضطرارهم الى ترك منازلهم القديمة بسبب الجفاف الذي ظهرت بوادره بعد العصر الباليوليتيك (وهو العصر الحجري القديم الذي يبدأ حسب تقدير العلماء قبل حوالي 35 ألف سنة) والتوجه نحو الشمال الى أطراف الهلال الخصيب في موجات متعاقبة»[53].

والملاحظ أن هذا الرأي يكتنفه الغموض وقلة الدقة ولا ينسجم مع المعطيات التي توصل اليها الباحثون في تحديد العصر الحجري القديم وفي تحديد الظروف المناخية وتبدّلاتها.

ويعتبر الدكتور أحمد سوسة أن الهجرات بدأت منذ 9.000 سنة قبل الميلاد: «غير أن آخر التنقيبات التي أجريت في سورية قد دلت على أن الهجرة من جزيرة العرب قد بدأت منذ 9.000 سنة قبل الميلاد» ورأيه هذا لا يخلو هو الآخر من الغموض فلم يوضح

لنا كيف أن نتائج الحفريات دلت على أن هناك هجرة وعلى أنها من الجزيرة العربية.

واذا أردنا أن نحدد بشيء من الدقة البداية الممكنة للهجرات فلا بد أن نربط ذلك بالانقلاب العالمي في المناخ الذي حدث منذ 20 ألف أو 18 ألف سنة ق.م حيث انتقلت فيها الجزيرة العربية والمناطق المدارية والاستوائية بصفة عامة من الدورة المطيرة الطويلة المتزامنة مع دورة «ورم» الجليدية الى دورة الجفاف الحالية التي تعرضت خلالها الجزيرة الى مناخات قاسية.

ويبدو أن من أهم الفترات العصيبة القديمة التي مرت بها كانت من 20 الف أو 18 ألف سنة ق.م الى 12 ألف سنة ق.م وهي فترة التي عرفتها أفريقيا ومناطق واسعة من العالم وعانت من وطأتها وشدتها، وعنها يقول: هـ. فور: «تعتبر حقبة الجفاف الكبرى الفاصلة بين 18,000 و12,000 سنة قبل الميلاد من الظواهر التي تمتد على أكبر قسم من أفريقيا والتي لنا عنها أحسن المعلومات، وذلك ما تعبر عنه بوضوح رسوم تطور المستويات البحيرية بالنيجر والتشاد وبلاد العفر والسودان ولقد مكن اندثار النباتات الرياح من أن تقدم التلال الرملية بقدر 400 الى 800 كلم نحو خط الاستواء وعلى الهضاب الداخلية المرتفعة..... ويبدو أن هذا الجفاف كان على غاية من الانتشار وهناك ما يدل على أن جفافا نسبيا بلغ أغلب المناطق الواقعة بين المدارين بأفريقيا (...) وآسيا وخاصة الهند»[54].

ويضيف «وجفت بحيرات استراليا الجنوبية حوالي 16,000 سنة قبل الميلاد»[55].

ويذكر أيضا «وباستثناء الجنوب الغربي من الولايات المتحدة استمر جفاف عام مدة آلاف عديدة من السنين بمجموع مناطق المعمورة ذات الخط العرضي الأسفل»[56].

أما بعد 12 ألف سنة قبل الميلاد فاننا نجد أوربا قد تخلصت من الدورة الجليدية كما تقلصت «القبعة الجمودية للمحيط المتجمد الجنوبي»[57]

وبالنسبة لأفريقيا يذكر هـ. فور أنها شهدت كميات من الامطار كانت موزعة على طول السنة مما زاد في توسّع البحيرات في حدود 8000 سنة قبل الميلاد وأن المناخ الحاضر لم يستقر بها «الا بعد 7000 سنة قبل الميلاد»[58].

وفي ما يخص الجزيرة العربية فانها كانت عرضة للحرمان أكثر من غيرها وذلك لا بسبب بعدها عن المحيط الأطلسي فحسب ولكن أيضا لوجود الحواجز الطبيعية التي تمثل عائقا هاما وعنصرا من عناصر الحرمان، فمن الغرب تحتضنها مرتفعات جبلية متصلة ببعضها تمتد من الشام الى اليمن، يبلغ متوسط ارتفاعها زهاء خمسة الاف قدم، وأقصى ارتفاع لها 12,326 قدم بجهة اليمن، وتسمى هذه المرتفعات جبال «السراة» وهي سلاسل جبلية موازية للبحر الاحمر تقترب منه في مواضع عديدة، ومن الجنوب تحتضنها سلاسل جبلية أخرى تمتد من اليمن غربا حتى عمان شرقا وتتراوح قمة الجبل الأخضر فيها ما بين 9000 و12000 قدم.

وتشكل هذه السلاسل من الغرب والجنوب عائقا هاما أمام تساقط الامطار بداخل الجزيرة وهذا يعني أن الجفاف بها كان أشد وطأة مما هو عليه الحال في المناطق الأفريقية، وأن تأثيره لا يمكن إلاّ أن يكون قويا ومؤثرا على حياة الانسان والنباتات مما جعل الهجرة أمرا حتميا.

وهذا ما عرفت به الجزيرة منذ أقدم الازمان، وانطلاقا من المعلومات المناخية السابقة يمكن أن تكون هناك هجرات خلال الجفاف القوي الذي ساد في الفترة ما بين 20 الف و12 ألف سنة قبل الميلاد. وقد يكون أصحاب الحضارة النوطوفية[59] التي وقع التعرف عليها في الشام (فلسطين ولبنان وسوريا) في حدود 13 ألف سنة قبل الميلاد احدى تلك الهجرات، فهناك من الباحثين من يتجه هذا الاتجاه[60].

واذا كان الجفاف مدعاة لهجرة بعض الجماعات منذ العصر الحجري الاعلى فانه أيضا مدعاة لدفع من بقوا الى التفكير في وسائل اجدى لتدبير غذائهم وضمان حياتهم فكان التحوّل الجديد، وحدث الانتقال من مرحلة جمع القوت الى مرحلة انتاجه، فوقع لاول مرة تدجين الحيوانات والاشتغال بالزراعة، وبذلك تمّ الدخول في العصر الحجري الحديث في زمن مبكر، ولكن هذا لم يَجْد نفعا على مرّ الأيام بسبب تقهقر الجزيرة العربية على مستوى المناخ بتناقص الأمطار وتزايد التصحّر وهو ما أجبر جماعات عريضة أخرى في حقب متتالية على الهجرة الى جهات مختلفة، وهذا أيضا ما يذكره العالم الايطالي «ليون كايتاني Caetani» الذي يقول عن الجزيرة العربية انها أخذت: «تفقد رطوبتها واعتدال جوها وأسباب العيش فيها منذ أكثر من أربعة عشر ألف سنة» ويضيف «ان سكان الجزيرة ظلوا على حياتهم هذه الى أن أخذوا يشعرون بقلة الزاد والمحصول بسبب ندرة الأمطار فانصرفوا الى تدجين الحيوانات ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع، ولما اشتدت الحالة بهم ونفذ صبرهم من الفاقة والجوع والعطش ارتحلوا الى بلاد أخصب تربة وأجود جوّا وأكثر أمطارا.

وهكذا بدأت هجراتهم التي حدثت غير مرّة، فان الاثار التي استخرجت من جوف أرض ما بين النهرين الفرات ودجلة، تبرهن على أن اولى الهجرات السامية قد بدأت قبل نحو خمسة آلاف من السنين من ميلاد المسيح.

وهذه الاكتشافات يجب الا تنفي فكرة حدوث هجرات سامية أخرى قبل هذا التاريخ والاسباب الجوية المبحوث عنها والتي حملت الاقوام على هجرة مواطنهم الاصلية وتركها الى وطن أحسن منه جوا ورطوبة هي نفسها التي حملت أقواما آخرين على الهجرة العامة»[61].

ونلاحظ على ما ذكره كايتاني ما يلي:

1 ـ ان ما يقوله عن بداية الجفاف وان كانت تنقصه الدقة الا أنه من حيث ما ترتب عليه من نتائج ينسجم مع ما تقوله الدراسات الحديثة حول التقلبات المناخية

العالمية وأثرها على الجزيرة العربية وغيرها.

2 ـ يعترف بأن الجزيرة العربية توصلت الى تربية الحيوانات بصورة مستقلة وبحكم ظروفها الخاصة. وبما أن هذا حصل في وقت مبكر فهي تعد بحق المهد الأول لظهور الرعي في الشرق الأدنى والمعمورة قاطبة.

3 ـ ان الهجرات عنده أسبق من التاريخ الذي حُدِّدَ لها وهو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، ولا غرابة في هذا الأمر فالعوامل التي دفعت الى الهجرة في هذا التاريخ وبعده، من المعقول أيضا أن تكون دافعة لهجرة أسبق من ذلك.

4 ـ يذكر أن الشعوب السامية لها وجود أقدم من خمسة الاف سنة قبل الميلاد اذ هي من الجزيرة العربية التي بها نشأت ومنها انطلقت وأثرت بحضارتها في سائر المناطق التي استقرت بها، وهذا أمر لم يعد محل خلاف بين جل الباحثين، وخاصة منذ أن تقهقر المستعمر وتقهقرت معه نظرياته في مجال الثقافة والتاريخ والعلوم الاجتماعية التي انشأها حول الشعوب المغلوبة على أمرها.

* * *

انطلقت الهجرات من الجزيرة العربية في زمن مبكر منذ ما قبل التاريخ بآلاف السنين، كما تقدّم، فكانت الى الهلال الخصيب (العراق ـ وسوريا ـ وفلسطين) ومن بين تلك الهجرات، الهجرات التاريخية المعروفة التي سجلها التاريخ وتحدث عنها الباحثون وعما نشأ عنها من دول ومدنيات، فاستقرت مجموعة بالعراق ما بين الألف الخامسة والرابعة قبل الميلاد (الأكاديون) وأطلق عليها «الساميون الشرقيون» وانتشر الكنعانيون بالشام وكان ذلك حسب الدكتور أحمد سوسة في حدود الألف الخامسة أو الرابعة قبل الميلاد(*) ويطلق عليهم الساميون الغربيون «منهم الأموريون الذين نزلوا الى وادي الرافدين، ومنهم الفنيقيون في سورية وفلسطين.

وحوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد قدم الآراميون الذين انتشروا في بلاد الشام وما بين النهرين وأنشأوا عدة دول، وجاءت في الألف الاولى قبل الميلاد قبائل أخرى الى جهات ما بين النهرين وبوادي بلاد الشام التي أخذ يظهر معها اسم «عرب» (يقال ان أول ذكر لكلمة «عرب» في التاريخ كان في أخبار الملك الآشوري شليمنصر الثالث 868–824ق.م)

وهناك أيضا القبائل النبطية التي قدمت حوالي 500ق.م(62) وأسست مملكة متسعة شملت بادية الشام والاقسام الشرقية والجنوبية لفلسطين وشمال الحجاز وجزيرة سيناء، ومنهم جماعات «سكنت في الأقسام الشرقية من دلتا النيل»(63).

وهناك قبائل عربية أخرى هاجرت الى جهة العراق والشام في ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي(64) (ومن بعضها تكونت دولة المناذرة بجنوب العراق، ودولة الغساسنة بجنوب سوريا).

وما ان جاء القرن السابع الميلادي حتى كانت الفتوحات الاسلامية التي تعد من أقوى الهجرات العربية، وقد نجم عنها تغيير شامل في مقومات المنطقة العربية كما نراه اليوم.

وكما انطلقت الهجرات الى بلاد الهلال الخصيب، وانطلقت أيضا الى مصر. وهذا ما أكده الاثريون ومختلف الدارسين لمسائل ما قبل التاريخ، وهي هجرات قديمة ومعروفة نسبيا منذ العصر الحجري الأعلى، فقد ظهرت الحضارة النطوفية في ما بين 13000 و7000 ق.م في بلاد الهلال الخصيب، وامتدت الى مصر وانتشرت على منطقة واسعة منها وقد وقع تثبيت هذه الحقبة والتأكيد عليها بشكل قاطع في التقرير المعد حول ندوة «عمران مصر القديمة..»(*). اذ جاء فيه «النطفيون القادمون من فلسطين الذين كان وجودهم في حلوان بالقرب من القاهرة حقيقة مقّررة ثبتت من زمان بعيد وقد دلّت الحفريات الحديثة على أن هذا الشعب قد سكن منطقة واسعة، وقد عثر على أدوات حجرية منسوبة الى هؤلاء النطفيين في الفيوم وفي الصحراء الشرقية وبطول حزام يمتد من الشرق الى الغرب عبر وادي النيل عند هذه النقطة»[65].

وهناك من الباحثين من يعتبر الحضارة النطوفية سامية، مثل أحمد سوسة، وهي على العموم من عناصر التوحيد الثقافي بين المنطقتين منذ زمن بعيد.

أما في العصر الحجري الحديث وما بعده فهجراته معروفة أكثر وقد انصبت على وادي النيل وكان محل بحث من الدارسين نسوق فيما يلي جملة من آرائهم كدليل على ذلك:

فقال الدكتور أحمد فخري الاثري المصري ان «هناك حقيقية مهمة، وهي أنه في الألف الرابعة قبل الميلاد وصلت هجرات من جنوب بلاد العرب الى مصر، وكان هؤلاء المهاجرون على قدر غير قليل من الثقافة»[66].

وقال طه باقر الاثري العراقي عن هذه الهجرات «كانت تتغلغل الى المناطق الأخصب مثل وادي الرافدين وسورية وفلسطين ولبنان وحتى وادي النيل حيث دخلت جماعات من الساميين منذ عصور ما قبل التاريخ في تركيبة سكانه التاريخي»[67].

وقال عالم الاثريات المصرية «غستاف جيكي» في كتابه تاريخ المدنيَّة المصرية «ان سكان مصر القدماء جاؤوا اليها من جزيرة العرب قبل ستة آلاف سنة وان الأسرة الأولى هي من هؤلاء القادمين»[68].

وقال الدكتور حسن كمال في كتابه «تاريخ السودان القديم» ان المصريين والسودانيين من أصل واحد، وقد جاء أسلافهم الى وادي النيل من بلاد العرب عن طريق الصومال على ما تدل عليه البحوث والاستقراءات»[69].

ونقل في كتابه ما ذكره المؤرخ الاغريقي ديودور الصقلي (63 ق.م ـ 14م) عن أصل المصريين الذين يقول: «ان اصل المصريين القدماء من البلاد الجنوبية نزلوا الى

شواطىء أثيوبيا ثم تقدّموا نحو الشمال حتى دخلوا مصر»[70].

وقال المؤرخ ماسبرو Maspero «ان لعروق المصريين الأقدمين والعرب الفينيقيين والكنعانيين روابط تشدهم بعضا الى بعض، وليس المصريين سوى ساميين انقطعوا عن مهد الساميين قبل غيرهم»[71].

ونقل جرجي زيدان عن الاستاذ «كينغ» أن الساميين نزحوا الى مصر منذ عهد قديم «ويؤخذ من الاكتشافات الاثرية الاخيرة أن العصر الحديدي بمصر يبدأ بدخول الساميين»[72].

وتعترف ندوة «عمران مصر القديمة...» بوجود هجرات سامية في مصر فقد جاء في تقريرها «وفي عصر ما قبل الأسرات وبداية عصر الأسرات أضيف الى السكان عنصر آخر جاء من الشمال الشرقي، ووصف أفراده بأنهم ساميون»[73].

وتتصل بهذا الموضوع قضية اللغة المصرية القديمة التي تضاربت بشأنها الآراء:

فهناك من يعتبرها لغة أفريقية مثل الشيخ انتاديوب والاستاذ أوبنجا اللذان قدما من الأدلة والمقارنات اللغوية لاثبات وجود علاقة عضوية بين اللغة المصرية القديمة واللغات الافريقية الحديثة، حتى أن «أوبنجا» ذهب الى حد القول: «من المستطاع في المستقبل التعرف على لغة (زنجية ـ مصرية) على غرار اللغة (الهندية ـ الاوربية)»[74].

والذي جعل هذين الباحثين يريان هذا الرأي اعتقادهما الجازم «بأن سكان مصر في عصر ما قبل الأسرات كان زنجياً»[75] وأنهم «تهجّنوا بالتدريج»[76].

وأن «السكان السود في الوجه القبلي لم يأخذوا في التراجع الا زمن الاحتلال الفارسي»[77].

ولم تحظ أراء هذين الباحثين بالقبول لدى المشاركين في ندوة «عمران مصر القديمة» فمنهم من رفضها بالكامل ومن قال: «من المستحيل اقرار الرأي القائل ان سكان مصر في العصر الحجري الحديث كانوا جميعا من السود..»[78].

وجاء في تقرير الندوة «أما النتائج التي انتهى اليها الخبراء المشاركون الذين رفضوا قبول النظرية التي ساقها الاستاذان الشيخ «انتاديوب» و«أوبنجا» القائلة ان سكان وادي النيل كانوا متجانسين منذ أقدم العصور حتى الغزو الفارسي»[79].

وقد لاقى رأيهما أيضا في أصل اللغة المصرية القديمة معارضة من قبل العديد من المشاركين، منهم عبد الله عبد القادر محمود السوداني الذي قال: «ان الأمثلة اللغوية التي ذكرها الاستاذ ديوب لم تكن مقنعة ولا حاسمة وان من المجازفة اثبات وجود تلازم حتمي بين لغة معينة وبنية اثنية معينة أو أفراد معينين»[80].

وأضاف: «ان الدليل الذي سيق تأييدا لنظرية القرابة هو أدعى بكثير الى تأكيد نظرية انتشار اللغة المصرية القديمة في افريقيا منه الى تأييد قرابتها للغات الافريقية الحالية»[81].

وفي هذا السياق نضيف النقاط التالية :

1 ــ لو جارينا ديوب وأوبينجا لاعتبرنا اللغة السواحلية المنتشرة في شرقي أفريقيا جنوب خط الاستواء شقيقة العربية وتنتميان معا الى أصل لغوي واحد ذلك ان اللغة السواحلية تشتمل على أكثر من 60٪[82] من المفردات العربية اضافة الى صيغ وخاصيات لغوية أخرى والحال أنها تصنف ضمن مجموع لغات «البنتو» الافريقية.

وما انتشار المفردات العربية بهذه الغزارة في اللغات الاجنبية الا نتيجة للغلبة الثقافية. وكان للمصرية في عهودها القديمة شيء من هذا بحكم مكانة الحضارة المصرية واشعاعها أساسا على المحيط الغربي، ومن هنا وجدنا الكتابة الهيروغليفية منتشرة في جهات افريقية عديدة وان نظامها «بقي قائما حتى عهد متأخر»[83].

وتذكر بعض المصادر انه في القرن السابع عشر ان الممالك الثلاث في الكونغو والماتمبا والانكولا[84] كانت تستعمل الكتابة الهيروغليفية كما اكتشف سنة 1896 «كتابة هيروغليفية منقوشة على صخور التيتي في الموزمبيق على نهر الزمبار»[85].

ومن الوثائق المنشورة يظهر جليا التشابه بين الكتابة التصورية المصرية والكتابة التصويرية النسيبيديه[86] المستعملة من قبل الايبو في جنوب نيجيريا.

وعموما فان بعض الشعوب الافريقية عرفت الكتابة الرمزية ذات العلاقة الوثقى بالهيروغليفي المصري، وهو أمر لم يحظ بالعناية المطلوبة حتى أن «باتيه دياي» عاب على المختصين تقصيرهم في هذا الموضوع كما في قوله :

«لم يعيروا جميعا أي اهتمام للعلاقة التي تبدو واضحة وسهلة الابانة تقنيا بين الهيروغليفيات وأشهر الكتابات في أفريقيا السوداء»[87].

2 ــ ان لغة (الوولف) التي قارنها كل من ديوب وأوبنجا بالمصرية القديمة منتهيين الى أن اللغتين متوافقتان تماما و يعتبرها البعض غير افريقية على عكس ما يقوله هذان المؤلفان اذ هي عندهم لغة ليبية قديمة.

فقد قال «باتيه ديابي» في دراسته السابقة الذكر: «وفي الاصل، لغة الوولف هي لغة عرق ليبو الذي يوجد منه بقايا على الحدود السنغالية الموريتانية، والان ليس الليبو الا أقلية ضعيفة محصورة في شبه جزيرة الرأس الأخضر»[88] واذا كان الامر هكذا فلم يعد ذلك التشابه بين المصرية والوولفية مثيرا للدهشة، طالما أن المصرية واللوبية من أرومة واحدة، ثم ان اللوبيين أو البربر وصلوا الى البلاد السنغالية وكان انتشارهم واسعا امتد على كامل الشمال الافريقي ومن البحر الاحمر الى المحيط الاطلسي، وبهذا تسقط تماما نظرية الشيخ انتاديوب والاستاذ اوبنجا في اعتبار اللغة المصرية القديمة زنجية.

ــ وهناك من يعتبر المصرية القديمة وما تفرع عنها من لهجات فصلية لغوية بعينها، وقال بهذا مارسال كوهين Marcel Cohen سنة 1947 في كتابه «محاولة مقارنة حول المعجم السامي وصوتياته»[89]اذ يجعلها والسامية والبربرية والكوشية فصائل متميزة من

اصل واحد ومن القائلين بهذا جان فركوتر في كتابه «مصر القديمة» [90] وسبق تفنيد مثل هذا الرأي.

ـ وهناك من يعتبرها فرعا مما سمي «بالحامية» التي تضم حسب زعم العديد من الدارسين، الى جانب المصرية، الكوشية والبربرية وأول من قال بهذا س. ماينهوف الالماني سنة 1912 وتبعه دولا فاص الفرنسي سنة 1923 وما زال كثير من الكتاب الافارقة والعرب يرددون هذه النظرية الى اليوم ومنهم على سبيل المثال الدكتور رمسيس جرجس الذي يقول: «ولم يكن بحال من الاحوال اثبات المحاولات المتكررة لفصل اللغة المصرية من الحامية وضمها للسامية، وتصديق من يدعي أن المتسللين الذين دخلوا مصر تكرارا حملوها اليها»[91].

والدكتور عبد الواحد وافي[92] والدكتور عبد المنعم محمد الحسن الكاروري[93] وغيرهم، وسبق أيضا تفنيد مقولة «الحامية» من أنها والسامية بنيتا على أساس خرافي وتضمن ترويجها في مجال العلوم التاريخية واللغوية أغراضاً استعمارية مبيتة.

واذا كانت اللغة المصرية القديمة غير الذي وقع ذكره، فأين تصنف عادة؟ ان ما جرى الاعراب عنه في أغلب الاحوال هو تصنيفها ضمن المجموعة المسماة «بالسامية» أي اللغات العربية القديمة. وقال بهذا معظم الدارسين المتخصصين نذكر منهم:

ـ روسلر الألماني الذي قال: «فالمعلوم أن المصرية هي اللغة الحامية الوحيدة التي تم الاعتراف بها في عهد قديم من بعض الباحثين على انها سامية»[94].

ـ سيرج سونّرون الذي قال: «وهكذا، ولزمن ليس بالبعيد، كان اللغويون يصنفون اللغة المصرية بين اللغات «الحامية السامية» لأنهم يتميزون في بنيتها وفي مفرداتها أوجه شبه مع اللغات السامية ومع بعض اللهجات الافريقية (ولا سيما البربرية والغلاّ) وقد أوضحت هذه النقطة دراسة حديثة العهد بينت أن العلاقة بين المصرية والسامية أعمق مما كان يظن. فالمجموعة الصوتية والنظام الصوتي للاحرف الصامتة ونظام أحرف العلة وبنية الدلالات اللفظية كل ذلك سامي، ولا تبتعد المصرية عن اللغة الأم الا في قواعدها الصرفية مما يدل على أنها نمت نموا مستقلا»[95].

ـ أولدف ارمان Erman المختص في الدراسات المصرية القديمة الذي يرى: «أن اللغة المصرية التي وصلت الينا هي لغة الغزاة من الساميين الذين أخضعوا السكان الاصليين وتغلبت لغتهم على لغاتهم، غير أن تأثر لغتهم بهذه اللغات في أثناء صراعها معها، والازدهار السريع للحضارة المصرية وما أحاط بالمصريين من ظروف خاصة تختلف عن ظروف بقية الساميين من النواحي المادية والجغرافية والاجتماعية... كل ذلك وما اليه قد عمل على توسيع مسافة الْخُلْف بين المصرية القديمة من جهة وبقية اللغات السامية من جهة أخرى.

ومثل هذه العوامل قد أحاطت باللغة الانجليزية (الاحتلال الروماني واحتلال

النورمانديين لبلاد الانجليز) فأبعدتها كثيرا عن أخواتها الجرمانية، ولكن هذا لم يحل دون عدها من شعبة اللغات الجرمانية، بل ان مثل هذه العوامل قد أحاط ببعض اللغات التي أجمع العلماء على ساميتها (كاللغة الأمهرية بالحبشة، فأبعدها كثيرا عن فصيلتها)[96].

ـ الدكتور أحمد بدوي الذي كتب دراسة مطولة بعنوان «اللغة المصرية القديمة وصلتها باللغات السامية» وبين فيها بالأدلة اللغوية المتنوعة أن المصرية من أصل سامي ما في ذلك ريب[97].

والخلاصة من كل ما تقدم أن مصر دخلت مرحلة جديدة متميزة بشريا وثقافيا منذ انتقالها الى العصر الحجري الحديث. وان هذا الانتقال كان بفضل الهجرات وما حملته معها من خبرات فلاحية وتأهيل للحيوانات ومنجزات تقنية متنوعة ولذلك اعتقد ج. فركوتر «بأن الثورة الحجرية الجديدة قد أتت مصر من الشرق الأوسط السوري الفلسطيني أي من الهلال الخصيب[98] لكونه أسبق».

وقال جان فركوتر «ونتساءل اليوم عما اذا لم يكن العصر الحجري الحديث قد جاء من آسيا، ان الادلة النباتية والحيوانية التي لدينا تشير الى هذا الاحتمال»[99].

ومما قاله ج. كي زيربو في هذا الصدد: «وقد استفاد وادي النيل فضلا عن ذلك من مكتشفات بلاد الرافدين مثل البّر (القمح) والشعير، والبصل، والعدس، والجلبان، والبطيخ والتين...»[100]

وفي ما يخص المعادن فان البعض يرى أن النحاس أتى هو الآخر من الشرق[101].

وقد تقدّم ما ذكره الاستاذ: «كينغ» من أن الحديد أدخله الساميون الى مصر. والبحاثه «جان فركوتر» مقتنع بأن المعادن جاءت الى مصر من الخارج ولا يمكن أن يكون ذلك الاّ من الشرق حيث فلسطين وسوريا وغيرها.

وبفضل كل هذه العناصر انطلقت الحضارة المصرية وتميزت بتلك المنجزات الرائعة والعصور التاريخية الفرعونية، ويتجسم هذا التحليل والتصور مع ما قاله «جورج شوينفرت G. shwenfurth من أن الحضارة العربية نشأت في المنطقة على شكل مثلث انطلاقا من الجزيرة العربية وامتدادا الى وادي الرافدين والى وادي النيل[102].

وتدفق الهجرات من الجزيرة العربية لم يكن الى الهلال الخصيب ووادي النيل فحسب وانما أيضا الى الشرق الافريقي عن طريق باب المندب حيث يضيق البحر الأحمر طرفه الجنوبي وحيث توجد بعض الجزر مثل جزيرة «البريم» مما جعل جنوب الجزيرة العربية الغربي قريبا جدا من شرقي القارة الافريقية الامر الذي سهل بينهما عملية التنقل.

وليس بوسعنا ضبط تواريخ الهجرات لعدم توفر المراجع حولها، ولكن من الثابت أنها عديدة متتالية امتدت الى الحبشة والسودان والصومال، ومن الثابت أيضا أن اليمن وما يليه كان مصدرا هاما للهجرة التي نشرت بأثيوبيا بعض اللهجات اليمنية القديمة التي

منها «الجعزية» و«الأمهرية» و«التيجرينية» و«اليتجرية»[103].

وأدخلت اليها لأول مرة الحروف الأبجدية(*) منذ القرن الخامس قبل الميلاد ومما هو جدير بالذكر أن لفظ الحبشة هم اسم القبيلة العربية حبش (حبشت) التي هاجرت كما يقول البعض «من جنوب الجزيرة العربية من القرن العاشر الى السابع قبل الميلاد»[104] وقد غلب اسمها حتى اصبحت البلاد تسمى به منذ منتصف الألف الاولى قبل الميلاد.

وتأثير الجزيرة العربية على أفريقيا الشرقية لا يمكن الا أن يكون قديما وان ظهور الرعي في هذه المنطقة منذ الالف الثالثة قبل الميلاد[105] هو أحد نتائج هذا التأثير.

والملاحظ أن المصادر الأوروبية تهمل عن عمد في حالات كثيرة هذا التأثير ولا تتعرض له الا في الحالات التي يصعب عليها فيها تجاهله(*) ومن هنا وجدناها مثلا تتحدث عنه خلال الألف الاولى قبل الميلاد.

فيقول: هـ . دي كنتنسون في دراسته «حضارة فترة ما قبل أكسوم» ان المعمار والأعمال الفنية والنقوش والمعلومات التي أمدتنا بها النصوص حول العقائد الدينية والتنظيمات الاجتماعية في شمال اثيوبيا كلها تنهض دليلا على ما كان لجنوب الجزيرة العربية من تأثير قوي اثناء القرن الخامس والرابع قبل الميلاد»[106].

ويقول فرانسيس انفري في دراسته «حضارة اكسوم من القرن الاول الى القرن السابع» «قبل خمسة قرون من ميلاد المسيح قامت حضارة ذات طابع خاص تكشف عن تأثيرات من جنوب الجزيرة على الهضبة الأثيوبية الشمالية، وهي حضارة زراعية في الأساس»[107].

وتأثير الجزيرة العربية لا يظهر في ما اطلق عليه العنصر (السامي) وحده وانما أيضا في العنصر الذي يسمى (الحامي) اذ هو في نظر معظم الباحثين من الجزيرة العربية، والحقيقة أنه ليس هناك في الواقع التاريخي عنصر سامي ولا عنصر حامي، وانما هناك العنصر العربي القديم الذي امتد الى افريقيا منذ زمن مبكر واختلط بدمائها، وتكونت من ذلك جماعات واسعة تصنف خطأ ضمن التسمية السامية الحامية.

منافذ الهجرة:

والهجرة من الجزيرة العربية وغربي آسيا عامة كانت عبر منفذين رئيسيين:

أحدهما باب المندب والجماعات المهاجرة عن طريقه لم تتوغل في شرقي أفريقيا فقط بل اتجهت أيضا شمالا نحو السودان ومصر والصحراء وشمال أفريقيا، ولذا تشابهت بعض الاثريات.

وجاء في البيانات التي أدلى بها المشاركون في ندوة «عمران مصر القديمة» مايلي:

«تحدّث الاستاذ ساف ـ سودربرج عن الحفائر الاسكندنافية في السودان في الفترة ما بين 1960 الى 1964، وقد أثبتت هذه الحفائر وجود صلات بين وادي النيل وشمال

افريقيا والصحراء الكبرى»[108].

ثانيهما: شبه جزيرة سيناء، وهو منفذ قديم منذ ما قبل العصر الحجري الحديث، وفي الوقت الذي كانت فيه الدلتا صعبة الارتياد لكثرة مستنقعاتها وأحراشها انتشرت الجماعات المهاجرة في صحراء شرقي النيل، ومنهم الرعاة وتواصل تقدمهم نحو الجنوب، وكانت مصر العليا وشمال السودان مركزا مهما لتوافد المهاجرين من الجنوب والشمال.

والمعروف أن أحد اشكال الحكم المبكر ظهر في هذه المنطقة وكانت «طيبة» عاصمة أول سلطة سياسية وأصحابها هما الأسرة الاولى في سلسلة الأسر الفرعونية الطويلة. وكان ذلك في حدود 3200ق. م ومن هذه الأسر برز الملك «نعرمر» الذي غزا الشمال ووحد شطري مصر لأول مرة واتخذ من «ممفيس» عاصمة لملكه الجديد.

وترجح الدراسات ان الاسرة الفرعونية الاولى من الجماعات المهاجرة، وقد تقدم لنا ما قاله الاثري «غستاف جيكي» من «أن الاسرة الاولى هي من هؤلاء القادمين»[109].

وأورد أحمد صادق سعد هذا الرأي «وترجّح بعض المراجع أن ملوك هذه الأسرة الاولى في العصر الباكر كانوا ينتمون الى جنس أجنبي غزا مصر وفرض سيطرته عليها»[110].

وهو ينقل عن هذا الباحث (W.B Empery) ومن مصر العليا وشمال السودان توغلت الجماعات المهاجرة في الصحراء وبلغت شمال افريقيا كما سنرى أثناء الحديث عن الجماعات العربية القديمة وظهور البربر بالصحراء الليبية في هضبة الاكاكوس وغيرها.

وظلت الجماعات التي أطلق عليها اسم البربر تتوافد على مدى عهود طويلة، وما تنوعهم اللغوي الا جزء من ذلك التنوع الثري الذي عرفت به الجزيرة العربية والهلال الخصيب.

ويذكر الدكتور محمد عبد الغني سعود أثر العنصر اليمني في بعض المناطق الافريقية في قوله: «ثم ان غير قليل من الممالك المنتشرة حول بحيرة تشاد الى الغرب من السودان ينتسب رجالها الى سيف بن ذي يزن، ومن الصعب أن نجد سببا يدعو الى الحكم ببطلان هذا الزعم أو أن هجرة يمنية لم تؤثر على الأقل في الطبقات الحاكمة في تلك الأقطار قبل الاسلام بقرون»[111].

ويتفق العلماء على أن العنصر السامي والعنصر الحامي هما اللذان اختلطا بأفريقيا(*) وهما وان كانا عنصرا واحدا، وبقطع النظر عن التسمية ـ من الجزيرة العربية التي أثرت بيولوجيا على ما حولها بشكل واسع وهذا ما شهد به أهل الذكر منهم الاستاذ ج. كي زيربو الذي يقول: «فالتأثير البيولوجي لشبه الجزيرة العربية على القرن الافريقي يشعر به شعوب هذه الجهة: الصومال والقلا والأثيوبيون، ولكن أيضا بدون شك يشعر به التوبو والفلانيون والتوكولور والسنغاي والهوسا الخ. واتفق ان شاهدنا من الموكا (فولتا العليا) من له ملامح «السامي» المميزة جدا»[112].

ومن نتائج هذا الامتزاج البشري الثقافي، التأثير اللغوي الواسع النطاق. في العصور القديمة، وكما نعرف الان فان الجزيرة العربية هي التي أثرت وحدها لغويا على أفريقيا، وقد أثبت الدارسون الصلات اللغوية بين لغات افريقية عديدة وبين ما سمي باللغات الحامية والسامية، ومن هؤلاء ج. هـ. غرينبرغ الذي صنف لغات افريقية ولغات الجزيرة العربية القديمة (بعض هذه اللغات اندثر قبل الميلاد) ضمن مجموعة واحدة كبيرة أطلق عليها «الافروآسيوية» وهي عنده تشمل البربرية والمصرية القديمة والسامية والكوشيه والتشادية، ويقسم الكوشية الى مجموعتين الغربية وغيرها»(113) والغربية يفرعها الى خمس مجموعات، أما التشادية التي تتضمن الهوسا(*) أكثر اللغات انتشارا في أفريقية الغربية فانه في سنة 1963 يفرعها الى تسع مجموعات وكل هذا يوضح الى أي حد كان التأثير اللغوي للجزيرة العربية واسعا في الحقل اللغوي الافريقي، والمراد بالآسيوي في التسمية (الأفروآسيوية) الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب.

وفي هذا السياق نشير الى ما كان لهذا الامتزاج العريق من تشكيل جغرافي بشري يوضح مجموعتين كبيرتين: المجموعة الافريقية من ناحية والمجموعة العربية من ناحية ثانية. ومنهما نشأ عنصر (هجين) عكس أوجه الاختلاط بينهما في مناطق التجاور الحالية.

واستغل الاستعمار هذا الواقع فقسموا القارة الى افريقيا البيضاء وافريقيا السوداء لبث التفرقة وغرس الحزازات. ومن علماء المستعمرين الذين رسموا خطا فاصلا بين المجموعتين الانثروبولوجي سليجمان والجغرافي جورج كمبل.(114).

الهوامش:

(*) معظم الكتابات الأجنبية في العهد الاستعماري في مجال الاثريات تستعمل كلمات: آسيا الغربية، الشرق الأدنى، شرقي البحر الأبيض المتوسط ولا تستعمل كلمة «الجزيرة العربية» القصد من ذلك تغييبها حتى لا يكون لها رواج في حقل الثقافة والمعرفة.

1 ـ علي جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** ـ دار العلم للملايين الطبعة الثانية ـ بيروت 1976 ج 1 ص: 531.

2 ـ علي جواد: المفصل... المصدر نفسه ص: 531.

3 ـ علي جواد: المفصل... المصدر نفسه ص: 534.

4 ـ علي جواد: المفصل... المصدر نفسه ص: 534.

5 ـ باقر طه: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة** ـ دار الشؤون الثقافية العامة الطبعة الثانية بغداد 1986 ج 1 ص: 194.

(*) تتكون هذه القرية من بيتين مطليتين بالطين ولهما عمق ومساحتين محددتين ـ الصباح 6 ماي 1989، الصفحة الأولى.

6 ـ ج. هاوكس ل. وولي: **أضواء على العصر الحجري الحديث** ـ ترجمة الدكتور يسري عبد الرزاق الجوهري ـ مكتبة الجامعة العربية بيروت بلا تاريخ ص: 28.

(*) أثناء الحملة الدولية لانقاذ آثار نهر الفرات، كشفت التحريات التي أجرتها بعثة أثرية فرنسية برئاسة (جان كوفان) عامي 1972 و1973 قرية سكنية في تل مريبط مضى عليها من الآن نحو 11 الف سنة ـ أنظر تاريخ حضارة وادي الرافدين ج 1 ص: 167 و168.

(*) كانت منطقة الشرق الأدنى موطناً للأغنام والماعز والبقر والخنزير قبل تدجينها، وموطناً للقمح والشعير والعدس وغير ذلك في حالتها البرية.

وكانت الجزيرة العربية تستثنى في بعض الدراسات فتعتبر خالية من تلك الحيوانات والنباتات (مثل المصدر السابق: أضواء على العصر الحجري الحديث).

وهذا غير صحيح بل إلى جانب هذه الحيوانات والنباتات تتمتع بأنواع أخرى من الغلال والخضر مما جعلها إلى جانب المناخ موطناً ملائماً للنوع الانساني منذ أقدم العصور وخاصة خلال الدورة الجليدية الرابعة (ورم) التي امتدت أكثر من مائة سنة حيث كانت الجزيرة تنعم بجو مطير دافىء وكثافة في الغطاء النباتي وفي ما يخص الماشية والغنم والماعز والقمح والشعير... في الجزيرة العربية انظر ما قاله شوينفرت: قصة الحضارة لديورانت ج 2 ص: 43.

واذا انعدمت التنقيبات العميقة والمتعددة بسبب كثافة الرمال فلا يعني ذلك انعدام الحضارات فيها. وهذا ما رأيناه في الصحراء الافريقية. فهنالك أماكن قفراء كشفت فيها التنقيبات حضارات قديمة ومنها حضارة العصر الحجري الحديث. (هضبة الاكاكوس بليبيا مثلاً).

7 ـ علي جواد: المفصل... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 530.

8 ـ علي جواد: المفصل... المصدر نفسه ص: 535.

(*) من المصادر الأولى التي تناولت الجزيرة العربية في ما قبل التاريخ ما كتبه:

1 ـ د. سليمان حزين سنة 1937 وعنوان كتابه .(Natur, Vol. XI)

2 ـ Miss caton-Thompson سنة 1939 وعنوان كتابها Calimate irrigation and Early Mon in the Hadhramant Geographical Journal.

ولكل منهما نظرية مخالفة للآخر، فالدكتور سليمان يرى أن بلاد العرب هي مركز الثقافة القديمة (ومنها انتقلت في العصور الحجرية القديمة إلى شرقي افريقيا) ـ بينما ترى مس كيتن العكس اذ تقول بوجود ثقافة مركزية بشرقي افريقيا تفرعت عنها ثقافات متعددة ليس في افريقيا وحدها بل وفي آسيا أيضاً وقد حصل هذا قبل انفصال غربي جنوب بلاد العرب الذي حدث قبل مليون سنة. وكلا الباحثين بين وجهة نظره على وجود ثقافة حجرية متشابهة (آدوارت الظيران) (أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم ص: 123–124).

8أ ـ **دراسة في تاريخ الشرق القديم** ـ مكتبة الانجلو المصرية القاهرة 1963 ص 124.

9 ـ عبد القادر حامد: **الامم السامية**: دار نهضة للطباعة والنشر. بلا تاريخ ومكان صدور ص: 59 وسوسه أحمد: تاريخ حضارة وادي الرافدين ج 1 ص: 260.

10 ـ عبد القادر حامد: الأمم السامية ـ المصدر نفسه ص 59.

11 ـ علي جواد: المفصل... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 532.

12 ـ علي جواد: المفصل... المصدر نفسه ص: 534.

13 ـ دراسات في تاريخ الشرق القديم... المصدر المذكور سابقاً ص 124.

14 ـ دراسات في تاريخ الشرق القديم ـ المصدر نفسه ص: 124.

15 ـ سوسة أحمد: **تاريخ حضارة وادي الرافدين** ـ دار الحرية للطباعة بغداد 1983 ج 1 ص: 302.

16 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة وادي الرافدين ـ دار الحرية للطباعة بغداد 1983 ج 1 ص: 302 والمقتطف يوليو 1944 ص: 128.

17 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 301.

18 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر نفسه ص: 267.

19 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر نفسه ص: 267.

20 ـ ديورانت: **قصة الحضارة** ـ ترجمة محمد بدران ج 2 ـ ص: 43.

21 ـ الهمداني أبو محمد الحسن: **الاكليل** ـ تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي مطبعة دار الكتاب العربي ـ دمشق 1979 ج 8 ص: 186 و187.

(*) جاء في نشرية سياحية عن اليمن الديمقراطي 1976 «تقع الصهاريج في مدينة جالون كويتر بالمحافظة الأولى وتعدادها يربو على 18 صهريجاً تسع مجموعها حوالي 20 مليون جالون من الماء... في وسط بستان في وادي الطويلة وهو عبارة عن مضيق يبلغ طوله 750 قدماً» ص: 122. انظر المرجع التالي.

22 ـ **السياحة في اليمن الديمقراطية** Edition Debrosse باريس 1976 ص: 122.

23 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 332.

24 ـ **تاريخ العرب قبل الاسلام** ـ مطبوعات المجمع العلمي العراقي ـ بغداد 1951 ج 1 ص 101، 102.

25 ـ تاريخ العرب... المصدر نفسه ص: 102.

26 ـ علي جواد: المفصل... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 160، 161.

27 ـ علي جواد: المفصل... المصدر نفسه ص 101 و102.

28 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 304.

29 ـ تاريخ العرب... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 102.

30 ـ انظر مرجع هامش: 20.

31 ـ أحمد صادق سعد: **تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي** ـ دار ابن خلدون بيروت 1979 ـ ص: 26 و27.

32 ـ انجلز: **أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة** ـ دار التقدّم الطبعة الرابعة موسكو 1891 ص: 86.

33 ـ **تاريخ اليعقوبي**: دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت سنة 1980 ج 1 ص: 5.

34 ـ تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 441.

(*) يقسم الزمن الجيولوجي إلى دهور: الأول والثاني والثالث والرابع وينقسم الدهر الثالث إلى خمس طبقات، وهي ابتداء من أقدمها إلى أحدثها البليوسين، الايبوسين والاوليغوسين والميوسين والبلييوسين، أما الدهر الرابع فانه لا يشمل الا طبقتين: البليستوسين والهولوسين.

35 ـ هـ. ـ فور: الاطار الزمني للمراحل المطيرية والجمودية بافريقيا الوارد (**بتاريخ افريقيا العام**) جون فريك اليونسكو ـ كورينول (ايطاليا) 1983 ج 1 ص: 388.

36 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 120.

(*) يجب ان يقوم الربط على (تسجيل كامل ومتواصل للظواهر المناخية من جهة وللعلاقات الطبقية الارضية المغناطية والراديومية من جهة أخرى) تاريخ افريقيا العام مج 1 ص: 391.

(*) رشدي سعيد في دراسته «الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بافريقيا» يذكر انها مرتبطة بها الى حد بعيد وان كان ذلك «لا يزال يتطلب الاستكشاف» ص: 773 تاريخ افريقيا العام مج 1.
كما انه افترض وجود صلة بين الاوغرتي والعباسية والكنكري في افريقيا وبين التجمد الألبي «رس» كذلك يذكر ليفنغسون وفان زندرن باكر وجود تفاوت بين تطور المناخ في افريقيا الشرقية وتطوره في اوربا عن هـ. فور تاريخ افريقيا العام مج 1 ص: 403 واذا كان العلماء يقبلون بوجود صلة بين الاحداث المناخية في افريقيا والشرق الادنى وبين ما يطرأ: في أوربا من تجمدات كبرى انهم يسعون الى ان تكون هذه الصلة ثابتة بمعطيات علمية توصلوا اليها بالدراسة.

(*) لم تكن هذه الفترات على نسق واحد بل كانت ذات تطورات متنوعة حددتها وكيفتها عوامل مختلفة.

37 ـ هـ. فور: الاطار الزمني... المصدر المذكور سابق ج 1 ص: 394.

38 ـ هـ. فور: الاطار الزمني... المصدر نفسه ص: 394.

39 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 120.

40 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر نفسه ص: 120.

41 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر نفسه ص: 250.

42 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر نفسه ص: 249 و250.

43 ـ علي جواد: المفصل... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 209.
44 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 248.
45 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر نفسه ص: 248.
46 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر نفسه ص: 249.
47 ـ علي جواد: المفصل... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 209.
48 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 250.
49 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر نفسه ص: 250.
50 ـ فيليب حتّي: **تاريخ العرب مطوّل** ـ ترجمة د. ادوارد جرجي ود. جبرائيل حبّور دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع بيروت: 1958 ج 1 ص: 13.
51 ـ سوسة أحمد تاريخ الحضارة.. المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 302 وباقر طه: مقدمة في تاريخ... ج 1 ص: 33.
52 ـ د. فخري أحمد: دراسات في تاريخ الشرق القديم المصدر المذكور سابقا ص: 124.
53 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 300.
54 ـ هـ. فور: الاطار الزمني... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 399.
55 و56ـ هـ. فور: الاطار الزمني... المصدر نفسه ص: 399.
57 ـ هـ. فور: الاطار الزمني... المصدر نفسه ص: 400.
58 ـ هـ. فور: الاطار الزمني... المصدر نفسه ص: 400.
59 ـ تغطي هذه الحضارة فترة ما بين 13,000 و7,000 ق.م.
60 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 16 و268.
61 ـ سوسة أحمد: تاريخ حضارة... المصدر نفسه ص: 302.
(*) احمد سوسة: تاريخ حضارة وادي الرافدين ج 1 ص: 269 نقلا عن (كلاي) والعموريون هم الأميون وهؤلاء كنعانيون أو شعبه منهم ويقول فيليب حتّى (ان الموجة التي أتت بالشعب العموري من الصحراء العربية الى الهلال الخصيب هي الموجة التي أتت بالشعب الكنعاني) لبنان في التاريخ ص:
62 ـ د. برّ توفيق: **تاريخ العرب القديم** ـ دار الفكر ـ دمشق 1984 ص: 100 ويذكر جواد علي أن ذلك كان حوالي 587م المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص: 15
63 ـ علي جواد: المفصل... المصدر المذكور سابقا ج 3 ص: 15.
64 ـ باقر طه: مقدمة في تاريخ.. المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 74.
(*) انعقدت هذه الندوة تحت عنوان: (عمران مصر القديمة بالسكان، وفك رموز الكتابة المروية) بالقاهرة في ما بين 28 مارس و3 فيفري 74.
65 ـ انظر الملحق بتاريخ افريقيا العام ج 2 ص: 757.
66 ـ فخري احمد: دراسات في تاريخ... المصدر المذكور سابقا ص: 124.
67 ـ باقر طه: تاريخ حضارة... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 68.
68 ـ د. الدواليبي محمد معروف: **دراسات تاريخية في اصل العرب وحضارتهم** دار الكتاب الجديد. بيروت 1971 ص: 54.
69 ـ د. الدواليبي محمد معروف. دراسات تاريخية.. المصدر نفسه ص: 55.
70 ـ د. الدواليبي محمد معروف. دراسات تاريخية.. المصدر نفسه ص: 55.
71 ـ دروزه محمد عزة: **تاريخ الجنس العربي في مختلف الاطوار والادوار والاقطار** الطبعة الاولى منشورا ت المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت 1956 ص: 7.
72 ـ **العرب قبل الاسلام**: راجعه وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس دار الهلال القاهرة ص: 67.
73 ـ ملحق «تاريخ افريقيا العام» ج 2 ص: 758 مصدر تقدم ذكره.
74 ـ ملحق المصدر نفسه ص: 754.

75 ـ الشيخ انتاديوب: اصل المصريين القدماء الوارد ذكره في **تاريخ افريقيا العام** ج 2 ص: 39 وانظر الملحق ص: 756.

76 ـ ملحق: المصدر المذكور سابقا ص: 756.

77 ـ ملحق: المصدر المذكور سابقا ص: 756.

78 ـ ملحق: المصدر المذكور سابقا ص: 757.

79 ـ ملحق: المصدر المذكور سابقا ص: 759.

80 ـ ملحق: المصدر المذكور سابقا ص: 752.

81 ـ ملحق: المصدر المذكور سابقا ص: 752.

82 ـ باتيه دياني: اللغات والتاريخ الافريقي ـ الوارد في «تاريخ افريقيا العام» ج 1 ص: 244 ـ مصدر تقدّم ذكره.

83 ـ باتيه دياني: اللغات والتاريخ... المصدر نفسه ص: 260.

84 ـ باتيه دياني: اللغات والتاريخ... المصدر نفسه ص: 260.

85 ـ باتيه دياني: اللغات والتاريخ... المصدر نفسه ص: 260.

86 ـ باتيه دياني: اللغات والتاريخ... المصدر نفسه ص: 263.

87 ـ باتيه دياني: اللغات والتاريخ... المصدر نفسه ص: 258.

88 ـ باتيه دياني: اللغات والتاريخ... المصدر نفسه ص: 247.

89 ـ باتيه دياني: اللغات والتاريخ... المصدر نفسه ص: 250.

90 ـ ترجمة الياس الحايك ـ سلسلة **(ماذا أعرف)** عدد 15 المنشورات العربية. جونيه 1979 ص:25.

91 ـ د. رمسيس جرجس: اللغة الفرعونية وعلاقتها باللغة السامية ـ **مجلة مجمع اللغة العربية** ـ القاهرة 1960 ـ 1961.

92 ـ **فقه اللغة** ـ لجنة البيان العربي. الطبعة الخامسة القاهرة 1962 ص: 18

93 ـ العنصر السامي في اللغة المصرية القديمة ـ **المجلة العربية للدراسات اللغوية**: المجلد الثاني عدد يونيو 1984 ـ الخرطوم.

94 ـ ص: 124

95 ـ **علم المصريات**: ترجمة الياس الحايك ـ سلسلة **ماذا أعرف** عدد 28 ـ المنشورات العربية ـ جونية 1973 ص: 45.

96 ـ وافي عبد الواحد: فقه اللغة... المصدر المذكور سابقا ص: 19

97 ـ انظر البحوث والمحاضرات: **مجمع اللغة العربية** ـ القاهرة 1960-1961.

98 ـ اختراع المعادن وانتشارها وتطور النظم الاجتماعية الى القرن الخامس قبل الميلاد ـ الوارد في «تاريخ افريقيا العام» ج 1 ص: 721 ـ مصدر تقدم ذكره.

99 ـ **مصر القديمة**: ترجمة الياس الحايك سلسلة ما أعرف؟ المصدر المذكور سابقا ص: 41.

100 ـ من الطبيعة الخام الى انسانية متحررة: الوارد في (تاريخ افريقيا العام) ج 1 ص: 746 ـ مصدر تقدم ذكره.

101 ـ مصر القديمة: المصدر المذكور سابقا ص: 44.

102 ـ قصة الحضارة... المصدر السابق ص: 43.

103 ـ وافي عبد الواحد: فقه اللغة ـ المصدر المذكور سابقا ص: 86 وما بعدها وهناك لهجات أخرى وقع العدول عن ذكرها لكونها فروعا صغيرة.

(*) حضارة اكسوم من القرن الاول الى القرن السابع ـ فرانسيس انفري ـ تاريخ افريقيا العام ج 2 ص: 382 جاء فيها (كانت اول الحروف الابجدية التي استعملت باثيوبيا والتي ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد من أصل جنوبي عربي وهي لغة تشبه اللهجات السامية بجنوب الجزيرة العربية).

104 ـ سعودي محمد عبد الغني: **قضايا افريقية** ـ سلسلة عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب بالكويت. الكويت 1980 ص: 69.

105 ـ ج. غ ـ سوتن: افريقيا الشرقية قبل التاريخ ـ الوارد في (تاريخ افريقيا العام) ج 1 ص: 497 ـ مصدر تقدم ذكره.

(*) على سبيل المثال فمحررو الدراسات لشرق افريقيا ووادي النيل في ما قبل التاريخ لا يتعرضون للجزيرة العربية ولا حتى طرح علاقتها بها من باب الافتراض العلمي للوقوف من زاوية موضوعية ونزيهة عما اذا كانت هناك تأثيرات متبادلة.

106 ـ الواردة «بتاريخ افريقيا العام» ج 2 ص: 358 المصدر نفسه.

107 ـ الواردة «بتاريخ افريقيا العام» ج 2 ص: 383.

108 ـ ملحق: المصدر المذكور سابق ص: 748.

109 ـ راجع الفقرة ذات الهامش: 68.

110 ـ تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي (مصدر تقدّم ذكره) ص: 49 نقلا عن:

W.B. Empery: Archaie Egypt - Baltimore. Penguin Books 1961 P: 38, 104.

111 ـ سعودي محمد عبد الغني: قضايا افريقية ـ المصدر المذكور سابق ص: 70.

(*) يذكر البعض وجود العنصر القوقازي في تركيبة السكان في مصر وحتى ليبيا ويرى الاستاذ غلاب (مصر) ان الجنس البشري في العصر الحجري القديم يتسم بدرجات متفاوتة من التجانس وانه كان «قوقازيا» وان العنصر الاسود ظهر في أواخر هذا العصر (من المحيط الاطلسي حتى البحر الاحمر) والمقصود بالقوقازي مجرد اللون ولا يعني انه منحدر من منطقة القوقاز ـ وهذه نظرية عامة مهملة في العادة من قبل الباحثين لقلة دقتها وهي قديمة.

112 ـ النظريات المتعلقة بالعروق وتاريخ افريقيا ـ الوارد في (تاريخ افريقيا العام) ج 1 ص: 278 ـ مصدر تقدم ذكره.

113 ـ تصنيف لغات افريقيا ـ الوارد بالمصدر نفسه ص: 310

(*) الهوسا في الاصل اسم لغة وليس اسم قبيلة وهي منتشرة في شمال نيجيريا والمناطق المجاورة من «النيجر» وانتشرت ايضا في غرب افريقيا في غانا والداهومي وساحل العاج. وبات يتكلم بها عدد كبير من الافريقيين وهي في نيجيريا تكتب بالعربية لكون المتكلمين بها من المسلمين. كما كتبت بالحروف اللاتينية من قبل كتاب محدثين حول هذا الموضوع انظر قضايا افريقية ص: 148–149.

114 ـ انظر: سعودي محمد عبد الغني: قضايا افريقية ص: 59 وما بعدها حيث نجد الخريطة والتحديدات لهذه الخطوط.

(*) هو المرحلة الاخيرة من العصور الحجرية. تميز بتطورات كبرى لم يسبق لها مثيل. ففيه اهتدى الانسان لاول مرة الى العمل الفلاحي وتربية الحيوانات مما مكنه من الانتقال من مرحلة جمع القوت الى انتاجه ـ واحدث هذا كله انقلابا في كامل مقومات الحياة الاجتماعية، فتغير وضع الاسرة وظهر العمران والاستقرار وتطورت معارف انسان هذا العصر بشكل كبير. فتوصل الى تقنيات جديدة في صناعة الحجارة والعظام (قادومات وادوات للهرس والدرس والعزق..) املتها تلك التحورات الاقتصادية في مجال الفلاحة وتربية الحيوانات، وكانت صناعة الفخار من أهم التطورات الثقافية في هذه المرحلة (تخزين الطعام، الشراب..) ويجمع علماء ما قبل التاريخ على أن اقدم مكان انبثق فيه العصر الحجري الحديث هو الشرق الادنى في الفترة ما بين 1000 و8000 سنة ق.م وهو اكمل العصور الحجرية الحديثة لاشتماله على كل العناصر التي يعرف بها هذا العصر. ويقال انه ظهر في الشرق الاقصى في حدود 3000 سنة ق.م وفي امريكا الوسطى في حدود 1000 سنة ق.م ومن هذه المراكز انتقل الى اصقاع المعمورة الاخرى (طه باقر في دراسته: عصور ما قبل التاريخ في ليبيا. انظر ليبيا في التاريخ ص 31) كما ذكر هذا في كتابه مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج 1 ص: 202 ـ 1986 ـ (ظهر 1951).

ظهور البربر
بشمال افريقيا

العصر الحجري الحديث وظهور البربر:

تميز العصر الحجري الحديث(*) في منطقة المغرب العربي بوجود الجماعات البربرية وبانتشارها على نطاق واسع، من غرب مصر الى المحيط الاطلسي، وهذا معروف للجميع منذ مجيء الفينيقيين في القرن الثالث عشر او الثاني عشر قبل الميلاد.

ويهمنا هنا وجودهم قبل هذا التاريخ، وهو ما سنحاول بحثه لمعرفة صلتهم بالمنطقة وزمن ظهورهم بها، ولا غنى لنا في هذا الموضوع عن الوثائق المصرية التي انفردت في الفترة الطويلة السابقة للفنيقيين بمعلومات هامة حول جماعات البربر القديمة (اللوبيون) ويمكن حوصلة هذه الوثائق على النحو التالي:

أولا: وثائق غير مصحوبة بنصوص كتابية تعود الى النصف الثاني من الألفية الرابعة قبل الميلاد أي الى ما قبل عهد الاسرات وفي بدايته (الاسرة الفرعونية الاولى في 3200ق.م) وهي عبارة عن رسوم واشارات لجأ اليها المصريون للتعبير عن وقائع معينة ومن هذه الوثائق:

1 ـ مقبض سكين جبل العرق المصنوع من العاج، به مشهد ضمّ مجموعة من الرجال، لهم خصلة من الشعر على شكل ضفيرة، يلبسون كيس العورة ويشبهون في أوصافهم العامة ما رسم على لوحات أخرى.

2 ـ لوحة الصيد (صلايا الأسود) التي رسم فيها عدد من الرجال «يحملون الاقواس والحراب وعصي الرماية وحولهم حيوانات كثيرة للصيد»[1] ويضعون «الريش في شعورهم ويرتدون كيس العورة ولهم ذيول تتدلى من قمصانهم القصيرة»[2].

3 ـ لوحة التوحيد: وهي لوحة الملك «نعمر اونارمر» من ملوك الاسرة الفرعونية الاولى 3200–2900 ق.م الحاكمة في الجنوب (مصر العليا)(*)

قام هذا الملك المؤسس الحقيقي لسلسلة أسر الفراعنة بتوحيد شطري مصر واتخذ من «ممفيس» عاصمة له بالقرب من المنطقتين، وصورت اللوحة انتصاره على سكان الوجه

القبلي (مصر السفلي) وكان الاشخاص المرسومون عليها، لهم نفس السمات والعلامات المذكورة سابقا.

وخصلة الشعر، وكيس العورة، وحمل الريش في الرؤوس، والذيول المتدلية، من العلامات التي عرف بها اللوبيون القدامى، ووجودها في تلك الوثائق دليل على أنهم المعنيون بتلك العلامات.

وقد أثار هذا جدلا بين الباحثين الا ان ما جاء في هذه الوثائق يعد في نظرهم من أقدم الشواهد المشيرة الى اللوبيين في ذلك العهد. لذا علّق «برستد» على لوحة التوحيد قائلا: «نعمر ينتصر على اللوبيين»[3].

ثانيا: وثائق ذات رموز ونصوص كتابية وأهميتها تكمن في أنها زوّدتنا بأقدم الاسماء للجماعات التي أطلق عليه اسم «اللوبيين» في الاول، ثم البربر بعد ذلك، ونرتبها بحسب أقدميتها كما يلي:

1 ـ لوحة «التحنو» وهي من «الشست» عثر عليها بمقبرة وارنري «الملك الرابع في الأسرة الأولى، محفوظة حاليا بمتحف القاهرة وينسبها «هولشر Holscher» الى الملك العقرب[4].

وبهذا اللوح رمز أو علامة قرأها المختصون على أنها علامة هيروغلوفية، تعني «التحنو» ولذا سمي هذا اللوح بهذا الاسم.

2 ـ رأس دبوس: وهو عبارة عن اسطوانة عاجية، عثر عليه في «هيراكونبوليس» (الكوم الأحمر شمال أدفو) يعود الى عهد الملك «نعرمر (3000ق.م) رسمت عليه أيضا علامة (التحنو) الهيروغلوفية.

3 ـ لوح آخر قريب العهد من اللوح السابق، وهو عبارة عن اسطوانة من سن فيل نقش عليه اسم الملك «نعرمر» وأمامه أعداء مكبّلون في الاغلال نقشت عليهم علامة «التحنو» الهيروغلوفية.

4 ـ حجر «بالرمو»: سمي بذلك لوجوده ببالرمو بصقلية، وهو حجر من «الديوريت» دون عليه نص تضمن معلومات كثيرة للذين حكموا مصر من البداية حتى الأسرة الخامسة (2500 ق.م) ومن هؤلاء الملك «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة الذي يذكر النص أنه أسر من التحنو 1100 أسير واستولى على 13100 رأس من الماشية والأغنام[5].

5 ـ نقش جنائزي على معبد الملك سحورع من الاسرة الخامسة تضمن معلومات عن «بنية (التحنو) الجسدية وملابسهم»[6].

وتدل الوثائق الثلاث الاولى على أن تاريخ ظهور اسم «التحنو» يعود الى نهاية الالف الرابعة قبل الميلاد اذ ان الملك «نعرمر» كان في حدود 3000ق.م ومدة الأسرة الأولى التي منها هذا الملك كانت ما بين 3200 و2900 ق.م وظل هذا الاسم يتردد في الوثائق

المصرية حتى عهد الملك «مرنبتاح» آخر ملوك الأسرة التاسعة عشرة القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وتفيد المعلومات المتوفرة ان هذه المجموعة كانت تعيش في العصور التاريخية لمصر في المقاطعات الغربية للدلتا وفي منطقة «الفيوم ووادي النطرون ومنطقة مارماريكا»[7].

واذا كان هذا واضحا من الابحاث المنجزة فان مدى امتدادهم نحو الغرب ليس جليا وتقديرات الدارسين مختلفة، بعضها تجعلهم منتشرين عموما من غرب وادي النيل الى الجبل الأخضر[8].

وقال عنهم «جيان دي سانج»: «وقد سكنوا الصحراء الليبية وواحاتها خلال الألف الثالثة»[9].

6 ـ «نص أوني» حاكم الجنوب ورئيس القوافل في عهد الملك «بيبي الأول» من الاسرة الفرعونية السادسة (حوالي 2300ق.م) المنقوش بمقبرته بأبيدوس، ذكر فيه هذا الحاكم انه قاد جيشا لمحاربة بدو آسيا، مؤلفا من جماعات تنتمي الى أقوام مختلفة منها «التمحو».

7 ـ «نص خرخوف» حاكم الجنوب ورئيس القوافل ايضا في عهد الملكين «مرنرع» و«بيبي الثاني» من الأسرة السادسة المدون على جدران مقبرته في «الفنتين» جاء فيه ان هذا الحاكم قام بثلاث رحلات الى بلاد «يام» في عهد ملكه الاول وبرحلة رابعة في عهد ملكه الثاني، وتهمنا الرحلة الثالثة التي سلك فيها «خرخوف» طريق الواحات، وعندما وصل الى بلاد «يام وجد رئيسها ارتحل الى التمحو» في الركن الغربي من السماء»(*) ليستولى عليها فلحق به وهدّأه وأصلح الامر معه، وأعلم ملكه بذلك وعاد من هذه الرحلة ومعه 300 حمير محملة بالبخور والأبنوس وجلود الفهود وغير ذلك[10] وهي رحلة طويلة اذا ما قارناها بالأولى التي استغرقت 7 أو 8 أشهر[11].

وتظهر الوثائق المصرية ان مجموعة «التمحو» تمتاز ببياض البشرة وزرقة العيون والشعر الضارب الى الشقرة، في حين أن مجموعة «التحنو» تمتاز بسمرة البشرة.

وما يزال الباحثون مختلفين في تحديد موقع بلاد «التمحو» وحسب نص «خرخوف» فان هذا الاخير انتقل من «النوبة» الى بلاد «يام» ومنها الى بلاد «التمحو» وفهم من عبارته «في الركن الغربي من السماء» أي أنها تقع غرب بلاد «يام» واذا اعتمدنا هذا التأويل فان موقع «التمحو» يكون غرب الجنوب المصري في ذلك التاريخ.

ويرى البعض أن قبائل «التاما»[12] الحالية باقليم «دارفور» بالشمال الغربي للسودان من بقايا قبائل «التمحو» القديمة مستدلا على ذلك بتشابه الاسمين، وتعرف قبائل «التاما» في الوقت الحاضر بأنها قبائل عربية.

واذا ما اعتمدنا أيضا لون البشرة والعيون والشعر فاننا نجد هذه الصفات في رسوم

العصر الحجري الحديث القديمة بتاسيلي بالجزائر وأكاكوس بليبيا وكذلك في سكان برقة ومنطقة سرت، على عهد اليونانيين كما أشار الى ذلك هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد.

وهذا يعني انتشار هذه السلالة ذات البشرة البيضاء والعيون الزرق على نطاق واسع، وهو ما جعل «جيان دي سانج» يستنتج «أن التمحو هم حقيقة أجداد الليبيين الذين عرفهم الاغريق في برقة»[13].

ومجموعة «التمحو» وان كانت قديمة الاّ أنها ظهرت لاول مرة في نصي «أوني» و«خرخوف» في عهد الاسرة الفرعونية السادسة (2434–2242ق.م) وظل هذا الاسم يتردد في الوثائق المصرية من ذلك ما جاء في قصة «سنوهي (سانهت)» أن الملك (امنمحات) الاول مؤسس الاسرة الثانية عشرة (1991–1786ق.م) قد سير جيشا بقيادة ابنه «سنوسرت» لبلاد «التمحو» ويذكر أن الاسرى الذين عاد بهم ليسوا من هؤلاء وانما من «التحنو» ويفهم مما جاء في هذه القصة ان مواقع المجموعتين صارت متداخلة ومتجاوزة في هذه الفترة.

ويذكر محمد مصطفى بازامه ان اسم «التمحو» ظل يردد بين الفينة والاخرى حتى عهد الدولة الحديثة[14] (1580–1085ق.م) وهكذا نصل الى ان «التحنو» و«التمحو» من الاسماء التي عرف بها اللوبيون القدامى.

8 ـ نقش الكرنك للملك «مرنبتاح» (حوالي 1227 ق.م) من الاسرة التاسعة عشرة للدولة الحديثة الذي سجل فيه انتصاره على اللوبيين ومن تحالف معهم من «شعوب البحر» الذين هجموا على الدلتا للاستقرار بها تخلصا من الصحراء ومن أية ضغوطات أخرى، وقاد هذا التحالف «مارايي او مريبي» بن «أدد» رئيس قبيلة «الليبو» وجاء في نص الكرنك «ان رئيس الليبو الخاسىء مرابي بن أدد انقض على اقليم تحنو برمته...»[15].

ومن القبائل الليبية المشاركة في هذا التحالف: القهق، والمشاوش، ومن شعوب البحر الاوربية، الأقاواشا واللوكا والشردن والتورشا والشكلش.

ويشار لاسم «الليبو» في المصادر المصرية بالحرفين (ر.ب) ولذا قرأها البعض (الريبو) بالابقاء على الراءدون ابدالها باللام وذلك راجع الى عدم التفطن الى «أن نظام الكتابة المصرية لا يعرف اللام»[16]. وأن الراء فيها كثيرا ما تنطق لاما، ولذا فان (ر.ب) تقرأ (ل.ب) أي «ليبو» أو (الليبو).

9 ـ نقوش رمسيس الثالث (1198–1166ق.م) مؤسس الأسرة العشرين في الدولة الحديثة حيث تضمنت هذه النقوش ان رمسيس الثالث ردّ هجمتين قويتين من المغرب عن الدلتا، كانت الاولى متكونة من القبائل الليبية: الليبو والسبد، والمشاوش بمؤازرة شعوب البحر.

والثانية قامت بها أساسا قبيلة المشاوش بتحالف مع قبائل ليبية أخرى منها: الليبو والأسبت والقايقش والشيتب والهسا والبقن، وتعرض التحنو في هذه المرة الى غارة ساحقة دمرتهم تماما، فجاء في نصوص الحرب الثانية «.... انقض المشاوش على التحنو وأصبحوا رمادا وقد خربت مدنهم ولم يعد لهم وجود...»[17].

وهؤلاء المشاوش الذين حاربهم مرنبتاح ورمسيس الثالث هم الذين استقروا بمصر بعد ذلك وتمكن قادتهم من الوصول الى السلطة واصبحوا في النهاية ملوك مصر وفراعنتها فكانوا أصحاب الاسرتين 23,22.

والمهم هنا هو أن اسم «الليبو» و«المشاوش» تردّدا لاول مرة في نص الكرنك لمرنبتاح وفي نص رمسيس الثالث، وهما اسمان كبيران تقدمها لنا الوثائق المصرية اضافة الى الاسمين السابقين: التحنو والتمحو.

ويذهب البعض الى أن هذه الاسماء ليست أعلاما على أصحابها وانما أطلقها المصريون على تلك الجماعات فعرفت بها، وهذا غير صحيح بدليل أن بعض هذه الاسماء عرف في مصادر أخرى بنفس الاسم فمثلا «الليبو».

ـ وردت في اليونانية القديمة في ملحمة «الأوديسا» لهوميروس [18] الذي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد كما جاء في هذا المقطع من «الأوديسا»: «ان من يأكل اللوتس من غير الليبيين ينسى وطنه الاصلي ويعيش في ليبيا ليقضي حياته يأكل اللوتس».

وقد انتقل هذا الاسم الى الاغريق في هذا التاريخ المبكر عن طريق الفينيقيين[18أ].

ـ ذكره هيرودتس في عدة مواضع وتحدث عن مواطن اللوبيين وقبائلهم[19].

ـ وردت في التوراة (العهد القديم) بهذه الصيغة «لوبي ولوبيم»(*) ثم لا يوجد هناك من الدواعي لجعل المصريين يتخلون عن أسماء الاقوام المجاورة ويطلقون عليها أسماء أخرى بدليل أنهم فرّقوا بين الجماعات اللوبية المهاجمة وذكروها في نصوصهم بأسمائها.

ونظرا لأهمية المجموعة اللوبية، فان المصادر المصرية المتعلقة بالتنظيم الاداري الفرعوني تحدثت عن المديرية الثالثة من مديريات الوجه البحري، وذكرتها باسم «المديرية الليبية».

وأشار «استرابون» الى وجود مديرية بهذا الاسم قرب الدلتا.[20]

كما ذكرت بعض المصادر الاسلامية شيئا من هذا القبيل، فقال ابن عبد الحكم: «لوبية ومراقية، وهما كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من السماء ولا يناها النيل»[21].

وكرر ابن خرداذبة هذا أثناء حديثه عن اجلاء البربر من فلسطين فقال: «حتى انتهوا الى لوبيه ومراقيه فتفرّقت هناك»[22].

أما اشاعة هذه التسمية واطلاقها على شمال افريقيا وسكانه. فهو راجع الى اليونانيين الذين تعود صلتهم بليبيا وشعوبها الى القرن الثامن قبل الميلاد، ويقال ان

(هيكتايوس) هو أول من عمم هذا الاسم وتبعه هيرودوت ومؤرخو اليونان وجغرافيوهم[23]. وعن اليونان أخذ الرومان وغيرهم هذه التسمية ذات المعنى المعمم.

والخلاصة هي أن «التحنو» والتمحو والليبو والمشواش «هي أسماء بعض الجماعات الليبية الكبيرة القديمة والتي منها ومن غيرها انحدر البربر».

ويمكن أن نرتب ظهورها في السجلات المصرية على النحو التالي:

- التحنو: ظهروا في الثلث الاخير من الالفية الرابعة قبل الميلاد.
- التمحو: ظهروا في أواسط الالفية الثالثة قبل الميلاد.
- الليبو والمشاوش: ظهروا في الثلث الاخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد ومن غير شك فان وجود هذه الجماعات أسبق من التواريخ المذكورة بكثير بدليل ما أشارت إليه تلك الوثائق الاقدم التي لم تصحب بنصوص واشارات كتابية حيث ميز الدارسون من خلالها السمات الخاصة بالجماعة الليبية.

واذا كانت السجلات المصرية جعلتنا نعرف أن بعض أجداد البربر كانوا موجودين منذ الالف الرابعة قبل الميلاد، فهل يمكن لنا اضافة الى ما ذكر أن نعرف تاريخهم الأقدم من ذلك؟

ليس أمامنا في هذه الحالة الا وثائق ما قبل التاريخ والمعلومات التي أمكن جمعها من التنقيبات والتحريات الاثرية، وهذا يدعونا الى تناول العصر الحجري الحديث في كل من الصحراء وشمال أفريقيا لمعرفة تطور المنطقة والصورة التي تمّ بها تعميرها ووجود البربر عليها.

وأول ما تجدر الاشارة اليه هو ان العصر الحجري الحديث ظهر في الصحراء أولا، وهي أقدم منطقة في القارة الافريقية كلّها عرفت هذا التحول الجديد المتمثل في تيارات متنوعة أهمها في نظر الدارسين ما سمي (بالعصر الحجري الحديث السوداني) أو (العصر الحجري الحديث ذي التقاليد السودانية) وأساس هذه التسمية ما لوحظ، من تشابه في صناعة الفخار بالخرطوم (السودان) وبأمكني بالهقار (الجزائر) وفي غيرها من الأماكن الاخرى.

ويفسر علماء ما قبل التاريخ انتشار هذا التيار عبر الصحراء بأنه ناجم عن هجرة جماعات من السودان، اتجهت من الشرق الى الغرب على طول البحيرات الكبرى بالتشاد، وحسب هـ.ج هوغو «لا يبدو أنها تجاوزت الحاشية الشرقية «اوكر» أو أنها توغلت في الغابة»[24].

وامتدت شمالا حتى جهة الهقار والساوره (واد بصحراء الجزائر) وفزان، ولا يوجد ما يدل على أنها تجاوزت حدود هذا المسار، وأصحاب هذا التيار من جنس أفريقي كما تدل على ذلك الوثائق البشرية من حيث (بروز الفقم (الفك المتقدم) والخيشوم العريض (الأفطس) وباستطالة السواعد والسيقان»[25].

وهذا التيار يرجع وفق أغلب التقديرات الى الالف السادسة قبل الميلاد. وهناك من يعود به الى أقدم من ذلك[26]. والعصر الحجري الحديث الصحراوي عامة استمر الى حدود 2800 أو 2700 ق.م

أما العصر الحجري الحديث في شمال أفريقيا، فالمعلومات حوله ما تزال محدودة، وهناك غموض وما يشبه الانقطاع في بعض حلقاته الامر الذي يدعو الى الحذر ازاء التأويلات والافتراضات، وخاصة تلك التي تربط بشكل ميكانيكي واعتباطي بين جماعات العصر الحجري الأعلى وبين الجماعات البربرية الأولى (اللبيون القدامى) في العصر الحجري الحديث.

وتحدث المختصون عن وجود عدة تيارات في العصر الحجري الحديث بشمال افريقيا، منها القفصي والوهراني المنحدران من الجماعات السابقة، ومنها تيار ظهر بالمنطاق المحاذية للساحل الأطلسي[27].

وأهم هذه التيارات التيار القفصي الذي تقدم ذكره.

والعصر الحجري في شمال افريقيا بدأ ـ في أغلب الاحتمالات في الالف الرابعة قبل الميلاد، واستمر حتى العصر التاريخي للمنطقة (1200 ق.م) الذي يبدأ بمجيء الفينيقيين، واستمر في بعض المناطق الداخلية حتى العصر الروماني.

وعبّر العصر الحجري الحديث في كل من الصحراء وشمال افريقيا عن تطورات جديدة، تمثلت في حدوث تقنيات جديدة في صناعة الحجارة والعظام وصقلها وفي صناعة الفخار ومظاهر من الحياة الفنية والاجتماعية والاستقرار، ولكن هذا العصر في كلا المنطقتين لم يعرف الفلاحة مما جعله عصرا ضعيفا محدود الامكانيات، الا أنه عرف الرعي في بعض أطواره، فكيف كان ذلك؟

فالعصر الحجري الصحراوي قبل الالفية الخامسة السابقة للميلاد لم يتجاوز في تحولاته حدود التطورات المذكورة، ولكنه في بداية هذه الألفية عرف الرعي وتربية الحيوانات (ضأن ـ ماعز ـ بقر) فكيف عرفنا ذلك؟ وبما تمّ تحديد بداية ظهور المجتمع الرعوي في الصحراء؟ توصلنا الى ذلك بالاعتماد على:

1 ـ عظام الحيوانات المستأنسة التي عثر عليها في الحفريات.

2 ـ الرسوم والنقوش التي خلفها الفنانون الصحراويون في الكهوف وفوق الصخور.

فعظام الحيوانات المستأنسة لم يعثر عليها إلاّ في ركمات الطبقات الفوقية التابعة للعصر الحجري الحديث، وهذا الدليل قاطع على ان هذه الحيوانات وعملية الرعي لم يظهرا الا في هذا العهد.

وأما الرسوم والنقوش فكانت تمثل حيوانات متوحشة من فيلة وزرافات وكركدن وغزلان وثيران وأفراس بحر والنعام وغير ذلك، وقطعان ماشية من غنم وماعز وبقر وحيوانات أهلية كالحصان والجمل.

وهذه الرسوم والنقوش منتشرة على طول الصحراء من المحيط الأطلسي حتى البحر الأحمر فهناك رسوم بجنوب المغرب وبظهر تشيت بموريطانيا وبجنوب وهران وبتاسيلي ـ ناجر (حيث توجد مراكز الرسوم الكبرى: جبارين، صفار، جنات...) بالجزائر، وبفزان بليبيا وبتبستي بين ليبيا والتشاد، وبالنوبه.

وتبيّن دراسات «ف. موري» وغيره أن هذه الآثار الفنية تمثل أطواراً تاريخية متعاقبة ومتباعدة خلّدها فنانون من أجيال مختلفة من سكان الصحراء ولم تحدد بعد بشكل حاسم البداية التاريخية لنشأة هذه الاثار الفنية الصحراوية. بيد أن «جراسيوسي Graziosi)»[28] يرى أنها لا تسبق العصر الحجري الحديث. ويستفاد من دراسة أخرى أن أقدم تاريخ لها لا يسبق الألفية السابعة قبل الميلاد[29].

ومن الدارسين المرموقين الذين ميّزوا الاطوار والمراحل التاريخية المتعاقبة لهذه الرسوم والنقوش الاستاذ ف. موري[30] الذي درس مجموعة من الكهوف الطبقية في اقليم فزان بهضبة الأكاكوس قرب تبستي اعتماداً على الراديو ـ كربون ونتائج الحفريات الاثرية ـ وتوصّل إلى تحديد خمسة أطوار هي كما يلي:

1 ـ نقوش تمثّل حيوانات متوحشة كبيرة أو الجاموس (حيرم) والأبقار البرية (Bubalus antiquus).

2 ـ فترة الرؤوس المستديرة (Round-Heads).

3 ـ الفترة الرعوية (Pastorol) المتميزة بوجود صور لقطعان عديدة من الحيوانات الأهلية.

4 ـ فترة الحصان أو العَرَبَة (Chariol).

5 ـ فترة الجمل.

ويهمنا من هذه الأطوار الطور الثالث المتعلق بالرعي، فقد درس «موري» رسوماته في عدة مواقع، أهمها: «وان تلوكات» «وان موهوجياج» «فوزيجيارين» واحتوت ركمات هذه المواقع على عناصر متنوعة من مخلفات الجماعات السابقة.

- ففي «وان موهوجياج» عثر على بقايا ماشية مستأنسة حدّد تاريخها بالفترة ما بين 5500 و4000 ق.م.
- وفي «فوزيجيارين» حدد تاريخ الرواسب العليا والسفلى بـ6000 ق.م.
- وفي «وان تلوكات» حدد تاريخ الرواسب بـ4800 ق.م[31].

ويعتبر «موري» ان الألفية السادسة قبل الميلاد فاصلة بين عهدين: عهد الرؤوس

المستديرة وعهد الرعاة، ويفترض «أن الانقطاع في التسلسل بين فترة الرؤوس المستديرة والفترة الرعوية لم يكن قصيراً ولم يكن ثقافياً خارجاً عن المجال»[32].

وبناء على هذا فان بداية ظهور الرعي في هذا الجزء من الصحراء يمكن أن يردّ إلى منتصف الألف السادسة قبل الميلاد، ويرى «موري» أن هذا الدور الحضاري أو «الحلقة الثقافية تبدأ في الاختفاء حوالي 17 قبل الميلاد حسب تحليل Pollen»[33] (علم اللقاح والأنواع).

وفي الشمال في اقليم برقة توصل «ماكبرني» في تحليله لرسوبات وطبقات كهف «هوافطيح» إلى النتائج نفسها فيقول في الطور السادس من أطوار هذا الكهف: «حوالي 7000 من الآن (أي 5000 ق.م) وقع تحوّل عميق كبير أثر في حياة الليبيين القدامى، نستطيع اكتشافه في «هوافطيح» وفي مجموعة من الكهوف درست من قبل ف. موري بفزان ففي كلا الجهتين ظهرت أول الحيوانات الأهلية وأصبح الناس رعاة عوضاً عن صيادين»[34].

من هؤلاء الرعاة؟:

يذكر موري أن عصر رسوم الرؤوس المستديرة «مربوط بسكان شبه زنوج»[35] اذ أن أصحابه رسموا بملامح وسمات زنجية، أما فترة الرعاة فقد ظهرت فيها معطيات جديدة، فقد تغيّر النظام الاجتماعي وتغيّر أسلوب ومحتوى الرسوم، فقد اختفت الرسوم «ذات الشكل البشري والطابع الأسطوري»[36] وحلت محلها رسوم ذات مواضيع جديدة مثل «تربية الماشية والتنقل عليها وحلب البقر والأنشطة المتنوعة للحياة القبلية»[37].

والمهم هنا هو أن الأشخاص المرسومين بملامح معينة ليسوا متزنجين، في هضبة الأكاكوس «لونت بشرتهم باللون الأصفر أو الوردي الفاتح وتركت شعورهم بيضاء»[38] وهو ما دعا البعض إلى ربطهم بمجموعة «التمحو» ذات البشرة البيضاء والشعر الأشقر، وقد ربط موري هؤلاء الرعاة «بمجموعة البحر الأبيض المتوسط البيضاء»[39].

وكل هذا يؤكد أن الرعاة ما هم الا أقوام مهاجرة قدمت المنطقة وأدخلتها لأول مرة في الحضارة الرعوية، ثمّ أنّ عملية استئناس الحيوانات ليست ظاهرة محلية ولا يمكن أيضاً في ظل المعطيات المعروفة أن تكون مستوردة ذلك أن الضأن والماعز والبقر المربّى لا توجد في القارة الافريقية كلّها، وانما عرفت في الجزيرة العربية والشرق الأدنى عامة، وهذا الأمر معروف ولا جدال فيه بين العلماء.

وقد أكد ماكبرني على أن الحيوانات المستأنسة في العصر الحجري الحديث ليست أصيلة بالمنطقة ولذا يقول: «على كل حال فلا الأغنام ولا البقر يمكن أن تتكوّن وتتطوّر من الحيوانات المتوحشة المحلية بأفريقيا الشمالية»[*].

وتحدّث م. ل. شملا، على ان هناك «ظاهرة قارة في تعمير الصحراء في العصر الحجري الحديث. وهي الهجانة بقطبيها: السود من جهة والبيض من جهة أخرى، وأصلهما نصف شرقي ويجمعون تحت اسم «أهل حوض البحر المتوسط»[40] والاضافة التي تهمنا في ما قاله «شملا» هي أن العنصر الأبيض شرقي وأن وجوده بالصحراء كانت نتيجة الهجرة.

ونستخلص من كل ما تقدّم أن هؤلاء الرعاة ما هم في الحقيقة الاّ الجماعات البربرية الأولى التي أطلق عليها في الأول اسم (اللوبيين) تحولوا في مرحلة تالية من الصحراء إلى شمال افريقيا، وهذا واضح منذ الألف الرابعة قبل الميلاد بسبب حدة الجفاف المتزايدة التي لاحظها موري عندما قال:

«فالتحولات المناخية في فترة ما بين 3 و10 آلاف سنة الماضية حوّلت مساحات عريضة إلى مناطق جافة وقفراء مما جعل السكان يغادرونها»[41]. إما شرقاً في اتجاه مصر وإما شمالاً في اتجاه أقطار المغرب العربي الثلاثة وظلّ الجفاف يتزايد على مر الأيام حتى بلغ التصحّر ذروته وصار أمراً مقضياً حوالي 1000 ألف سنة قبل الميلاد، وكان دوره في الضغط على الجماعات الرعوية التي انتشرت في أرجاء شمال افريقيا من قبل أن يأتي الفنيقيون بمدة طويلة.

وبحلول الحضارة الرعوية في سائر أنحاء المنطقة لمع اسم «الشاويه» كتعبير أصيل عن هذه الحضارة منذ أطوارها الأولى وكدليل لغوي وثقافي على انتمائها الشرقي الأصيل.

فهذا الاسم لا يعني قبيلة معينة كما قد يتبادر إلى الذهن، وانما هو اسم بمثابة المصطلح يطلق عامة على من يرعى الشاة ويختص بتربيتها. وهذا الاسم منتشر في المشرق العربي منذ عهود قديمة وما يزال موجوداً إلى الآن بصحراء الشام وجهات في العراق، وكذلك الحال في منطقة المغرب العربي اذ ما تزال جماعات عريضة تحمل هذا الاسم في غربي وشرقي المغرب الأقصى وفي شرقي الجزائر يطلق عليهم «الشاويه» فهو اسم من ارث حضاري قديم توارثه الاحفاد عن الاجداد الأوائل وان الذي ساعد على الاحتفاظ به في المشرق والمغرب العربيين، الممارسة المتواصلة لمهنة الرعي حتى بعد أن عرفت المنطقة الفلاحة في وقت متأخر.

ولا يغيب عن البال أن هذا الاسم، الشاويه، العريق في الجماعات البربرية، هو اسم عربي الأصل صياغة ومدلولاً منحدر من اللغة العربية القديمة تلك التي يطلق عليها خطأً أو عناداً «السامية».

والخلاصة: ان الجماعات البربرية الأولى الرعوية وصلت إلى الصحراء الليبية وانتشرت فيها في حدود الألف الخامسة قبل الميلاد ثم تحوّلت إلى المناطق الواقعة شمال الصحراء كما هو واضح من تحوّلات الظروف المناخية في الألف الرابعة قبل الميلاد. وبهذا

نكون قد توصلنا إلى تحديد تاريخ ظهور البربر في شمال افريقيا وهو أمر لا يرتاح له من يكذبون على التاريخ ومن سوّلت لهم اقليميتهم المتخلفة بالحديث عن الانسان التونسي الأول وعصوره الحجرية القديمة وغير ذلك من الترهات.

هوامش:

1 ـ فوزي فهيم جاد الله: مسائل في مصادر التاريخ الليبي قبل هيرودوت ـ الوارد في (**ليبيا في التاريخ**) منشورات الجامعة الليبية ـ بنغازي 1968 ص 51.

2 ـ د. فوزي فهيم: مسائل في مصادر... المصدر نفسه ص: 51

(*) ترجح بعض المراجع ان ملوك هذه الاسرة الاولى في العصر الباكر كانوا ينتمون الى جنس أجنبي ـ غزا مصر وفرض سيطرته عليها، احمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص: 49–1979 بيروت ـ وهذا الجنس الاجنبي من الجزيرة العربية.

3 ـ د. فوزي فهيم: مسائل في مصادر... المصدر نفسه ص: 51.

4 ـ جيان دي سانج ـ البربر الاصليون ـ الوارد في **تاريخ افريقيا العام** الجزء 2 ص: 439.

5 ـ د. فوزي فهيم: مسائل في مصادر... المصدر المذكور سابقا ص: 62.

6 ـ جيان دي سانج: البربر الاصليون... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 439.

7 ـ د. فوزي فهيم: مسائل في مصادر... المصدر المذكور سابقا ص: 59.

8 ـ بازامه مصطفى: تاريخ ليبيا في عصور ما قبل التاريخ ـ منشورات الجامعة الليبية بنغازي 1973 ج 1 ص: 57.

9 ـ جيان دي سانج: البربر الاصليون... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 439.

(*) جملة مقتطفة من النص الهيروغليفي لرحلة خرخوف شائعة في عدد من المصادر.

10 ـ نجم الدين محمد الشريف: النوبة قبل نباتا ـ الوارد في (تاريخ افريقيا العام) ج 2 ص: 253 ـ مصدر تقدم ذكره.

11 ـ نجم الدين: النوبة... المصدر نفسه ص: 253.

12 ـ د. فوزي فهيم: مسائل في مصادر... المصدر المذكور سابقا ص: 64.

13 ـ البربر الاصليون: المصدر المذكور سابقا ص: 439.

14 ـ تاريخ ليبيا في عصور ما قبل التاريخ ـ المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 53.

15 ـ بازامه مصطفى: تاريخ ليبيا.. المصدر نفسه ص: 56 انظر ايضا فوزي فهيم: مسائل في مصادر... ص: 19.

16 ـ ص: 122 ـ Rossler: Der Semitisch charakter libyschen Sprahe in Z A, 50 Leipzig 1952.
(السمات السامية في اللغة اللوبية)

17 ـ د. فوزي فهيم: مسائل في مصادر... المصدر المذكور سابقا ص: 59 هامش 2.

18 ـ نقلا عن بازامه مصطفى: تاريخ ليبيا: ص: 59.

18 أ ـ **تاريخنا** ـ الكتاب الاول ـ ليبيا من عصور ما قبل التاريخ حتى القرن السابع قبل الميلاد. 1977 ص: 95.

19 ـ بازامه مصطفى: تاريخ ليبيا... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 59.

(*) وردت في صيغة (لوبي) في سفر اخبار الايام الثاني، الاصحاح 12 الاية 3 والاصحاح 6 الاية 8 وفي سفر دانيال الاصحاح 11 الاية 43 ـ وردت بصيغة (لوبيم) في سفر ناحوم الاصحاح 30 الاية: 5 التوراة.

20 ـ د. مصطفى كمال عبد العليم: ليبيون واغريق من برقة (ليبيا في التاريخ) ص: 101 مصدر تقدم ذكره.

21 ـ **فتوح افريقية والاندلس**: حققه عبد الله انيس الطباع ـ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني بيروت 1964. ص: 28.

22 ـ **المسالك والممالك ـ** ليدن 1889 ص: 91.

23 ـ د. مصطفى كمال عبد العليم: ليبيون... المصدر المذكور سابقا ص: 102.

24 ـ الصحراء في ما قبل التاريخ: الوارد في (تاريخ افريقيا العام) ج 1 ص: 605.

25 ـ ابراهيمي: **تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر ـ** ترجمة محمد البشير الشنيتي ورشيد بورويبه ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982 ص: 120.

26 ـ ابراهيمي: تمهيد حول... المصدر نفسه ص: 118 ويذكر أن محتويات موقع «أمكي» تعود الى 7600ق.م.

27 ـ ل. بالوت: افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ ـ الوارد في (تاريخ افريقيا العام) ج 1 ص: 590 ـ مصدر تقدم ذكره.

28 ـ بازامه مصطفى: تاريخ ليبيا... المصدر المذكور سابقاً ص: 167.

29 ـ ج. كي. ريربو: الفن الاغريقي في ما قبل التاريخ ـ الوارد في (تاريخ افريقيا العام) ج 1 ص: 669 مصدر تقدّم ذكره.

30 ـ Fabrizio Mori: Prehistoric Saharan Art cultures in the light of discoveries the Acacus Massif (Libyan Sahara) الوارد في «ليبيا في التاريخ» ص 31 مصدر متقدم.

31 ـ أخذت هذه الأسماء والتواريخ المصاحبة لها من دراسة موري السابقة ص: 34.

32 ـ Prehistoric... Mori المصدر نفسه ص: 36.

33 ـ Prehistoric... Mori المصدر نفسه ص: 36.

34 ـ (دور ليبيا في فترة ما قبل التاريخ) .C.B.M. Mcburney: Libyan role in prehistory الوارد في (ليبيا في التاريخ) ص 6 مصدر تقدم ذكره.

35 ـ Prehistoric... Mori المصدر المذكور سابقاً ص: 38.

36 ـ Prehistoric... Mori المصدر المذكور سابقاً ص: 38.

37 ـ Prehistoric... Mori المصدر المذكور سابقاً ص: 38.

38 ـ بازامه مصطفى تاريخ ليبيا... المصدر المذكور سابقاً ص: 105.

39 ـ Prehistoric... Mori المصدر المذكور سابقاً ص: 78.

(*) ماكبرني: المصدر السابق ص: 6 ـ فالأغنام والماعز والبقر (الصالح للتأهيل) لا توجد في القارة الافريقية وانما عرفت في الجزيرة العربية والشرق الأدنى عامة، وفي هذا الصدد يقول رولان بورتير وجاك بارو اللذان يعتبران افريقيا في ما يخص هذه الحيوانات الأهلية مدينة إلى العالم الخارجي الشرقي «فيبدو جلياً أنها كانت مدينة له في ما يخص حيواناتها الأهلية» ويرد فان: «ان تربية الحيوانات لم تتطور بصورة مستقلة في افريقيا جنوب الصحراء التي لم يكن فيها للحيوانات أي سلف ممكن (البقر والماعز والغنم المؤهلة) ص: 714 من دراسة بعنوان: «بداية التقنيات الفلاحية وتطورها وانتشارها)» انظر تاريخ افريقيا العام ج 1.

40 ـ الصحراء في ما قبل التاريخ المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 604.

41 ـ Prehistoric... Mori المصدر المذكور سابقاً ص: 31.

اللـغـة البـربـريـة

النتائج التّي تمّ التوصل اليها من خلال المعلومات الاثرية وغيرها كانت هامة في التأكيد بوضوح على أن البربر هجرات وعلى أنهم اضافة إلى معطيات أخرى ـ من منبت شرقي. وما دام الأمر كذلك فلا بدّ أن نجد في اللغة البربرية وأسماء الاعلام ذات الماضي العريق وفي غيرهما من الجوانب الأخرى ما يثبت ذلك ويقطع به، وهذا ما سنتناوله في الفقرات القادمة.

ومن الحقائق المسلم بها في مثل هذه الدراسات، اعتبار الأدلة اللغوية من أفضل الأساليب وأوضحها لاثبات ما بين الشعوب من علاقات ثقافية وصلات نسب، ولذا فنحن مدعون إلى الخوض في هذا الموضوع معتمدين على منجزات علم اللغة المقارن وعلى ما توصّل اليه من معلومات وحقائق لغوية في مجال الدراسات البربرية وعلاقاتها باللغات العربية القديمة. وفي الاثناء سيردّ استعمال «اللغة البربرية» أكثر من استعمال «اللغة اللوبية» لأن هذه الأخيرة وكان لفظها «اللوبي» أقدم تاريخياً الاّ أنه لم يعد له من الشيوع ما للفظ «البربر».

تصنيف البربرية والفكر الاقليمي ـ الطائفي:

مرّ بنا أن المدرسة التاريخية الاستعمارية صنّفت «البربرية» تصنيفات مختلفة، ورغم سقوط هذه التصنيفات، فان بعضها مثل «الحامية» و«الحامية ـ السامية» ما يزال رائجاً في الحقل السياسي والثقافي، ولا تعود مسؤولية ذلك ـ كما قد يتبادر إلى الذهن إلى الاستعمار الثقافي وحده واستمراره في المنطقة، وانّما أيضاً وأساساً إلى التوجّه الاقليمي لقوى اجتماعية وسياسية داخل أقطار المغرب العربي التي تلتقي في كثير من مشاربها وأغراضها بأطروحات تلك المدرسة.

وقد أدّى هذا ـ بالاضافة إلى سلبية الجماهير والركود السياسي العام ـ إلى تشجيع النزعات الانعزالية على الظهور أكثر «مثل النزعة البربرية» التي أخذت تكشف عن نفسها في أعمال سياسية وثقافية(*) تقوم على الانفصال والروح شبه الطائفية وعلى التفريق بين البربر والعرب، ومن هنا نفهم لماذا يتمسك سليم شاكر وأضرابه بمقولة «الحامية ـ السامية»[1] التي يراها «الزاوية الوحيدة الجدية التي من خلالها يمكن دراسة العلاقة بين العرب والبربر من حيث الأصل»[2].

وهو هنا لا يتناول البنيات اللغوية كما قد يخطر على البال ليدرسها ويقارن بينها الأمر الذي يساعد على أن يظفر بمعلومات لا على مستوى القرابات اللغوية فحسب ولكن أيضاً على مستوى مسائل أخرى كالهجرة، اذ ان للعلوم اللسانية دوراً هاماً في الأبحاث التاريخية وخاصة في هذا الموضوع، وسليم شاكر لا يفعل هذا وانما يعمد إلى المماحكة والسفسطة الفارغة فيقول:

«العربي والسامي غير مترادفين»[3].

أي أن العربي ما هو الا شيء محدود وقليل الأهمية اذا ما قورن بالسامي بصفته مجموعة لغوية واسعة، فاللغة العربية على حد قول سليم شاكر «ليست الا فرعاً ثانوياً وجزئياً حديثاً من المجموع السامي الذي يضم لغات أخرى عديدة تختلف عن العربية شديد الاختلاف»[4].

ثمّ ان السامي نفسه رغم أهميته ما هو أيضاً الا فرع من «أسرة لغوية أكبر تضم على الأقل أربعة تفرعات: السامي والكوشي... والمصري القديم والبربري»[5].

وما دام الأمر كذلك فانه من العبث الذي لا طائل تحته أن نكلّف أنفسنا مشقة البحث عما يمكن أن يجمع بين العربية والبربرية على صعيد واحد للبون الشاسع الذي بينهما.

فالبربرية فرع مكوّن «للحامية ـ السامية» في حين أن العربية فرع ثانوي من «السامية» وحسب، ولذا يقول سليم شاكر: «الحامي ـ السامي ليس مطابقاً للسامي فما بالك أن يكون مطابقاً للعربي»[6].

ويقول أيضاً: «كل ما في الأمر هو وجود علاقة نسب محتملة غير مباشرة ونائية بين اللغتين»[7].

وهو هنا لا يعزل البربرية عن العربية فقط وانما يعزلها عن السامية أيضاً، ويذهب في ذلك إلى حد التشكك في ما اعتبره أصلاً مشتركاً يجمع بينهما وهو «الحامية ـ السامية» حيث يقول: «ان كان لهذه الوحدة وجود بالمرّة»[8].

وسليم شاكر اذ يركّز على عزل البربرية فانه يحاول أن يجد لذلك أيضاً ما يبرره تاريخياً فيذكر «ان الأصل المشترك (أي الحامية ـ السامية) يرجع بالتأكيد إلى عدة الاف من السنين قبل الألفية الخامسة أو الرابعة قبل المسيح. ذلك أن الفروع المصرية والسامية

(الأكدية) تشكّلت إلى حدود هذا التاريخ مجموعات متميّزة تماماً وهذا يرجع بنا إلى ألفيات عشر إلى الوراء»[9].

ومعنى هذا ان المصرية والسامية لغتان موغلتان في القدم وأن فروعها حديثة نسبياً: والبربرية باعتبارها مثل المصرية والسامية فهي اذن أقدم من فروع السامية، ومن باب أولى العربية الحديثة التكوين، والخلاصة أن البربرية والعربية من حيث التسلسل متباعدتان تماماً.

وبعد أن يطمئن سليم شاكر إلى ما قدّمه من آراء يعلن أن عرضه «يتناسب مع الرأي الذي يسلّم به على العموم أخصائيو العلوم اللسانية المقارنة»[10].

وقوله هذا نعتبره صحيحاً من ناحية لأنه فعلاً يتناسب مع مزاعم وأراء أخصائي المدرسة التاريخية الاستعمارية وأقطابها من مثل: A. Meillet و Delafasse و R. Basset ولكنّه غير صحيح من حيث التعميم فهناك العديد من علماء اللغات المقارنة الذين رفضوا من قبل الخمسينات ـ مقولة الحامية والحامية السامية ومن هؤلاء علماء البربريات اللامعين أمثال: Francis William Newman و Hans Stumme و Rossler الذين ساهموا مساهمة كبيرة في تقويض المدرسة التاريخية الاستعمارية.

واللافت للنظر أنّ سليم شاكر تفادى ذكر أيّ اخصائي ممّن اعتمد عليهم، وهذا واضح لأن ذكرهم أو ذكر بعضهم يحرجه ويجعل الآخرين يرتابون في دعوته، ولا مفر في هذا السياق من ذكر الملاحظات التالية:

1 ـ قد يفهم البعض أن سليم شاكر تناول المادة اللغوية للبربرية ولفروعها ففحصها وقارن بينها أو أنّه أخذ من أبحاث الآخرين استشهادات مناسبة لاقناع غيره بوجهة نظره، والواقع أنّه لم يفعل لا هذا ولا ذاك وأنّ بحثه كان خلوا من أية استشهادات، ولم ينتق من آراء اللغويين ودراستهم الا هذين الكلمتين «الحامية ـ السامية» لا غير.

وقد يفهم البعض أنّ سليم شاكر من دعاة المذهب الحامي الفرنسي الذي تجاوزه الزمن، والحقيقة أنه يتمسك به لأنه لم يجد هو وأضرابه على الصعيد السياسي والثقافي ما هو أفضل منه لترويج نزعتهم الاقليمية، الطائفية، البربرية.

2 ـ أشار سليم شاكر إلى عراقة اللغة البربرية ليبرز اقدميتها وبعد الشقة بينها وبين العربية، ولكنه يصمت عمّا كشفت عنه العلوم الاثرية واللغوية وحتّى الدراسات المتعلقة بالاجناس البشرية ومن أنّ البربر هجرات، قدمت على مراحل من الشرق، وهو ما يجعل البربرية جزءاً من ذلك الواقع اللغوي الشرقي المسمّى بالسامي. والسامية أو العربية القديمة هي في تقديري أقدم مجموعة لغوية عرفت حتى الآن. والبربرية جزء منها، والمشكل هنا ليس في من هو أقدم أو

أحدث من فروع هذه المجموعة وانما في ما يوجد بينها من أرومة ووحدة أصل مشتركة.

3 ـ كذلك لاحظنا أن سليم شاكر وان كان يقول بأنّ البربرية فرع من «الحامية ـ السامية الاّ أنه ـ وكما أشرنا من قبل ـ يبدي شكّه في وجود صلة بين المجموعتين على خلاف ما أظهرته الأبحاث اللغوية المقارنة في هذا الموضوع.

وهو في شكّه لا يهتدي بمعطيات موضوعية وانما تقوده شهوته ونزعاته الذاتية تحقيقاً لروح الانفصال الطائفية المستبدّة بشخصه، والأمر اللافت للنظر هو أنه ينسى أو يتناسى أنّ ما سمي «بالحامية» هو أيضاً مثل «السامية» نبتة آسيوية الأصل هاجرت إلى افريقيا وانّ بعض الباحثين ـ كما مرّ بنا ـ يعتبرون موطنها الجزيرة العربية.

4 ـ ان أفكار سليم شاكر مصدرها الأساسي المدرسة الفرنسية للبربريات وخاصة نظرية «مرسال كوهين M. Cohen»[11] التي وان قرّبت بين السامية والبربرية ضمن تصنيفه السابق الذكر الا أنها جعلت هذه الأخيرة مجموعة متميزة ومستقلة لانفصالها والكوشية عن المجموعات الأخرى منذ زمن قديم مما أوهن روابطها بالسامية وأضعفها، وكرر مرسيل كوهين نظريته سنة 1947 في كتاب بعنوان: محاولة مقارنة حول المعجم الحامي ـ السامي وصوتياته»[12].

وذلك في فترة بدأ يتصاعد فيها النضال الوطني في أقطار المغرب العربي، وتقدّمت الدراسات في مجال علم اللغة المقارن الذي أثبت وجود علاقات لغوية قديمة بين مجموعة اللغات المسماة بالحامية ومجموعة اللغات المسماة بالسامية، وقد أظهر هذا وشائج القربى ووحدة الأصل بين البربر والعرب، وهو ما لا يريده المستعمر بأي حال، فكرّر مرسال كوهين هذه النظرية، وضمّنها القربى من ناحية، وهي ضعيفة واهية لا يعوّل عليها، وضمّنها الانفصال من ناحية أخرى وهو المعنى الذي وقع ابرازه وتأكيده والذي تثقّف به أعداء الانتماء العربي وظلّوا يعيشونه، ومن هؤلاء سليم شاكر وأضرابه حتّى أننا نجدهم في المناسبات الهامة التي تطرح فيها قضية الوحدة لا يترددون في رفع أصواتهم الناعقة بأنّ البربر ليسوا عرباً(*).

ولا شكّ أنّ انحدار الاستعمار وسقوط نظرية «الأصل الأوربي» ونظرية «الحامية» و«الحامية ـ السامية» و«الأفرو آسيوية» قد ساهم في وضع البربرية في اطارها اللغوي العام، وشكّل تصنيف البربر ضمن المجموعة السامية ـ الذي سبق ذكره ـ خطوة هامة في كنس التلفيقات والملابسات، واعادة الأمور إلى نصابها. حيث لم يبق بعد هذا، سوى الغاء التسمية أي الغاء لفظ «السامية» وتعويضها بالتسمية الصحيحة وهي «العربية القديمة» وهذه أيضاً من الحقائق التي بدأت تفرض نفسها على الباحثين.

وبهذا نكون قد قطعنا خطوة أخرى في اسقاط الاطروحات المغلوطة حول

«البربرية» التي أخذ يتجلى لنا الآن نسبها الشرقي الأصيل وهو ما سيتأكد ـ بما لا يقبل الدحض ـ من خلال المعلومات والمقارنات التي سنتطرق اليها في العناوين القادمة.

البربرية واقع لغوي قديم:

تعود أوليات البربرية إلى حدود الألف الخامسة قبل الميلاد اذ هي لغة أولئك الرعاة الذين ظهروا في هذه الفترة لأول مرة في الصحراء ثم انتشروا منها إلى سائر أنحاء شمال افريقيا.

واللغة البربرية عبارة عن لهجات كثيرة مندرجة ضمن لهجات كبرى وهي وان كانت كذلك الا أن هناك سمات مشتركة وخصائص عامة تجمع بينها وتجعلنا نطلق عليها هذه التسمية اللغة البربرية التي كانت منتشرة من غرب مصر حيث واحة (سيوه) إلى المحيط الأطلسي بما في ذلك الصحراء وجزر الخالدات، وكشفت بعض الأبحاث عن وجودها في مناطق نائية بافريقيا مثل جزر الرأس الأخضر[13].

واللهجات البربرية مثل غيرها، عرفت تنوّعاً داخلياً نجمت عنه لهجات كثيرة(*) يمكن للدراسات المحددة ابرازه والعناية به وهو أمر لا يعنينا في الموضوع الذي نحن بصدده، وانما نلفت النظر إلى تنوع لغوي آخر في البربرية قديم ومتمايز عن بعضه ما يزال ماثلاً إلى اليوم وتنعدم فيه امكانية التفاهم اللغوي بين أصحابه.

فالشلحي مثلاً لا يفهم القبائلي وكلاهما لا يفهمان صاحب لهجة ثالثة وهكذا، ومثل هذا التنوع ليس متأتياً من تطورات لغوية داخلية وانما هو جزء من ذلك الواقع اللغوي القديم المتنوع الذي انفصلت عنه البربرية على مراحل، ومن غير شك فان استقرارها في موطنها الثاني (شمال افريقيا) وانعزالها فيه جعلها تحافظ على خصائص لغوية قديمة بشكل يفضل المصرية التي نالت منها عوامل مختلفة فأثرت فيها من عدة وجوه وتأثرت البربرية تأثراً واضحاً متباين الدرجات باللغتين الفينيقية والعربية الاّ أنه تأثر في وسع الدارسين تمييزه وضبطه، وما يتناوله هذا البحث يقتصر أساساً وبقدر الامكان، على ما يمكن أن يعدّ بربرياً أصلاً من حيث السمات اللغوية الخاصة به.

السمات المشتركة بين الأكدية والبربرية:

اللغة الأكّدية(*) نسبة إلى مدينة «أكّد» التي اتّخذها سرجون الأول عاصمة لامبراطوريته التي انشأها (2370–2230 ق.م) وموقعها في المنطقة ما بين بلدة المحمودية والحلة، في القسم الواقع جنوب بغداد من السهل الرسوبي، والأكديون الذين سمّوا باسم هذه المدينة من الأقوام العربية القديمة المسماة «بالساميين الشرقيين» هاجروا حسب بعض التقديرات قبل الألف الثالثة قبل الميلاد من الجزيرة العربية واستقرّوا أولاً

في الناحية الغربية لنهر الفرات ثم انحدروا بعد ذلك نحو جنوب العراق بجوار بلاد «سومر» متمركزين في المنطقة التي يقترب فيها نهرا دجلة والفرات من بعضهما.

وكتبت اللغة الاكّدية بالخط المسماري خلال الألف الثالثة قبل الميلاد، ومع مطلع الألف الثانية تفرّعت إلى البابلية والاشورية وما طرأ عليهما من تطوّر وتنوّع لغوي، ومما تجدر الاشارة اليه أن الأكّدية تصنّف أحياناً مع كتلة اللغات العربية الجنوبية (اليمنية القديمة) مما جعل البعض يستنتج أنّ الأكّديين هجرات قديمة من جنوب الجزيرة العربية.

والمهم هنا أن المقارنة بين الأكدية لغة العراق القديم وبين اللغة البربرية من المسائل المثيرة لدهشة الكثيرين، فالأولى واقعة في أقصى شرق الوطن العربي اندثرت منذ ألفي سنة أي مع بداية التاريخ الميلادي والثانية واقعة في أقصى غربه وما تزال على قيد الحياة يتكلمها عدد كبير من سكّان المغرب العربي، ومن هنا تكمن أهميّة هذه المقارنة، فانّ اثبات أية صلة لغوية بينهما يعني وأد كل نظريات العلم الاستعماري المزعومة حول أصل البربر التي ما زال يروّج لها الاقليميون وأعداء الانتماء العربي.

وما سيقدّم في هذا الباب وقع الاعتماد فيه على ما توزّع في عدد من الدراسات اللغوية، وخاصة دراستي «روسلر» الذي وفّر لنا معلومات هامة حول العلاقة بين اللغة الأكدية والبربرية ويرى في اللغتين أنهما «يحملان في ذاتهما مراحل تطوّر السامية الأمر الذي ينعدم في المصرية»[13أ].

والمقارنة المجرات تشمل العناوين التالية:

1 ـ الحالة الصوتية:

الحالة الصوتية في اللهجات البربرية الحديثة لا تكاد تختلف عن العربية في هذه الناحية، ولذا نجد محمد المختار السوسي يقول عن لهجة الشلحية: «ان أول ما يبادر للباحث في الشلحية عندما يقابلها بالعربية أشياء منها:

1 ـ أنه يجد مخارج الحروف متساوية في اللغتين حتى حرف الضاد فانه ينطق به عند الشلحيين كما ينطق به عند العرب سواء بسواء[13ب].

يقول روسلر عن اللهجة القبائلية:

«فانه يتهيّأ لأول وهلة أنها لا تختلف في شيء عن جارتها اللغة العربية الشعبية».

ولكن هل الوحدات الصوتية للهجات البربرية الحديثة هي نفس الحالة التي كانت عليها اللوبية القديمة؟ طبعاً لا. لأن هذه اللهجات تأثرت إلى درجة كبيرة بالعربية في ناحيتين أساسيتين: هما الناحية الصوتية والناحية المعجمية، ولنا في اللهجة القبائلية خير مثل على ذلك.

فروسلر يقول: «فقائمة من أفعال اللهجة القبائلية تبدو لأول وهلة وكأنها سليخة من

معجم اللغة العربية... فالقبائلية سواء في المعجم أو في مخارج الحروف متأثرة كثيراً جداً باللهجة العربية»[14].

ويبدو أن أقل اللهجات تأثراً أو تعرّبا لهجة الطوارق ولكن رغم هذا التأثير الواسع فانه يمكن التعرف من خلال اللهجات البربرية الحالية على سمات أساسية تتعلق بالحالة الصوتية اللوبية القديمة الأصلية، ونكتفي هنا باللهجة القبائلية لكونها أكثر اللهجات تأثراً بالعربية واللهجة الطوارقية لكونها أقل تأثراً مما يجعلها أكثر اصالة في المحافظة على الوحدات الصوتية ولأن أصحابها على ما يبدو ما يزالون متمسكين بكتابتهم القديمة المعروفة «بالتيفيناغ».

ـ فالقبائلية تحتفظ ـ حسب روسلر ـ بنسبة 25٪. من الأفعال غير العربية، أي ذات الأصل اللوبي، وبدراسة هذه المجموعة من الأفعال يتضح أن حروفها لا توجد بينها هذه الوحدات الصوتية: ط ـ ص ـ ق ـ خ ـ ح ـ ع ـ هـ أما الوحدات الصوتية: ض ـ ذ ـ غ فهي موجودة في الأفعال ذات الأصل العربي واللوبي على حد سواء.

ـ أما اللهجة الطوارقية الأكثر اصالة فهي أيضاً لا تعرف هذه الوحدات: ط ـ ص ـ ق ـ خ ـ ح ولا تعرف العين مطلقاً وأن الهاء لا توجد الا في حالات قليلة، لكنها تعرف مثل القبائلية هذه الوحدات: ض ـ ذ ـ غ[15].

وبالرجوع إلى الكتابات القديمة تتضح لنا صحة هذه النتائج حيث نجد هذه الكتابات:

1 ـ خالية من الحروف الحلقية وان كانت تتضمن هذه الوحدات: ط ـ ص ـ ق.
2 ـ لا توجد فيها هذه الوحدات: ض ـ ذ ـ غ.

ويعلّل «روسلر» وجود هذه الوحدات الصوتية: ض ـ ذ ـ غ في اللهجات البربرية الحالية مثل القبائلية والطوارقية بأنها في الأساس امتداد للحروف اللوبية القديمة: ط ـ ص ـ ق. بدليل أن اللهجات الحالية تنطق ضّ المشددة طّ مشدّدة وغّ المشدّدة قّ مشدّدة «وهذا يعني أن الغين الحالية في الكلمات اللوبية الأصلية ليست غينا أصيلة وتختلف عن العين في العربية اختلافاً تاماً»[16].

ومما تجدر ملاحظته هو أن الحروف الحلقية الموجودة في اللهجات البربرية الحديثة ليست متأتية كما قد يتبادر إلى ذهن البعض من اللغة الفينيقية اذ أنّ:

1 ـ النقوش في العهد البوني القديم لا تحتوي على الحروف الحلقية.
2 ـ ثم ان الفنيقيين أضاعوا على أرض شمال افريقيا حروفهم الحلقية كما تدل على ذلك اللهجة البونية الحديثة.
3 ـ كذلك فان اللوبية لم تحتو على هذه الحروف زمن الفتح وحتى بعده بكثير[17].

يضاف إلى هذا أن الفنيقية كما عرفت في الشرق لا يوجد فيها خ.غ وهما حرفان من حروف الحلق.

والخلاصة:

1 ـ ان اللوبية، كما هو مستخلص من لهجاتها الحالية ومن الكتابات القديمة لا تعرف بصفة عامة الحروف الحلقية حتى مجيء العربية مع الاسلام.

2 ـ ان الحروف الحلقية الموجودة في اللهجات الحالية وقع تعلّمها تدريجياً من العربية[18].

2 ـ المقارنة مع الأكدية ولغات عربية قديمة أخرى:

واذا ما قارنّا الوحدات الصوتية في اللوبية بالوحدات الصوتية في الأكدية فاننا نجد أن الأكدية كاللوبية لا تعرف معظم الحروف الحلقية[19]. ولا يوجد فيها الا حرفا الهمزة والخاء (أ.خ) ويعلل الدكتور خليل نامي ذلك بشدة الاختلاط الذي تمّ في العراق بين الأكديين والسومريين الذين كانوا لا يعرفون من الحروف الحلقية سوى الهمزة والخاء (أ.خ) فتأثر بهم الأكديون وخاصة على مستوى الكتابة بالخط المسماري وأضاعوا ما كانوا يعرفونه مثل هـ. ح.ع.غ ولم يحتفظوا الا بحرفي الهمزة والخاء قياساً على السومريين.

ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون خلو الأكدية من معظم الحروف الحلقية راجعاً لا إلى عامل الاختلاط بالسومريين وانما ان بعض القبائل السامية في تلك الفترة الموغلة في القدم كانت لا تعرف كل الحروف الحلقية أو تعرض بعضها بصورة تؤدي إلى سقوطها أو ابدالها بحروف أخرى.

فالفينيقية وهي من مجموع اللغات الكنعانية خلت من حرفي خ.غ ـ الحلقيين وكذلك الشأن بالنسبة للغات الارامية التي خلت هي الأخرى من هذين الحرفين، يضاف إلى هذا ما رأيناه في اللوبية التي تعرف الحروف الحلقية بصفة عامة، وهذا لا يدل فقط على ما بين اللغات العربية القديمة من سمات مشتركة في مجال المخارج والوحدات الصوتية وانما أيضاً على أن هذه السمات تعكس عمليات التطوّر الأولى لتلك الوحدات لدى القبائل عند توزعها وانشعابها واختلاف ظروفها وحاجياتها ودرجة التطور التي عليها.

واللوبية لا تلتقي مع الأكدية وبعض اللغات العربية الأخرى في خلوها من الحروف الحلقية فحسب وانما أيضاً في خلوها من بعض الحروف الأخرى فالسوسي يذكر في مجال المقارنة بين الشلحية والعربية ما يلي:

«ولا يفوت الشلحية من العربية الا المعجمات منها: الثاء والذال والظاء»[20] وبمراجعة خط (التيفيناغ) المستعمل لدى الطوارق نلاحظ أنه لا يتضمن هذه الحروف

وسواء كانت هذه خاصية عامة في اللهجات البربرية أم في بعضها فقط فاننا نجد أن بعض اللغات العربية القديمة خالية من هذه الحروف.

فالفينيقية واللغات الارامية لا تعرف الثاء والذال والظاء وهذه الظاهرة اختصت بها ما يسمى باللغات السامية الشمالية، أما اللغات الجنوبية فقد عرفت هذه الحروف.

والخلاصة من كل ما تقدم:

1 ـ ان نظام الحروف في اللوبية شبيه بنظام الحروف في اللغات العربية القديمة.

2 ـ ان اللوبية مثل الأكدية بالدرجة الأولى في خلوها من الحروف الحلقية.

3 ـ التصريف:

من موضوعات المقارنة المثيرة للدهشة، تشابه اللوبية والأكدية في مجال التصريف، وقد وفّر لنا «روسلر» معلومات هامة في هذا الموضوع نقتبس منها بعض النماذج للتدليل على هذا التشابه.

وأوّل ما يلاحظ:

أ ـ ان البربرية تلتقي مع الأكدية في عدد كبير من الجذور مما يؤكد وحدة الأصل والقرابة المعجمية بينهما.

ب ـ يذكر «روسلر» أن اللهجة القبائلية احتفظت «من بين اللهجات اللوبية الحديثة بنوعين من تصريف الأفعال المتأصلة في اللوبية: تصريف يعتمد على البدايات بالنسبة لأفعال الحالة وتصريف يعتمد على النهايات بالنسبة لأفعال الحدث، وهذان النوعان موجودان في الأكدية»[21].

وفي ما يلي نموذج من التصريف في القبائلية وما يقابله في الأكدية:

فعل الحالة في القبائلية

ضمائر المفرد	ضمائر الجمع
(هو) مَقَّر (هو كبير)	(هم) مَقَّرِتْ
(هي) مَقَّرتْ (هي كبيرة)	(هنّ) مَقَّرَتْ
(أنت) مقّرَضْ	(أنتم) مَقَّرِتْ
(أنا) مَقَّرِغْ	(نحن) مَقَّرِتْ

بقطع النظر عن التطورات المتعلقة بالبدايات واللواحق التي يجب أن تكون محل دراسة خاصة فان اللوبية باتت تصوغ الجمع بشكل موحد بدون النهايات المتنوعة، وهو أمر يشبه جمع الصفة في الأكدية، فالجمع من الجذر (م ق ر) صيغ بتشديد وسطه

فقيل (مَقَّرِتْ Meggerit) ولهذا نظيره في الأكّدية من مثل: صغّر (صغير) قرّد (قوي)[22].

فعل الحدث

القبائلية		الأكّدية
ضمائر المفرد:		ضمائر المفرد
(هو) اِلْمَدْ (تَعَلَّمَ)		(هو) اِلْمَدْ
(هي) تِلْمَدْ ! تَعَلَّمَتْ)		(هي) تَلْمَدْ
(أنت) تِلْمَدَضْ أو تِلِمْدَضْ	(طوارق ـ ب)	(أنت) تلمد أو تَلْمَدْ
	(تازرويلت ـ ط)	
(أنا) اِلْمَدَغْ أو لِمْدَغْ	(زناجه ـ ك)	(أنا) اَلْمَدْ
ضمائر الجمع:		ضمائر الجمع:
(هم) اِلْمِدِنْ أو لِمْدِنْ		(هم) اِلْمَدُو أو اِلْمَدَا
(هن) اِلْمِدِنْتْ أو لِمْدِنْتْ		(هنّ) تَلْمَدُو أو تَلْمَدَا
(أنتم) تِلْمِدِمْ أو تِلْمِدِمْ		(أنتم)
(انتن) تِلْمِدِمْتْ او تِلِمْدِمْتْ		(أنتنّ)
(نحن) نِلْمَدْ		(نحن) نِلْمَدْ

ونلاحظ هذا التشابه الكبير بين القبائلية والأكدية في تصريف فعل الحدث أما البدايات والنهايات في التصريف فهي وان كانت من مشمولات الدراسات الخاصة فاننا نجد في اللهجات البربرية لواحق خاصة.

فهناك الضاد في القبائلية والدال في الطوارقية والتاء في الشلحية والغين في كل اللهجات.

وهذه اللواحق من المستبعد أن تكون قديمة أي ارجاعها «الى السامية القديمة أو الصيغة الأصلية في اللوبية القديمة باعتبارها جميعاً علامة للمخاطب المفرد، ت. ط. د.)[23].

ومن موضوعات التصريف المتشابه، أن أفعال الحدث اللوبية تبدو متشابهة مع أفعال الحدث الأكدية المنتهية بضمة مع العلم ان أفعال الحدث في الأكدية منها ما هو منته بضمه ومنها ما هو منته بكسرة ومنها ما هو منته بفتحة[24].

الأكدية	اللوبية (الطوارق)
أفعال الحدث المنتهية بضمّة:	
الماضي: اِبْرُسْ (قصّ فرّق)	اِفْرَسْ (قصّ)
الحاضر: اِبَرَّسْ	اِفَرَّسْ
الأمر: بُرُسْ.	أُفْرَسْ
أفعال الحدث المنتهية بكسرة:	
الماضي: اِكْرِمْ (مسك. احتفظ)	اِكْرَمْ
الحاضر: اِكَرِّمْ (أصله اكرّم)	اِكَرَّمْ
الأمر: كِرِمْ	اَكْرَمْ
أفعال الحدث المنتهية بفتحة:	
الماضي: اِلْمَدْ (تعلّم)	اِلْمَدْ
الحاضر: اِلَمَّدْ	اِلَمَّدْ
الأمر: لِمَدْ	اَلْمَدْ

ويلاحظ «روسلر» على هذا الشكل من التصريف ان الطوارق ينطقون الفتحة، في الحاضر، مشدّدة (افرّس) بينما تنطق في اللهجات الأخرى بين الفتحة والضمّة[25].

ومن صور التصريف أيضاً أن اللوبية تستعمل نوعاً من الاشتقاق له نظيره في الأكدية واذا ما قارنا بما في العربية نجده يشبه الصفة المشبهة كما في الأمثلة:

الطوارق	الأكدية	العربية
ذَرَف (لونه بالٍ، عتيق)	وَقَرْ (ثمين)	حَسَنْ
لَكِنْ (أكيد)	كَبِتْ (ثقيل)	فَرِحْ، أَشِرْ، شَرِسْ
سَلُفْ (أملس، صقيل)	وَقُرْ (أصفر)	نَدُسْ، حَذُرْ، عَجُلْ

والمقصود هنا ليس الاتفاق في المعنى وانما في الصيغة الصرفية التي جاءت بفتح العين وكسرها وضمها (فعَل ـ فعِل ـ فعُل) وهذه الصيغ موجودة في العربية، في الصفة المشبهة وان كان النوع الثالث منها قليلاً وغير متداول.

وفي نطاق المقارنات اللغوية يذكر «روسلر» أن أفعال الحدث في الأمهرية (لغة أثيوبية أصلها من اللغات اليمنية القديمة) تتشابه مع مثيلاتها في الأكدية واللوبية، وكذلك تتشابه الأمهرية واللوبية في أفعال غير الحدث.

ونستخلص مما تقدّم أن التصريف في اللوبية يشبه التصريف في الأكدية صيغة ووظيفة وهو ما جعل «روسلر» يقول «فالتصريف في اللوبية برهن اذن على أنها جدّ سامية»[25أ].

4 ـ صيغة الفعل:

في العربية يقسّم الفعل إلى ماض ومضارع وأمر ولكل منها صيغته المتميّزة، أما في البربرية فلا نجد مثل هذا، فالماضي والمضارع يردان فيها بصيغة واحدة مع تغيير طفيف في الحركات مثل:

الماضي	الحاضر (مضارع)	
يَسُوسَمْ	يَسُوسُمْ	سكت يسكت
يَسْلَى	يَسَلَّى	سمع ـ يسمع
اِفْرَسْ	اِفَرَّسْ	قصّ ـ يقصّ

ومثل هذه الحالة، أي عدم التفريق بين صيغة الماضي والمضارع نجد لها نظيراً في اللغة الأكّدية التي تعبّر عن الماضي بصيغة شبيهة بصيغة المضارع المرفوع، فيقول الدكتور محمود حجازي «فقد كان يعبّر الفعل الماضي في اللغات الأكدية بصيغة تشبه صيغة الفعل المضارع المرفوع»[25ب] ويفرّق بين الماضي والحاضر بتشديد عين الفعل عندما يكون للحاضر:

اِكْشَدْ	أِكَشَّدْ	فتح ـ يفتح
اِلْمَدْ	اِلَمَّدْ	تعلّم ـ يتعلّم

وتقدّمت لنا نماذج من التشابه في هذا الموضوع بين اللغتين من مثل[26]:

الماضي		الحاضر	
الأكّدية	البربرية	الأكدية	البربرية
اِبْرَسْ	افرس	اِبَرَّسْ	اِفَرَّسْ
اِكْرِمْ	اِكْرَمْ	اِكَرِّمْ	اِكَرَّمْ
اِلْمَدْ	اِلْمَدْ	اِلَمَّدْ	اِلَمَّدْ

5 ـ التعريف والتنكير:

من سمات العربية أنها تميّز بين المعرفة والنكرة في مجال الأسماء، وعلى العكس منها البربرية فانها لا تعرف هذا التمييز(*) ولكنها تستعمل بعض الأسماء استعمالاً تتنزّل به منزلة المعرفة من ذلك مثلاً:

أغروم	أي	الرغيف	لا	رغيف
أميلوس	أي	الوحل	لا	وحل
أقراب	أي	الجراب	لا	جراب
أزلوم	أي	الحزام	لا	حزام

وهذا ما حدا بالاستاذ (شارل كوينتز) إلى أن يقول في مثل هذه الأمثلة وغيرها ان «عدم وجود لام التعريف لا يدل على التنكير بل هي معرفة»[26أ].

وهنا نتساءل عن الكلمات التي تصدرت بها هذه الهمزة، هل لها علاقة ببعض أشكال التعريف (أدواته) المعروفة في الواقع اللغوي العربي القديم؟ وبعبارة أدق هل للهمزة البربرية صلة بأداة التعريف «أم» التي نجدها في اللغات اليمنية القديمة وبعض عشائر قبيلة طي؟ مثل:

أم سهمُ   أم برُّ   أم صيامُ   (بدون تنوين)

أي السهم والبرّ والصيام.

وهل لها صلة أيضاً بأداة التعريف «أل» المعروفة في العربية الفصحى ولهجاتها القديمة المكتوبة (الثمودية والصفوية واللحيانية)؟

والملاحظ أن هناك تشابها بين هذه الأدوات الثلاث في فتح الهمزة (وهو الغالب في البربرية) وفي كونها تستعمل لاستغراق الجنس.

ومن هذه المقارنة يتضح أن هذه الهمزة لها علاقة في أصل وضعها اللغوي بأغراض التعريف، كما تبرزه أشكاله المتنوعة عبر مراحل التطور العام للواقع اللغوي العربي القديم. فآلت في بعض صورها إلى الاقتران بالميم (أم) كما في اللغات اليمنية القديمة والى الاقتران باللام (أل) في حالات أخرى كما في الفصحى ولهجاتها الجاهلية.

أما في البربرية فلم يحصل شيء من هذا القبيل سوى أن الكلمات المبدوءة بالهمزة تتنزل منزلة الكلمات المعرّف بها، ولهذا نظيره في العربية اذ توجد كلمات متضمنة لغرض التعريف دون ان تكون معرفة بطريقة من طرق التعريف مثل سحر وغدوة اذ أريد بهما زمناً بعينه نحو قمت سحر أو غدوة أي قمت في السحر أو في الغدوة.

ونجد ابن يعيش يقول في شرح المفصّل (ج 2 ص 42):

«والذي منع سحر من التصرف أنه يعرف من غير وجوه التعريف لأنّ وجوه التعريف خمسة: تعريف اضمار وتعريف العلمية والاشارة وتعريف الألف واللام

وتعريف الاضافة إلى واحد من هذه المعارف وليس التعريف في سحر واحداً منها».
واذا كانت البربرية لا تميز بين التعريف والتنكير فهل هذا أمر خاص بها أم تشاركها فيه بعض اللغات العربية القديمة؟

المختصون في علم اللغات يؤكدون أن الأكدية بلهجاتها البابلية والاشورية لا تميّز بين التعريف والتنكير، فالكلمات مثلاً:

كلبُم بيتُم تدلان على التعريف أي بمعنى الكلب والبيت، كما تدلان على التنكير أي كلب وبيت.

فالميم في آخر الأسماء الأكدية سواء كان المراد بها التنوين أو الافراد أو غير ذلك من الأغراض الأخرى فهي مستعملة في الكلمات المعرّفة وغير المعرّفة وهذا ما جعل المستشرق الألماني يقول: «لا يوجد في الأكدية شكل خاص بالاسم المعرف وشكل آخر خاص بالاسم النكرة»[26ب].

ويقال أيضاً ان الحبشية كالأكدية والبربرية لا تميز بين التعريف والتنكير حيث نجد جواد علي يقول: «نرى بعض اللغات كالآشورية والبابلية والحبشية لا أداة للتعريف فيها»[26ت].

ونعود إلى اللغات اليمنية القديمة فنذكر انها عرفت إلى جانب (أم) أداة أخرى للتعريف هي النون (ن) المسماة بالنون الحميرية تلحق آخر الأسماء فيقال رجلن بمعنى الرجل، ولكن هذا لا يعني أن هذه اللغات باتت تميّز بشكل واضح وكامل بين التعريف والتنكير كما في العربية الفصحى فعلامة التنكير فيها وهي ميم (ميم التنوين) قد تدل في بعض الأحيان على التعريف أيضاً، وهذا ما يشير في الأرجح إلى حداثة التعريف في اللغات اليمنية، ومما يؤكد وجاهة هذا الرأي هو أن الحبشية لم تعرف شيئاً من هذا القبيل والحال أنها فرع كبير من هذه اللغات.

والخلاصة ان البربرية وان كانت لا تميز بين التعريف والتنكير فشأنها في ذلك شأن بعض اللغات العربية القديمة وخاصة الأكدية وهذا وجه شبه بارز بينهما يؤكد القرابة اللغوية وتاريخها العريق.

6 ـ الناحية المعجمية والارث المشترك:

الناحية المعجمية من الموضوعات الهامة التي يحتاج اليها الدارس في مثل هذا البحث لاثبات ما بين البربرية ولغات عربية أخرى قديمة من قرابة معجمية وارث مشترك.

هذا ما سنقوم به في جداول المقارنات الموالية بالقدر الذي يسمح به الاطلاع والحصول على المادة من بعض المصادر[27].

ويتضمن الجدول الأول بالأساس مقارنة بين الأكّدية والبربرية مع توسيعها بالقدر

الممكن لتشمل العبرية والعربية في بعض الحالات. وذلك لاعطاء صورة أشمل على ما بينها من قرابة لغوية ذات جذور تاريخية عريقة.

وقد وضعنا بين قوسين معنى الكلمات بالعربية ثم يليها اسم القبيلة المستعملة لتلك الكلمة في اللهجات البربرية.

ومن الأصول اللغوية التي رغبت في الوقوف عندها هذا الأصل (ل م د) فهو من الجذور المعروفة في البربرية وعدد من اللغات العربية القديمة.

ففي البربرية المنتشر فيها انتشار واسع نجده على سبيل المثال عند الطوارق (اِلْمَدْ elmed) بمعنى: تعلّم، أدرك، درس، قرأ، تعوّد.

وفي الأكدية (لمادُ lamàdu) بمعنى: يجرّب، يكسب معرفة، يدرك، يتعرّف.

وفي العبرية (لَمَادُ lamàd) بمعنى: يتعلّم، يتعوّد.

وفي الاثيوبية (لَمَدَ lamada) بمعنى: تعوّد.

ونلاحظ أن هذه المعاني متقاربة، وهي شاهد بشكل قاطع على وحدة الأصل، والمهم هو أن هذا الجذر موجود في العربية ولكن بمعنى مختلف تماماً اذ هو يدّل على الصغار والحط من القدر. فيقال:

لَمَدَ يَلْمُدُ، لَمَدًّا، بمعنى تواضع وتذلّل

وفي اللسان[28]:

اللَّمْد: التواضع بالذل.

وفي المنجد[29]:

اللَّمْدَان: الذليل.

وقد استغربت كيف يكون الجذر «لَمَدَ» في العربية لا يملك أي معنى من تلك المعاني التي نجدها له في الأكدية والبربرية وغيرهما.

وهنا تفّطنت إلى كلمة «تلميذ» التي تدل على التعلم واكتساب الخبرة، وهذا يعني أنها ذات صلة بـ«لَمَدَ» ولكن اللغويين من حيث الاشتقاق والمادة الأصلية ربطوا كلمة «تلميذ» بـ«تَلَمَ» ومنها أخذوا هذين الكلمتين:

التِّلْم بكسر التاء: وتعني الغلام سواء كان غلام الصاغة أو غير ذلك.

التّلامي بفتح التاء: وتعني أيضاً غلمان الصاغة.

ويقول الجوهري:[30]

التَّلاَم بفتح التاء: التلاميذ سقطت منه الذال وبهذا تكون كلمة «تلميذ» من قبيل الرباعي بدليل ما ورد في المنجد من ذكر للفعل ومزيده حيث قال: تلمذ وتتلمذ، مثل: دحرج وتدحرج على وزن فعلل وتفعلل.

فاللغويون بما فيهم الجوهري يعتبرون التاء أصلية، ولكن الهام عند الجوهري هو أنه اعتبر كلمة «التّلام» ناقصة وأن الذال سقطت منها (وهو لم يذكر غير هذه الكلمة) وفي

هذا ربط بالأصل القديم «لمذ» أو «لمد» (الذّال والدّال في العربية يتبادلان ويتناوبان فيقال اذّكر وادّكر).

وخطأ اللغويين هو أنهم اعتبروا التاء أصلية، وهي ليست كذلك اذ هي زائدة ومن المتعذر عليهم ادراك ما كانت تعنيه في القديم والاحاطة بأساليب استعمالها في عهود غابرة.

والخلاصة هو أن كلة «تلميذ» مأخوذة من الأصل «لمد» (بالدال أو بالذال) وصورتها اللفظية منقولة عن الصيغة الصرفية مع المخاطب وتقدّم لنا أنه يقال للمخاطب:

في الأكدية: تَلْمَدْ أو تَلْمَدِ

في القبائلية: تِلْمَدَضْ أو تِلِمْدَضْ

فاحتفظ بالتاء كما هو الحال في عدد كبير من الكلمات المبدوءة بالتاء حيث كانت التاء فيها بمثابة الضمير وذات وظيفة معينة (وكذلك الأمر بالنسبة للياء)، ثم أضيفت الياء على سبيل التنويع في المدلول وصارت تقال للذي يتعلّم ويكتسب الخبرة.

أنت تلمد: أنت تتعلم

أنت تلميذ: أنت متعلم

ومن هناك نعرف أن كلمة تلميذ هي من نفس المادة «لمد» الموجودة في الأكدية والبربرية وغيرهما وأنها ثلاثية ووزنها «تفعيل».

وهكذا فان الاطلاع على البربرية واللغات العربية القديمة يزيدنا دراية بمعرفة كثير من الأصول والظواهر اللغوية في عربية القرآن باعتبارها خلاصة لتطور لغوي واسع قديم ومتنوّع.

الجذور	الأكدية	البربرية	العبرية	العربية
ـ أ ج ر	إجار (لفّ بالشيء)	حجرت (لفّ بالشيء، حزّم) ـ طوارق	حجار (حزّم)	حجر
ـ أ ل ل	الآل (تطهّر، صفا)	ـ أَلِلْ ـ التنيفه	حَلَّلْ (غسل) يهودية آرامية	أُلَلَ
	ـ أُلَّلَ ((طهّر، صفّى)	لَّلَوَتْ ـ الطوارق		
ـ أ ش غ	ـ أشاقُ ـ (أوصل)	ـ أَسَغْ (ربط) ـ القبائل	خَشَاق (أوصل) في العبرية الجديدة	شكك
ـ و ر غ	ـ وراقُ (اخضّر، يصفرّ)	اِرْوَغْ (يصفّر) في كل اللهجات	ـ يَرَاق (بين الصفرة والخضرة)	ـ وَرق
ـ كـ م ا	ـ كَمُو (تَغَلّب)	ـ اِكْمُ (مشتقات الحليب، الّم) الطوارق		كمم
	ـ كَمْتُ (حاجة، ضيق)	ـ تُكْمُ (وجع)		كمد
ـ كـ ن و	ـ كِنَيتُ (رفيقة)	ـ تِكَنِ (خليلة) ـ الطوارق		الكنّه: امرأة
				الابن أو الأخ
		ـ تَكِنْ، تِكَنُونْ (زوجات رجل واحد) القبائل		
ـ كـ ر م	كَرَامُ (سوّف، آخر)	ـ تَكَرْمُتْ (أسير) ـ الطوارق		
	ـ كِرِمٌ (الثديان)	ـ أَكْرَمْ (انكمش على نفسه)		مكر
		ـ أَكْرَم (برّد الشيء) نظيفة غزرويلت		
ـ كـ و ر	ـ كَرٌّ (خروف)	ـ أكرر (خروف) ـ الطوارق	ـ كارّ (خروف)	قرر
ـ ل م د	ـ لَمَادُ (يجرّب، يكسب معرفة يدرك، يتعرّف)	ـ اكرٌ (خروف) ـ بنصالح		
		ـ أَلْمَدْ (تعلّم، أدرك، درس، قرأ) الطوارق	ـ لَمَاد (يتعلّم، يتعوّد)	ملد
ـ ل ش ش	لِشَانُ ـ (لسان)	ـ اِيلَسْ، اِلْسْ (لسان) في جميع اللهجات		ـ لسان
ـ م و ت	ـ ماتُ (مات، توفي)	ـ اِمْت، يَمِت ـ في جميع اللهجات		ـ مات
	ـ مُوتَانُ (موْت طاعون)	ـ تَمِتْنت (الموت)		ـ مات
ـ م ش د	ـ مشاد (ضغط)	ـ سمْسِد ـ الطوارق		ـ مسد
ـ ن ز غ	ـ نَزَاقُ (اهتمّ، حزن)	ـ أَنْزَغْ (ضاع) ـ السوس		

ـ ن ض ر	ـ نَدْرُ، نَدِرْتْ (غضبان ثائر)	ـ أَنْضَرْ ـ الطوارق		ـ نقر
ـ ن ط ر				
ـ ن ك ب	ـ نَكَابُ، نَكّبُ (نطح ـ ناطح)	ـ أَنْكَبْ (صدم، قفل) (الطوارق)		ـ نكب
ـ ن ك د	ـ نَكَادُ (فشل)	ـ مَنْكَدْ (فشل) (الطوارق)		ـ تكد
ـ ن ك ر	ـ نَكَارُ (تحوّل ـ خبُث ـ ثار)	ـ أَنْكَرْ (نهض) في جميع اللهجات		ـ نكر
	ـ نَكْرُ (عدو)			
ـ س م م	ـ سِمٌّ (يحمرّ)	ـ سمَغْمَغْ ـ الطوارق		
	ـ سُمُّوق (أحمر، الحمرة)	ـ سَمَقّت (لمع)		
ـ ب ج ر	ـ بَجْرُ (جسم، جدع)	ـ فَجَرْ ـ القبائل	ـ بَجّار مِنْ (منعه التعب)	
			ـ يَاجِرْ	
ـ ب ر س	ـ بَرَاسُ (افترق ـ طلّق)	ـ فَرِسْ (قطع بحدة) تزرويلت	ـ بَرَاسْ (قص انجز)	
		ـ أَفْرَسْ (قطع بحدة، قصّ) الطوارق		فرس
ـ غ ر د	ـ قَرَادُ (ترى شديدا)	ـ تِغْرَدْ (قوّة جسدية) ـ الطوارق		
ـ ق ر د	ـ قَرَّدْ (قوي بطولي)			قرد
ـ غ ر ش	ـ قَرَاشُ (شقّ، فرّق)	ـ اِغْرَسْ ـ في جميع اللهجات		ـ قَرَش
ـ ق ر ش		ـ اقْرَسْ (ممرق) ـ مطاطه		ـ قصّ ـ قطع
		ـ سَغْرِسْ (قصّ) السوس		
		ـ اغْرَسْ (مزّق)		
ـ ر ج م	ـ رَجَامُ (صاح، ناوي، شكى)	ـ أَرْجَمْ (كفر) القبائل شلهش		ـ رَجَمَ (كفر)
ـ ر ك ب	ـ رَكَابُ (سافر)	ـ أَرْكَبّ (سحب جذب) الطوارق	ـ رَكَابْ (ركب)	ـ ركب
	ـ نَرْكَبُ (عربة، عربة حرب)	ـ	ـ مَرْكَاب (عربة حرب)	ـ مركب
ـ ر و م	ـ رَمُو (نام)	ـ أَرْمِ (تعب) تزرويلت، سملال نتيفه		ـ نام (ر=ن)

ـ ر و ي				
ـ ش ك ك	ـ شكَاكُ (وصل القمة) ـ شكَّبُ (قمة، مسمار)	ـ إشَكْ (قرن الحيوان) في جميع اللهجات	ـ شكْ (كّ) (قذى) ـ شكّ ـ شكًا (شوكة)	شكك ـ شكك
ـ ش ل ض ـ ش ل ط	ـ شَلاَطُ (قصّ، فرّق)	ـ أسْلَضْ (قصّ)		ـ شلط بالعامية جروح خفيفة بالجبين
ـ ش ن ن	ـ شَنَانُ (ماثل)	ـ شنَانْ (مذكر) زناجه ـ شنَانَتْ (مؤنث) زناجه ـ سِنْ (مذكر) ـ الطوارق ـ سِنَنَتْ (مؤنث) ـ الطوارق ـ سِنْ (مذكر) ـ تزرويلت ـ سُنَتْ (مؤنث) ـ تزرويلت		ـ الشلطاء = السكين ـ صِنْو
ـ ش ر ي	ـ شَرَّ (ترك)	ـ آسْرِ ـ الطوارق		
ـ ت م ن ـ ث م ن	ـ تَمَنَ (أصبح الثامن)	ـ تَمْ (مذكر) ـ تزرويلت ـ ثَمْتْ (مؤنث) ـ تزرويلت ـ تَمَتٌ (مؤنث) كناري وتعني ثمانية أما الأصل اللوبي فهو تَمْنُ، تَمْنْتُ. ـ تَمَن ـ تَمْنْتْ ـ وفي هذه الحالة الأخيرة ضاع الحرف الأصلي الثالث وعوض بحركة الفتحة التي صارت بمثابة الحرف[31].		ـ ثمن
ـ ت ر ك	ـ تَرَاكُ (طرق، صفّق، ضرب ـ على الأرض ـ سقط شيء)	ـ أفْرَكْ (طرق ـ ضرب) ـ الطوارق ـ تَرَكْتْ (سقط).		ـ طرق

يتضمن الجدول عدد 2 الموالي مقارنة معجمية بين العبرية والبربرية في عدد من الجذور غير تلك التي ذكرت في الجدول عدد 1، للتأكيد على أن هذه الجذور التي تعرفنا عليها والتي لم نتعرف عليها بعد ليست موجودة في اللغتين من باب الصدفة، وإنما هي نتيجة لواقع لغوي قديم مشترك منه تفرعت هاتان اللغتان وغيرهما.

وفي ما يلي الجدول:

الجذور	العبرية	البربرية	العربية
ـ أ د ب	ـ هداب (نطح)	ـ أَدَفْ (يدخل) ـ السوس	ـ حدف: يأتي، يصل، يدخل على
ـ هـ د ب			
ـ أ ن ب	ـ حناب	ـ أَنْفْ (يتوجه إلى ناحية) ـ تزرويلت	ـ حنف: يميل إلى ناحية
		ـ أَنَفْ (ترك) القبائل	
ـ أ ر ز	ـ أراز	ـ أَزَرْ (بط) ـ القبائل	ـ أزر ـ إزار
ـ ج و ر	ـ جُورْ (مكث برهة، سكن)	ـ جَوَرْ ـ التنيفة، تزرويلت	ـ جاور. (قارن: المجاور، في الأزهر أو المدينة المنورة = المقيم)
		ـ جوَرْ (جلس، مكث، ترقّب) ـ أزوان	
ـ ج ز ر	ـ جَزَارْ (قطّع)	ـ أَجْزَرْ (أجهر) الطوارق	ـ جزر: نحر
		ـ أَجَزَّرْ (تباغض ـ حرب) الطوارق	
ـ كـ ن ب	ـ كَنَابْ	ـ إِكْنَفْ	ـ كنف
ـ لـ ب ر	ـ كبّار (جحد)	ـ إِكْفَرْ (كافر) ـ القبائل	ـ كفر

	ـ كوبار (كافرون)	ـ أكَافر (غير مخلص) ـ الطوارق	
ـ ك م ر	ـ نِكْمَار (تقلّص)	ـ تَكمَّرْتْ (جبن)	ـ كِمَر: عربية سورية
ـ م ل ل	ـ مَلاَلْ (ذبل)	ـ اِمْلَلْ (ذبل ـ يسّف ـ يملل) الطوارق	
		ـ مَلُل (يبيض) ـ تزرويلت	
ـ ن ا ج	ـ نَهَاجْ (سافر)	ـ اِنجْ ـ القبايل	ـ نهج
		ـ يونَجْ (سافر)	
ـ ن ج ش	ـ نَجَش (نطح) يهودية أرامية	ـ انْجشْ (نطح) الطوارق ـ سملال	
ـ ن ب ل	ـ نبَّال (سقط)	ـ أنْفَلْ (احترق) الطوارق	
		ـ تَنْفَلْ تَمْسِ دَغ تَغْمَتْ (حرقت النار داري	
		ـ سقطت النار في داري) الطوارق	
ـ غ ر م	ـ قَرُوم (جلد) العبرية الحديثة	ـ أغْرْمْ (خبر) الطوارق تازرويلت	ـ غُرْم ـ غَرَامة
		ـ أغْرَوم (خبر) شاويه	
ـ غ ر س	ـ قَرَاسْ (انحنى)	ـ تَغَرَسَتْ ( ) الطوارق	
ـ ر ج ز	ـ رَجَاز (يقلّق)	ـ أرْجَزْ، أَرْجَهْ (مشى) الطوارق	ـ رجز
	ـ رُجَزْ (عدم الراحة)	ـ أرْجَزْ (قدم) ـ القبائل	
		ـ أرْجَزْ (رحل) تزرويلت	
ـ ر ج ل	ـ رَجَلْ (ساق ـ رجل)	ـ أرْجَلْ (ترغ) السند	ـ رجل
		ـ أرْجَلْ (ذيل) الطوارق	
		ـ أرْجَلْ (أغلق) ـ اللهجات الأخرى	
ـ ش ض ب ش د ب	ـ شَدَاب، شَزَاب (اسوّد)	ـ أذَفْ (اسودّ) ـ الطوارق	ـ أسْدَفُ: أسود، غامق.

يتضمن الجدول عدد 3 الموالي مقارنة معجمية محدودة بين الأثيوبية (التي هي في الأصل لغة من لغات جنوب الجزيرة العربية القديمة) وبين البربرية لاضافة نموذج آخر من القربي اللغوية التي تؤكد وحدة الأصل التي لا يتطرق اليها شك.

وفي ما يلي الجدول:

الجذور	الأثيوبية	البربرية	العربية
ـ أ د م هـ د م	ـ تَهَدَمَ (نعسان)	ـ نُدَّمْ (نام في منتصف النهار) الطوارق	
ـ و ر غ	ـ وَرَقَ (ذهب)	ـ اِرْوَغْ (يصفرّ) كل اللهجات	ـ هذا الجذر موجود في الأكدية: وراق (أخضر يصفّر). وفي العبرية: يَرَاق (بين الصفرة والخضرة) وفي العربية: ورق.
و ر ق		ـ أَرْوَغْ (اصفر، أخضر، ذهبي) تزرويلت	
ـ كـ ل ب	ـ كلّفَ (دقّ ـ يرفق)	ـ كَلَفْلَفْ (مسّ من الجهتين برفق) الطوارق كَلُّلَفْ (ملاطف)	
ـ ل م د	ـ لمَدَ (تعوّد)	ـ أَلْمَدْ (تعلّم، أدرك، درس، قرأ، تعوّد) الطوارق	ـ هذا الجذر موجود في الاكدية: لماد (يجرّب، يكسب معرفة، يدرك يعرف) في العبرية: لَمَادْ (يتعلم، يتعوّد) العربية: ملد ـ العربية مرد مرَّة
ـ م أ ر م ع ر	ـ مَعَرْ (لحظة زمانية)	ـ اِمَرْ (لحظة) ـ الطوارق	
ـ ش أ ر ش ع ر	ـ سَعَرَ (فسخ، ألغى، هلك أبطل).	ـ أسَرْ (أعدم، أبطل) الطوارق	

الهوامش:

(*) من مثل ما يقوم به سليم شاكر ومولود معمر وأضرابهما من أصحاب التيار البربري في الجزائر وفرنسا.

1 ـ حول هذه المقولة راجع فصل: السامية ـ الحامية: السابق.

2 ـ سليم شاكر: De quelques constates de discours dominant sur les langues populaires en Algérie: de la marginalisation à l'exclusion - Annuaire de l'Afrique du Nord, C.N.R.S., Paris 1981.

3 ـ سليم شاكر: ... De quelques المصدر نفسه ص: 454.

4 ـ سليم شاكر: ... De quelques المصدر نفسه ص: 454 و455.

5 ـ سليم شاكر: ... De quelques المصدر نفسه ص: 455.

6 ـ سليم شاكر: ... De quelques المصدر نفسه ص: 454 و455.

7 ـ سليم شاكر: ... De quelques المصدر نفسه ص: 455.

8 ـ سليم شاكر: ... De quelques المصدر نفسه ص: 455.

9 ـ سليم شاكر: ... De quelques المصدر نفسه ص: 455.

10 ـ سليم شاكر: ... De quelques المصدر نفسه ص: 455.

11 ـ ظهرت هذه النظرية سنة 1924 في كتاب بعنوان: Les langues du Monde أشرف على اعداده هو و A. Meillet ـ انظر ص: 81 طبع باريس.

12 ـ Essai campar sur le vocabulaire et la phonetique du chamito-semitique.

(*) انظر ما كتبه محمد فنطر بمناسبة زيارة القذافي وخطابه بمجلس الأمة والحديث عن الوحدة ـ مجلة المغرب العربي عدد 131 ـ 16 ديسمبر 1988.

13 ـ باتيه دياني: اللغات والتاريخ الافريقي ـ الوارد في **(تاريخ افريقيا العام)** جون افريدك ـ اليونسكو ـ تورينو (ايطاليا) 1983 ج 1 ص: 247.

(*) ذكر اندريه باسيه A. Basset أن هناك «من أربعة إلى خمسة آلاف لهجة» ص 172 مجلد 3 Universalis (مصدر سابق).

(*) هذه التسمية، اتسع استعمالها منذ الخمسينات من هذا القرن (وغدت تستعمل للدلالة على جميع اللهجات المتفرعة عن اللغة الأكدية والتي انتشرت فيما بعد في بابل وآشور منذ أواسط الألف الثالثة قبل الميلاد حتى أواخر الألف الأولى عندما تضاءل استخدام اللغة الأكدية ثم تلاشى أمام الأرامية وغيرها) 285 حضارة العراق ج 1 بغداد 1985.

13 أ ـ ص: 125 Der Semitische charakter der libyschen sprach in ZA 50, leipzig 1952.

13 ب ـ تأثير العربية في اللهجة الشلحية ـ **مجلة اللسان العربي** عدد 2 سنة 1965 يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط ص 32.

14 ـ ص 125 و126 ـ ...Der Semitische المصدر السابق.

15 ـ Der Semitische المصدر نفسه ص: 126.

16 ـ Der Semitische المصدر نفسه ص: 126.

17 ـ Der Semitische المصدر نفسه ص: 129.

18 ـ Der Semitische المصدر نفسه ص: 128.

19 ـ مذكرات مدوّنة أثناء الدراسة في جامعة القاهرة.

20 ـ تأثير العربية في اللهجة الشلحية ـ **مجلة اللسان العربي** عدد 2 سنة 1965 يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط ص 32.

21 ـ ص: 146 ـ المصدر المذكور سابقاً. ...Rossler: Der Semitische

22 ـ ص: 147 ـ المصدر نفسه: ...Der Semitische

23 ـ ص: 148 ـ المصدر نفسه: ...Rossler: Der Semitische charakter

24 ـ Rossler: Akkadischer und libysches verbum, orientalia volume 20, Roma 1951 - p. 366. (الأفعال الأكدية واللوبية).

25 ـ Akkadischer... Rossler المصدر نفسه: ص 366.

25أ ـ ...Der Semitische المصدر المذكور سابقاً ص: 150.

26 ـ مذكرات مدونة... مصدر سابق.

(*) لاحظ هذا الدارسون منذ زمن ومنهم شارل كوينتز كما في المرجع التالي.

26أ ـ في بحثه: (أثر اللغة البربرية في عربية المغرب) نشر بمجلة **مجمع اللغة العربية** القاهرة 1955 ج: 8 ص 332.

26ب ـ اللغة العربية في اطار اللغات السامية ـ محاضرة نشرت في مجلة **(حوليات الجامعة التونسية)** عدد 23 تونس 1984 ص 49.

26ت ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ـ مكتبة النهضة. الطبعة الثانية بغداد 1978 ج 8 ص 534.

27 ـ خاصة (روسلر) في دراسته السابقة (السمات السامية) ص: 129 وما بعدها.

28 ـ ابن منظور: **لسان العرب** ـ مادة «لمد» دار صادر ودار بيروت، بيروت 1955 ج 3 ص 393.

29 ـ مادة «لمد».

30 ـ **الصحاح، تاج اللغة، وصحاح العربية** ـ تحقيق أحمد عبد الغفار، دار الكتاب العربي بمصر، 1977 ـ ج 5 ص 1877.

31 ـ Der Semchesche... Rossler المصدر المذكور سابقاً ص 143.

سمات مشتركة بين البربرية والعربية

المطلع على البربرية بمختلف لهجاتها يدرك تماما مدى تأثرها الواسع العميق بالعربية الى درجة أن هذا التأثير غير كثيرا من سماتها وجعلها تختلف بدرجة أو بأخرى عما كانت عليه في العهود القديمة.

فهذه المسألة من الوضوح بمكان، وقد اكدها الباحثون على اختلاف مشاربهم، فدائرة معارف «يونيفرساليس» تقرّ بأن «كل اللهجات البربرية باتت مطبوعة بطابع العربية»[1].

وعثمان سعدي يقول: «والحقيقة أن هذا الطابع العربي لم يشمل فقط المفردات اللغوية وانما يشمل التركيب اللغوي والقواعد النحوية والصرفية أيضا والاشتقاقية»[2].

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن البربرية في الأساس لها تكوين لغوي مختلف كالفرنسية مثلا ـ أثرت فيه العربية وغيرت نظامه وبنيته، اذ أن البربرية والعربية متشابهتان في النظام اللغوي العام، وهذا ما جعل ميشوبيلار Michaux Bellair في محاضراته «Conferences» يقول:

«ان قواعد النحو البربري قريبة من القواعد العربية»[3].

أما السوسي فقد تحدث عن هذا التأثير في مجال المفردات، وعما بين العربية والشلحية ـ كما رأينا ـ من تشابه في مخارج الحروف[4].

وما ذكره سعدي والسوسي يعد من أبرز الشهادات التي يعتمد عليها في هذا الموضوع لكونهما مطّلعين على العربية ومتضلعين فيها فحسب وانما لانهما أساسا بربريان عليمان بحكم معارفهما اللغوية المتنوعة بأوضاع اللغة البربرية ومكوّناتها فالأول (شاوي) من شرق القطر الجزائري والثاني (شلحي) من الجنوب الغربي للقطر المغربي.

يضاف الى هذا ما نأخذه من كلام «روسلر» الخبير في اللغات العربية القديمة من أن نسبة تأثير العربية في القبائلية تقارب 75٪[5].

ويتضح هذا التأثير في مناحي مختلفة من مكونات اللغة البربرية الى حد استعمالها لعبارات تكاد أن تكون عربية صرفة مثل:

«أبابا حنيني ما أكبر ايخفنس»[6] أي ما أكبر رأسه، ايخف: رأس، فقد استعملت هنا صيغة التعجب العربية من الفعل الثلاثي بنفس الاستعمال العربي الصميم، والسين في ايخفنس ضمير للغائب.

وجاء في مقال السوسي أن الشلحيين «ربما شلحوا جملة عربية تامة كقولهم: ماذا تريد؟ «مازا كانتك أرياتا؟» وأنه «قلما تكون جملة أو جملتان متصلتان من الشلحية الا وتجد فيها أثرا من العربية»[7].

ومن الواضح أن هذا التأثير الواسع كان أساسه النقل والاحتكاك والظروف التاريخية التي جمعت بين اللغتين منذ ما يزيد عن ألف واربعمائة سنة

وبناء على هذا فان المشابهات اللغوية العضوية الموجودة بينهما لا يمكن حسب مزاعم الاقليميين وأعداء الانتماء العربي أن يتخذ دليلا على الأصل العربي القديم (السامي ! !) للبربرية اذ أشياء خاصة بأوجه الشبه بين العربية والبربرية. وقد نشير الى بعضها ان توفّرت لنا معلومات عن وجودها في لغات أخرى.

ونسوق في ما يلي ما أمكن حصره من أوجه التشابه اللغوي:

أولا: الجمع: يوجد في العربية الفصحى ثلاثة جموع هي: جمع التكسير وجمع المؤنث السالم وجمع المذكر السالم. وقد عرفت هذه الجموع في اللغات العربية القديمة، فقد كشف البحث اللغوي المقارن عن وجودها في اللغات العربية الجنوبية القديمة وفي اللغات الحبشية[8].

أما اللغات العربية الشمالية القديمة فقد ذكرت بعض الدراسات وجود جمع السالم فيها.

وعموما فظاهرة جموع التكسير وجموع السلامة تعد من الخاصيات اللغوية التي تمتاز بها اللغات العربية القديمة والعربية الفصحى عن سائر اللغات الاخرى، وبالاطلاع على البربرية في هذه الناحية وجدناها تمتلك هذه الجموع.

1 ـ جمع التكسير: وهو أوفر الجموع في العربية وأكثرها أصالة فله ـ حسب بعض الدراسات ـ «أكثر من أربعين صيغة يتحوّل فيها شكل المفرد تحولا جذريا الى صيغ جديدة»[9] ويذكر غيره أن «أوزانه كثيرة تجاوز الثلاثين»[10].

ونجد هذا الجمع في البربرية يفوق في كثرته العربية لكونه الجمع الاساسي ومن الامثلة على ذلك:

المفرد	الجمع		
ثِزْوِيثْ	ثِزْوَى	نحله	مؤنث
اجدَرْ	اِجُدَار	عقاب	مذكر
أَنَّرْ	اِنُّرَارْ	بيدر	مذكر
أَمْدَكَّلْ	اِمْدُكُّلْ	صديق	مذكر
أَغْيُولْ	اِغْيَالْ	حمار	مذكر
أَجْحِيحْ	اجْحَاحْ	جحش	مذكر
لَمْدَكْ	لَمْدُكُّث	قضيب ـ سيخ	
		البندقية المدك	مذكر
ثَمَارِثْ	ثِميرَى	لحيه	مؤنث
ثَبَرْدُوُعَثْ	ثِبَرْدِيَاع	بردعة، قتب	مؤنث
دَحَتْ	ثِدُحَاحْ	سوار من فضة	مؤنث
فَرْكَهْ	فَرَاكِي	خوشنة	مذكر
تَشَاشِيتْ	تِشُوشَايْ	شاشية	مؤنث

ونلاحظ أن التكسير في هذه الجموع قد جرى على غرار التكسير في العربية وذلك من حيث تغير بناء المفرد فيه حسب الحالات التالية:

ـ بتغيير الحركات فقط: أَمْدَكَّلْ ـ إمْدُكَّال في حالات من نطق البعض.
ـ بتغيير الحركات مع زيادة حرف أو أكثر: اَجدَرْ ـ اِجُدَارْ.
ـ بتغيير الحركات مع حذف بعض الحروف: ثَمَارِثْ ـ ثِميرَى.
ـ بتغيير الحركات مع الحذف والزيادة: تَشَاشِيتْ ـ تِشُوشَايْ.

ومما هو لافت للنظر هو أن التشابه بين البربرية والعربية في جمع التكسير لا يقتصر على السمة العامة المميّزة له (تغيير بناء المفرد فيه) فحسب وانما يشمل أيضا بعض صوره وتفريعاته كما هو الحال في ذلك النوع من جموع الكثرة المختوم بألف ونون.

في العربية هناك جانب من الأسماء يجمع على فِعْلان (ما كان مفرده على وزن فُعَال، فُعَل، فُعْل، فَعَل) مثل:

غلمان، جرذان، حيتان، تيجان.

وجانب آخر يجمع على فُعْلان (ما كان مفرده على وزن فَعْل فَعَل، فَعِيل) مثل:

ظُهْران، بلدان، كثبان.

وفي البربرية نجد هذا النوع من الجموع المختوم بالالف والنون وبقطع النظر على علاقته بمفرده، وهو واسع الانتشار ـ كما في العربية ـ ومن الامثلة على ذلك:

المفرد	الجمع		
اِيلَف	اِيلْفَانْ	خنزير	خنازير
اَلْغَمْ	اِلْغْمَان	جمل	جمال
اِيزي	اِيزَانْ	ذبابة	ذباب
اِثْري	اِثْرَانْ	كوكب	كواكب
اهردون	اهردان	بغل	بغال
آسْ	أُسَّانْ	يوم	أيّام
بيرْ	بيرَان	بئر	آبار

وبما أن اللغة البربرية قديمة فهذا يعني أن جمع التكسير من أقدم الجموع التي عرفتها اللغات العربية القديمة عموما، اذ هو بالاساس جمع غير قياسي يتماشى وجوده مع طبيعة الفترة الاولى لتكوّن اللغة وما فيها من اضطراب وتداخل في الظاهرات اللغوية، وهذا ما ورثت العربية شيئا منه بدليل كثرة صيغ جمع التكسير فيها الامر الذي يدعونا الى أن ندرسه من جديد وبشكل أدق في اطار هذا الواقع اللغوي القديم الذي نبتت فيه عربية القرآن والذي تعد البربرية جزءاً منه.

2 ـ جمع المؤنث السالم: وهو جمع قياسي نجد نماذج منه في البربرية من مثل:

المفرد	الجمع	
رَمَّتْ	رَمَّات	هيكل الحيوان
هَدِيَتْ	هَدِيَات	الهدية
بَجَّاوْرَت	بَجَّوْرَاتْ	وبر، حشو، لبدة
تَمَاق	تَمقَاتْ	لباس للرجل

وقد يظنّ البعض أنّ طريقة الجمع هذه منقولة عن العربية والراجح أنها طريقة بربرية في صياغة نوع من الجموع بدليل ما ذكره ابن خلدون عرضا أثناء الحديث عن قبيلة لواته حيث قال:

«البربر اذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء فصارت «لوات» فلما عرّبته العرب حملوه على الافراد والحقوا به هاء الجمع»[11].

ويؤكد عثمان سعدي الشاوي أن جمع المؤنث السالم موجود في البربرية ويضرب على ذلك مثلا بكلمة «الخلاث» (النساء) والثاء هنا للتأنيث.

والملاحظ أن جمع المؤنث السالم ليس كثيرا اذ الكلمات المؤنثة تجمع عادة وغالبا جمع تكسير ممزوجا ببعض خاصيات جمع المذكر السالم كما سنرى.

3 ـ جمع المذكَّر السالم: وهو أيضا جمع قياسي، له في العربية صيغتان تنتهي بالواو والنون في حالة الرفع، وصيغة تنتهي بالياء والنون في حالتي النصب والجر، ويكون أساسا للعاقل.

أما في البربرية فلم يكن بهذه الصورة القياسية المتطورة كما في هذه الأمثلة:

	المفرد	الجمع	
1 ـ	أَرْفَارْ	اِرْقَازِنْ	رجل
	أَنْزَادْ	اِنْزَادِنْ	شعر
	أَغِيلاَسْ	اِغِيلاَسن	نمر
	أَفُولُوسْ	اِفُولُوسَن	الديك
2 ـ	اِيزِمْ	اِيزْمَاوْن	نمـر
	اِيخَفْ	اِيخَفَاوْن	رأس
	أَمَنَغِي	اِمِنْغِيوَن	معركة
	اِسْمْ	اِسْمَاوْن	اسم
3 ـ	ثِنْزَرَثْ	ثِنْزَرِينْ	منخر
	ثَوْنَمَث	ثِوْنَمِثِين	أنثى
	تَفْحَّابَثْ	تِفْحَابْثِين	تفاحة
	ثِكَرَثْ	ثِكَرْثِينْ	حقل

فالنون في «اَرْفَازِنْ أو اِرْكَازِنْ» هي من غير شك النون المعروفة في جمع المذكر السالم، وكذلك في بَقية الأمثلة الأخرى.

كذلك الواو والنون في المجموعة الثانية والياء والنون في المجموعة الثالثة: فهي من سمات جمع المذكر السالم لورودها في صيغة الجمع وخلو المفرد منها.

ونسجل في ما يلي الملاحظات التالية:

الأولى: أن صيغاً كثيرة لهذا الجمع لم يتكسّر فيها بناء المفرد على غرار جمع السالم في العربية باستثناء تغيير طفيف يتمثل في كسر أول الكلمة:

أَرْكَازْ   اِرْكَازِنْ
أَغِيلَاسْ   اَغِيلَاسِنْ
تِكَرَثْ   تِكَرْثِينْ

وهو أمر أساسي على غاية من الأهمية في تتبع تطور مراحل هذا الجمع.

الثانية: وهو أن الواو في «اسماون» يمكن اعتبارها أصلية (لام الناقص)، ولكني أرجح إنها واو الجمع، وأن لام الكلمة حذفت كما في العربية من مثل:

الرامي ـ الرّامون
الداعي ـ الداعون   على وزن: الفاعل ـ الفاعون

وبناء على هذا فوزن «إسْمَاوْن» على اِفْعَاوْن

ويتبين من هذا أن الواو الدالة على الجمع قديمة في البربرية كما هو في هذه الأمثلة المتقدمة وغيرها، والواو بصفة عامة هي أصل علامة الجمع في اللغات العربية القديمة.

الثالثة: ان جمع السالم في البربرية يستعمل للعاقل ولغير العاقل على حد سواء بخلاف جمع السالم في العربية فهو للعاقل وما ورد على عكس ذلك فهي كلمات قليلة لا يعتدّ بها.

الرابعة: ان هذا الجمع فيه ما في جمع التكسير من الزيادة والنقص في الحروف والتغيير في الحركات: اِيخَفْ ـ اِيخْفَاوْنْ إلى آخره.

الخامسة: هناك بعض الكلمات لها جمعان مثل:

ثِكَّلْتْ: ثِكَّلْتِـنْ ، ثِكَّالْ ـ مرّة
ثِنْزَرَتْ: ثِنْزَرِينْ ، ثِنْزَارْ ـ منخر

فالأول من قبيل جمع المذكر السالم لاشتماله على الياء والنون والثاني جمع تكسير كما هو واضح من بنائه.

والذي نستنتجه من الملاحظة الثالثة والرابعة والخامسة هو أن جمع المذكر السالم في البربرية غير ناضج بالصورة التي هو عليها في العربية من حيث التميّز والمواصفات الخاصة: إذ هو نتاج مرحلة قديمة غير متطورة ماتزال البربرية تحتفظ به رغم طول العهد.

ونجد في العربية بقايا هذه الظاهرة حيث احتوت كتب اللغة العربية على عدد من الكلمات جمعت جمع المذكر السالم وأحيانا جمع تكسير وغالبيتها لغير العاقل من مثل:

أهل	أهلون وأهلين	ـ	آهَالٌ وأهالٍ
عالم	عَالَمون وعالمين	ـ	عَوَالِم، عَلالِم
أرض	أرضون وأرضين	ـ	أراض، أروض، آراض

سنة :	سنون وسنين	ـ	سنوات، سنهات سنين
	(لغة الحجاز وعلياء قيس)		(اعرابها على النوى، لغة تميم وبني عامر)
ثُبَةٌ :	ثُبون وثِبين (الجماعة)		
العقود :	عشرون، ثلاثون....		

ثانياً: التأنيث: من الوسائل التي تستعملها العربية للتمييز بين المذكر والمؤنث التاء في آخر الكلمة مثل:

معلّمة ـ قطّة ـ شابّة ـ اذ مذكّرها معلّم، قطّ، شاب والبربرية أيضا كالعربية تميّز بين المذكر والمؤنث وتستعمل لهذا الغرض التاء، والثاء، وهو استعمال قديم ومتزامن ومن الجائز أن تكون احداهما أسبق من الاخرى، ولكن الثابت أن التأنيث بالتاء من الخاصيات اللغوية الاكثر شيوعا من سائر علامات التأنيث الاخرى في اللغات العربية القديمة بما في ذلك المصرية القديمة.

أمّا الثاء فهي أيضا قديمة وقد تكون أحيانا مبدلة عن التاء.

ونسوق في ما يلي نماذج من التأنيث بهذين الحرفين في البربرية.

المؤنث	المذكر	
تُوْشَنت	أُوشَنْ	ذئبة ـ ذئب
تَفْشِيتْ	أَفْشِيشْ	شابّة ـ شاب
تَابَرْ شَانَتْ	أَبَرشَانْ	سوداء ـ أسود

ومن أمثلة التأنيث بالتاء

تَشَلْحِيت	الشلحة
تَابنَّايْتْ	البناية
تَشَاشِيتْ	الشاشية
تَامِزْيَانْت	الطفلة (ما دون الرابعة أو الثالثة)
تَامَزِيغْتْ	التمزيغية

والشيء اللافت للنظر هو أن هناك وجه شبه بين البربرية في تأنيث بعض الكلمات وبين عربية الجنوب القديمة كالحميرية من حيث الصورة اللفظية عامة ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

الكلمات	بالنطق الحميري والعربي		الكلمات البربرية
تِهامت	تهامة	تِيارت	مكان
رَبيعت	ربيعة	يطوّفت	قبيلة
حَبَشَتْ	حبشة	توات	قبيلة

كِنْدَت	كنده	تاهِرت		مدنية
عَرَبيَّت(*)	عربية	تافْزوت		مكان
يَمَنَتْ أو يَمَنَات (منطقة في اليمن)		تاملست	:	مكان
تكريت: (على دجلة يسكنها بنو اياد قبل الاسلام)		تكِرت:	:	مكان
تاروت: (مكان بالخليج)		تاروت	:	مكان

ومما يدل على أصالة هذه الصورة اللفظية للتاء المفتوحة وجودها في غير الحميرية، وعلى سبيل المثال توجد:

1 ـ في الرسم القرآني الذي جاءت فيه بعض الكلمات بالتاء المفتوحة مع أنها مربوطة مثل امرأة ورحمة، وغيرهما كما في هذه الآيات:

«وقال نسوة في المدينة امرأتُ العزيز تراود فتاها....».

الآية 30 سورة يوسف.

«ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأتَ نوح وامرأتَ لوطٍ كانتا تحت عبدين....».

الآية: 10 سورة التحريم.

«... أولئك يرجون رحمتَ الله والله غفور رحيم».

الآية: 218 سورة البقرة.

«... إنَّ رحمت الله قريب من المحسنين».

الآية 56 سورة الأعراف.

2 ـ الكتابات البردية العربية التي استعملت في أوائل الفتح الاسلامي لمصر، فقد كتبت التاء المربوطة تاء مفتوحة ومن الأمثلة على ذلك[12]:

سنت	بدل	سنة
امرأت	بدل	امرأة
ابنت	بدل	ابنة
المسمات	بدل	المسماة

وهكذا، فما ذكر في الحميرية والرسم القرآني والكتابات البردية ما هو إلّا مظهر من مظاهر الترابط اللغوي بين اللغة البربرية والواقع اللغوي القديم للمنطقة العربية بكاملها.

ونضيف الى التأنيث بالتاء حالة التأنيث التي يكون عليها الفعل في البربرية مع المفردة الغائبة، والعربية التي تفرّق بين الماضي والمضارع تؤنث الفعل بالتاء على هذه الصورة.

نامت ـ تنام

أما البربرية فتستعمل التاء كالعربية ولكن في الأول مثل:

تَطَّسْ : نامت

تَشَّمَلْ : كمّلت، تمّت
تَقيِّم : قامت
وتستعمل أيضا الهاء في أول الكلمة:
هَطَّسْ : نامت
هيَّلِ : تبكي
هَذَلَّك : تعجن

ونجد هذه الهاء في الاسم أيضا، اذ نجد الشاوية (شرقي الجزائر) يقولون للنعجة «هيخسي» بينما تنطق في جهات أخرى بالتاء «تيخسي» (الاطلس الأوسط) والهاء كما هو معروف تقوم بدور التأنيث في العربية عند الوقف نقول نعجة بالتاء ونعجه بالهاء.

أما التأنيث بالثاء فهو كثير في البربرية ويستعمل للتفريق بين المذكر والمؤنث مثل:

أَمْغَارْ مؤنثها أَمْغَارث عجوز ـ عجوزة

وللتأنيث عامة كهذه الأمثلة:

الخلاث	:	النساء
الخلالث	:	الخلاله التي تستعمل في النسيج
أقشابيث	:	القشابية
النازيث	:	الهضبة القليلة الارتفاع
ايملحفث	:	الملحفة
اسويرث	:	القميص (السورية)

وترد الثاء في الأول أحيانا:

ثُلَاوين	:	النساء
ثَسَى	:	كبد

وأحيانا في الأول والآخر:

ثِلْمِيمَثْ	:	لقمة
ثُوثْمَنْ	:	أنثى
ثِغرْدَمَثْ	:	عقرب
ثِعَمُّوطْثْ	:	بطن
ثِنْزَرَثْ	:	منخر

وقد تجتمع مع التاء كما في:

ثَلَّسْتْ	:	الطيلسان، الظلمة
ثِكَّلْتْ	:	مرة

وما هذا التداخل إلّا من بقايا المرحلة القديمة، فتبادل الحروف المتقاربة من الظواهر اللغوية الشائعة في اللغات العربية القديمة، حيث تستعمل بعض الحروف مكان بعض

الحروف الاخرى سواء بحكم الانتساب إلى مخرج واحد أو بحكم المجاورة فيه أو غير ذلك من قوانين تطوّر الأصوات والتبدّل في أوضاعها، وفي العربية طائفة من الكلمات التي حلّت فيها التاء محل الثاء فيقال:

تيثل	بدل	ثيتل
يترب	بدل	يثرب
تفل	بدل	ثفل

ويقال للطفل اذا نبتت أسنانه بعد السقوط مثغور ومتغور بالثاء والتاء[13].

ونقل عن أهل خيبر أنهم ينطقون الثاء تاء ومن المحتمل أن بني ربيعة كانوا يفعلون نفس الشيء[14].

والاراميون يبدلون الثاء تاء فيقولون: تور بدل ثور.

وجد في احدى لهجاتهم المتبقية بشرقي لبنان حاليا (قرية معلولة) تؤنث بالثاء في بعض الحالات من مثل[15]:

بسونا ـ بسنيثا ـ صبي ـ صبية (بنت)

كما ينطق: بيث بدل ـ بيت[16].

ثالثا ـ حروف «أنيت»

وهي الحروف التي تستعمل في صياغة المضارع في العربية يذكر عثمان سعدي أنها مستعملة في البربرية كما في هذه الأمثلة[17]:

أخسا أَضَطْسَغ	أريد أن أنام
يالله انطّس	هيا ننام
اخسا ايطّسْ	يريد أن ينام
اخسا اتطّس	تريد أن تنام

فالمادة الاصلية للفعل هي: (ط. ط. س) وقد سبقت في الأمثلة الأربعة بحروف «أنيت» الهمزة والنون والياء والتاء.

ويذكر عثمان سعدي أن الهمزة السابقة للنون والياء والتاء هي همزة وصل ومعتبرا اياها سمة أخرى تشترك فيها البربرية مع العربية.

والملاحظ هنا أن هذه الحروف لا يختص بها المضارع في البربرية كما قد يتبادر إلى الذهن، لأن الماضي والمضارع لا يختلفان في هذه اللغة كما تقدّم لنا[18].

رابعا ـ فعل الأمر:

يظهر التشابه جليا بين اللغتين في فعل الامر حيث تستعمل كلّ منهما همزة الوصل بنفس الطريقة التي تستعملها الاخرى. وذلك عندما يكون الحرف الأول الأصلي في

الفعل ساكنا ويتعذّر النطق به فيؤتى بهمزة الوصل للتخلّص من ذلك.

فيقال في العربية	ويقال في البربرية	
اجلس	اكر	: قم
افتح	اطس	: نم
أكتب	اسو	: اشرب
ارم	اتش	: كل

واذا كان الحرف الاولي الاصلي غير ساكن أي متحرك ـ كما في العربية فيستغنى عن همزة الوصل ولا يؤتى بها.

فيقال في العربية	ويقال في البربرية	
جادل	سوسم	: أسكت
تعلّم	روح	: رح اذهب
قم	قيّم	: قم

خامسا: الضمائر المتصلة:

توجد في البربرية ضمائر متصلة من نوع الضمائر المعروفة في العربية. فهناك مثلا:

ـ نون النسوة: الخلاث اِطّسْن = النساء نمن، فالنون في «اِطّسن» نون النسوة ضمير متصل فاعل.

ـ نون الجماعة: يمّاثنَغْ = أمُّنا

فالثاء للتأنيث والنون للجماعة (المتكلم ومن معه)

ـ كاف الخطاب:	بَبَاكْ	: أبوك
	يَمَّاكْ	: أمّك
	مَمِّيك	: ابنك

ويقول السوسي في هذا الصدد: «ومما اتفقت فيه اللغتان كاف الخطاب فانه يستعمل في الشلحية استعماله في العربية»[19].

ـ ضمير الغائب: من الاشياء الملفتة للنظر هو أن البربرية تستعمل السين ضمير للغائب فيقال:

ـ بَابَاسْ: أبوه

ـ يَمَّاسْ: أمّه

ـ يَمِّيسْ: ابنه

أَرْكَازِيسْ: بعلها، زوجها (أركاز: رجل)

ويقال:

يَمَّانْسَنْ: أمّهم

مَمِّيْشْسَنً: ابنهم

فالسين هنا ضميرالغائب، والنون علامة الجمع، وهي كما أسلفنا من عناصر جمع المذكر السالم.

وقد يظن البعض ان استعمال «س» بصفته ضميرا للغائب من خاصيات البربرية وحدها، ولكن الامر ليس كذلك، فقد استعملت «س» بهذه الوظيفة في اللغات العربية القديمة.

و يذكر الدكتور محمود حجازي أن ضمير الغائب كان فيها «عبارة عن الهاء والهمزة للغائب والسين والهمزة للغائبة»[20].

لكن بعض الجماعات غلّبت بعد ذلك «هاء المذكر على سين المؤنث واستخدمتها للدلالة على المذكر والمؤنث مع التفرقة بينهما بالحركات أو بالواو أو بالياء أو بالقرائن»[21].

كما غلبت جماعات أخرى سين المؤنث على هاء المذكر واستخدمتها في الدلالة على التذكير والتأنيث على حد سواء»[22].

ولذا اعتبرت الهاء في (هفعل) والسين في (سفعل) والشين في (شفعل) والهمزة في (أفعل) بقايا لضمائر الغائب: هي ـ هو ـ سو ـ شو[*].

ولذا فالبربرية باعتبارها شقيقة اللغات العربية القديمة عرفت الضمير (س) واحتفظت به وظلت تستعمله للغائب بصورة متميّزة لانفصالها المبكر وانعزالها عن غيرها.

سادسا: تغيير الحركات وعلاقته بالمعنى:

من الموضوعات التي تتشابه فيها أيضا العربية والبربرية التغيير الذي تستعمله كل منهما في الحركات للحصول على معان جديدة، في العربية يقال: مَثَل وَمُثُلَ وَفَرِحٌ وَفَرَحٌ ـ ومُتْقِنٌ ومُتْقَنٌ ولكل كلمة دلالتها التي تختلف فيها عن الاخرى.

فَمَثَلٌ مفرد ومُثُلٌ جمع، وفَرِحٌ صفة مشبهة وفَرَحٌ مصدر ومُتْقِنٌ اسم فاعل ومُتْقَنٌ اسم مفعول.

وفي البربرية يقال:

أمَدْكَّلْ، اِمْدَكُّلْ: صديق ـ أصدقاء

يَسُوسَمْ ـ يَسُوسُمْ: سكت ـ يسكت

اِفْرَس ـ اِفَرَّسْ: قصّ ـ يقصّ

وتغيير الحركات للحصول على معان جديدة في ذات الكلمة من الأساليب التي يتميّز بها البناء الداخلي للمفردات والتراكيب في اللغات العربية.

سابعا: كان ـ ما الاستفهامية:

يذكر السوسي أن الشلحة تستعمل (كا) المفخّمة الكاف والمحذوفة النون فيسمع في الشلحه: (كافلان العالم) بتفخيم الكاف في النطق: أي كان فلان عالما، ملاحظا ان تفخيم الكاف لهجة عربية صحيحة[23].

والمعروف في العربية وهي في صورتها المتطورة، أن (نون) كان تحذف في بعض أوجه الاستعمال، وقد ورد ذلك كثيرا في كلام العرب نثرا وشعرا ومن أمثلة ذلك هذه الآية (ولم أك بغيا) وحذف النون في العربية متعلق بالفعل المضارع المجزوم.

ومهما كانت الاسباب فحذف النون موجود في العربية والشلحية وهو ما يجعل منها ظاهرة من ظواهر التكوّن اللغوي العربي القديم.

وبالنسبة لما الاستفهامية: فالسوسي يقول أيضا ان الشلحة تستعمل (ما) الاستفهامية مثل العربية ويضرب لذلك هذا المثل:

مازكانتك ارياتا؟ ـ ماذا تريد؟

ثامنا: الاسماء المبدوءة بالتاء والياء:

من اللافت للنظر سكوت الباحثين عن ظاهرة لغوية ـ ثقافية هامة في البربرية، وهي أن جانبا كبيرا جدا من أسمائها مبدوء اما بالتاء واما بالياء، ولا نجد نظيرا لهذه الظاهرة من حيث الكثرة والانتشار الا في البيئة العربية ولغاتها حيث تزخر البلاد من أقصاها إلى أقصاها بما في ذلك بلاد الحبشة بآلاف الاسماء من هذا النوع وهو ما جعل منها ظاهرة لغوية ثقافية متميزة.

ونقدم في ما يلي أمثلة لهذين النوعين من الاسماء العريقة:

1 ـ الاسماء المبدوءة بالتاء: وهي في العادة اسماء قبائل واشخاص وأماكن ومدن منها:

تليلان	تكروان
توجين	تطوان
تاشفين	تمدوين
تدين	تومار
تيمعسن	تقرنوش
ترعاسن	توفارن
تكّم	ترشيش
تغمت	تيزن

وجانب كبير من هذه الاسماء كثيرا أيضا ما يكون مختوما بتاء التأنيث أو الزائدة كما في

العربية :

تاهرت	تامكرت
تكرت	تفيلالت
تيارت	تشلحيت
تكرارت	تفشيشت
تافزوت	توات
تاته	تمصيت
توقرت	تاله

ومن الاسماء العربية المبدوءة بالتاء نسوق هذه الامثلة :

تغرمان	تميم
تغلمين	تيت
تربان	تبّت
تدحان	تباله
تعشار	تمنه
تسلال	تمنع
تفشن	تغلب
تبوك	تدمر
تعز	

وهذه التاء سماها النحاة واللغويون «تاء الاسمية» سواء كان الاسم مذكرا أو مؤنثا دون ان ينظروا اليها في اطار اوسع و إلى ما يمكن ان تدل عليه من خاصيات ودلالات لغوية أخرى.

2 ـ الاسماء المبدوءة بالياء : وغالبيتها ـ على ما يبدو ـ للاشخاص والقبائل والبطون.

يفرن	يملول
يلول	يغمراسن
يصلتين	يزناسن
يطوفت	يكش
يرنيّان	يرغش
يدر	يرهاض
يجفس	يغمران
يدفر	يلّل
يصدران	يرزو

ومن نظيرتها في العربية:

يزن	يثوبرن
يكرن	يفس
يغوث	يكرب
يعرب	يليل
يقطان	يهدل
يمعان	يسوع
يربوع	ياجج
يثرب	يسران
يبرين	يتحم
يعثان	يكدر

ومما يلاحظ في هذا الصدد:

1 ـ كثرة الاسماء المبدوءة بالتاء والياء في البيئة العربية يدل على أن الأمر نابع من طبيعة التكوين الثقافي واللغوي لا علاقة له بما يحدث اتفاقا في مناطق اخرى ولغات أخرى.

ويكفي أن نذكر قسما من وثائق (إبلا) المسمارية تضمن 1985 اسما منها 377[24] اسما كانت مبدوءة بالياء. و«إبلا» هذه مدينة اثرية بسوريا يعود تاريخها إلى اواسط الالف الثالثة قبل الميلاد (2400)ق. م.

2 ـ كثرة هذه الاسماء أيضا في البربرية وتشابهها القوي مع أمثالها في العربية ولغاتها القديمة، حتى انه يصعب التفريق بينها وعلى سبيل المثال فهذه مجموعة من الاسماء: يملول، يليل، يعثان، تعمران، تكرت، يرغش، يكرن، تغلمين، تاشفين، يرهاص، يمكن اعتبارها بربرية ويمكن اعتبارها عربية لكونها من نسيج متشابه والحال ان بعضها بربري: يملول، تكرت، يرغش، تاشفين، يرهاص.

وبعضها الآخر عربي: يليل، يعثان، يكرن، تغلمين، تعمران.

3 ـ يتضح من دراسة التاء والياء ومضمون المسميات عامة أو ورودهما في أول الكلمات انما كان لغرض وهو التأنيث والتذكير للتمييز بين مدلولاتها في هذه الناحية وهذا واضح من علاقة التاء بالاسماء المؤنثة تأنيثا حقيقا أو غير حقيقي.

ومن الباحثين كالدكتور كمال الصليبي من يعتبر التاء ضميرا مفردا مؤنثا للغائبة والياء ضميرا مفردا مذكرا للغائب[25].

وفي هذا أيضا اقرار بأن التاء للتأنيث والياء للتذكير.

تاسعا: التناسب:

ظاهرة التناسب بـ (بنو رفعا وبني نصبا وجرا) ظاهرة لغوية واجتماعية في آن واحد،

وهي من المسائل التي اهتممت بها في مجرى هذا البحث، وتوصلت إلى أن البربر كالعرب تماما يتناسبون.

فالعرب يقولون مثلا:

بنو تميم، بنو أمية، بنو ثقيف، بنو عبس، بنو هلال بنو عبد مناف وكذلك البربر فهم يقولون:

بنو يفرن، بنو يلومي، بنو مرين، بنو يهارسن، بنو كهلان.

وتصورت في الأول أن البربر قد يكونون تأثروا بالعرب في هذا بحكم المعاشرة وطول الاختلاط، ولكن ما ان درست أصول التظيم الاجتماعي للجماعات البربرية حتى أدركت أن ظاهرة التناسب قديمة وأصيلة في هذه الجماعات.

وكان اليعقوبي على حق عندما قال:

وبطون هوّاره تتناسب كما تتناسب العرب. فمنهم بنو اللهان ومليلة وورسطفه. فبطون اللهان: بنو درصا وبنو مزيان، وبنو ورفله وبنو مسراته»[26].

وهكذا نلاحظ أن التناسب في البربر ليس مستعارا وانما هو نابع من طبيعة النظام الاجتماعي القائم على أسرة الأب.

عاشرا ـ سمات مشتركة أخرى:

1 ـ **الفعل الناقص**: وهو الفعل المعتل الآخر مثل: رمى، دعا، نجد له نظيره في البربرية كما في هذه الأمثلة:

يَسْغَى : اشترى
يَسْنَاوْ : ينضّج الجزر وغيره
يَسْلَى : سمع
يَكْنى : يرقع
يَسو : يشرب

ومن هذا القبيل تلك الكلمات التي تشبه المنقوص والمقصور في العربية.

اِيزِي : ذباب
اِيَمطّي : الدمع
اَمَنْغِي : المعركة
اَزَكّى : القبر
اَغْرَضَا : الفأر

والفعل الناقص موجود ايضا في المصرية القديمة.

2 ـ **التضعيف**: وهو تكرار عين الكلمة أو تجانس العين واللام فيها نحو: مَدَّنَ أو مَدَّ

(أصلها: مَدْدَنَ ـ مَدْدَ) وهذا أيضا له نظيره في البربرية كما في هذه الأمثلة :

يَتِيرَارْ : يلعب
أَضَاض : الاصبع
أفرور : نوع من الخزف الاحمر
أبِزْيز : نوع من الجراد
سِمُّوم : الحصرم
أَمْرَار : الحبل

وهناك كلمات مثل: وَرْوَارْ (السنبوقة) شبيه بالمضاعف الرباعي: زلزال.
وما هو جدير بالملاحظة هو أن البربرية تضاعف فاء الكلمة كما في هذه الأمثلة:

يَطّس : نام
لُكَّذْ : يخاف
يَرَّزْ : كسّر
اِتَّشْ : كُلْ

وفي العربية ايضا تكرر الفاء مع الفصل نحو: سلس قلق، قرق وهو قليل ولذا قال ابن جنّي «ان تكرار الفاء لم يأت به ثبت الا في مرمريس» ومثل هذه الحالة نجدها في البربرية اذ تكرر الفاء في كلمات أخرى مع الفصل نحو:

سُوسَمْ : اسكت
سَاسنُو : القَطْلَب (نوع من الشجر)
أشاشو : المكيال (الهمزة زائدة)

3 ـ **القلب المكاني**: يوجد في الصرف العربي ما سمي بالقلب المكاني (نوع من الابدال)

وهو احلال حرف مكان آخر من مثل:

قِيسِيّ: مفردها قوس، قدمت في الجمع السين على الواو ولذا فوزنه الصرفي: فلوع.
امْضَحَلَّ: بدل اضمحلّ وهي لغة الكلبيين ووزنها: اعفللّ وفي البربرية نجد هذا القلب في بعض الكلمات مثل :تامطّوث: المرأة قدمت الميم على الطاء لانها من طمث وهو الحيض.
ايخْفْ: الرأس قدمت الخاء على الفاء لانها من اليأفوخ. والكلمتان من المعجم المشترك لكل من العربية والبربرية.
فاس: المدينة المغربية المعروفة. قدمت فيها الفاء على السين لانها من الكلمة البربرية: أسيف وهو النهر، وسميت بهذا الاسم لوجود أنهار بالمكان.

4 ـ استخدام الميم الزائدة:

تستخدم البربرية في كثير من الصيغ (الميم الزائدة) كالعربية في بعض المشتقات وذلك لأداء أغراض مشابهة مثل:

آمحراث (المحراث): اسم آلة كالعربية تماما في بعض اللهجات

ايملحاف (الملحفة): اسم آلة كالعربية تماما

اِمكْرَاز (الفلاح): شبيهة بصيغة المبالغة (مفعال)

واذا كانت العربية استعملت صيغة المبالغة فعّال (فلاح، حدّاد...) فان البربرية في مثل هذه الحالة استعملت صيغة المبالغة مفعال.

اَمَدْكُول (الصديق): كما هو في نطق بعض الجهات، وهي صيغة اسم مفعول، تعني من وقعت عليه المودة والمحبة، والصيغة هنا بنيت انطلاقا من خارج الشيء المعبّر عنه، في حين ان كلمة الصديق سواء كانت صفة مشبهة أو صيغة مبالغة بنيت انطلاقا من الشيء المعبر عنه ذاته.

والعربية أحيانا قد تعبّر بفعيل على معنى مفعول.

تامردومث (المردومة): اسم مفعول وليست كما قال سعدي اسم مكان يعدّ فيه الفحم الخشبي اذ هي تعني ما يردم من خشب لتحويله الى فحم كما أن التاء فيها ايضا ليست للتعريف وانما للتأنيث.

5 ـ التشابه في الجذور:

من يطلع على معجم اللغة البربرية يفاجىء بحقيقة في غاية الأهمية وهي أن جذور مفردات هذه اللغة ثلاثية، وهذه خاصية تمتاز بها العربية ولغاتها القديمة (المسماة بالسامية) على غيرها من المجموعات اللغوية الاخرى، وما قدم من نماذج وأمثلة في هذا البحث يشهد لذلك.

كما أن البربرية بالاضافة الى ذلك، تشبه العربية ولغاتها في امتلاكها لجذور ثنائية ورباعية وقد يكون أكثر من ذلك.

سُوْ: شرب

أَسْ: يوم

أَكْ: كل ـ مَدَّنْ أكـْ: كل الأوادم، كل الناس.

اقنطاس: خشبة تركب في أعلى الركيزة لرفع الخيمة (ق، ن، ط، س)

آقريس: السرج (ق، ر، ب، س)

ثغنجورث: الأنف (غ، ن، ج، ر)

والكلمات من المعجم المشترك لكل من العربية والبربرية.

الناحية المعجمية:

تأثير العربية في البربرية كان واسعا وعميقا، فقد أثرت معجمها وأغنته بشكل لا نظير له. وبدأ ذلك ـ كما أسلفنا ـ مع مجيء الاسلام أما قبل هذا التاريخ فان تأثيرها وان حدث فهو محدود حيث تحدّث بعضهم عن هجرة جانب من يهود خيبر الى شمال افريقيا سنة 628م الشيء الذي أدى ولربما لاول مرة الى تطعيم البربرية بلغة مضر(*).

والامر هنا ـ كما هو واضح ـ لا يتعلق بابراز مدى هذا التأثير ومحاولة الاحاطة به، وانما بالبحث في ما تضمنته البربرية قبل مجيء الاسلام ويهود خيبر، من طائفة واسعة من الكلمات، منها ما تشترك فيه أساسا مع العربية، ومنها ما تشترك فيه مع العربية وكل اللغات العربية القديمة (المسماة بالسامية).

ونبدأ بالقسم الاول أي ما تشترك فيه البربرية والعربية مع التأكيد على أن هذه الكلمات ليست مستعارة من الثانية للاولى لكونها تعبّر في الغالب عن مسميات ومعان هي من صميم ما يتعرف عليه الانسان في محيطه الاول بحكم ما تنشأ فيه من حاجيات مبكرة مما يؤكد أصالتها وقدمها في المعجم البربري.

وفيما يلي قائمة في مثل هذه الكلمات:

تامطوث: المرأة، وفي العربية (الطمث) وهو الحيض فسميت المرأة بأهم خاصية بيولوجية تميزها، وفي القاموس (طمثت المرأة ـ حاضت) والعلاقة واضحة بين الكلمتين وان احداهما حصل فيها قلب مكاني.

أركاز: الرجل. وتنطق الكاف مثل نطق القاف في الوسط التونسي (ق) وهي (الرّكز) المحرفة قليلا. والرّكز في العربية تعني: الرجل الحكيم الكريم، وفي القاموس (الرّكز بالكسر... الرجل العالم العاقل السخي الكريم) ومن مادة (ركز) نجد أيضا (الرّكز) أي الثابت وما يعتمد عليه. والرجل في نظر مجتمعنا بصفة عامة يعتبر ركيزة وسندا لمن حوله من الأهل والعشيرة وابناء مجتمعه.

وتوجد في الأكدية مادة (زكر) ولعل أصلها (ركز) بتقديم الزاي على أساس أن خطأ وقع في كتابتها عند النقل، وبقطع النظر عن هذا فهي المادة الأصلية لكلمة رجل.

فيقال في الأكدية (زكر) بنطق معين للحركات ومعناها صار رجلا[27].

والعلاقة واضحة بين الكلمة الاكدية والبربرية.

ولو نظرنا الى التسمية من زاوية أخرى لرأينا أن المرأة سميت باحدى خاصياتها البيولوجية، وهي تسمية تجسد المعنى البدائي المحسوس، أما الرجل فان تسميته أكثر تطورا على ما يبدو من حيث المعنى اذ الاسم الذي أطلق عليه (اركاز) لم يستمد من خاصياته الطبيعية وانما من دوره ووظيفته الاجتماعية وهذا قد يكون دليلا على أنّ هذه التسمية ظهرت في العهد الذي سادت فيه أسرة الاب وتوطدّت دعائمها وصار الرجل ذا المرتبة الاولى في الحياة الاجتماعية.

أخنفوف: الأنف ـ ومن الواضح أنها من مادة (ختف) ويقال في العربية: خنف الرجل بانفه، أي تكبّر، فهو خانف وفي القاموس «الخانف الشامخ بانفه كبرا» ويرى عثمان سعدي أن الكلمة البربرية أقرب الى العربية في الاستعمال من كلمة الأنف[28].

ومما يؤيد ذلك وجود حرف الخاء في كلمات أخرى تطلق على الانف مثل: المنخر من نخر الانسان أو الدابة اذا مدّ صوته من الانف، ومثل الخيشوم، وبالنسبة لبعض الحيوانات فيقولون: مِخطم البعير، ونُخرة الفرس وخَرطوم الفيل وخِنّابة الجارح[29].

آزياط، آزايت: العاصفة، الريح الشديدة، وفي العربية، زاط يزيط زيطا وزياطا: صاح والزياط: اختلاط الأصوات، والزّياط (صيغة مبالغة) الصيّاح، والعاصفة معروفة بجلبتها واختلاف أصواتها، ولذا سميّت في البربرية بأزياط.

قطوس: قط، وفي احدى اللهجات السودانية (البجرامية) يقال للقط (دت) بالدال والتاء مما يدل على قدم هذه الكلمة وعلى انتشارها.

يطّس: ينام هذه الكلمة لها صلة بالكلمات العربية التالية:

طَسَّ غَطَسَ غَطَّ

يقال: طسّ الشيء في الماء، غطّسه وغطّه فيه، وفي النوم غياب تام عن حالة اليقظة وفي عاميتنا يقولون: غاطس في النوم، واغطس في النوم ـ وفي العربية ـ غطّ يغطّ غطيطا

النائم: صات وشخر وذلك في حالة النوم العميق.

أزيل: الشّعرة: وهي تقابل اما الإِسب بالكسر، وهو في العربية شعر الرَكَب (بفتح الراء والكاف).

والركب: العانة أو منبتها، واما من السّبلة، وهي في العربية ما على الشارب من شعر.

سُوْ، اسْوَا: شرب الماء، في العربية، احتسى الماء: شربه.

نازيت: الهضبة القليلة الارتفاع. يقول عثمان سعدي، انها «أخذت من نعت عربي يقال: أكمة نازية أي مرتفعة عما حولها»[30].

وفي أساس البلاغة للزمخشري «وأكمة نازية: مرتفعة عما حولها كأنها نزّت عن وجه الأرض»[31].

آمروث: الأرض: ونجد في العربية أرض ممرّثة وهي التي أصابها مطر ضعيف. وأرض مرت: التي لا نبات فيها، والمرت أيضا المفازة. فالكلمتان: مرث ومرت متقاربتان في المعنى وأن الأرض المرث المصابة بالمطر الضعيف هي أَرْضٌ تكاد تخل من النبات.

وعكس هاتين الكلمتين، كلمة ارض. فنقول: أرُضَ المكان: كثُر عشبه، فهو أرض وأريض أي زكيّ معجب للعين خليق للخير[32].

ويقال: الأرضة: والإرضة: الكلأ الكثير، والتأريض: رعي كَلَإِ الارض وارتياده.

هناك اذن وصفان يطلقان على المكان، عند انعدام النبات وعند توفره، وسواء أكان لهذا علاقة مباشرة بأطوار الخصوبة والجفاف أم لا؟ فان بعض القبائل مثل البربر غلّبت صفة المكان عند انعدام النبات أو قلّته فقال: آمروث من مرث أو مرت، والتبادل بين الثاء والتاء وارد في العربية وغيرها، وغلّبت قبائل أخرى صفة المكان عند توفر النبات وكثرته فقالت: أرض.

خلاث: النساء. هذه الكلمة لها صلة ـ في العربية ـ اما بكلمة (الخُلّة) بضم الخاء وهي الصديقة أو الزوجة واما بكلمة (الخليلة) وهي أيضا الصديقة والصاحبة. فالعلاقة بين الكلمة البربرية والكلمتين العربيتين واضحة.

ثبحيرث: الروضة. وهناك في العربية (الْبُحْرَه) ومن معانيها الروضة الكبيرة، والمنخفض من الأرض والملاحظ أن البربر استعملوا المعنى الاول (الروضة) وعاميتنا ما تزال محتفظة بالمعنى الثاني (المنخفض من الارض) ولذا نقول في جهات من القطر التونسي: بحيرة الكاف، بحيرة برماجنه، وهما منخفضان معروفان جغرافيا.

يَتْفيِّلْ ايثِيلي: يستظّل بالشجرة، فالكلمة هي تفيّأ العربية ونقول تفيّأ الشجرة: استظلّ بها، أما الكلمة الثانية فذات صلة بالكلمة (الثِيل) أو (الثَّيِّل) وهو نبات له قضبان طويلة، والمعنى العام: الاستظلال بظل النباتات ذات الظل.

روش: سقى وفعل (رشّ) معروف في العربية.

آزال: الزوال العربية، عندما تكون الشمس في كبد السماء.

ثَلَّسْتْ: الظلمة، وفي العربية (الطّلس) وهو كساء أسود ويسمى أيضا (الطيلسان) ويقال: طَلِسَ يَطْلَسُ طَلَساً، وطَلُسَ يَطْلُسُ طُلْسَةً، كان أغبر الى السواد ومنه ذئب أطلس أي الأمعض الذي في لونه غبرة الى السواد، وليلة طِلْسِمَانه أي مظلمة.

فالكلمة البربرية والعربية لها نفس المادة والمعنى وأنَّ الثاء ليست للتأنيث وانما هي متبادلة مع الطاء في العربية وانقلاب احدهما الى الاخر شائع ومعروف.

أمرار: الحبل. وفي العربية (الْمَرُّ) بفتح الميم وهو الحبل ويقال مرّ البعير مرّا: شد عليه المرّ أي الحبل وفي عاميتنا بالوسط الغربي يقال: مرشانه وهي حبل قليل الطول مظفور.

أميلوس: الوحل. وفي العربية (الْمَلْس ـ ج. مُلُوس) المكان المستوي والوحل الذي ينقله السيل أثناء تهاطل الامطار يسوي الامكنة المنخفضة، وتكون في الغالب ملساء، والمِلُوسِي في لهجتنا الشعبية نوع من الوحل وليس مطلق الوحل لان النوع الاخر الذي لا يحمله السيل يسمى شعبيا (الطَّبْعَة) فالعلاقة بين الكلمة البربرية والعربية والاستعمال الشعبي المحدد واضحة.

قلواش: الجدي (تصغير جدي) وفي العربية (القَلاش) بمعنى الصغير.

وفي هذا المضمار قدّم لنا عثمان سعدي قائمة بها 103 كلمة من البربرية وما يقابلها في العربية منها بعض الكلمات سبق ذكرها يمكن الرجوع اليها لثرائها وأهميتها[33].

ومن الواضح أنها من الكلمات القديمة العربية، ومن هذا القبيل أيضا ما أورده السوسي الذي يقول:

«وانما العجب أن نجد ألفاظا غير قليلة عند الشلحيين لا تروج غالبا في لغة هؤلاء العرب المخالطين للشلحيين، ولكننا نجدها عند الشلحيين مثل:

السري.. بمعنى الجدول. والأوق.. والثرب شحم الكرش. والفدع التواء المفاصل. والسقط الخيط المعلق في آخر الرحل والقلزم الفأس والخلف رق الادام، وأفت الانسان عن وجهته: صرفه عنها والبكت: الضرب بالعصا. وذرى بمعنى سقط. وأل اذا بكى.

فانها ـ وكلمات كثيرة تعدّ بالمآت ـ لا يكاد يعرف أن لها اصلا في العربية الان الاّ من خالط قواميس اللغة العربية»[34].

قائمة مشتركة:

نأتي الان الى القسم الثاني من المفردات أي ما تشترك فيه البربرية والعربية واللغات العربية الاخرى للتأكيد من هذا السبيل أيضا على ما بينها جميعا من وحدة لغوية وأصول مشتركة، وهو ما يفنّد مزاعم أولئك الذين يصرّون على فصل البربرية عن شقيقاتها التي يسمونها السامية.

الكلمات المشتركة	الكلمات في البربرية
الأب	بَابَا
الأم	يَمّي
اللسان	اِيلَسْ ـ ج ـ إيلَسانْ
البطن	أعبَّوط، ثَعبُّوطَثْ
الصوت	صُوتْ ـ ج ـ أصوات ـ مثل العربية
اليافوخ	اِيخَفْ. في هذه الكلمة قلب مكاني ج. اِيْخفَاوْن
الفم	أفمُّوش ـ ج. اِفَمُّوشَنْ.
النفس	ثْرْوَحَثْ
الدم	ايدامن
الموت (مات)	مُوتْ، آمت، يَمِتْ، ثَمِتّنَثْ
الفطن	فَطَنْ ـ ج ـ دَالْفَاطِينْ.
آدم ـ ج ـ أوادم	مدّن
هلك	يهلك. ومنها أهْلاَك أُعبُّوط ـ أوجاع المعدة ـ أعبَّوطُسْ ـ يَهْلِكَّثْ: عنده ألم في معدته.

الماء	آمان
البرّ	برَّ
البحر	بحر في بعض اللهجات (ايْلَلْ)
المكان	امْكَانْ
الْقُرْبَ	قريب، فَالْقَرْبْ غَرْ الْقَرْبْ: من أقرب الى أقرب.
القرابة (الدموية)	أَقْرِيبْ ــ ج. اِقْرِيبَنْ.
البعد	بَعْدْ، أخَّامِيسْ ــ يَبْعَدْ ــ سِيَّ: يسكن على بعد من هنا.
الشرق	شَرَقْ. آطُودَ شَرْقِي: ريح شرقية.
الغرب	غَرَبْ ــ أَغَرِبْي: ريح غربية
الظل	ظَلَّلْ وأيضا فِيَّلْ
قوس	قوس ــ ج. أقواس ــ مثل العربية
برق	بَرْقْ
كمّون	كمّون
حمص	حَمَزْ
جلبان	جلبان
جزر	زروديه في بعض اللهجات تَيفَسْنَاخْ
ثوم	ثِسْكَرْثْ: قرانها بكلمة (كراث) وهو فصيلة من الثوم.
الخيار	ثَخْيَارْثْ ــ ج. ثِخْيَارِثينْ
الزيت	في بعض اللهجات أو ذي زيت ــ يَدَهَنْ سالِزّيتْ: دهن أو دلك بالزيت
سنبلة	ثَسبُلَتْ: ج. ثَسبُلْتِينْ
خنزير	أَخَنْزِير
اسم	اسْمْ ــ ج. اِسْمَاوْنْ ــ اَنْوَى دِسْمِيكْ؟ ما اسمك؟
كل	أَكْ. مَدَّنْ آكْ: كل الآدميين، كل الناس
يمين	ايمن أي القسم، تشبه احدى لغاته
نقل	اَنْقَلْ
ركب	اَرْكَبْ
قلى	آقْلُ
سأل	سَقْسِي القريبة من (تقصّى واستقصى) اذا بحث في الأمر غاية البحث.

يضاف الى هذا أسماء العدد الى عشرة والمئة.

ومما يؤكد اشتراك البربرية في هذه الكلمات وغيرها ما قاله السوسي من ان هناك

الفاظا قديمة تسبق عند الشلحيين الفتح الاسلامي[35] وأنها متأصلة «في اللغة الشلحية»[36] ولا يعرف «ما يقوم مقام تلك الالفاظ عندهم مع ملاحظة أنه لا بد من تلك الالفاظ لأية أمة ولو كانت لا تزال من الهمجية الاولى في الدركات وذلك كالموت والحياة والدم والريح والأب والأم والصوت والبر والبحر والقرب والبعد»[37].

ويضيف: «وهي الفاظ تصل عندي الان الى مئة كلمة ولا أعلم لها مرادفا شلحيا يمكن أن نقول انه هو الاصل الاصيل ويكون الاخر من الدخيل. وهذه الالفاظ وما على غرارها يتفق على التلفظ بها في معناها كل من عرفناه من أصحاب اللهجات البربرية المتفرقة حولي الأطلس زيادة على ما في سوس»[38].

ويواصل كلامه: «وكون أمثال هذه الالفاظ أقدم من الفتح هو الراجح عندي وأكاد أجزم به»[39].

ويتساءل السوسي عن سر وجود أمثال هذه الالفاظ العربية في الشلحة وفي اللهجات البربرية قاطبة فيقول:

«لا أدري أهي ألفاظ غمرت مرادفاتها من الشلحية منذ تسربت من العربية القديمة على عهد الفتح الاول للفينيقيين الذين نعرف من هم بالنسبة لابناء الجزيرة العربية وهم من ابنائها الصميمين؟ أم هي ألفاظ قديمة في اللغة الشلحية فتكون حجة للمؤرخين الذين يؤكدون أن البربر موجة من موجات الشرق في عصور ما قبل التاريخ»[40].

آثار الثقافة السبئية ـ الحميرية ببلاد المغرب:

المعلومات المتقدمة حول الانتماء الشرقي للبربر وحول علاقة اللغة البربرية بالعربية ولغاتها القديمة يجعلنا نتوقّع وجود آثار الثقافة السبئية ـ الحميرية ببلاد المغرب، وهذا أمر منطقي تماما اذ أن جنوب الجزيرة العربية يعد في نظر الباحثين مصدرا قويا لهجرات قديمة ومتعاقبة، فضلا عما يؤكده النسابون والمؤرخون المسلمون في هذا الصدد اذ هم يقطعون بوجود قبائل يمنية حميرية ضمن القبائل البربرية مثل صنهاجة وكتامة.

وقد اهتممت بهذا الموضوع الذي شغل بالي طويلا، ورغم انعدام الدراسات المقارنة بين شمال افريقيا وجنوب الجزيرة العربية وبين البربرية واللغات اليمنية القديمة، فان ما توصلت اليه من معلومات وان كان محدودا الاّ أنه ذو أهمية وفي حاجة الى المزيد من المتابعة. وهو يشمل الناحية اللغوية وبعض النواحي الثقافية ـ الاجتماعية نحوصلها في ما يلي:

1 ـ ما جاء من الأسماء البربرية على صيغة «أَفْعُول»:

عرفت صيغة (أَفْعُول) بفتح الهمزة في الحميرية. وقد أشار الى هذا الحسن الهمداني بقوله: «وكثير من قبائل حمير تأتي على الأفعول: الأيفوع والأيزون والأوسون والأحروث»[41].

واهتم بدراستها من المحدثين القاضي اسماعيل بن الاكوع الذي أكد أنها صيغة يمنية أصيلة وأن وجودها خارج موطنها الأصلي ـ كما في الحبشة ـ كان نتيجة انتقال المؤثرات الثقافية الى تلك المنطقة.

ولا توجد هذه الصيغة في العربية وانما توجد فيها صيغة «أفْعُول وأُفْعُولة» بضم الهمزة مثل: أُفْحُوص، أُسْلوب، أُظْفُور، أُمْلُود، وأُحْدُوثة، وأُعْجُوبة، أُلْعُوبة، أُسْجُوعة.

أما صيغة «أَفْعُول» اليمنية فهي كثيرة في مناطقها ومستعملة في أسماء الاعلام والقبائل والبلدان والاماكن للدلالة على الجمع مثل:

أَبْوُد : اسم شخص
أَبْرُوح : بنو برح
أَبْقور : قبيلة من سحر
أَجْرُون : جبل
أَبْيَرِح : وادٍ
أَحْرُوج : بطن من همدان

واذا انتقلنا الى البربرية وجدنا أسماء متنوعة بهذه الصيغة كما في هذه القائمة:

أَزْكُوْر : اسم جماعة في (عمالة مراكش)
أَمْقُون : مجلس الحلف الاعلى (بين القبائل)
أَزْمُور : اسم مدينة بساحل (المحيط الاطلسي)
أَصْفُود : مكان
أَمْجُوط : احدى قرى (بومعان) بني زروال.
أَمْرُود : قصر بجربة
أَسْبُويه : أو أصبويه ـ جماعة في (عمالة أغادير)
أَكْسُورة : جماعة في دائرة (بعمالة فاس)
أَكْسُوره : أو هَكْسوره (ابدال الهمزة هاء أو العكس معروف في اللغة) جماعة في دائرة وازرازات واسم قبيلة أيضا ذكرها القدماء.
أَعْرُوس : فخذ بالريف
أَمْزُوزه : جماعة بدائرة سطات
أَمْزُوضه : جماعة بدائرة ايمينتانون من عمالة مراكش
أَمْكُونة : قلعة باقليم وارزازات.
أَمْلُوسه : جماعة بدائرة أحياله من اقليم تطوان
أَرْفُود : احدى دوائر عمالة قصر السوق
أَكْنُومه : اسم مكان.
أَنْقُول : نوع من الرغيف

أَفْرُور : نوع من الخزف الاحمر.
أَقْرُور : خمّ الدجاج
أَغْرُوم : الرغيف ـ الخبز
أَمْرُوث : الارض
أَزْلوم : الحزام
أَكْسوم : اللحم
أَلْدُون : القصدير
أَفْرُوج : مدينة بعيدة عن مراكش (ذكرها صاحب الاستبصار.)
أَكْزوله : وتنطق أيضا (جزوله) جماعة بدائرة عبده من اقليم اسفي.
أَحْسُون : أولاد أحسون جماعة بدائرة الرحامنه من عمالة مراكش
أَرْحُود : جبل بجنوب المغرب الاقصى.
أَيْغُود أولاد موسى ـ جماعة بدائرة اليوسفية من اقليم اسفي
أَحْبُوط : الصدر
أَغْيُول : الحمار

لا شك أن هذه القائمة تعطينا فكرة على أن صيغة (أَفْعُول) منتشرة في البربرية بقطع النظر عمّا يمكن أن يكون عليه نطق الهمزة في بعض المناطق وهي كشقيقتها الحميرية تشمل أسماء الاعلام والقبائل والأماكن وما دام الامر هكذا فلا يمكن أن ندّعي أن هذه الصيغة ـ وبالكثرة المتوقعة انما كانت في البربرية من باب الصدفة.

2 ـ «ن» الحميرية:

تتميّز الحميرية ولغات اليمن القديمة عامة بأداة تعريف وهي عبارة عن «ن» تلحق آخر الكلمات وتسمى عادة النون الحميرية مثل:

رجلن، أَذْمُرن، أيْرَمَن، أفْيُوشَن بمعنى: الرجل الأذمور، الأيروم والافيوش.

وفي البربرية ما يشبه هذه النون كما في هذا المثال:

أزمورن التي وردت أيضا بلا نون «أزمور» وهي اسم مدينة بساحل المحيط الأطلسي.

وتوجد أسماء كثيرة مختومة بالنون، منها ما هو للقبائل والبطون مثل:

بنو يهراسن
بنو درجين
بنو ورتاجن
بنو يكشن
بنو مراسن
بنو يزناسن

ومنها ما هو للاماكن مثل:

تسردين

دفسين

ورجلان

تسردين

تيمغسين

فهذه النون ليست للجمع ولا علاقة لها بالنون التي رأيناها في جمع المذكر السالم، وهي من حيث طبيعة وجودها في آخر الكلمة ذات علامة بالنون الحميرية فمن الجائز أنها كانت للتعريف ولكنها تنوسيت وبقيت جزءاً من الكلمة.

3 ـ ما ذكره عثمان سعدي عند دراسته للابجدية التي يستعملها الطوارق المسماة (بالتيفيناغ) حيث توّصل الى وجود شبه بين حروف (التيفيناغ) وحروف أخرى منها الخط المسند الحميري فيقول: «فالرأي السائد لدى الكثير من الباحثين أن الابجدية التي يسميها الطوارق (التيفيناغ) ـ استعاروها من الابجدية الفينيقية ثم طرأ عليها مع الزمن الكثير من التبديل ولقد قمت بتحليل ـ ساعدني عليه الاستاذ يحيى كمال أستاذ اللغات القديمة في كلية آداب جامعة دمشق ـ فتوصلت الى وجود تطابق بين كثير من حروف أبجدية الطوارق (التيفيناغ) وبين حروف العديد من اللغات السامية من جهة ثانية»[41].

وحروف (التيفيناغ) التي تشبه حروف المسند الحميري هي: الألف، الزاي، اللام، الميم، الشين، التاء مأخوذة من الجدول الذي أعده الاستاذ يحيى كامل والذي اعتمده عثمان سعدي نورده فيما يلي على سبيل الاطلاع[42].

لكي يدرك القارىء بنفسه مدى العلاقة بين أبجدية (التيفيناغ) والابجديات الشرقية القديمة.

الحرف العربي	الحرف البربري	التفسير
ا	ı	يشبه السرياني واليعقوي والحميري
ب	B	يشبه اليوناني القديم
ج	Λ	
د	⊐	يشبه الفارسي القديم والفينيقي والارامي
ز	I	يشبه العربي الى حد ما
ي	Z	يشبه المسند الحميري والارامي واليوناني الى حد ما
ك	7I	يشبه الفينيقي والارامي واليوناني القديم والانباري والكندي والنبطي.
ل	II	يشبه النبطي الى حد ما
م	⊓	يشبه الحميري والانباري
ن	و	يشبه المسند الحميري
س	3	يشبه النبطي والسرياني والصفوي واللحياني
ق	⊃	يشبه اليوناني القديم والفينيقي
ش	\w	يشبه الارامي القديم والفينيقي والنبطي والسرياني والثمودي واللحياني.
ت	X	يشبه المصري القديم والفينيقي والحميري والارامي القديم والصفوي والثمودي واللحياني والحبشي والكنعاني. يشبه الفينيقي والحميري والارامي القديم والصفوي والثمودي واللحياني.
ط	H	يشبه الصفوي والثمودي.

4 ـ يضاف الى ما تقدم، النص الذي عثرت عليه في بعض المراجع القديمة والذي لم أجد من الباحثين من تعرض اليه وذكره، ويعد الى حد الان النص الوحيد الذي أشار الى وجود الخط الحميري بمنطقة شمال أفريقيا وأورده البكري في (المسالك والممالك) وصاحب (الاستبصار في عجائب الامصار) برواية لا تختلف عن الاولى الا في بعض الكلمات وهذا محتواه.

«وروى الثقات عن عبد الرحمان بن زياد بن أنعم قال: كنت وأنا غلام مع عمي بقرطاجنة نمشي في آثارها ونعتبر بعجائبها فاذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية: أنا عبد الله الأواش رسول الله صالح، وفي رواية معتّب: بعثني الى أهل هذه القرية أدعوهم الى الله آتيتهم ضحى قتلوني ظلما حسبهم الله»[43].

والمعروف أن هناك أحد الانبياء يسمى صالحا أدعى القحطانيون أنه منهم.

وبقطع النظر عن مضمون هذا النص، ولا يمكن التعويل عليه بمفرده للقول بوجود ثقافة حميرية ضمن التراث البربري ولكن يمكن أخذه بعين الاعتبار في الأدلة المتقدمة والمعلومات التي تضمنها هذا البحث.

5 ـ طريقة التأنيث:

تقدم لنا في المقارنة بين البربرية والعربية في حالة التأنيث أن هناك تشابها في الصورة اللفظية العامة بين البربرية والحميرية:

في الحميرية يقال:	**وفي البربرية يقال:**
تهامت (تهامة)	توات
ربيعت (ربيعة)	يطّفت
تكريت	تكرت

6 ـ التشابه الاجتماعي:

هذا الموضوع سأتطرق اليه بشكل موسع في فصل قادم وما أذكره هنا هو أن هناك مظاهر اجتماعية يتشابه فيها البربر مع سكان جنوب الجزيرة العربية.

من بين ما يذكره ابن خلدون عن عادات البربر وتقاليدهم أن «رؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق»[44].

وهذا ما لاحظه ابن بطوطه عندما زار جنوب الجزيرة العربية، فقد استغرب مما وجده في مدينة ظفار من مظاهر التشابه بين سكانها وبين البربر ومنها الرؤوس الحاسرة فقال:

«ومن الغرائب أن اهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شؤونهم»[45].

والكلمة الاخيرة تشير الى أن التشابه يشمل جوانب مختلفة من الحياة العامة، وقال: «نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم وهو عبسي كبير القدر، كريم النفس فكان له جوار مسميات بأسماء خدم المغرب احداهن اسمها بخيته والأخرى زاد المال... ولم أسمع هذه الاسماء في بلد سواها، أكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليهم العمائم»[46].

ويتابع ابن بطوطة كلامه فيقول: «وهذا التشابه كله مما يقوّي القول بأن صنهاجه وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير»[47].

7 ـ التشابه في فن العمارة:

وهذه من المسائل المثيرة للدهشة، فالتشابه ليس محدودا في مواضع معينة وانما هو ذو طابع شمولي حتى أننا نجده في الفن المعماري وهو آخر ما يتوقعه المرء ولا يكاد يخطر على باله.

فقد أكد بعض الباحثين على التشابه بين بناءات بربرية وما في اليمن من فن معماري ومظاهر معمارية.

وهذا «هان هلفرتس Hans Helfritz» الالماني يقول في هذا الموضوع:

«من اللافت للنظر أن توجد في مرتفعات الأطلس منطقة البربر الرئيسية بناءات مرتفعة تشبه تماما مثيلاتها في العربية الجنوبية ذات سمات معمارية واحدة»[48].

والواقع أن آثار الثقافة السبئية الحميرية ببلاد المغرب أوسع مما ذكر وأن بعضها سنتعرض له بصورة مستقلة.

الهوامش:

1 ـ مجلد ص: 171 .Encyclopaedia Universalis, Paris 1981

2 ـ **عروبة الجزائر عبر التاريخ** ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982 ص: 44.

3 ـ الحسن السائح: **الحضارية المغربية عبر التاريخ** ـ دار الثقافة ـ الدار البيضاء 1975 ج 1 ص 50.

4 ـ تأثير العربية في اللهجة الشلحية ـ **مجلة اللسان** عدد 2 ـ سنة 1965 ـ الرباط ـ ص: 32.

5 ـ ص: 126 ـ Rossler: Der Sermitische charakter libyschen in ZA, 50, Leipsig 1952 (السمات السامية في اللغة اللوبية).

6 ـ نقل هذا المقال عن عثمان سعدي: عروبة الجزائر... ص: 54.

7 ـ تأثير العربية في اللهجة... المصدر المذكور سابقا ص: 33.

8 ـ من مذكرات مدوّنة اثناء الدراسة: بجامعة القاهرة.

9 ـ حجازي محمد: **اللغة العربية عبر القرون** ـ سلسلة المكتبة الثقافية عدد 197 دار الكتاب العربي ـ مايو 1968 ـ القاهرة ص: 49

10 ـ د. عبد المنعم سيد عبد العال: جموع التصحيح والتكسير في اللغة العربية مكتبة الخانجي ـ القاهرة 1977 ص: 35.

11 ـ ابن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**.. دار الكتاب اللبناني بيروت 1959 ج 6 ص: 235.

(*) جاء في الخصائص لابن جني أن أحد الملوك ظفار قال لعربي لا يعرف الحميرية: ثِبْ، وثب بالحميرية اجلس، فوثب الرجل فاندقت رجلاه، فضحك الملك وقال ليست عندنا عَرَبِيَّتْ ـ ج 2 ص: 28.

12 ـ د. احمد عبد المجيد هريدي: الدراسة التي جاءت في تحقيقه لكتاب: **المذكر والمؤنث لابن التّستري الكاتب** ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة 1983 ص: 21.

13 ـ د. أنوليتمان: بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي ـ **مجلة كلية الآداب** ـ جامعة القاهرة، مج 10 الجزء الأول ـ ماي 1948 ص: 17.

14 ـ الثعالبي ابو منصور عبد الملك ـ **فقه اللغة** ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ بلا تاريخ ص: 142.

15 ـ د. أنوليتمان: بقايا اللهجات... المصدر السابق ص: 17.

16 ـ الخازن الشيخ نسيب وهبه: **من الساميين إلى العرب** ـ منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1962 ص: 88 و89.

17 ـ عروبة الجزائر... المصدر نفسه ص: 45.

18 ـ راجع فقرة «صيغة الفعل في المقارنة بين الأكّدية والبربرية».

19 ـ تأثير العربية في اللهجة الشلحية ـ مصدر سابق ص: 33.

20 ـ من مذكرات مدوّنة... المصدر المذكور سابقا.

21 ـ من مذكرات مدوّنة... المصدر نفسه.

22 ـ من مذكرات مدوّنة... المصدر نفسه.

(*) استخدمت صيغة (هفعل) في اللحيانية والسبئية واستخدمت (سفعل) في المعينية والحضرمية ـ والقتبانية والاوسانية.
واستخدمت صيغة (شفعل) في الاكدية والسريانية، أما صيغة (أفعل) **فهي معروفة** في العربية وبعض اللغات العربية الاخرى القديمة.

23 ـ تأثير العربية في اللهجة... المصدر المذكور سابقا ص: 33.

24 ـ **ايبلا ـ عبلاء الصخرة البيضاء** تأليف مجموعة من العلماء ـ ترجمة قاسم طوير دمشق 1984 ـ ص: 165.

25 ـ **التوراة ـ جاءت من جزيرة العرب**: ترجمة عفيف الرزاز ـ مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م. الطبعة الثانية بيروت 1986 ص: 124.

26 ـ **البلدان**: طبع بالنجف ـ بلا تاريخ ـ ص: 99.

(*) سلونش اليهودي Slonch ـ انظر **المعجم التاريخي** ص: 78 **وتطور الفكر واللغة في المغرب الحديث** ص: 33 لصاحبها عبد العزيز بنعبد الله.

27 ـ من مذكرات... المصدر المذكور سابقا.

28 ـ عروبة الجزائر... المصدر المذكور سابقا ص: 47.

29 ـ الثعالبي ابو منصور: **فقه اللغة** ـ المصدر المذكور سابقا ص: 165.

30 ـ الاصول العربية للبربر: **مجلة آفاق عربية** عدد 9 بغداد 1979 وفي (عروبة الجزائر عبر التاريخ) حذفت هذه الجملة (اخذت من نعت عربي) ص 53.

31 ـ **أساس البلاغة**: تحقيق الاستاذ عبد الرحيم محمود مادة (نزو) القاهرة 1953 ص: 454.

32 ـ الفيروزأبادي مجد الدين: **القاموس المحيط** مادة (ارض) المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ بلا تاريخ ـ ج 2 ص: 323.

33 ـ عروبة الجزائر... المصدر المذكور سابقا: 46 وما بعدها.

34 ـ تأثير العربية في اللهجة... المصدر المذكور سابقا ص: 33.

35 ـ 36 ـ 37 ـ 38 ـ 39 ـ تأثير العربية في اللهجة... المصدر المذكور سابقا ص: 33 و34.

40 ـ تأثير العربية في اللهجة... المصدر المذكور سابقا ص: 34.

41 ـ لسان اليمن، أبو محمد الحسن الهمداني: كتاب الاكليل حققه وعلّق عليه محمد بن علي الأكوع الحوالي ـ مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1967 ج 2 ص: 449.

41أ ـ عروبة الجزائر... المصدر المذكور سابقاً ص 41.

42 ـ عروبة الجزائر... المصدر المذكور سابقا ص: 42

43 ـ المسالك والممالك: **كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقيا** والمغرب ص: 45 لأبي عبيد الله البكري (1040–1094) الجزائر 1911 ـ الاستبصار في عجائب الامصار الكاتب مراكشي من القرن السادس الهجري (12م) تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد ـ الدار البيضاء 1985 ص: : 124 و125.

44 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 146.

45 ـ الرحلة: طبعة دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري بلا تاريخ ص: 174.

46 ـ الرحلة:.... المصدر نفسه ص: 174.

47 ـ الرحلة:.... المصدر نفسه ص: 174.

48 ـ Entdekungsreisen in Süd - Arabien
Auf unbekannen. wegen durch Hadramaut und Jemen(1933 und 1935) Dumont Buchverlag Köln 1977.

الأسماء ودلالتها

من المصادر الأساسية التي بات يعتمد عليها في مجال المعرفة والبحث، علم الأسماء سواء كان لأشخاص أو لقبائل أو لأماكن أو غير ذلك من المسميات باعتباره من الأدلة الواضحة لاثبات العلاقات الثقافية بين شعبين أو أكثر، ذلك أن الاسماء تعد مكونا أساسيا للمعجم اللغوي، فهي الى جانب أسلوب صياغتها وتركيبها ذات مضامين مختلفة يمكن للباحث أن يجد فيها من الدلالات والاشارات ما يساعده على التوصل الى معلومات جديدة.

والملاحظ أن الأسماء البربرية وخاصة القديمة منها لم تبحث ولم تقع مقارنتها بما في اللغات العربية القديمة، رغم ما لهذا الموضوع من أهمية في دراسة مسائل كثيرة، ومنها الهجرات وتنقل الجماعات البشرية.

وما نقوم به ليس الا عملا محدودا يفتقر الى امكانيات أكبر غير متاحة، لأن الالمام بهذا الموضوع يتطلب دراسة الاسماء القديمة في الجزيرة العربية ومناطق الهلال الخصيب وفي بعض بلدان شرقي أفريقيا مثل الحبشة والسودان وغيرهما وفي شمال أفريقيا عموما من البحر الاحمر الى المحيط الاطلسي، وهذا أمر لا يتيسر الاّ لمتخصص، لكن وكما يقول المثل: ما لا يدرك كله لا يترك جلّه.

ولذا وفي حدود الامكانيات أقتصر على جملة من الاسماء لها صلة بالواقع البربري لتحليلها وفحص مدلولها مثل:

البربر:

من الكلمات ذات الشأن في تاريخ منطقتنا المغربية كلمة «البربر» وقد اكتسبت قيمتها التاريخية منذ مجيء العرب المسلمين حيث صارت منذ ذلك الزمن علما مميزا يطلقه الناس جميعا على سكان شمال أفريقيا.

ورغم أهميتها وسعة مدلولها فليس لها أي مضمون عرقي مثل ما لبعض الكلمات الاخرى كالفرس والترك والأكراد. والجهة التي حاولت أن تجعل لهذه الكلمة مدلولا يشبه المدلول العرقي، هي المدرسة التاريخية الاستعمارية التي سعت من وراء اعمالها الثقافية الى بث التفرقة وزرع روح الانقسام في أبناء المنطقة، وما تزال تأثيرات هذه المدرسة معششة في عدد من المثقفين من سياسيين وجامعيين وصحافيين وحقوقيين ورجال تعليم تغذي فيهم روح الاقليمية والعداء للقضايا الوطنية والجماهيرية كالوحدة والتعريب مثلا.

هذه الكلمة ذات الأهمية التاريخية فمن أين مأتاها؟

من الشرق أم من الغرب؟

الشائع عن كتاب الغرب أنها مشتقة من الكلمة اللاتينية Barbarus التي كانت تطلق على الأجانب والشعوب الأقل حضارة والتي ما تزال في حالة من البدائية والتوحش مثل جرمانيا وغاليا القديمتين، وأن الرومان كانوا ينعتون بها سكان المغرب العربي في القديم بصفتهم همجا لم يرقوا بعد الى درجة من النضج والانضباط الاجتماعي.

وحسب هذه المصادر فان كلمة (Barbarus) لاتينية الأصل.

ولكن مصادر أخرى تؤكد أنّ أصلها اغريقي، وأن جذرها الذي تنتمي اليه في اليونانية القديمة هو كلمة (Varrar) وهي على هذه الصورة Bapbapoc وتنطق Vawaros (فرفروس).

وكان اليونانيون يطلقون كلمة (بربارBarbare) على كل الشعوب الأجنبية غير الهيلينية في مستوى اللغة والدين ونظام الحكم، وبصفة خاصة على الميديين والفرس بل وحتى على الرومان في فترة لاحقة، ومن معانيها أيضا عندهم أنها تطلق:

1 ـ على اللغة الغامضة غير المفهومة.

2 ـ وعلى غير المتحضر والفظ والخشن والطاغية.

فالثابت أن الاغريقيين القدماء لم يستعملوا مطلقا هذه الكلمة بصفتها علما على الشعب المغربي في ذلك التاريخ بل استعملوا أسماء أخرى ومنها (لوبيا) كما هو معروف وقد سبق ذكر ذلك في غضون هذا البحث.

وعن الاغريق أخذ الرومان هذه الكلمة فأطلقوها أولاً على سائر الشعوب والطوائف التي ليست يونانية ولا رومانية، ثم ضيق في مدلولها نسبيا تمشيا مع سياسة الادماج والرومنة، فصارت لا تطلق على من نال من الأفراد والجماعات الاجنبية حقوق المواطنة الرومانية، ومن الكلمات المستعملة في العهد الامبراطوري «بربار يكوم»[2]. أي بلاد البربر كما أن الرومان كانوا يصفون السكان المهادنين لهم والقاطنين باحدى الولايات الرومانية بكلمة «بربار يسيني» وتعني (البرابرة) اللطفاء أي المرضيّ عنهم سياسيا»[3].

وكما لاحظنا بالنسبة لاستعمال كلمة (بربار) في اليونانية وكذلك في اللاتينية، وسواء

أطلقت على من هم في حالة من البدائية والتوحش أو على مطلق الطوائف الاجنبية، فانها لم تتخذ أبدا علما على سكان المغرب العربي القديم.

ويتأكد هذا من أن الرومان ابّان احتلالهم لهذه المنطقة الذي دام قرابة ستة قرون (146 ق.م ـ 430م) لم تتسمّ في عهدهم الا بحسب التقسيمات الادارية السياسية(*). وبعض التسميات الأخرى العارضة، وكذلك الشأن في العهد البيزنطي (533–642م).

والجدير بالذكر هو أن كلمة (بربر) وردت في الفارسية أيضاً. وقد جاءت فيها بمعنى التطابق والمماثلة[4]. وبمعان أخرى.

ووجود كلمة (بربر) في اليونانية القديمة وفي اللاتينية والفارسية دليل على انتشارها انتشاراً واسعاً خارج البيئة العربية، وهذا يستدعي البحث في الواقع اللغوي والثقافي لهذه البيئة لمعرفة أصول هذه الكلمة ومدلولاتها.

أولاً ـ الانتشار الجغرافي لكلمة «بربر»:

المعلومات المتوفرة حول هذه الكلمة من الناحية الجغرافية، تبيّن أنها منتشرة في جنوب الجزيرة العربية وما جاورها من المناطق الافريقية من الصومال حتى مصر كما تدل على ذلك أسماء الأماكن التالية:

ـ بربرة:

بلاد بين الحبشة والزنج تقع على ساحل البحر المتصل باليمن، ذكرها المسعودي[5] والهمداني وعنه أخذ الحموي[6].

وتقول دائرة المعارف الاسلامية ان اسم هذه البلاد مأخوذ من اسم أهلها الذين يطلق عليهم بربراً وبرابر[7].

وعندما تحدّث ابن بطوطة عن زيارته لمدينة (زيلع) بالسودان ذكر أنها «مدينة البرابرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين أولها (زيلع) وآخرها مقديشو»[8].

ويضيف «وسلطان مقديشو كما ذكرنا انما يقولون له الشيخ واسمه أبوبكر وهو في الأصل من البرابرة وكلامه بالمقديشو ويعرف اللسان العربي»[9].

وما ذكره ابن بطوطة يتطابق تقريباً مع ما ذكرته المصادر الأخرى. وان حديثه عن أهل هذه المنطقة بأنهم برابرة، ذلك دليل على ما أدركه من أوجه شبه بينهم وبين البربر ببلاد المغرب وكون كلامهم بالمقديشو، يعني أنهم يتكلمون بلهجة معينة لها من الاختلاف ما للمزابية، والقبائلية والشاوية والشلحية وغير ذلك.

فهي من حيث الانتماء العام بربرية الأصل، وفي كلام صاحب القاموس ما يشير إلى ذلك اذ يقول: «وبربر جيل من البرابرة وهم بالمغرب وأمة أخرى بين الحبوش والزنج»[10].

ـ بحر بربرة:

تذكره: دائرة المعارف الاسلامية بهذا الاسم[11] ويسميه المسعودي «الخليج[12] البربري» وهو خليج عدن وسمي بذلك لاتصاله ببلاد بربره «والعمانيون... اذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بين ما ذكرنا من الأمواج ترفعهم وتخفضهم فيرتجزون ويقولون[13]:

بربري وجفوني ومَوجك المجنون
جفوني وبربري وموجها كما ترى

ـ بربر:

مدينة في الصومال، كانت بمثابة العاصمة في عهد الانكليز تقع على الخليج البربري أو خليج عدن.

ـ جزيرة بربري:

ضبط نطقها وكتابتها أبو عبيد البكري[14] وهو يعتبرها جزيرة في بلاد الحبشة، ذكرها الهمداني[15] وعنه أخذ الحموي ومن حيث الموقع الجغرافي «قاطعة من حد سوال اليمن ملتحقة في البحر بعدن»[16] وهذه الجزيرة عرفت أيضاً في القديم بـ(سقطرى) وما تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم، وبها بقايا بعض اللهجات من عربية الجنوب القديمة كالامهرية المعروفة حالياً في الحبشة.

ـ بربر:

اقليم قبلي باحدى مديريات السودان مشهور بكثرة (شجرة الدوم). وهو شجر المقل ـ وقاعدته تسمى أيضاً (بربر) وهذا الاقليم كان يطلق على الناحية التي كانت تقطنها قبيلة (ميرقاب) وهي قبيلة عربية اللهجة على ضفتي النيل من الشلال الخامس إلى بلاد عطبراء ومعظمهم في بلاد النوبة والصومال»[17].

وادي البربر:

يوجد باحدى نواحي النيل، ذكره علال الفاسي حيث قال: «ومن المعروف أنه يوجد في شعب النيل واد يسمى بوادي البربر»[18].

سوق بربر:

وهي سوق كانت توجد بالفسطاط بمصر[19].

ومن الملاحظ أن ورود هذه المجموعة من الأسماء في جنوب الجزيرة العربية وفي المناطق الافريقية الواقعة غربها دليل على أنّ واقعاً بشرياً كان منتشراً في هذه المناطق يطلق عليه: البربر أو البرابرة، ولذلك سميت بعض المناطق والأماكن باسمهم.

وهذا الواقع البشري هو الذي جعل، رينان الفرنسي يقول:

«ان عائلة من الشعوب الناطقة بالبربرية كانت تمتد من مصر وحتى من البحر الأحمر إلى السينغال، ومن المتوسط إلى النيجيريا»[20].

والعلاقة بين المكان ومن يحل به من الجماعات البشرية مكينة ـ كما هو معروف ـ ولذا سميت عشائر وقبائل كثيرة بأسماء الأماكن التي تحل بها وكذلك العكس فهناك على سبيل المثال:

بهراء: فهي اسم لقبيلة ولموضع.

تباله: اسم لقبيلة وموضع.

وهذا الارتباط بين الواقع الجغرافي ومن يعيشون عليه دليل قاطع على عراقة كلمة (بربر) وعلى أنها نبتة شرقية صميمة.

ثانياً ـ كلمة «بربر» في الحقل اللغوي:

من الملفت للنظر ـ ونحن نتصفّح كتب اللغة من معاجم وغيرها ـ أنّ هذه الكلمة كانت في القديم مستعملة استعمالاً واسعاً ولها دلالات كثيرة. ولنا في الحوصلة التالية خير دليل على ذلك:

بَـرْبَـرَ:

بصيغة الفعل، يقال: (بَرْبَرَ التيس للهياج: نبّ)[21] ونبّ أي صاح عند الهياج. وفي عاميتنا نقول: لَبْلَبَ.

ويقال: (بربر في كلامه بربرة اذا أكثر)[22].

ويقال: (بربر الرجل اذا هذي، فهو بربار)[23] أي تكلّم بشكل بدا معه كما لو كان يهذي. ومن هذا القبيل حديث أُحِد «فأخذ اللواء غلام أسود فنصبه وبَرْبَرَ»[24] وكذلك قولهم: «بربر فهو بربار مثل ثرثر فهو ثرثار»[25].

وذكر حسن الوزان أنّ بعضهم يرى أنّ (الفعل العربي بَرْبَرَ بمعنى همس) ومنه اشتقت كلمة البربر لكون «اللهجة الافريقية كانت عند العرب بمثابة أصوات الحيوانات العجماوات»[26].

تَبَرْبَرَ:

فعل رباعي مزيد، ورد بمعنى كثر وازداد، ويستخلص هذا من النص المتعلق بقدوم وفد من برابرة لواته على عمر بن الخطاب. جاء فيه أنّ بربر بن قيس «خرج إلى البراري فكثر نسله وولده، فكانت العرب تقول تبربروا أي كثروا»[26أ].

ومن معانيها التوغل في البراري والتوحش فيقال:

«تبربر: لحق بالقوم فتوحش»[27].

ونجد هذين المعنيين في الفعل الثلاثي المزيد، فمن ذلك قولهم: «أبرّ الرجل كثر ولده» و«أبرّ القوم كثروا»[28].

وجاء في القاموس المحيط: «أبرّ: ركب البرّ وكثر ولده والقوم كثروا وعليهم غلبهم»[29].

ومن ذلك أيضاً قولهم: «بربرّ أي توحش في البراري فسموا بربرا»[30].

وذكر حسن الوازن أن البعض يرى «أن بَرْبَرَ مكرور «البرّ» الذي هو الصحراء باللغة العربية»[31] ويورد قصة افريقش التقليدية نقتطف منها «ولما وجد نفسه مطارداً عاجزاً عن مقاومة العدو، استشار قومه في أي سبيل يسلكونه للنجاة فأجابوه صارخين البربر أي الصحراء»[32].

وسواء كان الفعل هنا ثلاثياً مضعفاً مكروراً أو رباعياً مجرداً، فهما سيان من حيث المعنى، ونلاحظ في المعاني الواردة أن هناك ترابطاً بين التوغل في البراري وتكاثر النسل وهذا شكل من أشكال التوزع البشري في المراحل القديمة ما تزال الكلمات المتحفظ بها في المعاجم تشير اليه.

بربر:

اسم لشخص: نجده متداولاً لدى النسابين والاخباريين، وبقطع النظر عن صحة معلوماتهم أو بطلانها فان ذلك لا ينفي وجود هذا الاسم في الثقافة العربية القديمة وفي القبائل الكنعانية وغيرها.

البَرْبَرَة:

مصدر قياسي وردت بهذه المعاني:

ـ «الصوت وكلام في غضب»[33].

ـ «كثرة الكلام والجلبة باللسان ـ قيل الصياح»[34].

ـ «التخليط في الكلام مع غضب ونفور»[35].

ومن هذا القبيل حديث علي بن أبي طالب «ولما طلب اليه أهل الطائف أن يكتب لهم الأمان على تحليل الزنا والخمر فامتنع: «قاموا ولهم تغذمر وبربرة»[36] والتغذمر هنا: الغضب واختلاط الكلام.

ـ «صوت المعز»[37].
البِرْبَار: سواء باعتباره اسماً أو مصدراً للمضعف المفتوح الأول فيقال:
ـ رجل بِربار اذا كان كثير الكلام والجلبة باللسان[38].
ـ «دلو بِربار: لها صوت» وفي تاج العروس «دلو بِربار لها في الماء بربرة أي صوت في الماء»[39] ومنه هذا البيت الذي ينسب لرؤبه:

أروي بِبِربارين في العظمات إفراغ ثجاجين في الأغواط

ـ **البربار**... الأسد لبربرته وجلبته ونفوره وغضبه»[40].
ـ **المُبربر**: بصيغة اسم الفاعل: الأسد.
وفي القاموس (البِربار والمُبربر: الأسد)[41].
ـ **البُرْبُر**: (بالضم الكثير الأصوات وبالكسر دعاء الغنم)[42].
ـ **البربري**: الياء للنسبة: قال الفراء: (البربري: الكثير الكلام بلا منفعة ـ بربر في كلامه بربرة اذا أكثر)[43] ولهذا علاقة بمعنى الثرثرة السالفة الذكر.
ـ **الْبَرْبَرُ ـ الْبَرَابِرَة**: اسم لجيل من الناس، يطلق على المجموعات التالية:

1 ـ بربر بلاد المغرب العربي الذين عرفوا أكثر من غيرهم بهذا الاسم.
2 ـ المجموعة التي تحدث عنها القدامى والتي كانت موجودة على حد تعبير صاحب القاموس (بين الحبوش والزنج)[44].

ويعتبرها وبربر بلاد المغرب من نسل واحد ينحدر من ولد قيس بن عيلان، وذكر ابن بطوطة هذه المجموعة على أنها «طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين»[45].

3 ـ المجموعة الموجودة في العراق وهي «بطن من (الدغمان) من (الروله) من (مسلم) من (عنزه) أكبر قبائل العرب في وقتنا الحاضر»[46] وتسمى (البرابرة)[47].

ومن الطريف أن أشير أنّ (الروله) بطن من (جلاس) وهذه فرع من (قبائل مسلم) العربية[48]. وبهذه نعرف أن اسم قبيلة (جلاص) عندنا هو أيضاً اسم عربي بقطع النظر عن النطق الذي يغلّب الصاد هنا والسين هنالك.

ويقال للجماعة (برابر) و(برابره) والهاء هنا للنسبة، ويمكن الاستغناء عنها ولا داعي لاعتبارها للعجمة طالما أنّ قضية العجمة في مثل هذا الموضوع لا قيمة لها.

• • •

ماذا نستخلص من هذا الزخم في الاستعمال اللغوي المتنوع لمادة (بربر)؟ انه دليل قاطع على اصالتها وعلى انها نابعة من صميم البيئة الثقافية العربية، وهو ما يجعلنا نلاحظ أنّ العربية وان كانت تفتقر إلى معجم تاريخي لمفرداتها الا أنّ غالبية ما تمتلكه منها قديماً، اذ تشترك فيه مع اللغات العربية القديمة المندثرة كالأكدية والكنعانية والآرمية والحميرية

وغيرها، ومن بين هذه المفردات كلمة (بربر) والدليل على قدمها:

1 ـ وجودها في العبرية[49] التي هي لهجة متفرعة عن الكنعانية دوّن بها التوراة في ما بين القرن السادس والخامس قبل الميلاد.

2 ـ استعمالها استعمالاً واسعاً في أغراض شتّى.

3 ـ المستوى الحضاري الذي تنتسب اليه مجموع الكلمات السابقة باعتبارها جزءاً من واقعه اللغوي والثقافي معبرة عن بعض الجوانب فيه.

وواضح من دلالة هذه الكلمات ومن معطياتها الثقافية أنها تنتمي إلى مجتمع بدوي ـ قبلي ـ كما تدل على ذلك أشياؤه المادية: تيس ـ دلو ـ أسد وهو ما يعكس جانباً من طباع هذا المجتمع وسلوكه العام من مثل ما عرف به من تصرف تغلب عليه الجلبة واللغط والغضب، يضاف إلى هذا أن كلمة (بربر) تجمع في احد معانيها بين التوغّل في البراري أي الصحاري وبين تكاثر النسل.

وفي هذا اشارة إلى ما حدث من توزّع بشري في مرحلة من مراحل المجتمع البدوي حيث تفضي جملة من الأوضاع والتطورات إلى انشطار القبائل، وتوزعها في البراري وأغوار الصحاري.

4 ـ الترابط اللغوي ـ اللفظي: وهو ترابط معروف في العربية وخاصة في الفعل المضاعف، حيث تنشأ في مستوى اللفظ (والمعنى أحياناً) كلمات من كلمات أخرى فمن صلّ، عجّ، رقّ، حثّ مثلاً نشأت صلصل، عجعج، رقرق، حثحث، ويسميها الصرفيون رباعياً مضاعفاً مجرداً.

ويعتبر أبو اسحاق الزجاج هذا النوع من الأفعال المكروه الفاء واللام وما يماثلها من مثل: قَرِق وقَرْقَر وسلِس وسَلْسَل، وقَلِقٌ، وقَلْقَلَ من أصل ثلاثي ووزنها الصرفي (فعفل)[50].

ومن هذا القبيل «تَكَمْكَمَ من الكُمّة» وكذلك «عين ثرّة وثرثارة»[51].

وهذا الباب من تداخل الأصول في اللغة يعتبره ابن جنّي من قبيل «تزاحم الرباعي مع الثلاثي»[52].

ويندرج ضمن هذه الأفعال فعل (برّ) الذي هو من الأفعال العربية القديمة، ومنه نشأت كلمة (بربر) المرتبطة به لفظاً ومعنى أيضاً كما في قولنا «أبّر القوم وتبربروا: أي كثروا وزادوا» (أبرّ: مزيد ثلاثي ـ تبربروا: مزيد رباعي) فالكلمتان (بر) و(بربر) هما أيضاً متزاحمتان ويدخلان ضمن قواعد الخلق اللغوي ومنطقه الخاص.

وهكذا وفي كل ما تقدّم نجد فعلاً ما يقطع بأن كلمة (بربر) من صلب البيئة العربية الصحراوية القديمة ومن إنتاجها الثقافي بكل تأكيد ولذا ـ وجدناها شائعة في أقوال الجاهلين واشعارهم من ذلك قول أمرىء القيس[53]:

على لاحب لا يهتدي بمناره * اذا سافه العود النباطي جرجرا[*]

على كل مقصوص الذّناب معاود * يريد السرى بالليل من خيل بربرا

وقول علقمة بن ذي جدن[53أ]:

ولبيس كانت في ذؤابة ناعط * يجبي اليها الخرج صاحب بربر

وقول مرداس بن أبي عامر[53ب]:

تداعت عليّ بنو بكر كأنها * تداعت عليّ بالأحزّة بربرُ

وقول عدي بن زيد العيادي[54]:

ويوما ينادون آل بربر * واليكسوم لا يُفْلَحَنّ هاربها

وأورد الهمداني قصيدة لبعض آل سعد بن ملكيكرب تُبع يذكرها فيها منازل من خرج من اليمن إلى سائر أنحاء الجزيرة العربية وغيرها[55].

ومن منّا بأرض الغرب جند تعلّقوا * الى بربر حتى أتوا أرض بربر

ثالثاً ـ اطلاق كلمة (بربر) على جيل من الناس:

ومن هنا يمكن للمرء أن يتساءل عن الأسباب التي أدت إلى اطلاق لفظة «البربر» على جيل من الناس منذ زمن بعيد؟ وهل لذلك علاقة بما لهذه الكلمة من مدلولات لغوية متنوعة؟

النسابون والمؤرخون تناولوا هذا الموضوع، وقالوا في تعليلاتهم انّ البربر سمّوا (بربرا):

1 ـ لأنه قيل لهم: «ما أكثر بربرتكم»[56] والبربرة هنا تعني الجلبة والرطانة واختلاط الأصوات، ومنه قول بعضهم:

بربرت كنعان لمّا سقتها * من أرض الهلك للعيش العجب

2 ـ لكثرة كلامهم ولأنهم قبائل شتّى، وعندما تلاقوا بالشام لغطوا[57].

3 ـ لكثرة نسلهم[58]:

4 ـ لتوغّلهم في البراري: وأنّ البربر (مكرور البرّ الذي هو الصحراء)[59].

وواضح من هذه التعليلات أنها مرتكزة كلها على المعاني اللغوية التي رأيناها سابقاً، وهذا ما نجده بكل جلاء عند ابن خلدون الذي قال:

«ولغتهم من الرطانة والأعجمية متميزة بنوعها، وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم»[60]. وأضاف «البربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة، ومنه يقال بربر الأسد اذ زأر بأصوات غير مفهومة»[61].

ونجد عند محمد الفاسي ما يشبه هذا الرأي اذ قال: «وقد أطلق عليهم العرب اسم بربر»[62] وأردف أن العرب عند مجيئهم «وجدوا شعوباً تتكلم لغة غير معروفة عندهم فقالوا عنهم انهم يبربرون أي يكثرون الكلام بلا معنى، وقالوا عنهم يهدرون أي يخرجون أصواتاً بدون معنى، وقد كثر استعمال هذا اللفظ (الهدرة) في اللغة العامية المغربية بمعنى تكلّم»[63].

والناطقون بالعربية الفصحى كانوا يعتبرون كلام غيرهم كلاماً أعجمياً حتّى ولو كانوا عرباً مثلهم، ولذا وصفوا لغة حمير العربية الأصل بأنها لغة «طُمْطمانية»[64]. أي بمعنى ذات عجمة، وهناك فروع كثيرة ومناطق متعددة وصف بعضها بأنهم «ليسوا بفصحاء»[65] ووصفت لغة البعض الآخر بأنها «وسط والى اللُّكنة أقرب»[66] أو بأنّ أصحابها «من متوسط بين الفصاحة واللكنة»[67] ووصف الهمداني لغة مناطق عديدة بالغُتْم (وهي العجمة في النطق وعدم الافصاح) وقال عن (مَهْره) بأنهم «غُتْمٌ يشاكلون العجم»[68] وهناك من «في لغتهم تعقيد»[69] وهي حالات أخرى تقل فيها الفصاحة بدرجات متفاوتة.

واذا كان هذا شأن العرب مع الحميرية والجنوبيين عامة فلا غرابة حينئذ أن توصف لغة البربرة بالبربرة للسبب نفسه ففيها مثل الحميرية ولغة الجنوبيين عامة لكنة وغُتْم وتعقيد. وابن خلدون وضّح لنا هذا وبيّن سبب التسمية بالاستناد إلى المعنى اللغوي أي أن البربر سموا بذلك لما في لغتهم من عجمة، والعجمة هنا متأتية من اختلاط غير مفهوم في الأصوات ومن عمليات لغوية أخرى الأمر الذي يضفي إلى ما يشبه البربرة وقال اللغوي والنحوي أبو عمر، اسحاق الشيباني «أعجمت: أبهمت» وقال: «العجمي مبهم الكلام لا يتبيّن كلامه»[70].

والتعليلات التي قدمها المؤرخون والنسابون اعتماداً على المدلول اللغوي تتجسم تماماً مع حقائق الواقع وتطور الأوضاع في الجزيرة العربية قديماً، فالتنوّع اللغوي الكبير الذي عرفت به منذ ما قبل الميلاد بزمن طويل سببه انقسام القبائل وتوزّعها بالتوالي إلى فصائل كثيرة وعيشها بعيداً عن بعضها بحكم العزلة والهجرة إلى أماكن نائية، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى الاختلافات اللغوية وبروز لهجات جديدة تكون بالطبع غير مفهومة بالنسبة لغير المتكلمين بها. وهذا ما أشارت اليه (تماضر) عندما قالت في أخيها برّ بن قيس على حد زعم بعض الاخباريين الذين يعدونه جد البربر[71].

وشطّت ببرّ داره عن بلادنا وطوّح برّ نفسه حيث يمّما
وأرزت ببرّ لكنة أعجمية وما كان برّ في الحجاز بأعجما

وهكذا نتوصّل إلى أن كلمة (البربر) وقع اطلاقها على جيل من الناس لصلتها الوثقى بالمدلول اللغوي الأصلي، وأنّ المؤرخين المسلمين هم الذين أشاعوها على نطاق واسع بصفتها علماً، ومن هنا تتجلّى فجاجة الرأي الذي يقول بأنّ أصل هذه الكلمة يوناني أو لاتيني وهو رأي أشاعته المدرسة التاريخية الاستعمارية وتلقّفه الآخرون واقتنعوا به دونما تثبّت أو اطلاع عمّا حوته مصادرنا من معلومات.

فلو كان زعم هذه المدرسة صحيحاً لما أهمله المؤرخون على كثرتهم وتنوع مشاربهم. وكان الواجب يقتضي ان تبحث هذه الكلمة في المصادر العربية من تاريخية ولغوية وغيرهما وأن يقارن ذلك بما في اليونانية واللاتينية، وعندها يكون للحكم معنى وللرأي

المتخذ قيمة، لكن ما وجدناه بكل أسف هو الاعراض التام على القيام بذلك البحث ولا نعرف أحداً قام به وما هذا الاعراض الا جزء من ذلك الاعراض الذي غرسته المدرسة التاريخية الاستعمارية وغيرها من الوسائل الأخرى تجاه قضايانا وتراثنا وكل ما هو عربي عامة.

والغريب في الأمر أن ابن خلدون كان واضحاً في هذه المسألة الاّ أن رأيه قوبل بالاهمال، واذا كان هذا له ما يبرره بالنسبة للمدرسة التاريخية الاستعمارية فما هو المبرر بالنسبة لغيرهم وخاصة أبناء المنطقة؟

لقد قطع ابن خلدون بأن أصل تسمية البربر راجع إلى ما في لغتهم من رطانة وعجمة ولذا قال «وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم» وهذه هي البربرة بعينها التي قال عنها «هي اختلاط الأصوات غير المفهومة».

ثم ان كلمة (بربر) استعملت استعمالاً واسعاً ومتنوعاً مما يشهد بأصالتها ويدحض اعتبارها من الكلمات الدخيلة كذلك فان هذه الكلمات: البرّ، البراري، البربرة، المبربر، وغيرها توحي بكل وضوح أنها من جو صحراوي ومن بيئة بدوية قبلية فيها ولدت وعنها عبّرت.

وما نلاحظه في هذا السياق هو ان كلمة «بربر» لم ترد في العربية بمعنى الهمجية والامتهان الجنسي والعنصري، ولذلك استعملت من الجميع ومن البربر أنفسهم فلو كان فيها شيء من تلك المعاني لاستنكف من استعمالها ولعزف عن ذكرها الكثير من المؤرخين والعلماء، ان هذه المعاني نجدها فقط في لفظة «بربار Barbarus» اليونانية واللاتينية.

واذا كانت كلمة (بربر) عربية لحماً ودماً فبماذا نعلل وجودها في اليونانية واللاتينية (التي أخذتها عن اليونانية) والفارسية؟

من المعلوم أن كلمات كثيرة تتشابه في بعض اللغات وان هذا التشابه ينشأ بينها اتفاقاً، ولكن في ما يخص كلمة (بربر) أرجّح بل أكاد أجزم أنها أخذت من العربية وذلك للأسباب التالية:

1 ـ أن هذه اللغات حديثة نسبياً وأن التطور اللغوي الذي عرفته اليونانية واللاتينية لم يكن ذا أهمية الا في الألف الأولى قبل الميلاد، وتقدّم لنا أن كلمة (بربر) موجودة في العبرية وهذه أقدم من اليونانية واللاتينية كما هو معروف حالياً والعبرية لهجة كنعانية وهذه لغة عربية قديمة.

2 ـ ان الحضارة الشرقية قديمة جداً وأن مكتسباتها في الفلاحة وتربية الحيوانات وفي الكتابة ذات الحروف الأبجدية وغيرها انتقلت إلى الغرب وكانت الأصول الأولى لأقدم حضارتهم وهذا الانتقال للخبرات والمعارف والتقنيات والمنتوجات المادية صاحبه أيضاً انتقال لغوي، وبدأ علماء الغرب يعترفون بهذا ومنهم (هيلير) الذي تقدم ذكره ورأيه.

3 ـ ان اللغات (الهندو ـ أوربية) التي منها اليونانية واللاتينية هي مجموعة أحدث من المجموعة اللغوية العربية المسماة بالسامية وأن هذه الأخيرة قديمة جداً بما لا نجد له نظيراً في المجموعات اللغوية الأخرى اذ هي تعود بما لا يدع مجالاً للشك إلى العصر الحجري الحديث بل وحتّى إلى ما قبله كالعصر الحجري الأعلى، وهما عصران موغلان في القدم اذا ما قيسا بنظائرهما في المناطق الأخرى.

ووجد العلماء طائفة من المفردات المشتركة بين المجموعتين: العربية القديمة والهندوأوربية الآرية وكذلك نقاط أخرى مما جعل البعض يفترض «وجود عائلة لغوية أكبر تضم هاتين العائلتين أطلقوا عليها اسم (الآرية ـ السامية) بيد أن هذه فرضية لا يقرّها جمهور الباحثين»[72].

لكن الشيء الثابت وجود مفردات مشتركة بين المجموعتين، ولا شك أنّ تأثير المجموعة العربية أقدم وأسبق من ذلك مثلاً كلمتا الأب والأم لفظتان عربيان قديمتان وان تاريخ ظهورهما يرتبط أساساً بالتحوّل الاجتماعي والثقافي اللذين عرفتها المنطقة عموماً في العصر الحجري الحديث ومن أبرز سمات هذا التحول ظهور أسرة الأب لأول مرة في تاريخ المجتمعات البشرية، وهذه في منطقة الشرق العربي أقدم منها في أية منطقة أخرى على صعيد المعمورة.

وانتقلت كلمتا الأب والأم ضمن نتاج متنوع من الخبرات إلى المجموعة الهندية ـ الأوربية الآرية وغيرها.

4 ـ لقد تمكّن العلماء من التعرف حتى الآن على عدد من المفردات القديمة دخلت إلى اللغة الانكليزية وبعض اللغات الأوربية عن طريق اليونانية، وتبيّن بالبحث اللغوي المقارن أن هذه الكلمات أخذتها اليونانية من اللغات العراقية القديمة[73] مثل:

الكلمات العراقية	في الانكليزية
كحل (الغول، الكحول)	Alcohol
مشكين (فقير)	Meschino
كرش (كرز)	Cherry
لدن (الاذن)	Ladanun

واذا انتقلنا إلى اللغة الكنعانية فسنجد أن الأمر يكتسي أهمية أكبر اذ هي اللغة العربية القديمة التي اشعّت على حوض البحر الأبيض المتوسط فنقل أبناؤها (الفنيقيون) الكتابة إلى أوربا والكثير من مكتسبات الشرق وثقافته.

وخلاصة ما تقدّم، فان من ضمن ما انتقل من الكلمات إلى اليونانية بالذات (وهي

أقدم من اللاتينية في الاتصال بحضارة الشرق) كلمة «بربر» ومنها إلى اللاتينية واللغات الأوربية الأخرى.

والملاحظ ان اليونانية وان توسعت في استعمال هذه الكلمة وأضافت اليها أغراضاً أخرى جديدة، فانها ظلّت محتفظة بمعناها الأصلي المعروف في العربية وهو الغموض وعدم الافصاح وما يشبه العجمي عندنا.

4 ـ يضاف إلى هذا ان الاخباريين والنسابين والمؤرخين المسلمين عامة عندما تحدثوا عن البربر تحدثوا على أنهم كانوا مجموعة منتشرة بالشام تسمّى بهذا الاسم وأنهم تحت وقع أحداث معينة انتقلوا إلى بلاد المغرب واستوطنوه.

فقال ابن عبد الحكم:

«وكان البربر بفلسطين وكان ملكهم جالوت فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجهين إلى المغرب»[73أ].

ومما رواه عبيد بن شرية (من صنعاء حسب ابن النديم) عن الملك الحميري افريقيس بن ابرهه من انه غزا المغرب ونقل «البربر من بلادهم فلسطين إلى مصر، إلى الساحل»[73ب].

وهذا أيضاً من شأنه أن يفنّد مزاعم القائلين بأن كلمة «بربر» أصلها يوناني أو لاتيني.

«وهكذا نصل إلى أن كلمة «بربر» من أكثر الكلمات دلالة على أصالة الانتماء الشرقي للبربر».

أمازيغ:

من الاسماء ذات الشأن أيضاً في تاريخ البربر اسم (أمازيغ) مؤنثه (تمازيغت) وجمعه (أمازيغن).

وهو من الأسماء القديمة جداً المعروفة في العهد الفينيقي فقد ذكره هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد[74].

وورد في المصادر الكلاسيكية من يونانية ولاتينية بصيغ متعددة منها (مازيس) والتحريف الطارىء عليها ناجم من ناحية عن صعوبة النطق بكلمة (أمازيغ) في حد ذاتها، وناجم من ناحية ثانية عمّا يوجد بين اللغات في حالات النقل ـ من اختلاف في أصل الأصوات، وهو أمر يصعب تفاديه لدى تلك الجماعات الأوربية القديمة من اغريق ولاتين وغيرهما حتى أننا نجد الكاتب الروماني القديم «فلينوس» يقول في هذا الموضوع:

«يتعذر على حناجر غير حناجر البربر أن تستطيع النطق بأسماء قبائلهم ومدنهم»[75].

ومثل هذا التحريف كثيراً ما يؤدي إلى تغيير أساسي في الكلمات المنقولة الشيء الذي يجب أن نحتاط له حتى لا نقع في الأخطاء والتصورات الوهمية.

ونجد في النتف الاخبارية أن «مازيس» كان يطلق على شعب قويّ أقلق الرومان كثيراً بثوراته»[76].

وحسبما تذكر المصادر البيزنطية فانه كان «يطلق على أهل أفريقية»[77].

ومن المعاصرين الذين تعرضوا إلى هذا الاسم المؤرخ جوليان الذي قال: «وقد أطلق هذا الاسم على قبائل عديدة قبيل الاحتلال الروماني»[78].

وعالم البربريات «روسلر» الذي قال (والجدير بالملاحظة أننا نعرف من المكتشفات الحديثة ان اللوبيين كانوا يطلقون على أنفسهم أمازيغ المعروف عند اللاتنيين (Mázáx)[79].

وبالنسبة لعلماء المسلمين فاننا نجد هذا الاسم عند نسابة البربر الذين يجمعون على أن (مازيغ) هو أحد أولاد كنعان بن حام بن نوح، وأن فرع البرانس من نسله[80].

وساير ابن خلدون بعض نسابة البربر وخاصة أيوب بن أبي يريد مخلد بن كيداد صاحب الحمار الذي يجعل البربر جميعاً من برانس، وبتر من نسل مازيغ فيقول ابن خلدون «انهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدّم في انساب الخليقة وأن اسم أبيهم مازيغ»[81].

ونجد الادريسي السابق لابن خلدون في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الافاق) تحدث عن مرسى ترد عليه مراكب الاندلس في المحيط الأطلسي تجاه الدار البيضاء باسم (مرسى مازيغن) أما حسن الوزان المعروف بليون الافريقي (توفي في حدود 957هـ 1550م) فيذكر ان لغة البربر في عهده كان يطلق عليها «اسم أقوال أمزيغ أي الكلام النبيل بينما يسميها العرب البربرية»[82].

وهذا الاسم التاريخي ـ كما هو واضح ـ ما يزال موجودا إلى الآن، فهناك قبيلة صغيرة بجهة الأطلس تسمى لغتها حالياً «تمازيغت»[83].

وهي التي ذكرها(روم لاندو) في قوله: «والايمازيرون في الأطلس الأوسط وتفيلالت يتكلمون التمازيرت)[84] وطرأ تحريف على الترجمة والأولى أن يقال «الأمازيغيون والتمازيغت».

وحسب معلومات أخرى وردت في كتابات هيرودوتس فان اسم (مازيس) (كان يدل على الشعب القاطن قرب تريتونيس)[85].

وتريتونيس هو الاسم الذي اطلقه الرومان في ما بعد على شط الجريد وبصفة عامة كانوا يقطنون في المناطق الغربية لاقليم طرابلس بنواحي سرت الصغير (خليج قابس).

ونقل عن بطليموس أن هذا الشعب وجد «في القسم الغربي من مريطانيا»[86].

وهذا يتماشى مع ما نعرفه عن مملكة نوميديا الغربية التي كانت «تدعى مازيسيليا Masaessylie) نسبة إلى قبائل المازيس»[87].

والمازيس هؤلاء هم الامازيغ وسميت المملكة باسمهم كما هو الحال بالنسبة لمملكة موريطانيا التي أخذ اسمها من قبائل (المور).

ويستخلص من هذا ان اسم (مازيس) أو (أمازيغ) أو (مازيغ) كان شائعاً وكان يطلق على الأقل على جانب كبير من سكان شمال افريقيا في ذلك العهد القدم. وسواء كان أساس هذا الاطلاق انتساب القبائل إلى سلالة تحمل هذا الاسم أوكان الاسم نفسه من قبيل الوصف الذي أطلقه أصحابه على أنفسهم اعتزازاً بأصالتهم وعلوكعبهم. ولذا وجدنا «أمازيغ» في المصادر القديمة تعني: الرجل الحر، النبيل، الشريف.

هل لهذا الاسم أصل غير الاصل البربري؟

بالنسبة لتراثنا التاريخي عامة، فان هذا الاسم لا نجده شائعاً الا عند نسابة البربر، وهم يعدّونه أحد أبناء كنعان بن حام بن نوح، جاعلين منه الجد الأعلى الذي انحدرت منه فصائل البربر، وعندما رجعت إلى شجرة الانساب التوراتية فلم أجد من بين أبناء كنعان الأحد عشر[88] من تسمّى بهذا الاسم.

كما ان من اطلعت عليهم من المؤرخين والنسابين العرب من مثل هشام بن محمد الكلبي والطبري وابن عبد البر والمسعودي وغيرهم لم يذكروا هذا الاسم في ماكتبوه حول أصل البربر. لكن هذا لا يعني انه غير موجود بدليل وروده في المصادر الاغريقية واللاتينية والبيزنطية الأمر الذي يؤكد على انه حقيقة واقعية وعلى أن نسابة البربر لم ينتحلوه بقطع النظر عن علاقته بشجرة الانساب والطعون التي وجهت اليها. وهذا من شأنه ان يدفع إلى المزيد من التدقيق والتوسع في دائرة البحث لتشمل تلك المصادر التي يقع استبعادها عادة لما فيها من أوهام ومخالفة للحقائق التاريخية المعروفة والتي نجد فيها مادة غزيرة تتعلّق باخبار الأولين وبأقاصيصهم وأساطيرهم.

وهذه المصادر وان كانت موغلة في الانتحال والقصص الخرافية فانها من حيث التأليف والتركيب لا تخلو مطلقاً من بعض الحقائق، وهكذا اخذت اطالع بعضها إلى أن وصلت إلى كتاب (التيجان في ملوك حمير) وكم كانت دهشتي عظيمة عندما عثرت فيه على اسم (مازيغ) وكان من أبرز الاسماء التي ترددت مع سرد أحداث ذات أهمية في تاريخ ملوك حمير (كما جاء في هذا الكتاب) سقطت منه نقطة الزاء ونقطة الغين لنقص في الانتباه أثناء التحقيق والطباعة، والصورة التي ورد بها كانت مطابقة تماماً لما قاله نسابة البربر. وهو مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح[89] كما ورد أيضاً في أغلب المواطن على هذا النحو: «بنو مازيغ» مما يدل على انه كان رأس قبيلة أو عدة قبائل.

وتقول الأخبار الواردة في هذا الشأن أنّ بني مازيغ كانوا يقطنون الشام وان احداثاً حملتهم على التوجه إلى بلاد المغرب والاستيطان بها، ومثل هذه الأخبار نجدها مذكورة في المصادر التارخية الأخرى.

وهكذا يتأكد لنا ان اسم (مازيغ) من الأسماء العريقة في التراث الشعبي الشرقي وان هذا ليدفعنا إلى ان نتقصّى أمره في غير المجالات التاريخية بغية الحصول على معلومات اخرى من شأنها ان تثبّت بما لا يدع مجالاً للشك أصالته العربية القديمة، ولابد هنا من التوجه أيضاً إلى المصادر اللغوية التي تحتفظ عادة بوفرة من الكلمات التي لها تاريخ يمتد إلى الاف السنين.

وبالرجوع إلى تلك المصادر نجد فيها ما يتطابق مع كلمة (أمازيغ أو مازيغ) من حيث اللفظ والمدلول مثل (مزر) مع الملاحظ أن الهمزة في (أمازيغ) زائدة تضيفها البربرية في أوائل الكثير من الكلمات مثل أبزيز، أمدر، أغروم.

أما الغين اذا ما قورنت بالراء فالأمر لا يعدو ان يكون تحوّلا طرأ في الصوتين، وهو شيء مألوف. والمهم هنا هو التوافق الموجود بينهما في اللفظ والمعنى ففي (مزر) ذكر الزمخشري ما يلي:

رجل مزر: مشبع العقل، ناقد في الأمور.

ومنه قول الشاعر:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه رجل مزير

ويقال أيضاً:

«وهو من أمازر الناس: من أفضلهم».

ومنه قول الشاعر.

فلا تذهب عيناك في كل شرمح طوال فان الاقصرين أمازر[90]

والمزير يجمع على (أمازر) وهو الشديد القلب، ويقال أيضاً (هو كريم المزر) أي كريم الأصل.

فمازير ومازيغ لا يكاد يوجد بينهما اختلاف الا في الراء والغين وهو أمر ليس بذي أهمية لأنه يدخل في نطاق تبادل الحروف المعروف في اللغات العربية القديمة.

أما المعنى فهما شيء واحد، فالأفاضل من الناس هم الاحرار الشرفاء والأحرار الشرفاء هم الأفاضل من الناس، فاتفاق الكلمتين في المبنى والمعنى يعد دليلاً قاطعاً على وحدة الأصل بينهما.

وهكذا فان كلمة «أمازيغ» لتأكّد هي الأخرى الأصل الشرقي للبربر.

المور أم الأموريون؟

من الأسماء المعروفة في المجتمع البربري القديم اسم (المور Mauri) وكان يطلق ـ حسب المصادر التاريخية المتنوعة ـ على مجموعة من القبائل في المغرب الأقصى، ويذكر جوليان ان الرومان ما لبثوا أن عمّموا هذا الاسم (على جميع سكان بلاد البربر)[91].

وتمتاز قبائل المور بقوة الشكيمة وبعدم الانصياع حتّى أنها كانت ترفض الامتثال لولاة أمرها من صنائع المحتل الروماني.

ولذا وجدناها تستجيب ليوغرطة وتشد من أزره في صراعه مع الرومان وتنضم إلى الثائر الكبير (تكفاريناس) الذي أجّج روح الثورة في كامل المنطقة من المغرب الأقصى حتى جهات طرابلس بليبيا.

وتميّزت هذه القبائل بروح التمرد(*) فانخرطت في ثورات عديدة ولاقى الرومان في سبيل السيطرة عليها العنت الشديد.

وكان يعتبرها من (الشعوب السباقة للحرب) وأن موريطانيا وما جاورها شرقاً (نوميديا) من المناطق التي لا تهدأ ولا تلين لها قناة.

وقد أطلق منذ العصور التاريخية القديمة للمنطقة اسم (موريطانيا) و(موريسيا. Maurousia)[92] على الاقليم الذي تقطنه قبائل المور، وقد قسّم الرومان هذا الاقليم سنة 42م إلى مقاطعتين رومانيتين مكمّلا بهما احتلاله التام والمباشر لكل شمال افريقيا.

ورغم طول العهود وما جد فيها من تقلبات وأطوار فانّ التاريخ يأبى أن يندثر هذا الاسم، وها نحن اليوم نرى احدى الدول المغربية العربية تتخذه علماً لها وهي «جمهورية موريطانيا الاسلامية».

واذا أوغلنا في أغوار التاريخ القديم بحثاً عن بداية ظهوره على الخريطة الاجتماعية لشمال افريقيا، فاننا لا نجد من الوثائق وخاصة المكتوبة ما يساعد على ذلك.

فأقدم المعلومات تشير إلى وجود الموريين في الحملة التي قامت بها قرطاج ضد صقلية سنة 406ق.م وفي «ثورة حنون في العقد الذي بدأ عام 350 ق.م»[93].

ثم توالى ذكرهم بعد ذلك خلال حقب تاريخية معروفة، ويذكر جوليان أن قبائل المور أسست في «شمال المغرب الأقصى قبل القرن الرابع جامعة عتيدة»[94] وهي أساس مملكتهم التي ظهرت في تلك الجهات وتسمّت باسمهم.

ومن المشاكل التي تواجهنا في هذه الفترة اننا لا نكاد نعرف شيئاً عن الممالك البربرية(*) في الفترة السابقة للقرن الثالث قبل الميلاد.

وهذا راجع إلى فقدان المصادر القرطاجنية التي أحرقت(*) وأتلفت ولم يبق منها الا النزر اليسير والى أن المصادر الاغريقية واللاتينية لم تهتم أساساً الاّ بالصراع بين قرطاج وسرقوسة ثم بين قرطاج وروما، وأنّ أقدم المعلومات التي أوردها هيرودوتس عن المنطقة كانت محدودة وغامضة نقلها عن غيره مشافهة أو عن مصادر قرطاجنية مترجمة فليس فيها ما يفيد حول نشأة الممالك البربرية، كذلك فان المعلومات الاثرية المحدودة لا تقدّم لنا العون في هذا الباب.

ولكن وبالرغم من هذه المشكلة فانه يمكن بالاعتماد على الاتجاهات العامة المستخلصة من بعض الوقائع والمعلومات أن نستدل على أن الممالك البربرية ليست حديثة وأن شكلها المتطور الذي عرفت به في القرن الثالث قبل الميلاد يؤكد أن لها جذوراً قديمة، وهي جذور لا نستشفها من أسطورة (عليسه) وحدها التي تشير بكل

وضوح إلى وجود تنظيم سياسي للبربر وأنها أساساً من العلاقة التي كانت بين البربر والقرطاجنيين.

فهناك معلومات تفيد بأنّ القرطاجنيين منذ أن استقروا بمدينتهم الجديدة سنة 814ق.م كانوا يدفعون إلى البربر ضريبة سنوية في مقابل هذا الاستيطان واستمروا في دفعها «طيلة ثلاثة قرون ونصف»[95] إلى منتصف القرن الخامس.

وفي هذا ما يشير ـ على الأقل ـ إلى وجود تنظيم سياسي أو ما يشبه كأن يكون في شكل زعامات قبلية. والأمر لا يقف عند هذا الحد وانه لذو أهمية عندما نعرف ان الزعامة السياسية في البربر ـ مهما كان شكلها ـ قديمة وظهرت على مسرح الأحداث من قبل أن تؤسس قرطاج.

فذكرت لنا منها السجلات المصرية، الزعامة اللوبية التي جمعت تحت لوائها إلى جانب القبائل اللوبية، قبائل أوربية (المسماة في اصطلاح المؤرخين شعوب البحر) وقامت بهجمات متكررة على مصر منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد(*)، وواجه رمسيس الثالث في القرن الثاني عشر قبل الميلاد هجمتين على مصر كانت الثانية متكوّنة في أغلبيتها من قبائل المشاوش وبزعامتهم.

وهؤلاء حسبما ذكر هيرودوتس كانوا يقطنون في الجهة الغربية لخليج سرت جنوب منطقة الجريد الحالية ويمكن ان يكون لهم امتداد داخل القطر الجزائري.

وتأتي هذه الهجمات اللوبية أو البربرية المبكرة ضمن المدّ العكسي لحركات الهجرة التي عرفت بها المنطقة منذ ما قبل التاريخ، والخلاصة من كل هذا وكما تثبته السجلات المصرية هو أن المجتمع البربري عرف خلال النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد تجمعات قبلية موحدة بشكل من الأشكال في ظل زعامة من الزعامات، وقد يؤكد هذا ما أشارت اليه اسطورة (عليسه) من وجود شكل من أشكال التنظيم السياسي للبربر.

ثمّ ان ظاهرة التجمعات القبلية معروفة في المنطقة الشرقية العربية، وسبق بعضها تأسيس أقدم الامبراطوريات (البابلية القديمة على سبيل المثال) وقبائل المور المعاصرة للقرطاجنيين، لا نستبعد ـ في ضوء هذا التحليل ان يكون لها تجمعها وحتى تحالفاتها من قديم، وانعدام المصادر المكتوبة المؤيدة لهذا لا يعني نفي هذه الظاهرة وعدم وجودها بصورة قاطعة، ومن الطبيعي أن يكون الاسم الذي تحمله أكثر ايغالاً في التاريخ.

وطالما ان اسم «المور» قديم بأكثر مما تفصح عنه المصادر التاريخية المعهودة فان هذا مدعاة لمزيد البحث والتقصي في أصله.

ويعترضنا في هذا الصدد رأيان لا بد من الوقوف عندهما.

الأول للمؤرخ اللاتيني «صلوست»(*) وهو على ما يبدو أول من تطرّق إلى هذا الموضوع فذكر ان بطلاً يونانياً اسمه «هيرقليس» تحوّل إلى اسبانيا بجيش متكون من عدة أقوام منها الفرس والماديون والأرمن، ولما مات هذا البطل تشتت جيشه وانتقلت بعض

فلوله إلى شمال افريقيا، فاقتربت مجموعة الفرس من المحيط واختلطت بالجيتوليين سكان الجنوب، وانضم الماديون والأرمن إلى اللوبيين على ضفاف المتوسط.

وفي هذه المرحلة حرفت كلمة (ميد) إلى (مور) والماديون هؤلاء هم في الأصل قبائل كانت موجودة في جهات من ايران الحالية منذ ما قبل الميلاد بزمن طويل(*).

وما يذكره (صلوست) عن أصل (المور) هو الرواية القديمة الوحيدة وهي رواية واهية لا سند تاريخي لها، ويظهر افتعالها أولاً فيما قيل عن هذا التحريف المصنع لكلمة (ميد) وتحويلها إلى (مور) وثانياً فيما قيل على مجموعة الفرس من أنها كانت كثيرة الترحال والتنقل مما جعلها تسمى (بالنوميديين) أي المرتحلين، ومن المستبعد تماماً أن يكون لكلمة (نوميديا) هذا المنشأ الخرافي.

وكان الاغريق والرومان يطلقون لفظ (النوميديين) على السكان المستقلين الواقعين غرب البلاد القرطاجنية كما نجدها في التقسيم الاداري الروماني تطلق على القاطنين بأرض الجزائر في كل من نوميديا الشرقية ونوميديا الغربية(*).

أما الرأي الثاني فهو للجنرال (دوماس) أورده الشيخ مبارك الميلي يقول فيه ان (أبناء مصرايم جاؤوا مع البرّ واجتازوا إلى افريقيا وتسموا (مور) ومعنى ذلك مغاربة)[96].

ومصرايم ـ حسب التوراة ـ هو الابن الثاني لحام بن نوح[97].

أما كلمة (مورا) وكونها تعني مغاربة، فقد يكون الجنرال (دوماس) نقل هذا المعنى عن بعض الباحثين المطلعين على اللغة السومرية التي تطلق فيها كلمة (أمورو) A-mur-ru على الغرب.

والشيء الهام هنا ليس في ما نجده من اختلاف بين هذا الرأي ورأي صلوست، وانما في ما ذكره الجنرال (دوماس) من أن (المور) هجرة قدمت من الشرق الأمر الذي ينسجم مع المعطيات العامة للتحليل ومع ما قدم من معلومات في هذا السياق ويدعونا أن نتوجّه إلى المنطقة الشرقية العربية لعلنا نجد فيها من المعلومات التاريخية القديمة ما يساعد على الوصول إلى معرفة ما نحن بصدد البحث فيه.

وأول ما يصادفنا في هذا الباب ما تشير اليه وثائق مسمارية من أن قبائل عربية قديمة كانت تقطن بلاد الشام الداخلية ومنها شمال سوريا، ورد اسمها بالخط المسماري في صيغة قرئت مرة (أمورّو) ومرة (عمورّو).

والسبب في ذلك عدم معرفة النطق الاصلي لهذه الصيغة في خطها المسماري المقطعي، اضافة إلى ما أصابها من تغيير عندما نقلت على يد الباحثين الاجانب بالأحرف اللاتينية وما لهذا من اختلاف أساسي عن اللغات العربية القديمة في المخارج وكيفية النطق.

فقد كتبت الصيغة هكذا Amurru. A-mur-ru وعندما قرئت بالعربية الحديثة نطق بالمقطع الأول (A) مرة همزة ومرة عين فقيل: (أمورّو) (وعمورّو) وهو نطق لا يخلو من

تضعيف لمسايرته للكتابة اللاتينية وللتخلص منه واقترابا من النطق الأصلي فقد أعيدت قراءتها بالعربية لكونها من الأصل اللغوي الذي تنتمي اليه هذه الكلمة فقيل (أمور) و(عمور) ثم جمعت جمعاً مذكر سالماً وأدخلت عليها (أل) المستغرقة للجنس فصارت (الأموريون والعموريون) والأولى من الكلمتين صارت أكثر شيوعاً في الكتابات.

والصيغة (أمورّو Amurru) هي الصيغة الأكدية المسمارية واذا ما تتبعناها عموماً في النصوص الشرقية القديمة فنجدها في الأكدية تطلق على الشعب الواقع غرب العراق[98].

وفي البابلية الاشورية اسماً للمنطقة الفينيقية ولجنوب سوريا الحالي[99] وفي التوراة اسما للابن الرابع لكنعان[100] بن حام بن نوح ولشعب غير اسرائيلي. أما في النقوش المصرية فكانت تسمى (البقاع) بلبنان حالياً (أمورّو Amurru)[101] وكان البابليون القدامى يسمّون البحر المتوسط (بحر آمور العظيم) كما وردت هذه اللفظة في (رسائل تل العمارنة) المكتشفة في مصر بصيغة (مات أموري)[102] وهذه الرسائل عبارة عن لوحات مسمارية يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

ويرى بعض الباحثين[103] أن التسمية (أموري ليست سامية (عربية قديمة) وانما هي سومرية الأصل جاءت من كلمة (مارتو) أو من (مار ــ تو Mar-tu) ومعناها الغرب، والاموريون سموا بهذا الاسم لوقوعهم في الغرب منهم، ولعل الجنرال (دوماس) استمد رأيه السابق من هذه التسمية ومن مدلولها والمعروف ان الاسم (مارتو) كان يسمى به الاله الخاص بالأموريين.

ومهما يكن من أمر فان سكان بلاد الرافدين أطلقوا (أمورّو) أو (مارتو) على القبائل الامورية وعلى الغرب، ويذكر أحمد سوسه ــ بناء على معلومات اثرية ــ ان هذه القبائل كانت منتشرة في المنطقة الممتدة من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى الفرات منذ الألف الخامسة أو الرابعة قبل الميلاد[104] أما انتقال مجموعات منها صوب العراق فقد حدث في نهاية الألف الثالثة وبداية الألف الثانية قبل الميلاد[105].

فأقدم اشارة تاريخية في الكتابات المسمارية عن البوادر الأولى لهجراتهم كانت في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد في عهد الملك الأكدي (شار ــ كالي ــ شري)[106] الذي صدهم وتغلب عليهم. وتوالت هجراتهم فيما بعد على مدى عدة قرون وأهمها موجتان:

الأولى كانت ابّان حكم (أبّي ــ سين) آخر ملوك سلالة (أور) الثالثة (2028–2004ق.م) أدت إلى نشوء امارات جديدة منها من كانت تحت امرة أحد شيوخهم، والثانية كانت بعد قرن تقريباً أدت هي الأخرى إلى ظهور عدة امارات أهمها سلالة بابل الأولى (1894–1595ق.م) التي من أبرز عظمائها (حمورابي) الملك السادس الأموري في الامبراطورية البابلية القديمة.

والأموريون هم الكنعانيون الشرقيون ولهجتهم لهجة كنعانية أما الكنعانيون الغربيون فهم الفينيقيون والأغرتيون، ولا توجد بين هؤلاء جميعاً الا فروق لغوية طفيفة.

وطالما أن الأموريين كنعانيون فان هذا يدعونا الى أن نتوجه الى الجزيرة العربية باعتبارها موطنهم الأصلي لعلنا نعثر في بعض جهاتها على ما له صلة بموضوعنا وفي المنطقة الغربية حيث (عسير) المتاخمة للبحر الأحمر نجد (مرو)[107] وهي اسم لثلاث قرى، اثنتان في وادي إضم والثالثة في منطقة (قنا البحر) والملاحظ ان كثيراً ما تسمى المناطق باسم القاطنين فيها أو العكس فيكون للكلمة مدلول مكاني ومدلول بشري ـ قَبَلي. وهناك (الْمَرْوُ)[108] وهو اسم لقبيلة في جنوب الحجاز وهناك أيضاً (بنو مرّ) بالاضافة الى قبيلة بني مرة المعروفة في القبائل العربية القحطانية والعدنانية.

ويمكن أن نتساءل ألا يمكن ان تكون هناك علاقة بين هذه الكلمات وكلمة الأموريين؟ وهل من المجازفة أن نعتبر هذه العلاقة ممكنة؟ أولاً أن البحث في هذا الموضوع ليس من قبيل الخبط في المجهول، فالجزيرة العربية باعتبارها الواقع الجغرافي والثقافي اللغوي للشعوب العربية القديمة (التي ما زالت تسمى الشعوب السامية) حقيقة واقعية لا مجال للمماراة فيها. ثانياً ان هناك من الباحثين من يعتبر غرب الجزيرة العربية هو الموطن الأصلي للكنعانيين. والأموريون ما هم الا كنعانيون أو شعبة منهم هاجروا من هذا الموطن وانتشروا ـ كما رأينا في أرض الشام وفي العراق.

ومن القائلين بهذا الرأي الدكتور كمال الصليبي الذي توصّل للأدلة اللغوية وتحليل أسماء المواقع الجغرافية في التوراة الى أن الكنعانيين هاجروا من غرب شبه الجزيرة العربية[109].

ونقل عن هيرودوتس ان المشهور في أيّامه عن أصل الفنيقيين أنهم من البحر الأحمر[110] والفنيقيون ما هم أيضاً الا شعبة من الكنعانيين.

ويتضح مما تقدم ان (المور) الموجودين في بلاد المغرب والمعاصرين للقرطاجنيين، هم في الحقيقة فرع من الاموريين كما يشهد بذلك اسمهم، وهذا ما يقول به بعض المؤرخين من قدامى ومحدثين من ان قبائل هاجرت من الشام وفلسطين الى بلاد المغرب، منهم (دوماس) الانف الذكر و(بروكوبس) البيزنطي[111] الذي يرى أن للبربر أصولاً عبرانية، كما ان عدداً من النسابين والمؤرخين عرباً كانوا أو بربراً ومنهم ابن خلدون يذهب الى أن البربر أو بعضهم من أصول كنعانية[112].

وبقطع النظر عن هذه الاراء فالثابت ان الاموريين الذين ظلوا على بداوتهم بصحراء الشام قد اتجهت أفواج منهم صوب مصر صحبة ماشيتهم وقطعانهم ـ خلال الألف الثانية قبل الميلاد، وفي الفترة التي لم يستعمل فيها الجمل على نطاق واسع.

ويبدو أن هذا التدفق جاء أثناء أو عقب هجوم الهكسوس على مصر الذي حدث

في حدود 1785ق.م وقد اختلف الباحثون في أصل الهكسوس(*) قيل من العماليق وقيل من الكنعانيين.

والاموريون مهما كانت صلتهم بهم فالراجح ان تحوّلهم صوب مصر كان امّا خلال هجوم الهكسوس أو في الفترة التي اعقبته حيث تحدّثت الوثائق المصرية عن غزاة جدد انضموا الى الهكسوس من أقوام مختلفة.

وهجوم الهكسوس والهجرات المصاحبة له كان ضمن تحرك بشري واسع جد في المنطقة الغربية لآسيا بما فيها منطقة الهلال الخصيب، وهو تحرّك له علاقة بتحرك الآريين واقتحامهم لهذه المنطقة في الألف الثانية قبل الميلاد.

لكن انطلاق الأموريين الى شمال افريقيا قد يكون تواصل منذ انطلاقهم من بادية الشام، وقد يكونون استقروا أولاً بمصر طيلة المدة التي سيطر فيها الهكسوس على مصر قرابة القرنين، ثم غادروا في اتجاه الغرب على اثر قيام المصريين بطرد الهكسوس ودفعهم الى جنوب فلسطين وذلك حوالي 1580ق.م.

ما بين القرطاجنيين والموريين:

أثناء البحث وجمع المعلومات حول الموريين لفت انتباهي ما لاحظته من تقارب بينهم وبين القرطاجنيين والعلاقة بينهما قديمة تعود الى أوائل المد الفينيقي وبلوغه شواطىء المغرب الأقصى.

والمؤسف اننا لا نملك أية وثيقة عن هذه المرحلة المتقدمة، ولكن ما توفّر لنا في العهد القرطاجي يجعلنا نستشف هذا التقارب بوضوح.

فالموريون ـ كما رأينا ـ كانوا مع حنبعل في جيشه في معركة «زاما» الشهيرة ضد الرومان(113) بل نجد نجدات من الموريين هبت ـ دون جدوى ـ لمؤازرة قرطاج ومساعدتها على فك الحصار(114) المضروب عليها من قبل الرومان الذي أودى بها ودمّرها، وهي نجدات تفصح عما في ضمائر أصحابها من تعاطف ومساندة بالرغم من تواطىء بعض القيادات البربرية مع الرومان.

هناك أمر آخر أثار اهتمامي أيضاً ولم أجد من الباحثين من أعاره أهمية، وأعني به ما جاء في تقرير(*) (حنون) في رحلته الاستكشافية لغرب افريقيا انطلاقاً من جبل طارق (اعمدة هيرقليس) من معلومات قيّمة ذات صلة بموضوعنا فقد وفّر هذا التقرير لأول مرّة معلومات حول مجموعة من القبائل والشعوب العائشة على سواحل المحيط الأطلسي فوصفها بأنها حبشية (أي زنجية) أو متوحشة ما تزال ترتدي جلود الحيوانات.

ومن بين المجموعات التي ذكرها التقرير مجموعة (الليكسيين) حيث جاء فيه: «وصلنا الى نهر لكسوس الآتي من ليبيا وعلى ضفتيه رعاة من البدويين الليكسيين يسرحون أغنامهم ـ فمكثنا مدة من الزمن صحبة هؤلاء الناس وصرنا من أصدقائهم.

ويعيش فوقهم قوم من الحبش لا يكرمون الضيف في أرض كلها حيوانات ضاربة» وجاء أيضاً «بعدما أخذنا معنا مترجمين من الليكسيين سرنا بجانب الصحراء متجهين نحو الجنوب».

ويستخلص من هذا النص:

1 ـ أن اللكسيين ليسوا من الأحباش والاّ لما قال النص:
«ويعيش فوقهم قوم من الحبش» وفي هذا تفريق بين جنسين ولونين.

2 ـ أن اللكسيين بدو ورعاة غنم وأنهم الوحيدون الذين ذكروا بهذه الصفة دون غيرهم من الأقوام الأخرى ـ وهذا يعني أن الرعي لم يكن منتشراً بتلك الجهات وليس ذلك بالأمر الغريب.
فالأغنام لا توجد بافريقيا قاطبة، دخلت شمال افريقيا مع تلك الجماعات التي قدمت في حدود الألف الخامسة قبل الميلاد وما بعدها. والليكسيون ـ بناء على هذا ـ من الجماعات المهاجرة ذات اللّون المختلف.

3 ـ المكوث مدة من الزمن وهذه الصداقة التي نشأت بين الرحالة القرطاجنيين وبين الليكسيين ليست الاّ دليلاً على نوع من القرابات والصلات القديمة.

4 ـ بناء على تأويلات المؤرخين للأماكن الواردة في تقرير الرحلة، يمكن تحديد نهر (لكسوس) بوادي السوس جنوب المغرب أو بوادي الدرع حسب جيزل (Gsell). وهذا يعني أن وصول القرطاجنيين لهذا المكان كان لأول مرة ولم تكن لهم في السابق أية علاقة بسكانه الليكسيين ومع ذلك فقد أخذوا منهم مترجمين وهم في رحلتهم الى الجنوب. والسؤال هنا متى عرف القرطاجنيون لغة الليكسيين؟ ومتى عرف الليكسيون لغة القرطاجنيين والحال الاّ صلة بينهما قبل هذه الرحلة.

ألا يدل ذلك على ان الليكسيين ما هم الا جماعة من الموريين استقرت جنوب المغرب، وهؤلاء ـ كما عرفنا ـ كنعانيون وان لهجتهم قريبة من اللهجة الفينيقية اذ هما من أصل واحد، واذا كان الأمر هكذا فلا غرابة أن يمكث الرحالة القرطاجنيون بين اللكسيين مدة وأن تنشأ بينهم صداقة ومعاملة ودية، وأن يأخذوا منهم مترجمين بصفتهم قاطنين في تلك المنطقة قد تكون لهم دراية بلغات بعض الشعوب المجاورة لهم في الجنوب والاطلاع على أحوالهم.

والملاحظ هنا أن كلمة (لكسوس) يوجد ما يشابهها في الشمال بالمغرب ـ فهناك المركز الفينيقي الذي أسر قبل رحلة حنون بزمن طويل المسمى (لكسيس) والذي كان يقع حيث تقع بلدة العريش الحالية.

والخلاصة هو أن القرطاجنيين والموريين من أرومة واحدة هي الأرومة الشرقية، وقد وصل أحدهما عن طريق البحر والآخر عن طريق البر.

وهكذا وبعد هذه الجولة المضنية تتضح لنا الصلة بين الموريين والأموريين وهي

صلة يؤكدها علم الاسماء والهجرات عامة بحكم ما تحمله من المنبت والماضي العريق لأصحابها وكذلك الدلائل الأخرى التي أمكن الاهتداء اليها من مثل ما عرف به الموريون وهو تربية نوع من الحمير يمتاز بالقناعة والخفة[114أ] والقدرة على تحمل المشاق، ووجود الحمير منذ تلك العصور ليس دليلاً مادياً على الهجرة فحسب، ولكنه دليل أيضاً على النسب الشرقي فالحمير لا وجود لها أصلاً بشمال افريقيا، وهو من الحيوانات المعروفة في الجزيرة العربية وأقدم ما استعمل في النقل والركوب قبل الخيل والبغال والجمال ـ وما تزال الأصناف الجيدة منه محتفظاً بها الى اليوم، منها ذلك النوع المعروف عندنا بالمصري الذي يقارب البغل حجماً وقوّة.

والقناعة التي عرف بها في الأزمنة الخوالي ناجمة عن طبيعة الظروف التي عاشها ومنها الظروف الصحراوية القاسية[115].

الشاوية:

تطلق هذه الكلمة اليوم على مجموعتين من القبائل أحداهما تقطن بالمغرب الأقصى بجهة تامسنا باقليم مراكش، تحتل (في الشمال الشرقي المجرى الأسفل لنهر أم الربيع)[116] اختلطت بالعنصر العربي وصار لسانها بمرور الزمن عربياً يتميز بذاك الطابع الشعبي المعروف هناك.

والثانية تقطن بشرق الجزائر في كتلة جبال أوراس المهد القديم لكسيلة والكاهنة حيث باتنة وبسكرة وكذلك في المناطق الحدودية حيث نجد أولاد خيار في سوق اهراس والحراكنه بعين البيضاء والنمامشة بتبسة.

وتوجد الى جانب هاتين المجموعتين فروع أخرى أقلّ شأناً، ولفظ (الشاوية) لم نعثر له على ذكر قبل ابن خلدون وقد يرجع هذا الى أن عناية ابن خلدون لم تكن منصرفة الى ناحية الانساب وأسماء القبائل فحسب وانما أيضاً الى طبيعة عيش الناس ونوع نشاطهم تمشياً مع فهمه للعمران البشري وما يعرض له من أحوال وتطورات انطلاقاً مما ينتحله الناس (بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع)[117].

ولذا فعندما ذكر ابن خلدون لفظ (الشاوية) كان في سياق تناوله لنوع النشاط الذي يمارس في (العمران البشري) وهذا واضح من قوله «ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعّن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم. فالتقلب في الأرض أصلح بهم ويسمون الشاوية ومعناه القائمون على الشاة والبقر»[118].

ويقول: «كما أن الشاوية أهل القيام على الشاة والبقر لما كان معاشهم فيها فلهذا لا يختصون بنسب واحد بعينه الا بالعرض ولذا كان النسب في بعضهم مجهولاً عند الأكثر وفي بعضهم خفيا على الجمهور»[119].

ويستخلص من هذا ان لفظ الشاوية من حيث انه تعبير عن نوع النشاط الاجتماعي تمارسه جماعات واسعة من القبائل والبطون من قديم حتى وان لم نصادف

ذكره لدى من سبقوا ابن خلدون من المؤرخين ـ ووجود هذا اللفظ ضمن القاموس الاجتماعي اللغوي البربري يفصح عن حقيقة تاريخية هامة، هو انه ليس مجرد اسم اطلق على قسم من الناس بحكم انصرافهم الى الرعي نتيجة غزو العرب لهم وتضييق الخناق عليهم واثقال كأهلهم بالضرائب كما تذهب الى ذلك دائرة المعارف الاسلامية، وانما هو حقيقة لغوية تعبر عن واقع اجتماعي موغل في القدم عاشته البشرية في كثير من الاصقاع، ومنها الشمال الافريقي الذي عرف ـ منذ عهد ما قبل التاريخ ـ الرعي قبل ان يعرف الزراعة، واستمر على ذلك زمناً طويلاً كما تنبىء بذلك المعلومات الاثرية المتوفرة.

ومن هنا يتضح ان كلمة «شاوية» ما هي الا نتاج تلك المرحلة التاريخية الرعوية القديمة، فهي وكما يؤكد ذلك مضمونها أنها عريقة ومتغلغلة في القاموس الاجتماعي البربري حتى اننا نجدها في عهد يعقوب بن عبد الحق المريني (1258–1286) عنواناً على خطة[120] يشغلها البعض لرعاية ماشية السلطان.

والملاحظ ان لفظ (الشاوية) وان كان يطلق في الأصل على من يمتهن حرفة الرعي الا انه صار بتوالي الأيام علماً على الاشخاص وعلى مجموعة من القبائل توارثته جيلاً عن جيل حتّى وان لم يعد بعضها ملازماً لحرفة الرعي.

واذا ما عدنا للبحث من جديد في هذه الكلمة فسنجد ان دائرة المعارف الاسلامية ذكرت ان محاولة بذلت للربط بين (شوا choo)[121] أحد اقاليم الحبشة وبين (الشاوية) وهي محاولة مثل غيرها كما رأينا تأتي في السياق الذي عرفت به المدارس الاستعمارية في مجال التاريخ والثقافة والعلوم الاجتماعية من السعي الى ربط سكان المغرب القدامى بأصول بعيدة عن أصولهم الحقيقية، ومن يتصفّح الاف الوثائق ومئات الأبحاث فسيرى أنها تهمل وتتحاشى ذكر ما يمكن أن يوجد من صلات بين البربر وبين الجزيرة العربية والأقوام التي نشأت فيها.

واذا كان البحث العلمي المجرد يسمح بتأويل أضعف الافتراضات لفحصها والتدقيق فيها فانه لا يعطي الحق لأي كان أن يهمل الامكانيات الأخرى ذلك أن لفظ (الشاوية) من حيث انه مفردة لغوية ومن حيث انه صيغة من صيغ التركيب والبناء اللغوي عربي صميم ووجود الكلمة في كل من البربرية والعربية من شأنه على الأقل أن يثير اشكالاً لدى الباحثين وان الأمر سيكون مدعاة لاهتمام أكثر عندما نعلم أنها ليست من الكلمات المقتبسة عن العرب. وهذا بالطبع يعني أنها من ذلك القسم الذي تشترك فيه العربية والبربرية المنحدرة اليهما من الأصل اللغوي المشترك القديم.

وبناء على هذا فنحن مطالبون بالبحث في المعاجم العربية باعتبارها المصدر الأساسي لمعرفة الكثير من الموروث اللغوي القديم. وكذلك البحث في البيئة العربية الشرقية، فيما اذا كان لهذه الكلمة جذور في قاموسها الاجتماعي ـ الثقافي ـ حتّى نزداد معرفة بها وبمنبتها الأصلي.

وبالرجوع الى المعاجم العربية، نجد كلمة «شاوية» وردت في بعضها وهي بالأساس صيغة صرفية جاءت من النسبة الى الشاة، فجاء في الصحاح (واذا نسبوا الى الشاة قالوا: هذا شاوي)[122] وفي لسان العرب (رجل شاوي صاحب شاة... واذا نسبوا الى الشاة قيل: رجل شاوّي)[123]. والنسبة هنا على غير قياس لأن القاعدة تقضي بقلب الواو همزة في صيغة اسم الفاعل من الثلاثي المجرد فيقال: شائيّ، ولكن العرب نطقت بها على غير قياس فقالت: شاويّ ـ ومما جاء في لسان العرب.

ولست بشاويّ عليه دِمامة اذا ما غدا يغدو بقوس وأسهم[124]

وأيضاً (وهو رجز ينسب لمبشر بن هذيل الشمخي):

وربّ خــرق نــازح فلاتــه لا ينفع الشاوي فيها شاته[125]
ولا حماره ولا عَلاَتُـــــــه اذا علاهــا اقتربت وفــاتــه

فهذه عيّنة من واقع لغوي وثقافي قديم تحتفظ به المعاجم العربية لأقوام امتهنت الرعي وتخصصت فيه وصار يطلق عليها «شاوية» وليس ذلك بالأمر الغريب اذ الجزيرة العربية تعد حسب مؤشرات عديدة المهد الأول لاستئناس الحيوانات وتأهيلها، وكل هذا يكشف لنا عن عمق الجذور التاريخية لهذه الكلمة وعن بعدها الاجتماعي والثقافي الواسع.

وهذا الأمر لا تؤكده الشواهد اللغوية والمعلومات الاثرية فقط وانما أيضاً ما نجده، في البيئة العربية الشرقية التي ظلت كما هو الحال في شمال أفريقية محتفظة بهذه التسمية حتى وقتنا الحاضر.

فقد جاء في (معجم قبائل العرب القديمة والحديثة) ان (الشاوية: من قبائل العراق تقطن شرق الفرات)[126].

وجاء في كتاب (عشائر العراق) ان الشاوي من بطون العبيد توجد (في بغداد وفي اليوسفية وهم أولاد شاوي بن نصيف الشاهر)[127].

كما نجد في عشائر سورية فخذاً من (البيايعة) يسمى «شاوية»[128].

ويذكر عثمان سعدي ان في (بادية الشام الصحراء المشتركة بين سورية والعراق مناطق يسمى سكانها (شواية) وهم يربون الشاة أيضاً)[129].

يضاف الى هذا ان كلمة (الشاوية) باتت بحكم رسوخها تاريخياً واجتماعياً علماً على أشخاص كثيرين لهم شهرتهم في أوساط مختلفة.

ففي العراق: هناك آل الشاوي، وشاوي بن نصيف من مشاهير رؤساء عشيرة العبيد في القرن الثاني عشر للهجرة ومظهر الشاوي[130].

وفي الجزائر: هناك على سبيل المثال (الشيخ العلامة يحيى الشاوي)[131] عاش في القرن السابع عشر ميلادي.

وفي المغرب: هناك قاض تامسنا (أبو زيد عبد الرحمان الغنامي الشاوي)[132] و(أبو العباس احمد محمد الشاوي... أشهر أولياء فاس المتوفي 1014 هـ ـ 1605م)[133] وابن عمر الكتاني محمد بن قاسم الشاوي[134].

وهكذا نصل الى أن المنشأ الأول الاجتماعي والثقافي اللغوي لكلمة «الشاوية» انما كان في أرض الجزيرة العربية ومنها انتقل الى الشمال الافريقي وظلت ثابتة به الى يومنا هذا. وهي أيضاً من الكلمات ذات أهمية لغوية وتاريخية في الدلالة على اصالة البربر الشرقية.

الطوارق:

مجموعة من برابرة الصحراء تنتشر فروعهم من (الهقار) حيث توجد عاصمتهم (تمانراست) حتى أقصى جنوب القطر الجزائري وما يلامسه من البلدان المجاورة.

وهناك فريق منهم يعرف (بالطوارق البيض) وهم (الذين خلعوا القطنيات الزرقاء والتزيّن باللباس العربي واستوطنوا عين صالح)[135] كما يعيش فريق آخر بالرباط بحي المشوار نزح اجدادهم من الصحراء[136] ونجد كذلك بعض عشائر الطوارق منتشرة بتاسيلي وهضبة الاكاكوس.

وتوصف مجموعة الطوارق من البربر بالملثمين لوضعهم اللثام على الأنف، ويقال لهم أيضاً (توارق) بابدال الطاء تاء مع نطق القاف بالصورة التي ينطق بها في الأرياف والبوادي الذي يشبه ويقارب نطق الجيم المصرية.

وما ذكره عبد الوهاب بن منصور والاستاذ عبد العزيز بنعبد الله من أنّ أصل الحرف تاء لا طاء[137]، ليس صحيحاً اذ أنهما ـ كما يبدو لم يعيرا اهتماماً للأصل اللغوي للكلمات وما تصاب به أحياناً من تشويه وتحريف في النطق وابدال الطاء تاء (وكذلك العكس وهو كثير)(*) معروف في العربية وقديم فيها. ويقال على سبيل المثال في فسطاط، فستاط بالتاء.

وكلمة «طوارق» من حيث انها مفردة لغوية ومن حيث صيغتها الصرفية، فهي عربية صميمة، ومن هنا تأتي أهميتها في علم الأسماء والمفردات لما يمكن أن تشير اليه فيما يتعلق بمنبتها وأصلها.

وطوارق جمع (طارقة) على القياس وهي العشيرة والفخذ فجاء في اللسان (طارقة الرجل: فخذه وعشيرته)[138].

فقد يكون الطوارق تسمّوا بهذا الاسم بصفتهم عشائر وأفخاذاً يعيشون على شكل جماعات بحكم وضعهم في الصحراء تشدهم الى بعضهم رابطة الدم ولحمة القرابة، فهو طارقي أي من عشيرة من عشائر الصحراء، ومن طارقة من طوارقها.

ففي التسمية علاقة بالبيئة وبالرابطة الدموية في نفس الوقت ومن الشواهد على هذا ما جاء في الشعر العربي القديم كما في هذا البيت[139].

شكـوت ذهــــاب طـــــارقتي اليهـــا
وطـــــارقتي بـــــأكنـــاف الـــدروب

ومعنى (طارقتي) عشيرتي.

ويمكن أن تكون كلمة طوارق جمع (طارق) على غير قياس مثل فارس، فوارس وهي بمعنى السالك لشعاب الصحراء والضارب في وهادها وأعماقها، وفي المصباح المنير: (طرق الطريق سلكه)[140] أي أن الطوارق تسموا بهذا الاسم لكونهم اختصوا بالعيش في الصحراء. فهم طرّاقها والمرتادون لمجاهلها، والمعروف عنهم من قديم أنهم شاركوا القبائل الأخرى في الاشراف على تسيير القوافل والحركة التجارية عبر مسالك الصحراء المتشعبة، ويمكن أن نستخلص هذا المعنى لكلمة (طوارق) من تلك الأغنية الشعبية الرائجة التي يقول مطلعها:

أنـــا الطـــرقي ولـــد الطـــرقيـــة
قطـــع الطـــريق والصحـــراء ليّـــة

ويمكن أيضاً أن تكون (طوارق) جمع (طارق) ولكن ليس بالمعنى السابق وانما بالمعنى الاتي ليلاً على اعتبار أنّ الصحراء كالليل وأن السالك لشعابها كالسائر في الليل. فكل منهما طارق ـ كما ان العابرين للصحراء كثيراً ما يضطرّون لقطعها ليلاً والاقامة نهاراً وذلك في زمن الحرّ خاصة، وهم لذلك طرّاق بالمعنى الحقيقي شأنهم شأن النجم الذي يسمى هو الاخر (طارقاً) لكونه يطلع ليلاً ويطرق الكون فيه كما في الآية (والسماء والطارق).

وعلى كل ومهما قلّبنا لفظة (الطوارق) وتتبعنا معانيها والسياقات التي وردت فيها، فهي عربية الأصل الأمر الذي يعطينا الحقّ في أن نقول ان الطوارق هم أيضاً قبائل شرقية الأصل ويتوافق هذا مع ما ذكره في شأنهم (المركيز دي موريس) في رسالة «انّ هؤلاء رجال عجيبون وأنّ أجدادهم قدموا من آسيا بكل تأكيد»[141].

جيتول ـ جدالة:

من المجموعات البربرية التي يذكرها المؤرخون الكلاسكيون الى جانب المور والنوميديين «الجيتول» Gaûtulúcus وهي مجموعة كانت منتشرة جنوب البلاد القرطاجنية ونوميديا والمور بمحاذاة الصحراء تعيش على الرعي.

واذا تتبعنا اسم هذه المجموعة في أقدم المصادر المعروفة فاننا لا نجد له ذكراً بين مجموعة القبائل اللّوبية التي هجمت على دلتا النيل في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد ودوّنت في السجلات المصرية في ذلك العهد، ولا نجده أيضاً ضمن القبائل التي ذكرها هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد.

والمصدر الوحيد الذي أورده لأول مرة على ما يبدو هو سترابون Strabon[142]

(58ق.م ـ 25م) الجغرافي اللاتيني ـ المعروف واذا صح هذا فان الأمر مهم في ضبط زمن ظهور قبائل الجيتول بشمال افريقيا الذي يمكن تحديده ـ بناء على هذه المعلومة في الفترة ما بين عهد هيرودوتس وعهد سترابون.

وعندما نقل هذا الاسم الى الكتابات العربية من الوثائق الاغريقية واللاتينية كتب مرة بصورة قريبة من اللفظ الأجنبي: جيتول، جيتوليون (الاغريقي كثيراً ما يلحقون حرق السين بالكلمات المنقولة الى لغتهم) وكتب مرّة أخرى بصورة عربية صرفة: جدالة وكان بعض الباحثين والمترجمين يجمع بين الصورتين(*) وباتت الغلبة الآن للكتابة بالصورة العربية.

والجدير في هذا الموضوع هو أن الكعاك جمع بين هذا اللفظ الأجنبي (جيتول) وبين اسم قبيلة بربرية كما في قوله: «الجيوتوليون أي الذين سماهم العرب فيما بعد جدالة...»[143] وهي شيء مهم اذ فيه توجيه الانظار الى أصل التسمية لم يقصده الكعاك والمعروف أن البكري وابن خلدون تعرضاً الى ذكر قبيلة جدالة[144] البربرية.

وصاحب (الحلل الموشية) أعطى تفاصيل أكثر عن هذه القبيلة، فهي فرع من صنهاجة تقطن الصحراء وأن صنهاجة قبيلة حميرية خرجت من اليمن في عهد مبكر قبل الاسلام واتجهت نحو المغرب واستوطنت الصحراء، وأنّ جدالة لم تخرج منها الا عند قيامها بدور في الأطوار الأولى لانبعاث الدولة المرابطية[144أ].

والقول بأنّ صنهاجة من حمير هو قول أغلبية المؤرخين والنسابين خاصة العرب.

ورغم أهمية ما قاله الكعاك فانه وغيره لم تخطر على بالهم فكرة الربط بين الكلمتين: جيتول، جدالة للنظر في أصل التسمية الأجنبية وما يمكن أن يكون قد شابها من تحريف في الكتابة والنطق، ومن الواضح أنّ (جيتول) محرّفة عن (جدالة) وهو تحريف لم يبعدها عن أصلها بدليل ان الكثيرين قد اهتدوا الى ذلك بدون قصد وباتوا يكتبونها (جدالة) بدون أن يتفطنوا انهم أرجعوها الى أصلها.

ومما يؤكد هذا وجود قبائل بربرية تحمل هذا الاسم وكذلك في العرب حيث نجد قبيلة «جديلة»[145] من طي القحطانية وقبيلة (جديلة) من أسد العدنانية، يضاف الى هذا ان تخصص الجيتوليين أي جدالة في الرعي فيه ما يدل هو الآخر على نسبهم الشرقي.

الفاروزيون: PHARUSII

مجموعة أخرى من سكان شمال افريقيا القدماء صنفت ضمن القبائل البربرية وكان موقعها في الجنوب الغربي للمغرب وفي البحث عن أصولها لم نجد في المراجع التي أمكن الاطلاع عليها ما يفيد بشيء في هذا الموضوع ما عدا التوراة فهي التي عثرت فيها على اسم يشبه اسم (الفاروزيين) وقد ورد في عدة مواطن من سفر الخروج وسفر التثنية وسفر يشوع مذكوراً مع الكنعانيين والأموريين والحثيّن والحوّيين واليبوسيّن والجِرجاشيّين وكذلك مع الرفائيّين.

وهذا الاسم هو (الفرزّيون) أتى في آيات عديدة نذكر بعضها على سبيل المثال:

ـ جاء في سفر الخروج، الاصحاح 33 الآية 2:

«وأنا ارسل أمامك ملاكا وأطرد الكنعانيين والأموريين والحِثِّيّين والفِرزِيين والحِوِّيّين واليبوسيّين».

ـ وجاء في سفر التثنية الاصحاح 7 الآية 1:

«متى أتى بك الربّ الهك الى الارض التي أنت داخل اليها لتمتلكها وطرد شعوبا كثيرة من امامك الحِثِّيين والجرْجاشيّين والأموريّين والكنعانيين والفِرزِّيين والحِوِّيّين واليبوسيّين سبعة شعوب أكثر وأعظم منك».

وجاء في سفر يشوع الاصحاح 17 الآية 15:

«فقال لهم يشوع ان كنت شعبا عظيما فاصعد الى الوعر واقطع لنفسك هناك في ارض الفِرزِّيّين والرّفائيّين اذا ضاق عليك جبل أفرايم».

فالفاروزيون في جنوب المغرب من المجموعات المهاجرة بكل تأكيد. والفِرزِّيّون من الاقوام التي حاربها العبرانيون المطرودون من مصر بقيادة (يشوع) حسب رواية التوراة الذي خلف موسى وتولّى الامر بعده.

وعند المقارنة ما بين الاسمين نلاحظ ما بينهما من اتفاق يوحي لنا بالتساؤل حول علاقة المجموعتين ببعضهما.

واذا كنا لا نستطيع الجزم بان الفاروزيين هم الفرزّيون أنفسهم أو شعبة منهم فان ذلك لا ينبغي احتمال وجود علاقة بينهما خاصة اذا ما وضعنا في الاعتبار تيار الهجرات المتدفق من الشرق عبر أزمان طويلة.

قبائل بربرية ذات أسماء عربية:

من الاشياء الملفتة للنظر وجود قبائل بربرية تحمل اسماء عربية محضة لا شائبة فيها للتحريف ومن الامثلة على ذلك:

1 ـ القبايل:

وهي جمع قبيلة. وقع التخلي فيها ـ كما لاحظ عثمان سعدي[146] ـ عن النطق بالهمزة فقيل: قبايل بالياء بدل الهمزة، والجدير بالاشارة هو ان هذه التسمية ليست مرتبطة باسم شخص (جد أعلى) أو بناحية من النواحي وانما هي منقولة عن تسمية من تسميات المجموعة شأنها في ذلك شأن بعض القبائل العربية مثل (جديلة)[147] العدنانية فقد تسمّت بهذا الاسم لانّ (جديلة) في أصل اللغة تطلق على القبيلة والناحية، ولذا فان اسمها في الاساس ـ (منقول عن واحد من هذين)[148] وهو ما ينطبق على التسمية (بالقبايل) وكذلك (الطوارق) فكل منهما مثل (جديلة) منقول عن اسم من اسماء المجموعة أي من (القبائل جمع قبيلة) ومن (الطوارق جمع طارقة).

2 ـ جميلة: وهي بطن من بطون كتامة، ذكرها ابن خلدون[149] وذكر الشيخ مبارك الميلي أن اختلاط كتامة بصنهاجة أدى إلى اندثار كثير من الاسماء لكن اسم (جميلة) ظل باقيا إلى عهدنا[150].

وفي الانساب العربية هناك:

ـ جميلة: وهي بطن من بني هلال مساكنهم في (أسنا وأسوان) من الديار المصرية[151].

ـ الجميلة: وهي فرع من بني تميم[152].

ـ الجميلة: وهي عشيرة من عشائر القيسية[153].

3 ـ حمزة: وهي قبيلة من زناتة، ذكرها أبو عبيدة البكري في كتابه (المسالك والممالك)[154].

4 ـ بنو عامر: وهم بطن من لواته. ذكرهم ابو العباس القلقشندي[155].

5 ـ بنو علي: وهي قبيلة تقطن قرية مكناسة. ذكرها الادريسي[156].

6 ـ توات وهي مجموعة تقطن في جنوب المغرب الاقصى[157]. وفي الانساب العربية هناك (تويت)[158] وهي بطن من قريش يقال لها أيضا (التويتات) من نسل تويت بن حبيب.

والملاحظ أن بعض القبائل البربرية الحاملة لاسماء مثل جميلة وحمزة وغيرهما تنتمي إلى مجموعات أكبر يقال عنها انها من أصول عربية وخاصة من اليمن واذا صحّ هذا فلا غرابة في وجود قبائل بأسماء عربية.

ولاحظ الاستاذ محمد سعيد الزاهري ذلك أيضا في اسماء الاعلام البربرية في اوائل الفتح الاسلامي حيث كان معظمها عربيا فيقول: «وكان يومئذ أكثر أسماء الاعلام عند البربر عربيا»[159].

الهوامش:

1 ـ Le Nouveau Dictionnaire orthographique interprétatif de tóute la langue grecaue «Dimitrakas» Edition 1970.

2 ـ **دائرة معارف بطرس البستاني** مادة (بربر).

3 ـ دائرة معارف بطرس البستاني مادة (بربر).

(*) خضع التقسيم الاداري لاطوار ظروف الاحتلال، وانتهى عموماً على النحو التالي:

ـ افريقية (القطر التونسي تقريباً).

ـ نوميديا (الجزائر الشرقية).

ـ موريطانيا القيصرة (الجزائر الغربية وعاصمتها شرشال).

ـ موريطانيا الطنجية (المغرب وعاصمتها طنجة).

4 ـ الحسن السائح: **الحضارة المغربية عبر التاريخ** الدار البيضاء 1975 ج 1 ص 43.
5 ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**ـ شرحه الدكتور مفيد محمد قميحة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت 1986 ج 1 ص: 447.
6 ـ معجم البلدان ـ بيروت 1965 ج 1 ص: 369.
7 ـ دائرة المعارف الاسلامية مادة (بربر) ج 3 ص: 543.
8 ـ **رحلة ابن بطوطة** ـ دار الكتاب اللبناني ـ بلا تاريخ ص: 168.
9 ـ رحلة ابن بطوطة ـ المصدر نفسه ص: 169.
10 ـ مادة (برّ) ج 1 ص: 370.
11 ـ مادة (بربر) ج 3 ص: 543.
12 ـ مروج الذهب ـ المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 106.
13 ـ مروج الذهب ـ المصدر نفسه ص: 107.
14 ـ **معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع** تحقيق مصطفى السقا ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1945 ج 1 ص 239.
15 و16ـ **صفة جزيرة العرب**: تحقيق محمد بن علي الأكوع ـ مركز الدراسات والبحوث اليمني بصنعاء الطبعة الثالثة 1983 ص 93.
17 ـ بنعبد الله عبد العزيز: **الموسوعة المغربية** ـ معلمة الصحراء ـ منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ـ الرباط 1976 ـ ص: 55.
18 ـ الفاسي علال: **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي** ـ لجنة نشر تراث زعيم التحرر الطبعة الرابعة ـ الرباط 1980 ص: 9.
19 ـ الحموي ياقوت: معجم البلدان ـ المصدر المذكور سابقاً ج 5 ص: 283.
20 ـ الفاسي علال: الحركات الاستقلالية... المصدر المذكور سابقاً ص 9.
21 ـ ابن منظور: **لسان العرب** مادة (برّ) دار صادر ودار بيروت بيروت 1955 ج 4 ص: 56.
22 ـ ابن منظور: لسان العرب ـ المصدر نفسه ص: 56.
23 ـ **معجم متن اللغة للشيخ** احمد رضا بيروت 1958 ج 1 ص 270.
24 ـ ابن منظور: لسان العرب مادة (برّ) المصدر السابق ج 4 ص: 56.
25 ـ الجوهري: **الصحاح، تاج اللغة، وصحاح العربية** دار الكتاب العربي بمصر مصر 1377 هـ ج 2 ص 588 تحقيق احمد عبد الغفار.
26 ـ **وصف افريقيا** ـ ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر طبعة دار المغرب الاسلامي بيروت 1983 ج 1 ص 34.
26أ ـ أبوزكرياء: **كتاب السيرة وأخبار الائمه** ـ تحقيق عبد الرحمان أيوب الدار التونسية للنشر، تونس 1988 ص: 54.
27 ـ المنجد مادة (بربر).
28 ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ المصدر المذكور سابقاً ج 2 ص: 54.
29 ـ مادة (برّ) ج 3 ص 370 ـ طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ بلا تاريخ.
30 ـ السلاوي أحمد بن خالد الناصري: **الاستقصاء لاخبار دول المغرب الأقصى** ـ الدار البيضاء 1954 ج 1 ص 54.
31 و32ـ وصف افريقيا... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 34.
33 ـ الجوهري: الصحاح. المصدر المذكور سابقاً ج 2 ص: 588.
34 ـ ابن منظور: لسان العرب مادة (برّ) المصدر المذكور سابقاً ج 4 ص: 55.
35 ـ ابن منظور لسان العرب المصدر نفسه ص: 55.
36 ـ ابن منظور: لسان العرب ـ المصدر نفسه ـ وتاج العروس للزبيدي ج 3 ص: 38.
37 ـ الفيروزأبادي مجد الدين: **القاموس المحيط** ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ بلا تاريخ ـ ج 3 مادة (بر) ص 370.

38 ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ المصدر المذكور سابقاً ص: 55-56.
39 ـ الزبيدي محب الدين أبو الفيض: **تاج العروس من جوهر القاموس** ـ المطبعة الخيرية. مصر 1306 هـ ج 3 ص 38.
40 ـ الزبيدي: تاج العروس ـ المصدر نفسه ص: 39.
41 و42ـ مادة (برّ) ج 1 ص 371.
43 ـ ابن منظور: لسان العرب ـ المصدر المذكور سابقاً ج 4 ص: 56.
44 ـ مادة (برّ) ج 1 ص 370.
45 ـ رحلة ابن بطوطة: المصدر المذكور سابقاً ص: 168.
46 ـ العزواني المحامي عباس: **عشائر العراق** بغداد 1937 ج 1 ص: 280.
47 ـ ذكر هذه المجموعة أيضاً فؤاد حمده: **قلب جزيرة العرب** ص 171 وعمر رضا كحاله: **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة** ج 1 ص 71.
48 ـ العزواني: عشائر العراق ـ المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 278.
49 ـ ص 148 .Dictionnaire Hébraique
50 ـ ابن جني ـ ابو الفتح عثمان: **الخصائص** تحقيق محمد علي النجار دار الكتب المصرية الطبعة الثانية. القاهرة 1955 ج 2 ص 52.
51 ـ الكُمّة: القلنسوة المدوّرة ـ وتَكَمْكَم: لبسها ـ الثرّة والثرثارة: الغزيرة النبع.
52 ـ ابن جنّي: الخصائص ـ المصدر المذكور سابقاً ج 2 ص: 55.
53 ـ الأعلم الشنتمري: **أشعار الشعراء الستة الجاهليين** ـ دار الافاق الجديدة الطبعة الثالثة بيروت 1983 ـ ص 67 و68.

(*) اللاحب: الطريق الواضح الذي لحته الحوافر فصار طريقاً واضحاً ولاحب بمعنى ملحوب.
سافه: شمّه.
العود: الجمل المسن ـ والنباطي: المنسوب إلى النبط وهو الفخم.
جرجر: رغا وضجّ وعرف انه غير مسلوك اذ لم يجد في ترابه أثراً لأوابل الدواب.
مقصوص الذناب: أي معاود لسير البريد حيث انه اعتاده وألفه.
خيل بربر: الاجود والأكثر صلابة.

53أ ـ **الاكليل** للهمداني ج 8 ص 47 ـ تحقيق الأب انستاس الكرملي ـ بغداد 1951.
ذؤابة: هنا أعلى الشيء ـ ناعط: جبل باليمن به حصن يقال له ناعط، بربر: اسم جهة.
53ب ـ ابو فرج الاصبهاني: **كتاب الأغاني** ـ طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية القاهرة بلا تاريخ ج 11 ص: 155.
الأحزة: جمع حزيز وهو ما غلظ من الأرض وانقاد (طال).
بربر: جيل من الناس.

54 ـ **سيرة ابن هشام** ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة 1963 ج 1 ص: 44.
55 ـ صفة جزيرة العرب ـ المصدر المذكور سابقاً ص: 326.
56 ـ ذكر هذا هشام بن محمد الكلبي: انظر فتوح البلدان للبلاذري ص 231. والطبري ج 1 ص 442 وعجز البيت أورده ابن خلدون: كتاب العبر.. ج 6 ص 164 بهذه الصورة:
من أرض الضنك للعيش الخصيب.
57 ـ ينسب هذا الرأي لمالك بن المراحل أورده ابن خلدون: كتاب العبر ج 6 ص 148.
58 ـ ينسب للعباس بن مرداس السلمي: انظر كتاب السيرة وأخبار الأيمة ص 54.
59 ـ الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقي: وصف افريقيا المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 34 ـ والسلاوي ـ الاستقصا ج 1 ص 54.
60 ـ ابن خلدون: **(كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)**... دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 1959 ج 6 ص: 176.
61 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 170.

62 ـ نزوح البربر إلى شمال افريقيا ـ **مجلة مجمع اللغة العربية** بالقاهرة ماي 1984 ص: 107.
63 ـ ابن خلدون كتاب العبر... المصدر المذكور سابقاً ج 6 ص: 107.
64 ـ السيوطي عبد الرحمان جلال الدين: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** ـ شرحه محمد أحمد جاد المولى ومن معه ـ بلا تاريخ ومكان صدور ج 1 ص: 223.
65ـ66 ـ 67 ـ 68 ـ 69 ـ الهمداني: صفة جزيرة العرب ـ المصدر المذكور سابقاً ص: 248.
70 ـ ابن منظور: لسان العرب... المصدر المذكور سابقاً مادة «عجم».
71 ـ ابن عبد البر أبو عمر يوسف القرطبي: **القصد والامم في التعريف بأصول انساب العرب والعجم**. مكتبة القدسي ـ القاهرة 1350 هـ ص: 65 ـ وابن خلدون كتاب العبر ج 6 ص: 186.
72 ـ طه باقر: مقدمة في **تاريخ الحضارات القديمة** ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ الطبعة الثانية ـ بغداد 1986 ـ ج 1 ص: 76.
73 ـ د. عامر سليمان: التراث اللغوي ـ الوارد في (**حضارة العراق**) دار الحرية للطباعة، بغداد 1985 ج 1 ص 312.
73أ ـ **فتوح افريقيا والأندلس**: تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع، بيروت 1964 ص: 27.
73ب ـ **كتاب التيجان في ملوك حمير**: نشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ـ صنعاء 1974 ص: 421.
74 ـ دائرة المعارف لبطرس البستاني مادة (بربر).
75 ـ الكعاك عثمان: **البربر** ـ سلسلة كتاب البعث ـ تونس 1956 ص 101.
76 ـ دائرة المعارف لبطرس البستاني ـ مادة (بربر) المصدر المذكور سابقاً.
77 ـ دائرة معارف لبطرس: المصدر نفسه.
78 ـ **تاريخ أفريقيا الشمالية**: تعريب محمد مزالي والبشير بنسلامه ـ النشرة الثالثة : الدار التونسية للنشر 1978 ج 1 ص: 12.
79 ـ ص 122 (السمات السامية في اللغة اللوبية) Der semitische charakter der libyschen in ZA, 50, leipzig 1952.
80 ـ ابن خلدون ـ كتاب العبر... المصدر المذكور سابقاً ج 6 ص 177 و178.
81 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص 191.
82 ـ وصف افريقيا... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 39.
83 ـ الاستاذ محمد سعيد الزاهري: هل البربر عرب وهل لغتهم لغة ضاد أخرى **الزمان** عدد 241 تونس 1934.
84 ـ **تاريخ المغرب في القرن العشرين**. ترجمة نيقولاً زيادة ـ دار الثقافة الطبعة الثانية بيروت 1980 ص 105.
85 ـ دائرة المعارف لبطرس البستاني مادة (بربر) المصدر المذكور سابقاً ص 278.
86 ـ دائرة المعارف لبطرس البستاني ـ المصدر نفسه.
87 ـ الشنيتي محمد البشير ـ **سياسة الرومنة في بلاد المغرب** ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر 1982 ص: 18.
88 ـ **التوراة**: سفر التكوين: الاصحاح العاشر الايات 15 ـ 16 ـ 17 ـ 18.
89 ـ كتاب: **التيجان في ملوك حمير**: نشر مركز الدراسات والبحوث اليمنية ـ الطبعة الثانية ـ صنعاء 1979 ص 55.
90 ـ **أساس البلاغة مادة** ـ مزر ـ تحقيق الاستاذ عبد الرحيم محمود ـ القاهرة 1953 ـ ص 428 ـ وجاء في (لسان العرب) اسناد البيت الأول لعباس بن مرداس وان البيت الثاني انشده الفراء.
91 ـ تاريخ افريقيا الشمالية... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 12.
(*) من الأمثلة على ذلك تمردها في عهد الامبراطور كلوديوس الذي اتسع نطاقه حتى شمل اجزاء من نوميديا. وقد ذاق الرومان الأمرين في سبيل اخماده.
كما اشتركت في الثورة التي انخرطت فيها قبائل الحلف الخماسي بداية من 253م.
92 ـ ب. هـ. وارمنجتون: العصر القرطاجي الوارد في (**تاريخ افريقيا العام**) جون افريك ـ اليونسكو. تورينو (ايطاليا) 1985 ج 2 ص 454.
93 ـ ب. هـ. وارمنجتون: العصر القرطاجي... المصدر نفسه ص 473.

94 ـ تاريخ افريقيا الشمالية... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 131.

(*) هذه الممالك وجدت غرب البلاد القرطاجنية وهي على التوالي ـ نوميديا الشرقية ونوميديا الغربية وموريطانيا.

(*) أثناء حرق الرومان لمدينة قرطاج التهمت النيران الوثائق والكتابات وخزائن الأرشيف. وما قدّم للملوك النومنديين من كتب بعد هذا الحرق ضاع هو الآخر ولم يعثر على شيء منه.

95 ـ جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية ـ المصدر نفسه ص: 87.

(*) حدثت هذه الهجمة في عهد الملك «مربنتاح». انظر فصل «ظهور البربر بشمال افريقيا» 8 نقش الكرنك.

(*) يقال له (Sallustius) عاش في القرن الأول قبل الميلاد (87–35) وعمل واليا على افريقية له كتاب في التاريخ وكتاب (حرب يوغرطة).

(*) وهذا نص كلام (طلوست) منقول من كتاب **مدينة المغرب العربي في التاريخ** لأحمد صفر ص: 60.

«وبعد موت البطل اليوناني هيرقليس باسبانيا انتشرت فلول جيشه بافريقية، وهو جيش يتركب من الماديين (Médes) والأرمن (Arméniens) من جهة والفرس (Parses) من جهة أخرى.

فأما الماديون والأرمن فقط اختلطوا بالوبيين على ضفاف البحر المتوسط، ثم جرفوا شيأ فشيأ كلمة موديين إلى موريين (Maures).

أما الفرس فقد زادوا اقتراباً من المحيط واختلطوا بالجيوتوليين (Les gétules) وهم سكان الجنوب. ولذلك أشار المؤرخون إلى وجود القبائل في تلك الجهة يعرفون بالفاروزيين (Pharusü) والفرسيين (Perorsi).

وبما ان تلك الجهات كانت خالية من مواد الخشب، فان هؤلاء الفرس اتخذوا الأكواخ من سفنهم التي قلبوها على الأرض وحافظوا على ذلك الشكل من البيوت حتى فيما بعد، لما لقبوا بالنومديين (Numides) أي المرتسلين، لما كانوا عليه من كثرة التنقل والترحال.

(*) يرى جوليان ان لفظة (نوميديا) (قد تكون مأخوذة من لهجة البلاد نفسها ص 131 ج 1 تاريخ شمال افريقيا وهو بذلك يرفض مزاعم صلوست مؤكداً أن (توغل الفرس والميديين les médes والأرمن في افريقيا بعد موت هيرقليس ليس الا اسطورة رواها صلوست salluste لا نصيب لها من الصحة) ص 71 المصدر نفسه.
ويرى ب. هـ وارمنجتون: (ان الاغريق والرومان اشتقوا ـ خطأ اسم النوميديين من كلمة يونانية تعني (الرعاة) ويعنون بها وصف طريقتهم في الحياة وهي حياة البدو الرحل) ص 454 تاريخ افريقيا العام المجلد الثاني.

96 ـ **تاريخ الجزائر في القديم والحديث** (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) جزائر 76 ص 90.

97 ـ سفر التكوين: الاصحاح العاشر الآية 6.

98 ـ باقر طه: مقدمة في تاريخ الحضارات.. المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 407.

99 ـ سليمان توفيق: **اسطورة النظرية السامية** ـ دار دمشق 1982 ج 1 ص 153.

100 ـ سفر التكوين: الاصحاح العاشر الآية 16.

101 ـ حتّي فليب: **لبنان في التاريخ**: مؤسسة فرنكلين 1959 ص 81.

102 ـ سليمان توفيق: اسطورة... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 153.

103 ـ هلدار ـ انظر تاريخ حضارة وادي الرافدين ج 1 ص 510 المصدر الموالي.

104 ـ **تاريخ حضارة وادي الرافدين**: دار الحرية للطباعة بغداد 1983 ج 11 ص 17.

105 ـ جورج رو: العراق القديم ـ ترجمة حسين علوان حسين ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد 1984 ص 204 و256.

106 ـ باقر طه: مقدمة في تاريخ الحضارات... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص: 408.

107 ـ الصليبي كمال: **التوراة جاءت من جزيرة العرب** ـ ترجمة عفيف الرزّاز مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م الطبعة الثانية ـ بيروت 1986 ص: 262.

108 ـ الصليبي كمال: التوراة جاءت... المصدر نفسه ص: 262.

109 ـ المصدر نفسه وخاصة الفصل الأول والرابع منه.

(*) الهكسوس: أول من استعمل هذا الاسم الكاهن المصري (مانيتون) في كتابه الذي ألفه في القرن الثالث قبل الميلاد، وأصلهم من الجزيرة العربية، ومعظم الباحثين على هذا الرأي وهم في نظرهم كنعانيون، وهناك من يعتبرهم من الاريين (من الحوريين) بناء على بعض الآثار منها آثار لغوية محدودة ناجمة عن التأثيرات

اللغوية في المنطقة التي امتدت الى مصر، فقد قادت الهجرات خلال النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد الكثيرين الى بابل والحوريين الى شمال بلاد ما بين النهرين حتى فلسطين والبحر المتوسط والمعروف حسب بعض المصادر (مصر القديمة: جان فركوتر، تاريخ حضارة وادي الرافدين احمد سوسة) ان جماعات لحقت بالهكسوس أثناء حكمهم لمصر منهم أقوام هندية ـ أوربية ـ وتلقّف لويس عوض هذا الرأي لأغراض عرف بها في الحقل الثقافي، وبنى عليها تصورات لا أساس لها من الصحة في كتابه (فقه اللغة العربية) والهكسوس استوطنوا الشام بعد هجرتهم من الجزيرة العربية وتركوا فيه آثار معمارية وثقافية خلال القرن الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد ثم غزوا مصر واستوطنوا طيلة قرنين وساهموا في ازدهار حضارتها فأدخلوا اليها ـ حسب مصادر عديدة الحصان والعربة والدروع وأنواعاً جديدة من الأسلحة مثل السيف المقوس والسهم المركب. أما اسمهم فهو مركب من كلمتين مصريتين وهما (هيك) بمعنى ملك أو زعيم و(شاسو) بمعنى رعاة أي ملوك الرعاة أو البدو ويسميهم العرب العمالقة أو العرب البائدة.

110 ـ علي جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ دار العلم للملايين الطبعة الثانية بيروت 1976 ج 1 ص 567.

111 ـ الميلي الشيخ مبارك: تاريخ الجزائر في القديم والحديث المصدر المذكور سابقاً ص 82.

112 ـ انظر الفصل: المؤرخون المسلمون والبربر.

113 ـ ب. هـ وارمنجتون: العصر القرطاجي ـ المصدر المذكور سابقاً ج 2 ص 473.

114 ـ جوليان: تاريخ افريقيا... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 145.

(*) وقعت هذه الرحلة في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد وحسب المصادر القديمة، تمّ نقشها على لوحة من النحاس الا أن النص الفينيقي ضاع ولم تبق الا الترجمة اليونانية ضمن كتابات هيردوتس ونجد النصين بالعربية في كتاب (مدينة المغرب العربي في التاريخ) لاحمد صفر ص 127 وما بعدها ـ وفي تاريخ المغرب الكبير ج 1 الدكتور رشيد الناضوري ص 229 وما بعدها وما نقلته أخذ من كتاب احمد صفر.

114أ ـ جوليان: تاريخ افريقيا... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 145.

(*) استعملت الحمير في الترحال وفي قوافل الصحراء ذات المسافات البعيدة قبل ظهور الحصان والجمل ـ وفي النصوص المصرية هناك ما يدل على استعمالها في قطع الاف الكيلومترات في الصحراء الكبرى ـ كما جاء في نص خرخوف (حاكم الجنوب ورئيس القوافل) حيث استعان بحوالي 300 حمير في السفر الى بلاد (يام) و(واوات) باذن من ملكه (مرنرع) من ملوك الأسرة الفرعونية السادسة.

وذكر هيرودوتس أن الحمير في أيامه كانت تستعمل في عبور الصحراء وأن النسمونيين وصلوا الى قلب القارة الافريقية انطلاقاً من خليج سرت على ظهور الحمير.

ونلاحظ في النقوش الصحراوية أن بعض الحيوانات التي تجر العربات ليست خيولاً اذ هي رغم عدم وضوحها طويلة الاذنين وقصيرة القامة، وهذه من صفات الحمير. وهو ما يؤكد دخول الحمير الى المنطقة كان في زمن مبكر وبفضل هؤلاء المهاجرين الشرقيين.

115 ـ جوليان: تاريخ افريقيا... المصدر نفسه ص: 207.

116 ـ **دائرة المعارف الاسلامية** مادة (شاوية) ج 13 ص 146.

117 ـ **المقدمة** ـ طبعة دار الرائد العربي ـ بيروت 1982 ص 35.

118 ـ المقدمة: المصدر نفسه ص 121.

119 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقاً ج 2 ص 27.

120 ـ بنعبد الله عبد العزيز ـ **الموسوعة المغربية** للاعلام البشرية والحضارة ـ معلمة المدن والقبائل ـ ملحق 2 ـ الرباط 1977 ص 285.

121 ـ (مادة (شاوية) ج 13 ص 146.

122 ـ الجوهري: الصحاح... المصدر المذكور سابقاً ج 6 ص: 2336.

123 ـ ابن منظور: **لسان العرب** مادة (شوي) دار لسان العرب بيروت ـ بلا تاريخ ـ مجلد 2 ص 387.

124 ـ ابن منظور: لسان العرب مادة (شوي) المصدر نفسه ص: 387.

125 ـ ابن منظور: لسان العرب... المصدر نفسه ص 387.

126 ـ كحاله عمر رضا: الجزء الثاني ـ المكتبة الهاشمية بدمشق ـ دمشق 1949 ص 576.
127 ـ الغزواني عباس: المصدر المذكور سابقاً ج 3 ص 34 و153.
128 ـ كحاله عمر رضا: المصدر المذكور سابقاً ج 2 ص 576.
129 ـ عروبة الجزائر... المصدر المذكور سابقاً ص 37.
130 ـ الغزواني عباس: عشائر العراق... المصدر المذكور سابقاً ج 3 ص 34 و153.
131 ـ خوجه حسين: **ذيل بشائر الايمان بفتوحات آل عثمان** ـ تحقيق الطاهر المعموري ـ طبعة الدار العربية للكتاب ـ تونس 1975 ص: 135.
132 ـ السلاوي: الاستقصا... المصدر المذكور سابقاً ج 1 ص 135.
133 ـ دائرة المعارف الاسلامية مادة (شوي) المصدر المذكور سابقاً ج 13 ص 145.
134 ـ بنعبد الله عبد العزيز: الموسوعة المغربية ـ ملحق 2 المصدر المذكور سابقاً ص 28 ـ الاعلام للمراكشي ج 4 ص 199.
135 ـ بنعبد الله عبد العزيز: الموسوعة المغربية، معلومة الصحراء (1) المصدر المذكور سابقاً ص 73، 74.
136 ـ بنعبد الله عبد العزيز: الموسوعة المغربية... المصدر نفسه.
137 ـ قبائل المغرب ص 294 هامش 78 ـ الموسوعة المغربية معلمة الصحراء (1).
(*) يكثر ابدال التاء طاء في صيغة افتعل مثل: اصطبر ـ اضطرب ـ اطرد ـ اضطلم ـ اطّعن وأصلها اصتبر، اضترب، اظتر، اظتلم، اطعن ـ الخصائص لابن جني ج 2 ص 141. 230.
ويقال انّ بعض بني تميم يقولون في أفلت أفلط بالطاء كما يقلب بنو تميم تاء الضمير طاء وهو قليل فيقولون: فحصط، وحصط واحطّ وحفطّ أي فحصت وحصت واحطت وحفظت ـ الشافية لابن الحاجب ص 226–227 ج 3.
138 ـ ابن منظور: مادة (طرق).
139 ـ ابن منظور: مادة طرق ـ المصدر نفسه ص 224.
140 ـ مرجع سابق ص 350.
141 ـ ص 183 Jean Senran: Parcours Marazig Edition La Rapide - Tunis 1948.
(*) على سبيل المثال: رشيد الناضوري في تاريخ المغرب الكبير ج 1 ص 296 كتبه بالصورة ـ العربية الصرفة ـ أحمد صفر في مدينة المغرب العربي ج 1 ص: 17 كتبه بالصورتين ـ مزالي وبنسلامه في ترجمة تاريخ شمال افريقيا لجوليان كتباه بالصورة العربية الصرفة ـ وكتب بالصورتين في ترجمة الفصل 18 من تاريخ افريقيا العام ج 2 ص 454.
142 ـ اتّوري روسي Ettor Rossi: **ليبيا منذ الفتح العربي** حتى سنة 1911 تعريب خليفة التليسي ـ دار الثقافة بيروت 1974 ص 25.
143 ـ البربر: المصدر المذكور سابقاً ص 18.
144 ـ كتاب العبر... المصدر المذكور سابقاً ج 6 ص 179.
144أ ـ **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية** لمؤلف مجهول اندلسي من أهل القرن الثامن الهجري حققه الدكتور سهيل زكار والاستاذ عبد القادر زمامه طبع دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء 1979 ص 17–18–19.
145 ـ القلقشندي ابو العباس: نهاية الأرب في معرفة انساب العرب المصدر المذكور ص 205.

146 ـ عروبة الجزائر... المصدر المذكور سابقا ص: 37.
147 ـ القلقشندي: نهاية الارب .. المصدر المذكور سابقا ص: 205 والقاموس المحيط مادة (جدل) ج 3 ص: 347.
148 ـ القلقشندي: نهاية الارب.. المصدر نفسه ص: 205.
149 ـ ابن خلدون: كتاب العبر.. المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 302.
150 ـ تاريخ الجزائر في القديم والحديث.. المصدر المذكور سابقا ص: 100.
151 ـ القلقشندي: نهاية الارب.. المصدر المذكور سابقا ص: 219 ومعجم قبائل العرب لكحاله ج 1 ص: 208.

152 ـ الغزواني عباس: عشائر العراق.. المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 198.

153 ـ الغزواني عباس: عشائر العراق.. المصدر المذكور سابقا ج 3 ص: 139.

154 ـ المسالك والممالك: **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب** ـ الجزائر 1911 ص: 83.

155 ـ القلقشندي: نهاية الارب.. المصدر المذكور سابقا ص: 331.

156 ـ **المغرب العربي من (نزهة المشتاق في اختراق الافاق)** حققه ونقله عن الفرنسية محمد حاج صادق.

157 ـ بن منصور عبد الوهاب: قبائل المغرب.. المصدر المذكور سابقا ص: 4.

158 ـ القلقشندي: نهاية الارب.. المصدر المذكور سابقا ص: 22 وسبائك الذهب ص: 48 ومعجم قبائل المغرب ج 1 ص: 136.

159 ـ هل البربر عرب ـ **الزمان** ـ مصدر مذكور سابقا.

مظاهر أخرى من التشابه

المعلومات المتقدمة حول الاصل الشرقي للبربر، تجعلنا نتصور أن عناصر التشابه بينهم وبين العرب (قدامى وحديثين) لا يمكن ان تقتصر على ما ذكر، فلابد أن تكون أوسع وأن تشمل جوانب أخرى في نظامهم وثقافتهم وأسلوب حياتهم، وهذا ما نخوض فيه في الفقرات التالية:

أولا ـ التنظيم الاجتماعي للبربر:

مواصلة للمنهج المتبع القاضي بتناول كل ما أمكن من جوانب المجتمع البربري تعيّن البحث في التنظيم الاجتماعي لهذا المجتمع بغية التعرف عمّا اذا كان في مكوّناته التاريخية شبه بما في مكوّنات التنظيم الاجتماعي للجماعات العربية قديمها وحديثها، ولا يعني هذا دراسة التنظيم الاجتماعي من حيث هو تشكيلة تاريخية لها مكوّناتها الاقتصادية والاجتماعية ولها حاجاتها الروحية والثقافية، فهذا أمر آخر وانما المقصود ان نتناول بعض الجوانب والمظاهر التي هي من صميم التنظيم الاجتماعي العام.

والمجتمع البربري ـ كما نعرفه ـ من خلال تاريخه الطويل قبلي وللقبيلة فيه مكانة خاصة باعتبارها وحدة اجتماعية متميزة لها اسمها الذي يحمله كل المنتمين اليها. ولا تلبث هذه القبيلة، بحكم سنة التكاثر وتزايد الافراد ان تنقسم إلى قبيلتين أو أكثر و إلى مجموعة من الافخاذ والبطون، وتفرض عليها الاحداث والاوضاع التي تعيشها أن تدخل مع غيرها في اتحادات تحت قيادة زعيم حربي مثل اتحاد قبائل (الليبو) وقبائل (المشاوش) قبل العهد الفينيقي ومثل اتحاد قبائل (المور) وقبائل (الأمازيغ) وقبائل «جدالة» (الجيتول) وقبائل الحلف الخماسي في العهد الفينيقي والروماني ومثل اتحاد قبائل زناته وقبائل صنهاجة ومصمودة في العهد الاسلامي إلى آخره.

ونظرا لقلّة الوثائق فلا نعرف من القبائل قبل مجيء الاسلام الا عددا محدودا،

فالوثائق المصرية المعروفة ذكرت لنا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد عددا قليلا من القبائل، مثل الليبو، السبد، المشوش، الأسبت، القايقش، الشيبيت، الهسا، البقن، وذكرت كذلك قبل هذا التاريخ بزمن طويل قبائل (التحنو) وقبائل (التمحو).

أما الوثائق اليونانية واللاتينية التي لم تحفل بتفصيل القبائل البربرية فما ذكرته منها لا يتجاوز العشرين قبيلة منها على سبيل المثال:[1] الناسامون Nasamons والبيسيل Psylles ببرقة وطرابلس والمكيل Makyles والماكسي Makys بجهة الساحل التونسي ونفطه وتوزر (والمشاوش والأوسوس بالشرق وبالجنوب الشرقي من شط الجريد)[2] والنوميديون بالشرق وهناك قبائل المازيس (مازيغ) في نوميديا الغربية، وقبائل الماسيل في نوميديا الشرقية[3] والموريون في المغرب الاقصى والفاروزيون في الجنوب الغربي، والجيتوليون في الداخل، بمحاذاة الموريين والنوميديين على حدود الصحراء.

وإلى جانب هذا هناك القبائل التي عرفت بمقاومتها للرومان مثل (قبائل البقواط والبوار المنتمية إلى مجموعة الموريين وقبائل الموزولامي الضاربة ببلاد النوميديين والجيتوليين ثم القبائل التي عرفت في النصوص اللاتينية بقبائل الحلف الخماسي الضاربة بمنطقة الصومام)[4].

فالقبيلة البربرية عريقة في التاريخ الاجتماعي البربري وتتكون هذه القبيلة من خلية اساسية هي الاسرة وعمادها الاب الذي له عليها النفوذ والسلطة المطلقة، ومهما اتسع نطاقها لا تضمّ الا الاقارب الذكور ذوي النسب الواحد والسلالة الواحدة، ومن هنا كان الارث وانتقال الاموال فيها من حقّ الابناء الذكور وحدهم أما البنات وكذلك الزوجات فلا نصيب لهن فيه.

وما تزال بعض الجماعات البربرية محتفظة إلى عصرنا بجانب كبير من أعرافها القديمة في موضوع الارث ومواضيع أخرى عازفة عن الامتثال إلى بعض التشريعات الاسلامية المدنية الاكثر اعتبارا بحق المرأة من الاعراف البربرية نفسها.

ولا يستثنى من هذا النظام الاسري الذي تعيش عليه المجموعات البربرية بالشمال الافريقي الا الطوارق حيث نجد الاسرة عندهم تقوم على الأم صاحبة النفوذ فيها، والنسب يحسب من جهتها وهي مداره، ولذا كان الارث فيها يختلف عن الارث في الاسرة السابقة.

فالابناء لا يرثون من أبيهم وانما خالهم، وهذه الوضعية عند الطوارق ما هي الا حالة من حالات نظام الامومة القديم، ذكرها ابن بطوطة[5] في رحلته عبر الصحراء كما اشار إلى ذلك هيرودوت[6] من قبل على اساس أنها حالة من حالات المجتمع اللوبي القديم.

فالاسرة البربرية، ومن زمن قديم ـ ما عدا الطوارق ـ أسرة أبوية Famille Patriarcale والتكاثر يؤدي إلى تكوين البطون أو القرية وهو ما يسمى عند البربر (بالاخس) وانتظام العائلات في مجموعات أوسع داخل القبيلة لا يؤدي إلى ذوبانها،

بل تظل محتفظة باستقلالها ولها رأيها وممثلها في المجلس المشترك.

والقبيلة بحكم كونها وحدة اجتماعية متميزة لها تقاليدها وأعرافها التي هي بمثابة الدستور أو الشريعة، تستند اليها في تنظيم علاقاتها وفي تحديد ما للافراد وما عليها من الحقوق والواجبات وفي قبول العناصر الخارجية وانضمامها طبقا لمواثيق العهود والولاء أو في انضمام القبيلة نفسها في اتحادات وأحلاف مع قبائل أخرى من أجل الهجوم أو الدفاع تحت قيادة زعيم مقتدر كان يسمى (اقليدا).

والرابطة المعنوية التي تستند اليها القبيلة البربرية في وحدتها وتماسكها هي تلك سماها ابن خلدون (العصبية) الناشئة عن لحمة القرابة والشعور بالنسب الواحد مما يجعل افراد القبيلة يدا واحدة على من سواهم، فهي (النعرة على ذوي القربى واهل الارحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة)[7].

ولكن هذا لا يمنع من حدوث النزاعات في صفوف القبيلة الواحدة بين بطونها وتجمعاتها الاسرية، وفي مثل هذه الحالة يخفت الشعور بالولاء للقبيلة ويحل محله شعور آخر بالتضامن أشد وأقوى لمن هم أقرب نسبا. ولذا نجد ابن خلدون يقول «اعلم ان كل حيّ أو بطن من القبيلة وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصبيات أخرى لانساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم، مثل عشيرة واحدة وأهل بيت واحد أو اخوة بني أب واحد لا مثل بني العم الاقربين أو الابعدين، فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصبيات في النسب العام.

والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام الا انها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة»[8].

ولكن بالرغم مما يجدّ في القبيلة من نزاع وصراعات، فان الشيء الهام الجدير بالملاحظة هو ان جميع أفراد القبيلة يعتقدون بانهم منحدرون من سلالة أب واحد وأن انتماءهم اليها قائم على ما بينهم من رابطة الدم والنسب الواحد.

وهذه الظاهرة في تكوّن القبائل أدّت إلى ظهور جماعة النسابين وكان للبربر نسابوهم المشهورون، عبر عصور مختلفة يدّعون معرفة أنساب القبائل البربرية والاصول الاولى التي انحدروا منها.

وذكر ابن خلدون عددا منهم ونوّه ببعضهم، غير ان بعض الباحثين شكك في صحة ما تدعيه القبيلة في صحة النسب ووجود رابطة دموية حقيقة بين أفرادها[*].

واذا ما قارنا هذه الجوانب من التكوين الاجتماعي للبربر بغيرهم من الشعوب الاخرى، فنجد ان هناك اختلافا بيّنا بينهم، وبين الشعوب الاوربية بصفة عامة.

وهذا ما يشير اليه (الفرّد بل) في معرض حديثه عن الاسرة البربرية عندما قال بان هذه الاسرة (ليس عائلة ménage كما هي الحال عند الغربيين بل جماعة من العائلات تتألف من مجموع الابناء والاحفاد مع زوجاتهم وابنائهم تحت سلطة الاب أو الاخ

الاكبر.)[9]

كما يذكر (جيزل) في الغرض نفسه من أن عناصر القبيلة عند الهند ـ أوروبيين والغاليين والجرمان خاصة (تماسك في وحدة ترابية وسياسية وادارية ودينية واقتصادية) في حين ان الامر يختلف عند البربر اذ نجد (أن القبيلة ليست غير مجموعة من الجماعات التي تحرص كل الحرص على استقلالها ونزعتها الانفصالية وتنفصل بسهولة عن القبيلة ابتغاء الارتباط بقبيلة أخرى حيث ترى في ذلك مصلحة لها)[10].

أما بالنسبة للعرب، فأمرهم يختلف عن الاوربيين فان التشابه بينهم وبين البربر يكاد يكون تاما سواء فيما يتعلق بنظام الاسرة القائمة على النفوذ المطلق للاب وعلى الزواج الشرعي وتعدد الزوجات وتحريم الزنا، أو في ما يتعلق بالجانب الخلقي والاعراف المتبعة من حيث اعزاز الجار (وحماية النزيل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكاره والثبات في الشدائد)[11].

أو فيما يتعلق بنمط الحياة واسلوب المعيشة فكلاهما يتخذ مسكنه من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر والوبر ولباسهما اكثره من الصوف ويعيش البدو منهما على الظعن وطلب المرعى يربون الشاة والبقر والابل والخيل للركوب والنتاج[12].

ومن عادات البربر الذي ذكرها ابن خلدون أن (رؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق)[13] وهذه العادة نفسها موجودة في سكان جنوب الجزيرة العربية وقد لاحظها ابن بطوطة في أهل مدينة ظفار حيث قال:

ان (أكثر اهلها رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم)[14] معتبرا ذلك وغيره من الادلة التي تقوي (القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير)[15].

وكان البربر يختتنون شأنهم شأن الشعوب العربية القديمة، ولم يأخذوا ذلك عن المصريين والفينيقيين بل هو عادة متأصلة فيهم.

ويذهب بعض الباحثين الى اعتبار (كيس ستر العورة) الذي رسم به اللوبيون في اللوحات المصرية منذ ما قبل عهد الاسرات حتى رمسيس الثالث دليل على ان لابسيه كانوا مختونين[15أ].

وبقطع النظر عن صحة هذا التقدير أو عدم صحته فان (سترة العورة) عادة قديمة جدا في منطقة الشرق العربي كما تشهد بذلك التماثيل والنحايت المستورة العورة على عكس التماثيل والنحايت الرومانية فانها مكشوفة العورة، وهذا فارق جوهري بين الحضارات القديمة.

وكان البربر أيضا يربون (اللحى الملسنة)[16] وهو ما نجده عند العرب الذين بالغوا في تقديرها حتى جعلوها رمز الرجولة واحترام الافراد وان اهانتها من أسوأ الاهانات التي تنزل بأصحابها، وهي كشقيقتها البربريات (مذببة في الغالب)[17].

وقد عرفت بها أيضا الشعوب العربية القديمة وهي من السنن التي تنسب الى

ابراهيم[18].

والبربر اضافة الى ما تقدم كالعرب وشعوبهم القديمة لا يأكلون لحم الخنزير، وهو ما لاحظه عليهم (هيرودتس) في القرن الخامس قبل الميلاد[19]، وأول من مارس تربيته في المنطقة الرومان[20].

ومن مظاهر التشابه الهامة الملفتة للنظر ان البربر تنسب كالعرب تماما، فيقولون بنو كذا وبني كذا، وهذا ما سجله اليعقوبي في القرن الثالث الهجري حيث قال: «وبطون هواره تتناسب كما تتناسب العرب، فمنهم بنو اللهان ومليلة وورسطفه، فبطون اللهان، بنو درصا وبنو مزيان وبنو ورفلة وبن مسراته»[21].

وهذا التناسب ليس خاصا بهواره وحدها وانما شامل لكل البربر كما هو مذكور في مختلف المصادر، ومن الامثلة على ذلك هذه الطائفة التي نجتزيها من الاسماء الكثيرة التي ذكرها ابن خلدون وحتى غيره.

بنو كهلان، بنو لوا، بنو فاصلة، بنو يطوفت، بنو بيزغاش، بنو تمصين، بنو ماجر، بنو وطيل، بنو يفرن، بنو يلومي، بنو مادين، بنو زمور، بنو مكسوره، بنو ورياغل، بنو يصلتين، بنو ديمار، بنو كملان، بنو زنجان، بنو باديس، بنو وديجن، بنو مكي.

وهناك قائمة هامة ذكرها صاحب كتاب سبائك الذهب[22] كلها مبدوءة بـ «بنو» وما هذا التناسب عند البربر والعرب وشعوبهم القديمة الا دليل على الاصالة الشرقية ووحدة الأرومة.

والتشابه بين العرب والبربر حقيقة لا ينكرها الا المكابرون المتوتورون حتى ان العرب أنفسهم لاحظوا ذلك منذ أن حلوا بشمال افريقيا وتعرّفوا على أهله. وما عبر عنه موسى بن نصير عندما سأله الخليفة سليمان بن عبد الملك عن البربر في قوله:

«هي يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وفروسية وسماحة وبادية»[23].

واذا كان الغربيون من ذوي النزعة الاستعمارية عملوا في مختلف أبحاثهم على التنكر لهذه الحقيقة وطمسها فان عددا منهم لم يجد غضاضة في الصدوع بالحق وفي الاعتراف بان العرب والبربر جماعتان متشابهتان، ومن هؤلاء (الفرّد بل) الذي قال:

«والقبيلة البربرية شأنها شأن القبيلة العربية، رغم الرأي المعارض لهذا لم تكن وليست حتى الان غير أسرة أبوية موسعة، وسنرى كيف ان اسطورة الجد الذي اليه تنسب القبيلة ساعد كثيرا على المزج بين البربر والعرب»[24]

وقال أيضا: «وحتى لو قلنا بأنه لا توجد قرابة في العنصرين بين البربر والعرب فقد كان ثمّ على الاقل مشابهة بينهما في الحياة الاجتماعية، ذلك أن البربر من بدو وحضر من رعاة ومزارعين، كان شأنهم شأن العرب منقسمين الى قبائل»[25].

ومن هؤلاء (روم لاندو) الذي قال: «ليس بين الذين يعرفون البربر والعرب معرفة شخصية من ينكر قيام دليل واحد على وجود صفات متعددة تفصل الجماعة الواحدة

منهما عن الاخرى، ولكن يبدو أنها قليلة الاهمية نسبيا بمقابلتها بالعناصر التي توجد بين الجماعتين»[26] وينقل عن السيد (اندريه آدم) أحد موظفي الادارة المغربية في العهد الاستعماري قوله: «ان الشعبين لهما وحدة حضارية لا يمكن أن تنكر»[27].

ومن هؤلاء محررو دائرة معارف (يونيفرساليس) حول مادة (بربر) التي جاء فيها: كان من الاناقة ولمدة طويلة معارضة العادات البربرية بعادات العرب المغاربة، والحال أن السمات المشتركة تبدو هامة.

فالنظام الاجتماعي القائم على روابط الدم حقيقة كانت أو وهما، وممارسة أعمال السخرة الجماعية، والاستعمال المشترك لمخازن الحبوب توجد حقا عند البربر كما توجد عند العرب، وحتى ما يزعم عن تقدير البربر للاضرحة الذي لم يكن مطلقا مميزا لهم، نجده في العالم الاسلامي قاطبة[28].

أسرة الأب ودلالتها على الهجرة:

واذا كانت اسرة الاب قديمة في المجتمع البربري فما هي الحدود الزمنية لهذا القدم؟ وما نستنتج من وجود هذه الظاهرة الاجتماعية؟

وللاجابة عن هذين السؤالين فلا بد من الاشارة في هذا السياق الى الجماعتين اللتين أمكن التعرف عليهما في شمال افريقيا في العهود القديمة لما قبل التاريخ المنتسبين الى الانسان العاقل وأعني بهما الجماعة الوهرانية والجماعة القفصية، وذلك للتأكيد على انه لا علاقة بين ما يمكن لهذين الجماعتين من تنظيم اجتماعي وبين التنظيم الاجتماعي للبربر، فالجماعة الوهرانية الراجعة الى العصر الحجري الاعلى، الراجح انها انقرضت وان وصولها الى العصر الحجري الحديث امر مشكوك فيه.

أما الجماعة القفصية التي ظهرت بعد الوهرانية فانها انتقلت الى العصر الحجري الحديث كما تدل على ذلك المعطيات الاثرية، لكن ما تبقى منها الى الالف الثالثة او حتى بعدها اما انقرض واما اندمج في الجماعات الجديدة الوافدة والتي لها الفضل في احداث تحولات اقتصادية واجتماعية لم تكن معهودة من قبل.

والجماعة القفصية ذات العصر الحجري الحديث، يتضح من خلال مخلفاتها الاثرية، من أدوات وأصداف الحلزون ونوع السكن (أكواخ مصنوعة من القصب المدعمة بالطين أو المشدودة بالجلود)[29] ان لها حياتها الاجتماعية المطبوعة بطابع الاستقرار الا اننا لا نعرف شيئا عن طبيعتها وأسلوب تنظيمها ولكن بناء على المعلومات التي امكن جمعها حول الانسان البدائي في كل من افريقيا وآسيا واستراليا وأمريكا، يمكن ان نرجح ان هذه الحياة الاجتماعية قائمة على شكل من اشكال نظام الامومة. أما نظام الابوة، واستنادا الى هذه المعلومات نفسها فلم يكن موجودا اصلا لانعدام العوامل الباعثة على ظهوره، ذلك ان العصر الحجري القفصي وأيضا السوداني (في الصحراء)

الاقدم منه قد تميز بالادوات المصقولة وبصناعة الفخار وأشكال فنية معينة، ومثل هذه العناصر التقنية والثقافية لم يعرف عنها فيما قبل التاريخ وفي عصوره المتأخرة أنها أدت الى نشوء نظام الأبوة، بل ان نظام الابوة كما عرف في بعض البيئات انه وليد معطيات أخرى لم يعرفها الشمال الافريقي في سياق ما مرّ به من تطورات داخلية، وهذا يعني ان الجماعات ذات النظام الابوي هي جماعات مهاجرة وفدت من الخارج ومن بيئة اخرى عرفت هذا النظام في فترة مبكرة وهذه البيئة كما هو معروف، هي غرب آسيا أي الجزيرة العربية وما حولها من مناطق الهلال الخصيب فحسب المعطيات الاثرية والمعلومات التاريخية انها أقدم منطقة على صعيد المعمورة ولدت فيها اسرة الاب، ونظام الابوة ذلك أنها انتقلت قبل غيرها بالاف السنين الى العصر الحجري الحديث ولم يكن الامر بالنسبة لها مقتصرا على صناعة الادوات المصقولة والفخار وانما لكون الانسان فيها اول من اهتدى الى ممارسة الزراعة وتربية الحيوانات وهو ما شكل انقلابا اقتصاديا واجتماعيا انبجست منه حضارات فجر التاريخ وأدى الى تفكيك وتداعي الاشكال الاجتماعية القديمة فكان ذلك ضربة قاصمة لنظام الامومة ومدعاة في نفس الوقت لنشوء شكل اجتماعي جديد هو نظام الابوة الذي ننتمي اليه في العصر الحاضر، تغيرت مجمل العلاقات وقضايا الارث والنسب.

وشمال افريقيا وان عرف العصر الحجري الحديث الا أن الزراعة لم تكتشف فيه وكذلك الرعي الذي هو من مكونات هذا العصر لم ينشأ بالمنطقة ولا هو من مبتكراتها، فهو والزراعة كلاهما من العناصر الوافدة من الشرق وهذا ما يجعلني أقول ان اسرة الاب المعروفة في شمال افريقيا منذ ما قبل التاريخ ليست من نتائج التطورات الداخلية. وانما هي نظام أسري وعشائري وافد. وأقدم بداية ممكنة تعطى لوجوده بالمنطقة هي البداية المرتبطة بظهور الجماعات الرعوية الاولى التي ظهرت في الالف الخامسة قبل الميلاد في ليبيا والصحراء ثم في سائر المنطقة بعد ذلك.

وهذه الجماعات التي سبق الحديث عنها هي الطلائع الاولى لوصول البربر الى منطقة المغرب العربي ثم تدفقت أمواج أخرى في المراحل التالية وبذلك ظهر التنوع في الجماعات البربرية ومنه التنوع اللغوي.

وهكذا نصل الى أن لأسرة الأب في النظام الاجتماعي للبربر دلالتها التاريخية في التأكيد على انتمائهم الشرقي الواضح.

ثانيا ــ الموسيقى الشعبية

الموسيقى الشعبية من العناصر الثقافية المرتبطة بالتكوين الروحي والنفسي للمجموعة البشرية وهي ذات أطر متنوعة من الانغام والالحان تستعمل من الجميع وبأية كلمات تناسبها، تنبع من الوجدان الجماعي وتعدّ من أقدم المكونات الثقافية للمجموعة.

وأهميتها لا تكمن في أغراضها الفنية والجمالية فحسب، ولكن أيضا في كونها مصدرا للمعرفة وللبحث العلمي، اذ يمكن عن طريقها وبالدراسات المقارنة اثبات الصلات الثقافية بين الشعوب والجماعات.

ومن المؤسف أن الوطن العربي لم تظهر فيه بعد الدراسات الشاملة والمقارنة في حقل الموسيقى الشعبية والفن الشعبي عامة. وكان الاجانب كما هو الحال في عدة مجالات ـ الرواد في هذه الناحية.

فما أنجزوه في هذا الباب على غاية من الاهمية، فقد جرت مقارنة بين الموسيقى الشعبية في اليمن والموسيقى الشعبية في شمال افريقيا، وكانت النتيجة مدهشة وغير متوقعة. فقد أثبتت هذه المقارنة وجود تشابه حقيقي وعميق بين الموسيقى اليمنية الشعبية والموسيقى البربرية، ولعله من المفيد أن نتتبع أطوار هذا الاكتشاف تتمة للفائدة.

بدأ هذا الاكتشاف مع أعمال الدكتور (روبرت لخمان Robert Lachmann) المتخصص في الموسيقى الشرقية وفي علم الموسيقى المقارن. فقد لبث في تونس العاصمة مدة طويلة وكذلك في بعض المدن (تستور، مكنين، جربة) وألف في سنة 1922 كتاباً قيما بعنوان: الموسيقى في المدن التونسية، وما زال هذا الكتاب مجهولا لدينا وغير مترجم، كما أنجز بحثا أكاديميا نال به درجة الدكتوراه بعنوان: أغاني اليهود في جزيرة جربة، طبع بالانكليزية وله الى جانب هذا أعمال علمية أخرى في هذا الباب.

واثر هذا العمل الثقافي الواسع الثري اهتم (لخمان) بالموسيقى البربرية في كل من الجزائر والمغرب فحللها ورقمها (نوتها) وهو بهذا يعد المرجع الاساسي في الموسيقى البربرية ان لم يكن الوحيد من نوعه.

وجاء بعده البحاثة والرحالة الالماني (هانس هلفرتس Hanz Helfritz) وهو أيضا عالم في الموسيقى ويمتاز عن (لخمان) بكونه ملحنا، زار اليمن وطاف في ارجاء جنوب الجزيرة العربية سنة 1933 و1935 ـ وقام بتسجيل مجموعة من الاغاني والالحان الشعبية في اليمن (قيل 100 لحن) الى جانب بعض الانطباعات الاخرى عن تاريخ المنطقة وحضارتها، ودوّن أعماله في كتاب صدر سنة 1977 بعنوان: رحلة اكتشاف في العربية الجنوبية: Entdekungsreisen in Sud Arbien[30]

وقام (هلفرتس) بجمع عمل لخمان في الموسيقى البربرية وبوبه واستفاد من عمله وقال منوها به وبغيره:

«والعجيب ان يستطيع كل من (هورنبوستل E.M. von Hornbostel والدكتور روبرت لخمان Robert lachmann) اثبات التشابه في كيفية الاداء بين أغاني المرتفعات (يقصد هنا مرتفعات بلاد اليمن) والموسيقى البربرية التي سجلها لخمان في القبايل بشمال افريقيا» (الكتاب المذكور ص: 113).

وأدرك «هلفرتس» أن هذا التشابه لم يحدث اتفاقا فقال: «ومثل هذا التشابه يحتم

على المرء افتراض وجود علاقة حميمة ما بين البربر والعرب الجنوبيين، فالسمات التي بدت لي في الموسيقى العربية اليمنية موجودة بعينها في الموسيقى البربرية، ثم ان هذه العلاقة الحميمة تظهر بصورة واضحة في طريقة أداء الاغاني فخصوصية تركيب الالحان وتشابهها بل قل تساوي هذه الالحان تساويا مطلقا يؤكد هذا الانطباع من جديد» (الكتاب المذكور ص: 113).

وللتأكيد على هذا التشابه قدم (هلفرتس) عينات وشواهد تعتمد على المقارنة بالنوتة الموسيقية ليوضح أن الامر ليس مبنيا على مجرد الانطباع وانما على أساس علمي مكين، ونقتبس من هذه المقارنة النموذجين التاليين:
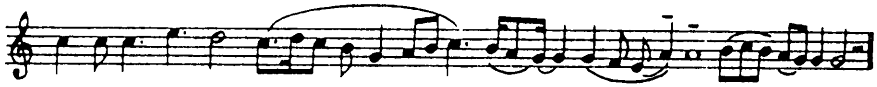
النـموذج الاول:

يشتمل على ترقيمين موسيقيين لقطعتين الاولى (A) وهي عبارة عن أغنية بدوية سمعها (هلفرتس) في قبيلة بني اسماعيل بجبال حراز باليمن فسجلها ورقمها. والثانية (B) سمعها (لحمان) في القبائل بالجزائر فسجلها ورقمها.

وفي ما يلي الترقيمان الموسيقيان لهاتين القطعتين(*):

a) 

أغنية بدوية بجبل حراز باليمن.

b) 

أغنية قبائلية بالجزائر

فالقطعتان متماثلتان بمقتضى التركيب في الالحان في الروح الموسيقية والايقاع ولهما مقام واحد وقفلة واحدة ما عدا القطعة الاولى ففي آخرها خانة في «مقام الحجاز على النوى».

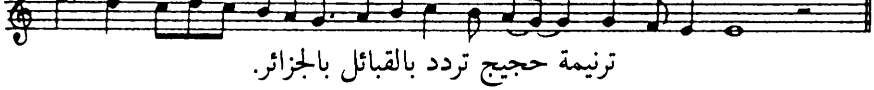
النـموذج الثاني:

يشتمل هو أيضا على ترقيمين موسيقيين لقطعتين الاولى (A) وهي أغنية بدوية سمعها (هلفرتس) في قبيلة بني مطر بجبل حراز باليمن فسجلها ورقمها. والثانية (B) وهي ترنيمة حجيج سمعها (لحمان) في القبائل بالجزائر فسجلها ورقّمها.

وفي ما يلي الترقيمان الموسيقيان لهاتين القطعتين:

a) 

أغنية بدوية، بجبل حراز باليمن.

b) 

ترنيمة حجيج تردد بالقبائل بالجزائر.

فهاتان القطعتان تماثلان في الروح الموسيقية والايقاع ولها مقام واحد وقفلة واحدة، وللاولى خانة في (مقام الحجاز على النوى).

ونستخلص من هذا أن التشابه بين اليمن والقبائل بالجزائر في الموسيقى الشعبية ما هو الا جانب من التشابه العام بين العرب والبربر، والتشابه الموسيقي كاللغة من حيث قوة الحجة في التدليل على وحدة الاصل والموسيقى في سياق النظرة الشاملة تعد شكلا من اشكال الروابط الثقافية التاريخية التي تظل في بعض الاحوال ماثلة حقبا طويلة، ومن خلالها يستطيع الباحثون في العصور القديمة تتبع الهجرات وتنقّل الجماعات البشرية واثبات ما بينها من صلات.

كذلك فان التشابه الموسيقي بين اليمن والقبائل بالجزائر يؤكد ما سبق ذكره وهو وجود الثقافة السبئية ـ الحميرية بشمال افريقيا وهذا أمر لم يعد يساورنا فيه أي شك.

ثالثا تقنيات جمع المياه وفلاحة المدرجات:

من المسائل التي أثارت الجدل بين الباحثين والمؤرخين مسألة تعاطي سكان شمال افريقيا للزراعة في زمن ما قبل التاريخ وتأرجح الامر بين طائفتين:

الاولى تذهب الى ان سكان شمال افريقيا كانوا يجهلون الزراعة قبل مجيء الفينيقيين، ونقطة الضعف في رأي هذه الطائفة هو أنها لم تقدّم من المعطيات والظروف العامة ما يجعلنا نستبعد فعلا أن يكون البربر الأوائل مارسوا الزراعة فعلا.

الثانية تذهب الى ان سكان شمال افريقيا عرفوا الزراعة قبل مجيء الفينيقيين، وقال استيفان قزال:

«لم ينتظر اهالي شمال افريقيا البحارة السوريين ليتعاطوا تربية الماشية والزراعة»[31].

وقال: كمبس «فهل يجب ان نتصوّر اذن أن أبسط التقنيات هي جميعها أجنبية في بلاد البربر، وان هذا الشعب كان مجردا تماما من كل مبادرة»[32].

وقال: جيان مسايراً كامبس وكذلك باسيه Baset «أن الليبيين لم يعرفوا الزراعة عن طريق الفينيقيين» وأنهم «مارسوها منذ نهاية العصر الحجري الحديث والقول، بأن الكنعانيين جلبوا الزراعة الى افريقيا الصغرى خلال الالف الثانية هو افتراض خرافي غير مترو»[33].

وتعتمد هذه الطائفة، في وجهة نظرها على نتائج الابحاث الاثرية وما وفرته من معلومات حول سكان شمال افريقيا في فترة ما قبل التاريخ، ويتساءل المرء عن نوعية الادلة الاثرية التي استندت اليها لاثبات أن الزراعة مورست في تلك الفترة ومن قبل أن يجيء الفينيقيون بزمن طويل.

والاجابة تتمثل في ما يلي:

1 ـ المناجل الحجرية والعظمية التي عثر عليها أثناء التنقيب والعائدة الى العصر الحجري الحديث والتي يتكون بعضها من عظام طويلة تتخللها شظايا (السلاكس) وقد عثر على واحد منها في مشتى العربي.

2 ـ المطاحن الحجرية (الرّحيّ) الراجعة هي الاخرى الى العصر الحجري الحديث والتي عثر عليها في أماكن كثيرة.

3 ـ المدافن وما اشتملت عليه من مادة اثرية حيث يمكن لنا أن نتعرف من خلالها على جوانب هامة من الحياة الاجتماعية لاصحابها.

والمدافن المتخذة مادة للدراسة، هي تلك التي سبقت الرومان بزمن طويل ولم تتعرض لأي تأثير قرطاجي[34] حيث يرى فيها بعض الباحثين وفي الانصاب الجنائزية عامة ما يدل على وجود حياة اجتماعية مستقرة وعلى أن أصحابها كانوا يمارسون الزراعة.

ومن هؤلاء جيان د سانج الذي يقول: «ان البحث الاثري في الانصاب الجزائرية اثبت وجود جماعات كبيرة مستقرة كانت تمارس الزراعة في العصور القديمة بافريقيا الصغرى»[35] ويقصد بافريقيا القطر التونسي وهو يوافق كامبس «في أن خريطة توزيع المدافن في عصر ما قبل التاريخ المشتملة على فخار تزودنا بمعلومات صحيحة عن الانتشار الجغرافي للزراعة»[36].

والفخار يستدل به الباحثون على تعاطي الانسان الفلاحة في فترة ما قبل التاريخ وانه يستعمل لغرض خزن الحبوب وغيرها من الاغراض الاخرى، وقد عثر في تلك المدافن على نماذج متعددة من الفخار منها: السلطانيات والطاسات والاقداح الخاصة بالسوائل والحساء والاطباق المسطحة كثيرا او قليلا والصحاف الكبيرة... وعثر كذلك على نوع من طباق الفاكهة له قاعدة على شكل الساق...»[37].

4 ـ النقوش والرسوم حيث فهم من بعضها انها تصوّر محراثا (بشكل بياني تخطيطي»[38] مثل تلك التي عثر عليها في منطقة (الشفيه) شرقي قسنطينه وفي جبال اطلس العليا[39].

5 ـ ما قاله بعض علماء النبات مثل Erroux[40] من ان القمح والشعير زرعا في شمال افريقيا قبل وصول الفينيقيين بكثير، وكذلك الفول والحمص حسب رأي كامبس[41].

وهذه مجموع الادلة التي يستند اليها عادة لاثبات ان سكان شمال افريقيا عرفوا الزراعة (منذ نهاية العصور الحجرية الحديثة).

والنقد الذي يوجه الى هذه الطائفة بصورة عامة هو انها لم تناقش هذه الادلة من حيث كفايتها او عدم كفايتها ولم تقدم تواريخ محددة تساعد على ضبط التطورات وفهم المسألة من بعض الجوانب، والقول بأن البربر القدماء مارسوا الزراعة منذ نهاية العصر الحجري الحديث بدون تفاصيل وتدقيقات يطمئن اليها من شأنها احداث البلبلة فيما

يتعلق بالتصور السليم لهذه القضية، ذلك أن العصر الحجري الحديث قد استمر في بعض المناطق من شمال افريقيا حتى العصر الروماني، أي بعد مجيء الفينيقيين بزمن طويل.

ثم ان رأي هذه الطائفة يكتنفه الغموض من ناحيتين الاولى هو أن بعضها لم يحدد بالدقة المطلوبة نوع الجماعة التي عرفت بممارستها للعمل الفلاحي، فهل هي من عمل المجموعة التي نطلق عليها اللوبيين القدامى التي بدأت تظهر بظهور الرعي في المنطقة؟ أم هي من عمل المجموعة القفصية الموجودة منذ العصر الحجري الاعلى والتي انتقلت الى العصر الحجري الحديث واستمر تراثها على ما يبدو الى الالف الثانية قبل الميلاد.

مع العلم ان الابحاث الاثرية منذ مطلع الخمسينات أخذت تؤكد بألاّ علاقة بين اللوبيين القدامى وبين المجموعة القفصية وان هذه الاخيرة لم تعرف ـ كما تقدم ـ العمل الفلاحي مطلقا، وكان يجب ان تحصر الممارسة ـ ان وجدت قبل العهد الفينيقي ـ في البربر واللوبيين فقط.

وهذا من شأنه أن يفرض اعادة النظر في معظم التحاليل المقدمة وخاصة ذات التأثيرات الاديولوجية الاستعمارية والاديولوجية الاقليمية.

الثانية هو أن هذه الطائفة لم تبيّن هل أن هذه الممارسة الفلاحية ناجمة عن تطور داخلي فيكون السكان في شمال افريقيا قد انتقلوا من مرحلة جمع القوت الى انتاجه، وبعبارة أخرى اهتدوا الى العمل الفلاحي بصورة مستقلة وبدون أية مؤثرات. واذا كان الامر كذلك فما هي النباتات البرية التي وقعت زراعتها، ام ان تلك الممارسة قامت بها بعض الجماعات وان هذه الجماعات لم تكن اصلا من المنطقة وانما وفدت عليها منذ ما قبل التاريخ وحملت معها الخبرة الفلاحية والبذور التي لا توجد في المنطقة، كما حملت اليها الرعي وبعبارة أصح أدخلت اليها الرعي، كما انه لا بد من تفادي الحديث ذي الصبغة العمومية وان نوضح الحدود التي مورس فيها العمل الفلاحي من حيث الانتشار وعدمه.

وبناء على ما في وجهتي نظر الطائفتين السابقتين من تضارب وما في آراء الكثيرين من غموض وضعف، فانه لا بد من القيام بتحليل جديد أكثر استيعاباً للمعطيات الاثرية وأكثر الماما لا بالدراسات المتعلقة بالمنطقة في هذا الموضوع فحسب وانما أيضا بالقضايا المماثلة في المناطق الاخرى سواء كانت قريبة أو بعيدة لان ذلك من شأنه أن يساعد على فهم أسلم، وانطلاقا من هذا الاعتبار نسوق الملاحظة التالية:

1 ـ ان المناجل والمطاحن اليدوية ليست أدلة قاطعة على تعاطي العمل الفلاحي فمن الممكن أن تكون لاغراض أخرى كقطع أنواع من الاعشاب أو لطحن حبوب برية أو مواد تلوين أو غيرها.

وقد عثر على رحي وهرّاسات في افريقيا الشرقية، وعلى قادومات وأدوات العزق

والهرس والدرس في الصحراء، ولم يتخذ منها الباحثون في ما قبل التاريخ دليلا على تعاطي العمل الفلاحي، ولذا نجد ج. أ. غ. سوتن يقول «كل ذلك لا يكفي كدليل على وجود اقتصاد في ميدان الزراعة...»[42].

ونجد هـ. ج. هوغو يقول عن سكان الصحراء وعن تعاطيهم لتلك الصناعات «لا يثبت بتاتا أنهم اتقنوا عملا معينا من أعمال الفلاحة»[43].

ويقول أيضا «لا وجود لدليل على الفلاحة عندما يستدل فقط على وجود أشياء معروفة بأنها فلاحية»[44].

ويقول ابراهيمي: «اذا كانت وسائل الطحن بما فيها من عدد وأنواع، كالمطاحن والمهارس والرّحي في كل من (ن. أ.ق) و(ن.أ. س) لا تبرهن على وجود زراعة، فان ذلك يشير بالتأكيد الى أن الغذاء النباتي كان آنذاك أكثر انتشارا منه في الحجري المتأخر»[45]

والمقصود بـ (ن.أ.ف) النيولتي ذي الاصول القفصية وبـ (ن.أ.س) بالنيولوتي ذي الأصول السودانية أي العصر الحجري الحديث لهذين التيارين.

ويقول بالوت Balout «فلا المناجل الموجودة بكلومناطه ولا الكرات الحجرية المثقوبة ولا المدقات ولا أدوات الحصاد تصلح أن تكون حجة تثبت الفلاحة»[46].

ورأي هؤلاء الباحثين جميعا لا يقوم على مجرد الادراك من أن تلك الأدوات يمكن أن تكون لاغراض غير الاغراض الفلاحية فقط، ولكن أساسا على أن تعاطي الفلاحة لا يمكن أن تقوم الا على قواعد دقيقة لا على الفرضيات والتأويلات الوهمية، ومن هذه القواعد[47]:

- وجود آثار أرض مزروعة.
- توفّر أدلة بلينولوجية صالحة احصائيا قائمة على دراسة رواسب العصر الحجري الحديث، ويبدو حسب كلام هـ. ج. هوغو أن البلينولوجيا لم تطبق في شمال افريقيا وانها طبقت في الصحراء على نطاق ضيق.
- والحصول على نباتات أحفورية، أي أن الحفريات تؤدي الى العثور على نباتات احفورية معروفة.

كل هذا يجعل تلك الادلة التي يكثر ترديدها ولوكها دونما تمحيص ودقّة لا يعتدّ بها علميا في هذا المجال. هذا فضلا على أن الآراء المتعلقة بها قديمة نسبيا وبعضها تجاوزه الزمن، وكان للجو الاستعماري وتوجهاته الثقافية تأثير عليها وعلى غيرها في ميادين أخرى.

2 ـ الفخّار: ليس دليلا هو الاخر على أن صناعته كانت نتيجة لممارسته العمل الفلاحي، فهو وان كان من مكوّنات العصر الحجري الحديث، وفيه انتشر وتطوّر على نطاق واسع، الا أن ذلك لا يعني انه لم يوجد في الاساس لأغراض أخرى

مثل جمع القوت، وحفظ بعض المدخرات، وغير ذلك من الحاجيات التي لم تخطر على بالنا في العصر الحاضر.

وقد ثبت من خلال الابحاث أن الفخار ظهر في عدة مناطق واكتسب فيها تطورا مرموقا دون أن يكون للعامل الفلاحي وجود في تلك المناطق، ولنا في العصر الحجري الحديث الصحراوي ذي التقاليد السودانية، وفي العصر الحجري الحديث ذي التقاليد القفصية خير دليل على ذلك، فقد تميّزا بصناعتهما الفخارية منذ أطوارهما الاولى بدون أن تكون هناك ممارسة فلاحية، ما عدا بعض المناطق الصحراوية التي ظهر فيها ما يشبه العمل الفلاحي ولكن في زمن متأخر.

وها هو ك. ابراهيمي ذو النزعة الاقليمية في أبحاثه الاثرية يقول في قضية الفخار: «لا يوجد ما يؤكد العلاقة بين صناعة الفخار المزخرف واستعمالاته وبين أعمال الزراعة، كانت الزراعة معروفة آنذاك في أقطار أخرى من العالم كالشرق الادنى مثلا، وفي الجزائر عثر على دلائل ضعيفة حول هذا الموضوع. غير أن الرسوم الصخرية تعد شهادة لا بأس بها عن الرعي الذي كان يعتبر نشاطا متميزا لبعض سكان الصحراء»[48].

3 ـ ان شمال افريقيا (بل افريقيا كلّها) لم توجد فيه نباتات القمح والشعير في حالتها البرية كما تقول معلومات وأبحاث هذه المرحلة، فهي نباتات آسيوية منبتها الأصلي الجزيرة العربية والشرق الادنى عامة، وقد انتقلت الى أفريقيا عبر المد الثقافي والحضاري والبشري لهذه المنطقة، وقبل أن تزرع في شمال افريقيا كان العمل الفلاحي في مجالات عديدة، في كل من اليمن والرافدين وفلسطين ومصر قد تقدم أشواطا هامة وتطوّرت تقنياته وأساليبه فلا يعقل ان تنقل تلك الحبوب وتستعمل فلاحية بدون ان تنقل معها الخبرة والمعرفة والتقنية والحال ان شمال افريقيا قد تأخر في ممارسة الزراعة عن تلك المراكز بزمن طويل، ومما يؤكد صواب وجهة النظر هذه الأداة المتطورة نسبيا التي استعملها البربر في فلاحة الارض والمتمثلة في ذلك المحراث ذي السلاح الخشبي[49]. الذي ذكره كامبس وغيره.

والخلاصة من كل هذا فطالما انه لا توجد حبوب القمح والشعير في حالتها البرية فلا يمكن الحديث عن الزراعة الا على أساس انها مكتسبات وافدة، وبقطع النظر عما اذا كانت وفدت وحدها أم مع أصحابها الفلاحين وهنا لا بد من تجاوز تلك الآراء العديمة الدقّة التي تجعل من بعض المناجل ومن المطاحن اليدوية دليلا على معرفة شمال أفريقيا للفلاحة في ما قبل التاريخ.

4 ـ اذا كانت الزراعة في شمال افريقيا من المكتسبات الوافدة، فما معنى ذلك، هل ان سكان المنطقة، في نطاق تفاعل الحضارات وانتقال الافكار والخبرات أمكن لهم أن يستفيدوا من منجزات الشرق الادنى في ميدان الفلاحة؟ أم ان هذه المكتسبات لم تنتقل كأفكار وخبرات وانما جاءت مع أصحابها الذين كانوا

الفلاحين الاوائل في شمال افريقيا.

ولتوضيح هذه النقطة، لا بد من الرجوع قليلا الى الوراء الى المجموعة القفصية باعتبارها آخر مجموعة من العصر الحجري الاعلى وقع التعرف عليها في شمال افريقيا حيث نجد ان هذه المجموعة ـ كما تدل على ذلك مخلفاتها الاثرية ـ من أدوات مصقولة (حجارة عظام) ومن فخار وبيض نعام انتقلت الى العصر الحجري الحديث، ولكنها مع ذلك لم تهتد أبدا الى تأهيل الحيوانات والنبات ولم تمارس مطلقا الرعي ولا الزراعة.

ثم ان هذه المجموعة وان كنا لا نملك صورة واضحة عن مآلها الاخير الا انها بالتأكيد تلاشت واضمحلت أمام القادمين من الشرق في موجات متلاحقة والذين اصبحنا نطلق عليهم فيما بعد (اللوبيين القدامى) والذين انتشروا كما هو معروف على كامل المنطقة من مصر حتى المحيط الاطلسي مما شكّل واقعا جديدا متنوعا لغويا وبشريا لا يمكن البتة ان يكون منحدرا عن أية سلالة قديمة في المنطقة، قفصية أو غيرها.

ومع هؤلاء البربر اللوبيين المشرقيين ثقافة ونسبا، انتقلت المكتسبات الفلاحية، كما انتقل الرعي من قبل، وكان بعضهم ممن مارسها في الوطن الجديد الفلاحين الاوائل في شمال افريقيا قاطبة.

5 ـ اذا كان شمال افريقيا دخل بفضل القادمين من الشرق في مرحلة تربية الحيوانات والانتاج الفلاحي، فما هو مقدار انتشار هذين النشاطين؟

انطلاقا مما تقدم من ان الرعي أسبق في الظهور بمدة طويلة فهو النشاط-الذي خلف الصيد وغلب على المنطقة تدريجيا.

والثابت أن الفلاحة التي تأخرت ممارستها لم تتطور الا في الألف الاولى قبل الميلاد، وأول توسع فلاحي مشهود حدث في العهد القرطاجني في القرن الخامس قبل الميلاد عندما انكفأت قرطاج على نفسها وضعف هيمنتها في البحر اثر انهزام جيشها في معركة «هيميرا Himere»(*) سنة 480 قبل الميلاد، حيث لم تعد التجارة تدر عليها ما يكفي من الاموال لتجديد عتادها وبناء قوتها فاتجهت نحو العمل الفلاحي وأقبلت عليه اقبالا كبيرا.

فاستولت على مساحات واسعة من الاراضي الخصبة(*) فشكل هذا قفزة هامة ونقطة تحول جديدة في حياة المنطقة لما سيحدثه فيها على مرّ الأيام من تحوير وترقية في بنيتها الاجتماعية، وذلك بادخالها في حقل الانتاج الفلاحي بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى المعتمد على أرقى التقنيات وعلى ما بلغته المعرفة الشرقية المتأصلة من تقدم في العلوم الفلاحية، فقد استعمل المحراث الحديدي ذو الثلاثة اسلحة ومورس العمل الفلاحي في ميادين الحبوب والغراسات وتربية الماشية وفق قواعد منهجية وعلمية بحسب ذلك العصر وكان لتأليف العالم الفلاحي ماقون البالغ 28 جزءاً شهرة واسعة، وكيف ان الرومان احتفظوا به وقاموا بترجمته بقصد الاستفادة من معارفه، وكانوا ينسبون الى

القرطاجنيين (اكتشاف الادوات الفلاحية)[50].

وهناك توسع آخر يعتبر امتدادا للاول ومكملا له في سياق التطور العام لمنطقة كان ــ كما تجمع الاراء ــ على يد العاهل البربري ماسينيسا (206 ــ 148ق.م) الذي شجع مواطنيه على احياء الاراضي وفلاحتها وهو ما أدى الى نشوء تجمعات جديدة من الفلاحين في قرى محصنة لها نظامها المستوحى من نظام المدن القرطاجية المعتمدة «على حكام سموا الاسباط أو الاشفاط»[51].

فكان هذا من عوامل تمدين الجماعات البربرية وترقيتها وكان سترابون يقول عن هذا العاهل «ان ماسينيسا هو الذي جعل من النوميديين أناسا اجتماعيين، وهو الذي حضرهم وصيّرهم مزارعين»[52].

وينقل عن المؤرخ أبيان انه قال: «ان العناية الالهية هي التي جعلت ماسينيسا يحيّ رقعة واسعة من المعمورة كان النوميديون فيها يقتاتون الحشائش فقط لانهم لم يكونوا يعرفون الزراعة»[53].

هذان النصان يؤكدان التحليل السابق من ان الفلاحة وان كانت مكتسبات شرقية الا انه لم يقع تعاطيها على نطاق واسع نسبي، وان قسما من السكان ما يزال في حالة بدائية متخلفة جدا، ولعل هؤلاء هم الذين عناهم صلليست المؤرخ اللاتيني الذي كان واليا على أفريقيا (47–45م) بقوله: «واللوبيون: هم شعب نفورة مخشوشنة يأكلون لحوم الوحوش ويرعون العشب مثل القطعان لايعرفون قيدا أخلاقيا ولا واعزا قانونيا ولا سلطة أمير. وليست لهم منازل قارة فهم يسيحون على الارض على العمياء مغامرين حتى اذا ما جنهم الله أووا الى حيث أمكن»[54].

ونخلص من كل هذا هو ان العمل الفلاحي كان محدودا وأن تطور بشكل أساسي كان خلال الالف الاولى قبل الميلاد وان الرعي كان هو الغالب وموجود في معظم الجهات.

6 ــ اذا كانت الحبوب (من قمح وشعير..) والعمل الفلاحي عامة من المكتسبات الوافدة من الشرق ــ كما تأكد من خلال ابحاث مختلفة ــ فهل تم نقل هذه المكتسبات عن طريق الفينيقيين وحدهم ام هناك من الجماعات الشرقية الاخرى من ساهمت في هذا النقل وكان لها ايضا الفضل في نشر الخبرة الفلاحية بربوع شمال افريقيا.

هذه النقطة لم تبحث لان الموضوع كان يطرح بصورة مختلفة، هناك من يقول ان البربر مارسوا العمل الفلاحي قبل مجيء الفينيقيين يجعل ذلك تطورا داخليا ويجعل البربر من الجماعات الاصيلة بالمنطقة الضاربة بجذورها في أغوار أقدم العصور الحجرية، أي يرفض اعتبارهم مهاجرين، وقد رأينا ان هذه النظرية من جملة النظريات التي صاغتها المدرسة التاريخية الاستعمارية في فترة الاحتلال المباشر ونشرتها في دوائر معارفها وشتى

مجالات المعرفة الثقافية.

وما يهمنا هنا هو السعي بقدر الامكان على ضوء ما توفر من المعلومات والمعطيات الى توضيح هذه النقطة، انطلاقا من وجود مظاهر عدة تدل على تعاطي العمل الفلاحي، لم يعرها الباحثون ما تستحق من الاهتمام، وقد أشار اليها بعضهم ولكن بصورة عارضة مع انها مظاهر فريدة من نوعها من حيث تقنيتها وما تدل عليه من تطور ومعرفة واسعة بكثير من الاشياء المرتبطة بها.

وتتمثل هذه المظاهر في وجود سطوح مدرجة على سفوح الجبال كما في الجنوب التونسي «وعدة مناطق بالاطلس الصحراوي وما زالت تلمح منه آثار على سفوح بعض الجبال بالظهرية وفي النادر صوب الشمال»[55].

ذكر جيان ديزانج أن في اقليم دوار تازينت «يوجد طراز معماري واحد في شكل مربعات بقي الى اليوم من الانشاءات البدائية الخاصة بحفظ المياه»[56].

فهذه المظاهر الدالة على تعاطي العمل الفلاحي لم نجد من وضع لها تاريخا دقيقا وكل ما هنالك ان بعضهم ينسبها الى البربر مثل ديبو الذي يقول: «فالمظنون ان هذه الطريقة في الفلح كانت تلقائية لدى السكان البربر الجنوبيين ولم يكن للاطين من مساهمة فيها»[57] بدليل انه لا «يوجد في لغتهم لفظ معبر عنها»[58].

أما جيان فيقول عن تلك الاشكال المربعة لحفظ المياه انها «تؤرخ بفترة سابقة لعصر الممالك الوطنية»[59]. وظهور هذه الممالك حسب رأيه كان «على الاقل منذ أوائل القرن الرابع »[60].

وما يتفق فيه هذان الرأيان هو ان المظاهر الفلاحية المذكورة كانت سابقة للعهد الروماني. وبناء عليه فانه من الجائز ان تكون معاصرة للعهد الفينيقي الاول او متقدمة عليه. وفي كلتا الحالتين فاننا نستبعد ان تكون من تأثير الفينيقيين وذلك لوجودها في أماكن نائية وخاصة بالاطلس الصحراوي وجنوب غرب المغرب حيث ما يزال اهتمام الفينيقيين في الاطوار الاولى من استقرارهم على الشريط الساحلي بالمنطقة منصرفا الى التجارة والعمل في البحر ولكن هذا لا يعني صحة ما ذهبت اليه قزال وكامبس وجيان وغيرهم لان هؤلاء صاغوا أفكارهم في الاتجاه الذي يرفض الاعتراف بان البربر شرقيون، وانما يعني ان تلك المظاهر الفلاحية المنتشرة في المناطق الجنوبية هي من عمل جماعة أو جماعات بربرية وفدت من المدخل الجنوبي عن طريق البر في زمن يعسر تحديده قد يكون في الالف الثانية قبل الميلاد التي شهدت فيها منطقة الشرق العربي تحركات بشرية واسعة كان من نتيجتها اندفاع الهكسوس الى ارض مصر وانطلاق الاراميين الى الشام وصوب العراق، وتوجه مجموعات أخرى من اليمن الى افريقيا الشرقية منها القبيلة العربية حبشت (الحبشة) التي غلب اسمها على البلاد هناك منذ ما قبل الميلاد.

ثم ان استعمال زراعة المصاطب والمدرجات وانشاءات جمع المياه وبعض أساليب

الري لم تكن معروفة في أفريقيا في عهود ما قبل الميلاد.

وقد رأينا عند الحديث عن العصر الحجري في الجزيرة العربية ان هذه المنطقة وخاصة جزءها الجنوبي الغربي الذي اشتهر منذ أقدم أطوار الحضارة الزراعية بانجازين عظيمين لم يعرف لهما نظير عند الشعوب القديمة، أولهما نظام الارواء وهندسته الفريدة الذي كان يتم بواسطة السدود والابار حيث تنقل المياه في قنوات من الخزف والطين وهو شيء تميّزت به بلاد اليمن التي لا يوجد مكان في العالم يضاهيها في كثرة السدود حتى ان صاحب الاكيل ذكر أنها بلغت 80 سدا بمنطقة (يحصب) وحدها[61] (منطقة بريم اليوم) وثانيهما انشاء نظام المدرجات الفلاحية الذي لم يعرف هو الاخر في غير هذه الجهة، فقد أنشأه اليمنيون (على سفوح الجبال وعلى المرتفعات التي أصلحوا تربتها وذلك لحصر مياه المطر عند نزوله، ضمانا لدخوله التربة واروائها وزرعوا تلك المدرجات او السلالم العريضة بمختلف المزروعات)[62] ونجد في بعض الاحيان أن هذه المزروعات تعتمد (على مياه الينابيع الجارية خاصة في المناطق الخصبة وسط اليمن)[63].

ونظام المدرجات الفلاحية وان تركّز في الهضبة الجبلية الوسطى الاّ أنه نظام يكاد يعم جبال اليمن حتى كأنها انقلبت على حدّ تعبير بعضهم (الى طيات عمائم يأخذ بعضها برقاب بعض)[64].

ولا ننسى في هذا السياق ان نشير الى نظام خزن المياه في مواجل وصهاريج المنتشرة باليمن ومناطق كثيرة من الجزيرة العربية مثل القطيف والاحساء والفلج وأواسط نجد وأماكن أخرى طغت عليها الرمال وحولتها الى صحراء[65] ولصهاريج عدن التاريخية شهرتها الواسعة اذ هي تسع لـ 20 مليون جالون من الماء نحت معظمها في الصخر[66] مما جعلها مثلا في الروعة والابتكار وكل هذا يؤكد ما كان عليه سكان الجزيرة العربية من تقدم ولنا ان نذكر في هذا المجال الخلاصة الصائبة التي انتهى اليها الدكتور جواد علي:

«وتدل آثار السدود والنواظم التي ترجع إلى ما قبل الاسلام على أن العرب كان لهم علم واسع بتنظيم أمور الارواء والاستفادة من مياه الامطار والسيول والانهار.

وتدل كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود والمسالك والنحايت وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء»[67].

ومن هنا ندرك أهمية اليمن ودورها الرائد في الحضارات الزراعية القديمة في مجال العمل الفلاحي أو حتى في غيره من المجالات الاخرى واذا قلنا ان طريقة تعاطي الفلاحة بواسطة المصاطب والسطوح المدرجة هي طريقة وافدة مع أصحابها فاننا نضيف انها وفدت من الجزيرة العربية وخاصة من بلاد اليمن السعيد.

الهوامش:

1 ـ مجموعة من القبائل التالية ـ انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة (بربر) ج 13 ص: 501 و502 ومدينة المغرب العربي لصفر ج 1 ص: 55.
2 ـ صفر أحمد: **مدينة المغرب العربي في التاريخ** ـ دار نشر بوسلامة تونس 1959 ص: 55.
3 ـ الشنيني محمد البشير: **سياسة الرومنة في بلاد المغرب**.. (146–40 ق.م) طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982 ص: 18.
4 ـ من دراسة مرقونة للشنيني محمد البشير بعنوان: **نظرة على الوضع الديمغرافي والاجتماعي في المغرب اثناء الاحتلال الروماني**.
5 ـ **رحلة ابن بطوطة** ـ طباعة دار الكتاب اللبناني بيروت بلا تاريخ ص: 443.
6 ـ الكعاك عثمان: **موجز التاريخ العام للجزائر** ـ مكتبة العرب ـ تونس 1344هـ ص: 31 و32 وأحمد صفر: مدينة المغرب العربي في التاريخ ج 1 ص: 65.
7 ـ **المقدمة**: ـ طبعة دار الرائد العربي ـ الطبعة الخامسة ـ بيروت 1982 ص: 128.
8 ـ المقدمة ـ المصدر نفسه ص: 131.
(*) قزال الذي قال: «واعضاؤها يدعون القرابة اعتباطا، والجد المشترك ليس الا شخصية خرافية. والسهولة التي بها تضم القبائل عناصر جديدة تكفي لاثبات بطلان هذه القرابة» عن الفرّد بل ـ الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي ص: 54.
9 ـ **الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي** ـ ترجمة عبد الرحمان بدوي ـ دار المغرب الاسلامي الطبعة الثانية بيروت 1981 ص: 53.
10 ـ الفرق الاسلامية... المصدر نفسه ص: 54.
11 ـ هذا من جملة ما قاله ابن خلدون في الثناء على البربر ـ كتاب العبر ج 6 ص: 207.
12 ـ هذه الفقرة نقل معظمها عن ابن خلدون كتاب العبر. ج 6 ص: 175.
13 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 176.
14 ـ رحلة ابن بطوطة: المصدر المذكور سابقا ص: 174.
15 ـ رحلة ابن بطوطة: المصدر نفسه ص: 174.
15أ ـ ب جيان ديسانج: البربر الاصليون ـ الوارد في **تاريخ افريقيا العام** طباعة (جون افريك ـ اليونسكو) تورينو (ايطاليا) 1985 ج 2 ص: 440.
16 ـ جوليان ـ شارل اندري: **تاريخ افريقيا الشمالية** ـ تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة الدار التونسية للنشر ـ النشرة الثالثة تونس 1978 ج 1 ص: 76.
17 ـ علي جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** ـ دار العلم للملايين الطبعة الثالثة بيروت 1980 ج 4 ص: 609.
18 ـ علي جواد: المفصل في تاريخ العرب... المصدر نفسه ص: 610.
19 ـ بازامه مصطفى: تأثير الليبيين في الحضارتين المصرية واليونانية وتأثرهم بها الوارد في (**ليبيا في التاريخ**) منشورات الجامعة الليبية ـ بنغازي 1968 ص: 87.
20 ـ ديبو ـ **تونس** ـ تعريب الصادق مازيغ ـ الدار التونسية للنشر تونس 1969 ص 66.
21 ـ **كتاب البلدان** ـ طبع بالنجف ـ بلا تاريخ ـ ص: 99.
22 ـ السويدي أبو الفور محمد امين: **سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب** ـ طبع في مصر ـ بلا تاريخ ـ ص: 102–103.
23 ـ ابن قتيبة: **الامامة والسياسة** ـ مطبعة الحلبي ـ طبعة اولى بمصر 1937 ج 2 ص: 107.
24 ـ الفرق الاسلامية... المصدر المذكور سابقا ص: 49 و50.
25 ـ الفرق الاسلامية... المصدر نفسه ص: 83.
26 ـ 27 ـ **تاريخ المغرب في القرن العشرين**: نيقولا زياده ـ دار الثقافة الطبعة الثانية بيروت 1980 ص: 106.
28 ـ مجلد 3 ص: 171. Encyclopeadia Universalis, Paris 1980.
29 ـ ل. بالوت: افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ ـ الوارد في (**تاريخ افريقيا العام**) المصدر المذكور سابقا ج 1 (1983) ص: 588.

30 ـ طبع بكولونيا: Dumont Köln 1977
(*) أخذ الترقيم الموسيقي لهاتين القطعتين والقطعتين المواليتين من كتاب «هلفرتس».
31 ـ نقلا عن محمد ابراهيم الميلي: **الجزائر في ضوء التاريخ** قسنطينة 1980 ص: 38.
32 ـ نقلا عن عبد الله العروي: **تاريخ المغرب** ـ ترجمة د. ذوقان قرقوط ـ بيروت 1977 ص: 45 و46.
33 ـ البربر الاصليون ـ الوارد **في تاريخ افريقيا العام** ـ المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 444.
34 ـ 35 ـ 36 ـ 37 ـ البربر الاصليون... المصدر نفسه ص: 444.
38 ـ 39 ـ 40 ـ 41 ـ البربر الاصليون... المصدر نفسه ص: 443.
42 ـ افريقيا الشرقية قبل التاريخ ـ الوارد في تاريخ افريقيا العام ـ المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 496.
43 ـ 44 ـ الصحراء في ما قبل التاريخ الوارد في المصدر نفسه ص: 605 و610.
45 ـ **تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر** ـ ترجمة محمد البشير الشنيتي ـ ورشيد بوروبيه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر 1982 ـ ص: 122.
46 ـ افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ الوارد في تاريخ افريقيا العام ج 1 ص: 588.
47 ـ الصحراء في ما قبل التاريخ.. المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 605 هامش 72.
48ـ تمهيد حول ما قبل التاريخ.. المصدر المذكور سابقا ص: 118.
49 ـ جيان ديسانج: البربر الاصليون ـ المصدر المذكور سابقا ص: 443
(*) هيميرا: مدينة بجزيرة صقلية ساحلية على مصب نهر هميره، أنشأها الاغريق أثناء توسعهم، فيها انهزم جيش قرطاج بقيادة عملقار بن ماقون أمام تحالف واتحاد الطاغيتين جيلون حاكم جيلا gela وتيرون حاكم أقريجنتي Agrigente الاغريقي وكانت النتيجة انتحار عملقار وتحطيم الاسطول الذي قدره البعض بحوالي 200 سفينة وأسر الجيش واجبار قرطاج على دفع غرامة قدرت حسب جوليان بـ 2,000 وزنه أوبيه talent ويقال ان من بين شروط الصلح هو ان تعدل قرطاج على حرق الصبيان بين يدي صنمها الاكبر.
(*) يذكر ب. هـ. وارمنجتون بان توسع قرطاج في القرن الخامس قبل الميلاد شمل شبه جزيرة رأس بون (الوطن القبلي) والارض الواقعة جنوب العاصمة حتى دقّة ص: 457 تاريخ افريقيا المجلد الثاني فصل 18 العصر القرطاجي.
50 ـ جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 112.
51 ـ جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية... المصدر نفسه ص: 165.
52 ـ الميلي محمد ابراهيم: **الجزائر في ضوء التاريخ** ـ مطبعة البحث، قسنطينة 1980 ـ ص: 38 ـ جوليان تاريخ افريقيا الشمالية ج 1 ص: 134 وتاريخ افريقيا العام ج 2 ص: 470 واحمد صفر مدينة المغرب العربي ج 1 ص: 179.
53 ـ الميلي محمد ابراهيم: الجزائر. المصدر المذكور سابقا ص: 38.
54 ـ الكعاك عثمان ـ **البربر** ـ سلسلة كتاب البعث تونس 1956 ص: 33.
55 ـ ديبو: تونس ـ المصدر المذكور سابقا ص: 66 و67.
56 ـ البربر الاصليون... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 443.
57 ـ 58 ـ ديبو: تونس المصدر المذكور سابقا ص: 67.
59 ـ جيان دي سانج: البربر الاصليون... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 443.
60 ـ جيان دي سانج: البربر الاصليون... المصدر نفسه ص: 445.
61 ـ الهمداني ابو محمد الحسن: **الاكليل** ـ تحقيق محمد بن علي الاكوع، مطبعة الكتاب العربي ـ دمشق 1979 ج 8 ص: 187.
62 ـ علي جواد: المفصل في تاريخ العرب... المصدر المذكور سابقا ج 1 (طبعة ثانية 1976) ص: 211.
63 ـ آفاق عربية ـ عدد 2 ص: 88 بغداد 1987.
64 ـ آفاق عربية ـ المصدر نفسه.
65 ـ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب.. المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 102.
66 ـ **السياحة في اليمن الديمقراطية**: ص: 122 ـ باريس 1976 (Edition Debroisse).
67 ـ علي جواد: المفصل في تاريخ العرب... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 101.

المؤرخون المسلمون وأصل البربر

يدرك القارىء لماذا وقع تأخير ذكر آراء المؤرخين المسلمين في قضية أصل البربر ومنشئهم، ذلك أن جل المعلومات التي اوردوها من قبيل الرواية المنقولة عن النسابين والاخباريين جيلا بعد جيل.

والرواية الشفوية كما نعلم ــ محل أخذ ورد ــ والاعتماد عليها وحدها لم يعد كافيا لما نالها عبر الزمن من خلط وتحريف وذكر أشياء مخالفة للواقع وبعيدة عن التصديق.

والجانب الوحيد من الثقافة العربية الاسلامية المتشعّبة الذي خضع للتمحيص و إلى كثير من الضوابط عند التدوين هو (الحديث) أما الجوانب الاخرى من أخبار وأنساب وأيام وأحداث فلم يطبق في شأنها هذا المنهج، ومن هنا وجدنا التضارب والتناقض فيما دونه المؤرخون المسلمون حول أصل البربر، وكان هذا بدوره مدعاة لاختلاف الباحثين المحدثين من حيث القول ببعض هذه الروايات أو رفضها جزئيا أو كليا.

وكان للمدرسة التاريخية الاستعمارية ومن نهل منها موقف متميز لا يقوم على رفض تلك الروايات المشكوك في صحتها ولما فيها من تحريف وأخطاء مخالفة لحقائق الواقع وانما على الإلغاء والانتقاء، إلغاء الرواية بصفة عامة واعتبارها بدعوى العلمية والعقلية الحديثة منتحلة ومن قبيل الخرافات، وانتقاء بعضها في كثير من الحالات، وكل ذلك تمشيا مع نهجها وأغراضها الاستعمارية المبيتة.

والموقف من الرواية الشفوية في تاريخنا القديم لا ينبغي ان يكون القبول أو الرفض الاعتباطيين وانما وضعها في اطار ما وفرته المصادر الأخرى من آثار ووثائق مكتوبة وعلوم لغوية وما يتعلق بالنظم والتقاليد والاعراف وغير ذلك من مصادر المعرفة الاخرى، وهو ما يجعلنا نستفيد مما تضمنته في جملته.

فالرواية الشفوية من مصادر المعرفة التاريخية، وان أولى خزاناتها كما قيل أدمغة الرجال، لا يمكن الاستغناء عنها في بعض المراحل من تطور المعارف الانسانية، فهناك

حضارات متعددة كما في افريقيا اعتمدت في ماضيها كله على الكلمة والرواية الشفوية، وقد اتخذ المؤرخون من ذلك سبيلا لدراسة تلك الحضارات والتعرف عليها. والمعروف ان ذاكرة الشعوب قادرة على اختزان أشياء كثيرة من الماضي البعيد وقد لاحظ البعض بناء على ما عرفوا من أحوال عدد من الشعوب (ان الذين لا يكتبون هم أقوى ذاكرة)[1].

والمأثور في تاريخنا الثقافي ـ الحضاري القديم، له وزنه فلا يمكن أن يكون كله باطلا، ولا صلة له البتة بحقائق الواقع، لان الأمر لو كان كذلك، لكان من قبيل العبث، وهذا مرفوض، وهمّنا هو البحث عما في ثنايا هذا المأثور من معلومات واشارات تنسجم مع ما وقع التوصل اليه من نتائج في هذا المضمار.

البربر وشجرة الأنساب:

يجمع الاخباريون والمؤرخون القدماء على أن آدم لم يبق له من نسل على وجه الارض إلا نوح الذي يعتبر آدم الثاني الذي انحدرت منه كل السلالات البشرية على اختلاف اصنافها، ويختلف النسابون والمؤرخون في ربط البربر «بشجرة الانساب» المتفرعة من نوح.

فالبعض يجعلهم من سلالة ابنه حام والبعض الآخر يجعلهم من سلالة ابنه سام، والمعروف ان البربر لم يرد لهم ذكر في «شجرة الانساب التوارتية» ويصنّفون إلى جذعين عظيمين: البرانس (أبناء برنس) والبتر (أبناء ماذغيس) وقد اختلف في أمرهما فهل هما لأب واحد أم لأبوين مختلفين؟

ومن القائلين بانتساب البربر إلى السلالة الحامية:

ـ سعيد بن المسيب القائل بأن البربر من ولد حام[2].

ـ هشام بن محمد الكلبي ـ الذي يرى أن البربر بقية من الكنعانيين انتقلت من فلسطين إلى أرض المغرب[3] والكنعانيون في نظر جميع النسابين حاميون.

ـ عدد من النسابين يتفقون على أن البربر من سلالة حام، ولكنهم يختلفون في أي من أبنائهم الثلاثة انحدروا: مصرايم أو قوط أو كنعان.

1 ـ اليعقوبي[4] وابن خرداذبه[5] والصوالي يجعلون البربر من نسل مصرايم وهم اما من ابنه كسلوجيم[6] واما من ابنه فاروق[7].

2 ـ ابن عبد البر: يجعلهم من نسل قوط[8] أو قبط.

3 ـ عدد من النسابين يقولون أنهم من نسل كنعان وهم كما يلي:

ـ وهب بن منبه[8أ] الذي تحدث على بني مازيغ وهم أبناء كنعان.

ـ عبيد بن شويه[8ب] الذي يجعل البربر من ولد كنعان.

ـ عبد الملك بن هشام[8ت] الحميري الذي روى عن وهب وعبيد.

ـ النسابة البربري أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار الذي يجعل البربر بفرعيها: البرانس والبتر من نسل كنعان وهما عنده لاب واحد[9] هو برنس بن سفجو بن ايزج بن جناح بن واليل بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان بن حام[10].
ـ النسابون: هاني بن بكور الضريسي وسابق بن سليمان المطاطي وكهلان بن أبي لوا وهاني بن مسرور والكومي وسالم بن سليم المطاطي وغيرهم، وهم جميعا من نسابة البربر يعدّون فرع البرانس فقط من السلالة الحامية من نسل كنعان، أما فرع البتر فلا[11].
ـ أبو المنذر النسابة[12] وابن خلدون الذي يقول: «والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم، أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح»[13].

وأما القائلون بانتساب البربر إلى السلالة السامية فمواقفهم مختلفة يمكن حصرها فيما يلي:
ـ جعل البربر من العمالقة أي من العرب البائدة. ومن القائلين بهذا الطبري الذي يذكر «وعمليق هو أبو العمالقة ومنهم البربر، هم بنو ثميلا بن مارب بن فاران بن عمرو بن عمليق بن لوذ بن سام بن نوح»[14].

ونجد هذه الرواية بنصها عند ابن الاثير وكذلك ابن خلدون وصاحب سبائك الذهب. والعمالقة من الشعوب العربية القديمة ذكرتهم التوراة ولكنها سكتت عن أصلهم ونسبهم. وهم ـ كما يقول الاخباريون فروع كثيرة «فكان منهم أهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر»[15].

وكانت منازلهم التي اشتهروا بها «من حدود مصر فطور سيناء إلى فلسطين»[16].

والعمالقة حسب التوارة من الشعوب التي صدمت العبرانيين عند خروجهم من مصر ولذا كانوا يحقدون عليهم ويسعون لابادتهم.
ـ جعل البربر من نسل ابراهيم الخليل[17] الذي هو عند الاخباريين من نسل سام بن نوح وهم عند الحمداني من نسل بربر بن قيدران بن اسماعيل بن ابراهيم وقيل هم من نسل ولده لقشان بن ابراهيم.
ـ جعل الفرع الثاني من البربر الملقب بالبتر وهم أبناء ماذغيس من الفرع المصري ـ العدناني. وقال بهذا جميع نسابة البربر، ومنهم ـ على ما يبدو ـ أيوب بن أبي يزيد[18] الامر الذي يمكن القول معه ان هناك اجماعا بين نسابة البربر على اختلاف اجيالهم وطبقاتهم على انتساب البربر إلى الفرع المصري وتكون سلسلة النسب هكذا:

ماذغيس بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ويذكر الرواة ان لقيس اختا تسمى (تماضر) رثته بالابيات التالية عندما تغرّب وظل بعيدا (عن قرابته وذويه وبلده)[19]:

لتبك كل باكية أخاها كما أبكي على برّ بن قيس
تحمل عن عشيرته فأضحى ودون لقائه أنضاء عيس

وينسب إليها أيضا[20]:

وشطّت ببرّ داره عن بلادنا وطرّح بنفسه حيث يمّما
وأزرت ببرّ لكنة أعجمية وما كان لبرّ في الحجاز باعجما
كأني وبرّا لم نقف بجيادنا بنجد ولم نقسّم نهابا ومغنما
فلا يبعدنّ برّ على بعد داره وان الق برّا.......

وأنشد علماء البربر لعبيد بن قيس العقيلي[21] هذه المقطوعة:

الا ايها السّاعي لفرقة بيننا توقف هداك الله سبل الاطائب
فأقسم أنا والبربر اخوة نمانا وهم جد كريم المناصب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى وفي حرمة يستي غليل المحارب
فنحن وهم ركن منيع واخوة على رغم اعداء لئام المناقب
فان البرّ ما بقي الناس ناصرا وبرّ لنا ركن منيع المناكب
نعد لمن عادى شواذه ضمرا وبيضا تقطّ الهام يوم التضارب
وبرّ بن قيس عصبة مضرية وفي الفرع من أحسابها والذوائب
وقيس قوام الدين في كل بلدة وخير معد عند حفظ المناسب
وقيس لها المجد الذي يقتدى به وقيس لها سيف حديد المضارب

كما تنشد هذه الابيات ليزيد بن خالد يمدح البربر[22]:

أيها السائل عن أصلنا قيس عيلان بنو العزّ الاول
نحن ما نحن بنو برّ القوى عرف المجد وفي المجد دخل
وابتنى المجد فأورى زنده وكفانا كل خطب ذي جلل
ان قيسا يعتزي بر لها ولبرّ يعتزي قيس الأجل
ولنا الفخر بقيس انّه جدّنا الاكبر فكاك الكبل
آن قيسا قيس عيلان هم معدن الحقّ على الخير دل
حسبك البربر قومي انهم ملكوا الارض بأطراف الأسل
وبيض تضرب الهام بها هام من كان عن الحق نكل
أبلغوا البربر عنّي مدحا حيك من جوهر شعر منتحل

ـ جعل البربر من الفرع القحطاني، فقال المسعودي انهم من غسان وغيرهم[23] تفرّقوا بعد سيل العرم، وقيل هم أوزاع من اليمن[24] وقيل هم قوم تخلّفهم أبرهة ذو المنار بالمغرب حيث غزاه، وهو أحد تبابعة اليمن[25].

وقيل هم من حمير ولد النعمان الذي أرسل بعض أبنائه إلى المغرب فعمّروا به وتناسلوا[26].

وقيل هم من لخم وجذام، كانت منازلهم بفلسطين أخرجهم الفرس منها فلجأوا إلى مصر فمنعهم ملوكها من النزول بها فتوجهوا إلى بلاد المغرب واستقروا به[27] ولخم وجذام من القبائل اليمنية القحطانية المهاجرة إلى بلاد الشام.

ومن ينسب البربر إلى الفرع المضري أو القحطاني فانه يجعلهم أعرق في العروبة من غيرهم، ولكن جلّ هذه الآراء متداخلة ولا تستقيم مع الحقائق التاريخية، فالبربر الاوائل، ومنهم اللوبيون والموريون والأموريون هم أقدم بكثير من الغزو الفارسي الذي بلغ مصر سنة 525 قبل الميلاد ومن سيل العرم الذي حدث حوالي 575م.

ومن السذاجة ان نحصر جموع البربر الغفيرة والمتنوعة في أحد هذين الفرعين ولكن ذلك لا يمنع أن تكون لاحد هذين الفرعين بطون في تلك الجموع البربرية التي توافدت على المنطقة في أزمان مختلفة.

البربر وجالوت:

تربط بعض المصادر بين البربر وجالوت الوارد ذكره في التوراة[28] والقرآن[29] فمن الاخبار بين من يقول انه كان ملك البربر بفلسطين مثل عبد الملك بن هشام[29أ] وابن عبد الحكم[30] والمسعودي[31] وابن عبد البر[32] وابن خرداذبه [33] وصاحب الاستبصار[34] ومنهم من يقول ان البربر من نسله مثل عبد الملك بن هشام[34أ] وكذلك النسابة عبد العزيز الجرجاني الذي نقل عنه قوله: (ولا أعلم في البربر شيئا يقارب الصحة الا قول من قال انهم من ولد جالوت)[35].

وذكر ابن عبد البرّ ان اكثر علماء النسب (قالوا: البربر كلها من ولد جالوت)[36].

أما نسبه فقد اختلف فيه اختلافا كبيرا فقيل من ولد هربال[36أ] ـ وكذلك من ولد برّ بن قبط بن حام بن نوح[37]، وقيل من ولد كسلوجيم بن مصرايم بن حام بن نوح[38] وقيل من نسل ماذغيس[39] الأبتر، وقيل من نسل فارس[40] الذي تربطه بعض الروايات بلاوذ بن سام.

أما الادريسي فيجعله من السلالة المضرية فيقول:

«وكان ملكهم جالوت بن ضريس بن جانا... وجانا هو ابن لوا بن برّ بن قيس بن الياس بن مضر»[41] وهناك رأي لم نجده الا عند صاحب الاستبصار الذي يعتبر كلمة «جالوت» سمة لملوك البربر أي بمثابة اللقب لهم.

فيقول: «وكان ملكهم جالوت الجبار العنيد، وجالوت سمه لسائر ملوك البربر»[42].

ومن الملاحظ أن لهذا الرأي ما يدعمه على المستوى اللغوي، فجالوت هي من الفعل «جَلَتَ، يَجْلِتُ، جَلْتاً (والمعنى ضرب، يضرب، ضربا). و(جالوت) صيغة مبالغة بمعنى الكثير الضرب. فمن حيث المعنى اللغوي، ومن حيث ما وصف به جالوت من كونه جبارا عنيدا، يمكن أن تكون كلمة «جالوت» صفة لنوع من الملوك يتصفون

بالشدة والقوة فكما يوصف بكلمة (الجبار) وهي أيضا صيغة مبالغة، يوصف كذلك بكلمة (جالوت) ويستخلص من هذا أن (جالوت) وفعلها (جلت) من الكلمات العربية القديمة المشتركة.

البربر من الجبارين:

اضافة الى ما تقدم نجد في المصادر القديمة روايات تقول: ان البربر من الجبارين ونقل البلاذري عن النسابة عبد الله بن صالح قوله وهو يتحدّث عن البربر «وأنهم من الجبارين الذين قاتلهم داود عليه السلام وكانت منازلهم على أيادي الدهر فلسطين وهم أهل عمود فأتوا المغرب فتناسلوا به»(43) وذكر عبد الملك بن هشام انهم من بقايا مازيع الكنعانيين(43أ).

ولكن من هم هؤلاء الجبارون؟

فمن الاخباريين من ينسبهم الى العمالقة ويمزج هؤلاء بالكنعانيين فيقول «وعمليق هو أبو العماليق ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون»(44) ومن الاخباريين من يجعلهم من العمالقة من سلالة سام فيقول «والعقب من لاوذ بن سام: عمليق، وهو أبو العمالقة والفراعنة والجبابرة بمصر والشام»(45).

وبقطع النظر عما في هذه الروايات من فساد واضطراب فان البربر يعتبرون من ناحية (حاميين) لاطلاق اسم الكنعانيين عليهم، ومن ناحية أخرى (ساميين) لكون هؤلاء من العمالقة الذين تقدّم ذكرهم.

البربر خليط:

من الروايات الملفتة للنظر تلك التي تقول: ان البربر خليط من أقوام شرقية مختلفة فذكر ابن خلدون أن الطبري قال: «ان البربر أخلاط من كنعان والعماليق»(46) ونقل عن مالك بن المواصل قوله: «ان البربر قبائل شتّى من حمير ومضر وكنعان وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا»(47).

هذه الرواية التي لم تعرها الدراسات البربرية الحديثة اي اهتمام فانها في الحقيقة تشير الى حقائق هامة سواء من حيث اعتبار البربر أقواما مختلفة أو أن اللغط وتداخل اللغات وقع بالشام أو بباديته وما حولها أو من حيث تأثر هذه المنطقة بتلك التحركات البشرية الواسعة التي حدثت خلال الالف الثانية قبل الميلاد فدفعت بعدة جماعات ومنها الهكسوس في اتجاه مصر والمغرب.

البربر وافريقش:

من القصص الكثيرة التداول في المصادر القديمة تلك القصة التي تربط بين البربر

وافريقش اليمني، وايرادها هنا هو من قبيل الاطلاع على ما وراه لنا الاخباريون والنسابون القدماء في هذا الموضوع ولضمها الى مختلف الروايات لتدبرها جميعا على ضوء معطيات الابحاث الجديدة.

هناك اختلاف في كتابة اسم هذه الشخصية فقد ورد ذكره هكذا:

«افريقش، افريقس، افريقيش، افرقيس» وذكر البعض بانه ابن ابرهة[48] بن الرايس.

وذكر البعض الاخر بأنه ابن قيس بن صيفي[49] وابن صيفي بدون قيس[50] وهو في كل الاحوال يعد ملكا يمنيا، غير ان اسمه لم يرد ضمن قائمة ملوك جنوب الجزيرة العربية التي أمكن التعرف عليها الى حد الآن.

ويقال ان افريقش هذا هو والد الملك (شمر يهرعش) المعروف عند الاسلاميين (بشمّر يرعش)[51] الذي حكم في القرن الثالث الميلادي والذي نسج حوله الاخباريون أقاصيص عجيبة تحدثت عن غزوه لبلاد فارس والهند والترك ومصر والحبشة.

وذكر حمزة الاصفهاني افريقش على هذا النحو «يرعش ابوكرب بن افرقيس بن ابرهة الرايش»[52].

واختلف الرواة فيمن أخرج البربر من الشام، ففي بعض الروايات ان افريقش هو الذي اخرجهم من الشام وسماهم البربر للغطهم وكثرة كلامهم واحتملهم معه الى افريقيا قائلا[53]:

بـــربـــرت كـنـعـــان لما سقتهـــا　　　من أرض الهلك للعيش العجيب

وهناك أسكنهم بعد ان قتل الملك جرجيرا ومن ذلك الحين تسمّت افريقية باسمه.

وفي رواية أخرى أن افريقش لم يحتمل معه البربر الى أرض المغرب وانّما وجدهم فيها[54]. وقد تعجب من كثرتهم ومن عجمتهم ورطانة السنتهم فقال لهم: ما اكثر بربرتكم فسمّوا بالبربر.

وتنتهي قصة افريقش بعودته من افريقيا وقد ترك فيها في البربر من الحميريين (كتامه وصنهاجة فهم فيهم الى اليوم)[55] ويقال ان كتامه وصنهاجة من ابنائه[56].

مكان البربر وخروجهم منه:

هناك ما يشبه الاجماع على ان منازل البربر الاولى كانت بفلسطين وما جاورها من أراضي الشام بما فيها الساحل، فيقول ابن عبد الحكم:

«وكان البربر بفلسطين وكان ملكهم جالوت، فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجهين الى المغرب حتى انتهوا الى لوبيه ومراقيا وهما كورتان من كور مصر الغربية»[57].

ويضيف ابن قتيبة مصر فيقول: «ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل الى مساكنهم اليوم»[57أ].

ويقول ابن خلدون «وكانت قبائل البربر يومئذ يسكنون الشام»[58].

أما خروجهم وسببه فقد اختلف فيه. فقيل افريقش كما تقدم ذكره وقيل بعض ملوك اليمن[59] (التبابعة) وقيل الاسرائيليون سواء بزعامة (يوشع بن نون)[60] أو بزعامة (داود)[61] الذي قتل جالوت وأوحي اليه باخراج البربر من الشام لكونهم جذام الارض ففرّوا الى المغرب بعد أن توجهّوا الى مصر ومنعهم الاقباط من الاستقرار بها، وقيل على اثر قتل ملكهم (جالوت) تفرّقوا في البلاد المجاورة وتوجّه أكثرهم الى المغرب[62].

انتماء بعض القبائل البربرية الى الأصل العربي:

الامر هنا لا يتناول البربر في مجموعهم وانما يتناول عددا من القبائل التي قيل عنها انها من أصل عربي، وعند دراستها وتتبع مختلف الروايات في شأنها أمكن أن نميّز في هذه القبائل بين صنفين: صنف يعتبره نسابة البربر والعرب على حد سواء من أصل عربي، وصنف يتجاوز الأمر فيه على ما يبدو قول النسابين الى ما يوجد من اعتقاد راسخ لدى أفراد القبيلة العاديين بأنهم من سلالة عربية ومن الاقوام المهاجرة.

الصنف الأول

يمكن أن ندرج ضمنه القبائل التالية:

1 ـ **كتامه وصنهاجة**: وهما من فرع البرانس الذي أجمع كل نسابة البربر على أن كل فصائله من البربر ولم يخالفهم في هذا الا نسابة العرب الذين عدّوا هاتين القبيلتين من عرب اليمن، من حمير، وقال بهذا كل من ابن الكلبي والطبري والمسعودي وعبد العزيز الجرجاني والبليّ[63] والبيهقي[64] والصولي[65] والبكري وغيرهم. كما نجد شهاب الدين النوري تحدّث عن صنهاجة باعتبارها قبيلة قحطانية فقال: «وأما يمن فهم أولاد قحطان.. وفيهم عدة جماجم وقبائل وأبطن وأفخاذ وعشائر: كسبأ وطي.... وصنهاجة وبارق»[66].

ونذّكر بما تقدم[67] لنا عن الامير الصنهاجي ابي الفتح المنصور عما ورثه من ملك عن اجداده الذين «ورثوه عن أبائهم وأجدادهم حمير».

2 ـ **زناته**: وهي فرع من البتر الذي عدّه نسابة البربر أنفسهم من السلالة المضرية لا من البربر، وبناء على هذا فزناته ذات أصل عربي عدناني وان كان هناك من يقول انها من «لخم»[68] ولخم قبيلة يمنية من كهلان ونجد نسابة[69] زناته مرة ينسبون قبيلتهم الى حمير والتابعة ومرة الى العمالقة، ومرّ بنا أن العمالقة من العرب البائدة.

ويذكر ابن خلدون ان قبيلة زناته قديمة وان أوليتها «مساوقة لأولية البربر منذ أحقاب متطاولة»[70] وكانت مواطنها من لدن جهات طرابلس الى جبال اوراس والزاب.. وكانت الكثرة والرياسة فيهم قبل الاسلام[71]. والمعروف عن زناته في حياتها الاجتماعية

انها شبيه بالعرب (في سكنى الخيام واتخاذ الابل، وركوب الخيل والتغلب على الارض، ايلاف الرحلتين وتخطّف الناس من العمران والاباية عن الانقياد للنصفة»[72].

وابن خلدون يعتبرها في نظامها الاجتماعي مقلدة للعرب وآخذة بشعائرهم، وهذا أمر مستبعد لانه وان كان من الممكن أن تأخذ زناته بعض عادات العرب فانه من غير الممكن أن تأخذ أسلوب حياتهم برمته، ثم اننا نعرف من خلال ما تقدّم من البربر والعرب متشابهان في حياتهما الاجتماعية وأسلوب تنظيمها.

3 ـ من القبائل التي تنسب الى الاصل العربي الحميري القبائل التالية:

زواره: وقد اختلف في شأنها، فعدها نسابة البربر من فرع البتر من بطون ضريسه[73]. وعدها ابن حزم وابن خلدون في كتامه[74] فرع البرانس.

مكلاته: من بطون نفزاوه من فرع البتر، وينسب مكلاته الى اليمن ويقال انه وقع صغيرا الى يطوّف بن نفزاو فتبناه وتناسلت منه عدة بطون، وكان سابق المطماطي النسابة البربري يقول ـ وكذلك أصحابه ـ «ان مكلاته ليس من البربر وانه من حمير»[75].

بنوغماره: بطن من بطون مصموده من فرع البرانس ويقول العامة منهم «انهم عرب غمروا في تلك الجبال فسمّوا غماره»[76].

ولهذا المعنى ما يبرره من الناحية اللغوية، اذ يمكن لنا أن نقول: غمروا في الجبال أي كثروا بها، وغمروا الجبال أي انتشروا فوقها وغطوها.

ويورد ابن خلدون موقف النسابين في هذه القبائل فيقول «وأما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب... مثل غماره أيضا وزواره ومكلاته يزعم ـ في هؤلاء كلهم ـ نسّابتهم أنهم من حمير»[77].

الصنف الثاني:

وهو يشمل بعض القبائل التي تنتسب هي الاخرى الى أصل عربي قديم، وهذا الانتساب لا يستند فيه أساسا الى ما يورده النسابون والرواة وانما على ما يوجد لدى أفراد القبيلة من اعتقاد شائع بانهم من أصول عربية شرقية بدون أن يكونوا ملمّين بالتفاصيل والاطوار الماضية.

فهناك على سبيل المثال بعض البطون في الجنوب التونسي كانت تعيش ـ على عهد قريب ـ على الترحال عبر القطرين التونسي والجزائري، يعرف أفرادها على الجملة انهم من أرض الجزيرة العربية من نجد.

وليس هذا بالامر الغريب، فالذاكرة الجماعية في النظام القبلي قادرة على الاحتفاظ ـ ولأمد طويل ـ بمعلومات وحقائق من الماضي البعيد.

ولذا فلا غرابة ان نجد بعض القبائل البربرية ما يزال أفرادها واعين بصورة أو بأخرى بالاصل الذي انحدروا منه، ومن الامثلة على ذلك:

1 ـ **هوّاره**: التي يعدها النسابون بربرا وعربا من فرع البرانس تقول عن نفسها انها من عرب اليمن وانها تجهل نسبها لقدم عهدها. فجاء في كتاب البلدان لليعقوبي: «هواره يزعمون أنهم من البربر القديم»(78) وأيضا «وتزعم هواره انهم قوم من اليمن جهلوا أنسابهم»(79) وذكر شهاب الدين النوري أن «هواره تزعم أنهم قوم ناقلة من يمن جلهوا أنسابهم»(80).

ويمكن ان نستخلص من هذه النصوص ومن غيرها أمرين هامين: أولهما: ذكره اليعقوبي وما نظن أن أحدا غيره ذكره وهو أن «بطون هواره يتناسبون كما تتناسب العرب فمنهم بنو اللهان ومليله وورسطفه. فبطون اللهان: بنو درسا وبنو مرمزيان وبنو ورفله وبنو مسراته»(81)

ولا يمكن ان نتصور ان هذا الانتساب من الاشياء التي انتحلتها هواره وقلدت فيها العرب بل هو شيء موروث ومتأصل في طبيعة نظامها الاجتماعي القبلي كما هو موروث في العرب جميعا.

ثانيهما: ما ذكره البعض(82) عن التحالف الذي حصل بين هواره والقبائل اليمنية التي كانت تشكل ـ حسب اليعقوبي ـ أكثرية القبائل التي قدمت في المراحل الاولى للفتح. وكانت منازل هواره وقتها تمتد من خليج سرت الى طرابلس وتقترب شرقا من نواحي برقة (المرج).

فهذا التحالف وما نجم عنه من اندماج واستعراب، كان الاول من نوعه في تاريخ شمال افريقيا، له مغزاه في العلاقات بين هواره والقبائل اليمنية ويمكن أن يفسر ما بينهما من شعور بالقرابة والانتماء الى أصل واحد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان هواره عندما تقول عن نفسها انها من اليمن، تقول انها من (عامله)(83) وبنو عامله ـ حسب النسابين ـ هم اخوة لخم وجذام وكلهم من بطون كهلان القحطانية كانت مواطنهم بالشام «وبنو عامله» التي تقول هواره انها تنتمي اليهم، هم أيضا كانوا يقيمون بالشام، فيقول الحمداني:

«وبجبال عامله من بلاد الشام منهم الجم الغفير»(84).

ويقول ابن خلدون: «وهم بطن متسع ومواطنهم برية الشام»(85) ويربط ابن عبد البر بين هواره وعامله والموطن الذي كانت به فيقول: «وهواره انهم من عامله وانهم انتقلوا من الشام»(86).

واذا ما عدنا الى القبائل اليمنية التي جاءت مع بداية انتشار الاسلام في ليبيا فنجدها من الازد ولخم وجذام وصدف وغسان وتجيب نزلت بالجبلين المجاورين لبرقة (المرج) شرقا وغربا. ونلاحظ ان القبائل التي تحالفت معها هواره هي من نفس السلالة التي تقول هواره انها انحدرت منها ومن نفس الموطن الذي جاؤوا منه وهو الشام.

ولا ندري على وجه التحديد متى تحولت القبائل اليمنية المذكورة الى بلاد الشام

وأراضي الهلال الخصيب، وكل ما نعرفه من بعض المصادر[87] أن قبائل اللخميين والغساسنة اليمنية هاجرت من جنوب الجزيرة العربية قبل الاسلام بعدة قرون فاستقرت الاولى في العراق على أطراف الدولة الفارسية واستقرت الثانية بشرق الاردن على أطراف الدولة الرومانية.

ومن الموضوعات الملفتة للانتباه هو انتشار هواره في بلاد المغرب فقد ذكر القلقشندي أن منازلهم كانت «بالديار المصرية وبالبحيرة، من الاسكندرية غربا الى العقبة الكبيرة من برقة»[88] ومع توالي الاحقاب انتقل بعضهم الى داخل مصر بنواحي الصعيد والى جهات أخرى.

وذكر ابن خلدون أن مواطن أغلبية هواره في بداية الفتح كانت ما بين طرابلس وبرقة ثم فارق بعضهم هذا الموطن في فترة لاحقة متوغلة في الصحراء باتجاه الغرب. ويضيف (ومنهم ممن قطع الرمال الى بلاد القفر وجاؤوا لمطه من قبائل الملثمين في ما يلي بلاد كوكو من السودان تجاه افريقيا ويعرفون بنسبهم هكّاره قلبت العجمة واوها كافا أعجمية تخرج بين الكاف العربية والقاف)[89].

ويبدو أن المنطقة المسماة حاليا (بالهقار) الواقعة بالصحراء جنوب القطر الجزائري، أخذت اسمها من (هواره) بعد أن قلبت العجمة واوه كما قال ابن خلدون.

ويتضح من هذا ان هواره كانت في مرحلة اولى بمصر ثم انتقلت بعض بطونها الى ليبيا ثم الى داخل الصحراء وهذا من شأنه أن يجعلنا نتصور ان انتقالها الاساسي كان من الشرق، ثم وجودها في شمال مصر بالبحيرة وغرب الاسكندرية وانتقال بعض البطون الى جنوبها ينفي أن تكون هواره قدمت الى مصر من الجنوب.

كذلك نستبعد ان تكون قدمت من الغرب على غرار اللوبيين والمشاوش القدماء اذ لا دليل على ذلك والامر كله قائم على التخمين.

أما قدومها من شرق مصر من الشام فهو أرجح الاحتمالات لان مصر توافدت عليها في النصف الثاني من الالف الاولى قبل الميلاد وكذلك بعده عدة أفواج وجماعات مختلفة، فمن الممكن ان تكون هواره من بين تلك الجماعات.

ثم ان انتشار البرابرة بمصر ليس متأتيا دوما من الغرب، لان لفظة بربر أو برابرة نبتت بالمشرق أولا لكونها وصفا لمن لغطوا وتداخلت لغاتهم ولانها أيضا تعبير عن صفات اجتماعية أخرى، وقد انتقل هذا المدلول مع الجماعات الموصوفة به الى مصر والمغرب عامة، وهذا ما يؤكد على أن هوّاره ظهرت بمصر قبل ان تظهر في أية منطقة أخرى من بلاد المغرب العربي.

ونختم هذا الكلام عن هواره بما ذكره الادريسي في شأنها حيث اعتبرها من القبائل العربية المتبربرة فقال: «وهوار أيضا أخ لصنهاج ولمط من أم وأبو المسدّر بن المثنى بن كلاع بن أيمن بن سعيد بن حمير، وانما قيل له هوار لكلمة تقولها فتسمى بها هوارا

وذلك أن قبائل العرب نزلت على قبائل البربر فنقلوهم الى لسانهم بطول المجاورة لهم، حتى صاروا جنسا واحدا»[90]. وقال ايضا (ومدينة اغمات اهلها هواره من قبائل البربر المتبربرين بالمجاورة)[91].

2 ـ لواته: ذكر ابن حزم ان لواته[92] من القبط ولكن ابن خلدون نفى ذلك وعدّها من فرع البتر اذ هي تنتسب الى لوي الاصغر بن لوي الاكبر بن زحيك بن مادغيس الابتر[93] فهي بحكم هذا الانتماء مثل زناته تؤول الى الفرع المضري العدناني.

والشريف أبو البركات الجواني يعتبر لواته من ولد برّ أي برّ بن قيس عيلان المضري على خلاف بعض النسابين الذين يلحقونها بالبربر المنحدرين من السلالة الحامية فيقول: «ومن النسابين من يلحق لواته ـ وهم ولد برّ ـ بالبربر هذا بن كنعان بن حام»[94].

وكون لواته ليست من البربر فهذا ما يقوله نسابة البربر أنفسهم الذين يعدّون بعض شعبوهم من العرب ومنهم لواته التي يقولون عنها انها من حمير[95].

ولكن ماذا تقول لواته عن نفسها أي ماذا يعتقد أفرادها وماذا يعرفون عن نسبهم، ينقل الشريف ابو البركات عنهم فيقول: «ومن اللواتيين من يقول فيهم: انهم قيس ويعتبرون أنهم من ولد جابر بن بَغِيض بن رَيْث بن غطفان وان جابر جدهم عم فزار»[96].

وغطفان هو ابن سعيد بن قيس عيلان، وبهذا تكون لواته شقيقة القبائل العربية المعروفة: عبس وذبيان وأنمار التي هي من نسل بغيض بن ريث بن غطفان، الا ان النسابين العرب لم يذكروا أن لبغيض ابنا اسمه جابر.

ويتحدث الحمداني عن اللواتيين فيقول «هم يقولون انهم من قيس عيلان»[97] وفي هذا الصدد لا بد من ذكر ما قاله النسابة العربي العباس بن مرداس السلمي [98] في شأنهم الذي يعتبرهم هو الاخر من أبناء قيس عيلان.

فقد حكي عن الوفد الذي ارسله عمرو بن العاص من لواته الى عمر بن الخطاب بعد ان فتح ليبيا وكان معظم اللواتيين وقتها يقطنون باقليم برقة، فلما سأل هذا الوفد (من انتم. فقالوا: من البربر. من لواته فقال عمر لجلسائه: هل منكم من يعرف هذا القبيل في شيء من قبائل العرب والعجم؟ قالوا: ليس لنا من قبيلهم من علم. فقال العباس بن مرداس السلمي: ان لي فيهم علما يا أمير المؤمنين. هؤلاء من أولاد برّ بن قيس، وكان لقيس عدة ولد: أحدهم يسمى برّ بن قيس وفي خلقه بعض الرعونة يعني ضيقا فقاتل اخوته ذات يوم، فخرج الى البراري فكثر بها نسله وولده، وكانت العرب تقول: تبربروا أي كثروا[99]، ولواته بالاضافة الى ما تعلنه على أنها من نسل قيس عيلان، تقول أيضا «انهم قوم ناقله صاروا الى بلد البربر»[100].

وهكذا نلاحظ ان لواته ارتبطت ارتباطا متينا بالاصل العربي من خلال هذه

الروايات سواء بتصنيفها ضمن فرع البتر او بما قاله عنها النسابون أو بما قالته هي عن نفسها.

ولواته من القبائل المعروفة قبل الاسلام الا أن اسمها يرد ضمن القبائل التي ذكرها (هيرودتس) و(سترابون) ويبدو أن أول من ذكرها (بروكوبوس) الذي قال عن شعوبها انها (كانت منتشرة بين خليج سرت الكبير ومدينة (أوئيا) طرابلس)[101] وأن جموعا منها بقيادة (قابايون) زحفت نحو افريقية[102] في عهد (ثاساموند) الوندالي(496 ـ 523) واشتبكت مع جيشه وهزمته في ناحية تقع على الخط الجنوبي لقابس، وتحدث (بروكوبوس) عن هذه المعركة التي استعمل فيها الجمل لأول مرة بكيفية غير معهودة[*].

وتوغلت (قبائل الجمّالة) اللواتية الرحالة على غرار الهلاليين في ما بعد في الداخل وشاركوا في عدة تمردات ضد النفوذ الوندالي والبيزنطي متحالفين مع القبائل الجبلية التي يتزعمها أميرها (انطالاس) وارتباط لواته بالجمل وبحياة البداوة والترحال وظهورهم في المناطق الشرقية بشمال افريقيا فيه ما يشير الى أنها قبائل شرقية وفدت الى المنطقة على مراحل. مع العلم انها اول من أدخل الجمل الى سائر المناطق الاخرى بزحفها المذكور.

3 ـ مزاته:

ذكر ابن حزم ان نسابي البربر[103] (نقلا عن أبي محمد بويكني البرزالي الناسك العالم بأنساب البربر) يعدونها مثل لواته وسدراته من القبط، ونفى ابن خلدون ذلك كما رأينا عادّا مزاته من بطون لواته.

ومواطن مزاته ـ حسب اليعقوبي ـ تقع جنوب خليج سرت ما بين مدينة (سرت) و(ودان) مما يلي القبلة، فهم أجوار لواته وهواره. ولم نجد من القدماء من أشار الى نسبها العربي سوى اليعقوبي الذي قال ـ وهو بصدد الحديث عن ساكني المنطقة الجنوبية لسرت ـ انهم (قوم مسلمون يدعون أنهم من اليمن وأكثرهم من مزاته وهم الغالبون)[104].

وما يهمنا في ما نقله اليعقوبي هو أنه من الروايات المنقولة عن المزاتيين لا عن النسابين، وهو اعتقادهم بانهم من أصل عربي وهذا هو المقصود.

4 ـ لطمه:

من القبائل التي لم تتوفر حولها الا معلومات محدودة شأنها شأن بطون بربرية عديدة ومما قيل حولها: ان لمط وصنهاج وهوار اخوة لام تدعي (تزكي)[105] ويضيف ابن خلدون، كزوله وهكسوره[106] فهم جميعا عنده اخوة للام، فصنهاج وهوار معروفا النسب «أما الاخرون فلا تحقيق في نسبهم»[107] أي لا يعرف شيئا عن الاصول التي انحدروا منها، ومع ذلك فقد صنفت ضمن فرع البرانس ولكن ما ذكره اليعقوبي حولها

مثير للانتباه اذ قال: «وبين زويله ومدينة كواره مما يلي زويله الى طريق أوجله واجدابيه قوم يقال لهم لمط وهم أشبه بالبربر»[108].

والمفهوم من كلامه ان هؤلاء القوم ليسوا من البربر الخلص فلوكان الامركذلك لما قال انهم اشبه بالبربر خاصة وانه من المطلعين جدا على ليبيا والقبائل البربرية والعربية المنتشرة فيها.

ولعل هذا الشبه قد أوحت به اللغة التي تتكلمها لمطه. فهناك لهجات عدة في ارجاء الوطن العربي، وخاصة في جنوب الجزيرة العربية قد تبدو للذي لا يعرف اصلها العربي انها شبيه بالبربرية.

والمعروف ان لمطه نزلت في مرحلة ثانية بناحية قابس وشط الجريد[109] ثم توغلت طبقا لما ذكره ابن خلدون في الصحراء مثل هواره، وصارت اكثريتها مجاورة للملثمين من صناجهة[110].

والذي جعلني اثبت لمطه ضمن الصنف الثاني هو ان الشبه الذي ذكره اليعقوبي كان شاملا لكل افرادها وفيه تأكيد على انها من المجموعات الشرقية الوافدة، فلوكانت لمطه من القبائل الافريقية الصحراوية أو حتى اروبية لماكان ذلك خافيا أبدا.

5 ـ بنو زويله: من القبائل المجهولة النسب وكل ما ذكره القلقشندي[111] وابو الفوز[112] انها بطن من بطن البربر مسماة باسم ابيها (زويله) ولم يقع تصنيفها مطلقا لا في فرع البرانس ولا في فرع البتر، وقد ذكرها ابن خلدون ولكن بكلمات محدودة استفدنا منها بالخصوص انهم انتقلوا الى فزان[113] بالصحراء واستوطنوها.

ويذكر القلقشندي نقلا عن الاسرائيليين ان زويله هم سكان برقة[114] في القديم، وهذا يعني انهم من الجماعات ذات التاريخ القديم في المنطقة. أما نسبها فهو غامض، وان كان الحمداني يعتبر زويله من السلالة السامية اذ هي في نظره من ابناء قيدران بن اسماعيل[115]. والاسرائيليون يعتبرونهم من السلالة الحامية اذ هم في نظرهم من بني حويله بن كوش بن حام[116].

والمهم هنا وبقطع النظر على هذه الروايات العامة ما تقوله زويله عن نفسها، فقد نقل عنها ابن عبد البر انها تنسب نفسها الى جرهم[117] دون ان يوضح ما هي جرهم هذه فهل المقصود بها جرهم القحطانية أم جرهم المعدّة ضمن القبائل البائدة.

مواقف رافضة:

رأينا عددا من النسابين والاخباريين ينسبون أحد الفرعين الرئيسيين (البتر) من البربر الى الاصل العربي، ورأينا عددا من شعبوهم يقول عنها النسابون أو تقول هي عن نفسها بأنها من أصل عربي.

ولكن هذا لم يكن مسلما به من قبل بعض النسابين. فهناك من ينكر منهم هذا

الانتساب انكارا تاما ويعتبره منتحلا لا أساس له من الصحة والمقصود هنا بالاصل العربي فرعا عدنان وقحطان لا غير.

وأقدم هؤلاء النسابين:

ـ عبيد بن شريه الذي قال عن البربر (هم يدعون الى قيس... ولم تكن قيس قاطنة مصر وهم ولد سام بن نوح، والبر من ولد حام)[117أ] وعندما سأله معاوية عن البربر الذين يقولون (انهم قوم من قيس بن عيلان)[117أ] أجاب: «أما هذا فلا علم لي به ولكني أخبرك أن البربر قوم من ولد كنعان بن حام بن نوح وهم بقية من قتل يوشع بن نون»[117أ].

ـ عبد الله بن صالح الذي نُقل عنه قوله: «هم قوم يزعمون أنهم من ولد برّ بن قيس وما جعل الله لقيس ولدا يقال له برّ»[118] فهو ينكر انتساب البربر أو حتى فرعا منهم الى قيس عيلان والسلالة المضرية العدنانية وحجته في ذلك ان النسابين لا يعرفون لقيس عيلان ابنا اسمه برّ.

ثم نجد بعدهما ابن حزم الذي لا يقول شيئا واضحا في أصل البربر فكل ما ذكره هو أن قوما قالوا: (انهم من بقايا ولد حام بن نوح)[119].

ولكنه ينفي نفيا تاما انتماء البربر الى الاصل العربي فيقول: «وادّعت طوائف منهم الى اليمن، الى حمير، وبعضهم الى برّ من قيس عيلان، وهذا باطل لا شك فيه، وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه بر أصلا ولا كان لحمير طريق الى بلاد البربر الا في تكاذيب مؤرخين اليمين»[120].

والجديد الذي يضيفه ابن حزم الى النسابين السابقين هو رفض انتساب البر الى حمير اي رفض انتسابهم الى القحطانية الفرع العربي الثاني واعتبار وصولهم الى بلاد المغرب من أكاذيب المؤرخين.

وما ذكر عبيد بن شريه وعبد الله بن صالح وابن حزم كرره ابن عبد البر الذي يقول: «وقد انتسب بعضهم في حمير وانكر ذلك أكثر الناس»[121] مضيفا «وانكر اكثر العلماء بالنسب وايام العرب ان يكون لقيس ابن سمي بر»[122]

أما ابن خلدون فهو يكرر ما ذكره ابن حزم وابن عبد البر قائلا:

«أما القول ايضا بانهم من حمير من ولد النعمان أو من مضر من ولد قيس عيلان فمنكر من القول وقد أبطله امام النسابين والعلماء أبو محمد بن حزم»[123]. ويضيف اثناء الحديث عن زناته «وأما رأي نسابة زناته أنهم من حمير فقد أنكره الحافظان أبو عمر بن عبد البر وأبوبكر بن محمد بن حزم»[124].

ولا يكتفي ابن خلدون بهذا بل دعم وجهة نظره ووجهة نظر من سبقه بأمرين هما:

1 ـ عدم واقعية ما ينقله المؤرخون وتفنيد مزاعمهم التي تقول بأن ملوك اليمن تمكنوا وهم على أرضهم من غزو بلاد المغرب وابقاء بعض قبائلهم بها[125].

اذ ان مثل هذا الغزو من الامور المتعذرة تماما في تلك الازمان البعيدة من حيث امكانيات الغزو أو من حيث المصاعب الجغرافية والبشرية التي تحول دون الوصول الى بلاد المغرب.

2 ـ خاصية العجمة التي يرى فيها ابن خلدون دليلا على نفي صلات النسب بين العرب والبربر. فهو يقول: «والحق الذي شهد به المواطن والعجمة انهم بمعزل عن العرب»[126].

3 ـ استبعاد فكرة الهجرة المستوحاة من ابن حزم واعتبار البربر من الامم التي نبتت على أرض المغرب منذ أقدم الازمان كما تدل على ذلك كثرتها وتنوع فروعها وسعة انتشارها الامر الذي يفند مزاعم القائلين بانهم اقوام متنقلة، ويذهب ابن خلدون الى الحد الذي يعتبره فيه ان البحث في أوليّة البربر ضرب من الترهات والتخاريف التي يتعلق بها البعض فيقول:

«وأما القول بانهم من ولد جالوت أو العماليق، وأنهم نقلوا من ديار الشام وانتقلوا فقول ساقط، يكاد يكون من احاديث خرافة، اذ مثل هذه الامة المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الارض لا تكون متنقلة من جانب آخر وقطر محصور، والبربر معروفون في بلادهم واقاليمهم متحيزون بشعارهم من الامم منذ الاحقاب المتطاولة قبل الاسلام، فما الذي يحوجنا الى التعلّق بهذه الترهات في شأن أوليتهم»[127].

وابن خلدون رغم ثبات وجهة نظره في اعتبار البربر حاميين فانه في ما يتعلق بكتامه وصنهاجة يبدو مترددا، فهو مرة ينفي الادّعاء بانهما من أصل حمير ومرة أخرى يقول كلاما فيه ما يظهره على العكس أي القبول بهذا الادعاء، وفي تقديري أنه الى الموقف الثاني أميل.

ففي المقدمة بمناسبة حديثه عن اخبار المؤرخين الواهية تعرض الى ما ذكره الطبري وغيره وأبدى رأيه في ما يقولونه من أن (صنهاجه وكتامه من حمير)[128] قائلا: «وتأباه نسابة البربر وهو الصحيح»[129].

وفي مواطن أخرى من تاريخه يورد أقوالا أخرى تبدو مخالفة لما أبداه في السابق ومن الامثلة على ذلك قوله: «وقال الكلبي، ان كتامه وصنهاجة ليستا من قبائل البربر وانما هما من شعوب اليمانية، تركهما افريقش ابن صيفي بافريقية مع من نزل بها من الحامية، وهذا اجماع أهل التحقيق في شأنهم»[130].

وقوله: «ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذين قدمنا ذكرهم كلهم من البربر الا صنهاجة وكتامه، فان بين النسّابين العرب خلاف والمشهور أنهم من اليمانية»[131].

وقوله: «وهذه كلها مزاعم، والحق الذي شهد به المواطن والعجمة انهم بمعزل عن العرب الا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة وعندي أنهم من اخوانهم والله

أعلم»[132].

واذا اعتبرنا الضمير في (اخوانهم) يعود على أقرب مذكور حسب القواعد النحوية، فان اقرب مذكور في هذا النص هو (العرب) أي أن صنهاجة وكتامة من العرب.

ثم ان جملة (والله اعلم) وان كان فيها شيء من التحفّظ فهي في السياق تعبر عن ميل ابن خلدون لوجهة النظر الثانية، وهذا مخالف لما ابداه ابن حزم في النص الاول عندما قال:

«وهو الصحيح»،

من حيث التأكيد على فكرة نفي انتساب «صنهاجة وكتامة» الى حمير.

نظرة عامة حول الاراء السابقة:

الغرض من هذه النظرة هو تناول بعض أراء المؤرخين والنسابين المتعلقة بالبربر وأصولهم، لمقارنتها بنتائج الابحاث الحديثة، لنرى الى أي حد هي متضاربة أو متوافقة معها. ويمكن في هذا السياق الاقتصار على الاراء التالية:

1 ـ تصنيف البربر مثل سائر الشعوب القديمة ضمن (شجرة الانساب) المتفرعة عن نوح الذي يعدّ في نظر الجميع الاب الثاني للبشرية بعد حادث الطوفان. وقد اتضح من خلال الدراسات الاثرية الانثروبولوجية واللغوية وغيرها ان هذا التصنيف لا أساس له من الصحة، وان ما قيل عن السلالات البشرية وارتباطها بنوح وبأبنائه ما هي الا خرافات وأساطير الاولين. فنوح هو الجيل التاسع بعد آدم، وأن آدم هو الجدّ الخمسون للرسول[133].

وبما أن نوحا كما تشير الى ذلك المعلومات الاثرية المتقدمة ظهر في بداية الالف الثالثة قبل الميلاد فيكون قد مضت عليه الى حد الان قرابة الخمسة الاف سنة. والمعروف أيضا ان السلسة من آدم الى نوح عشرة أجيال. أي يبعد عنا بحوالي ستة الاف سنة.

وهذا يعني ـ من وجهة نظر النسابين وشجرة الانساب ـ أن عمر الانسان على الارض محدود جدّا. وأقلّ بكثير من عشرة الاف سنة، وهو أمر يبرز الاساس الوهمي لمثل هذه المعلومات التي لا صلة لها مطلقا مع ما توصلت اليه العلوم الاثرية والإحاثية وغيرها في معرفة نشأة النوع الانساني ومراحل تطوّره البيولوجي والثقافي.

وأن الانسان العاقل الذي ننتمي اليه قد بدأ يعمّر الارض منذ اكثر من مئة ألف سنة[134].

ثم اننا الى جانب ذلك أصبحنا نعرف ان الجماعات البربرية الاولى القديمة قد ظهرت في حدود الالف الخامسة قبل الميلاد في شمال افريقيا فهي بكل تأكيد أقدم من نوح وأبنائه.

2 ـ اعتبار البربر من الشعوب المهاجرة وقد اجمع على ذلك كل الاخباريين

والنسابين ما عدا ابن خلدون الذي استبعد أن يكون البربر من الامم المتنقلة، وهو تقدير لا مبرر له ولا سند علمي يدعمه(*)، بل ان الدراسات الاثرية واللغوية والجوانب الاخرى التي وقع التطرق اليها أيدت كلها ما ذهب اليه المؤرخون والنسابون.

فالبربر كما أصبحنا نعرف لم يكونوا البتة أصيلي المنطقة وأما قول ابن عبد الحكم وابن قتيبة بان البربر تنقّلوا من فلسطين الى بلاد المغرب، فهذا بالطبع لا ينطبق على كل البربر وانما يشمل من غير شك مجموعات متنوعة بعضها من الجماعات القديمة وبعضها قد يكون من فرعي عدنان وقحطان ذلك أن هذه المنطقة (فلسطين وبادية الشام) من المراكز المهمة منذ ما قبل التاريخ، فهي مركز القادمين من داخل الجزيرة العربية ومن جنوبها ونقطة انطلاقهم الى الجهات الاخرى.

ومن الطبيعي ان يتحدث المؤرخون عما يحدث في هذا المركز من لغط وتداخل في اللهجات.

وقد حدث هذا أيضا مع النبط في فترة لاحقة عندما تداخلت لغتهم مع اللغات الاخرى وخاصة الآرامية(*).

ورأي ابن عبد الحكم وابن قتيبة يتوافق مع ما نسب للمؤرخ اللاتيني «بروكوب» الذي قال: ان البربر كانوا ينعتون بالفلسطينيين Philistins لكونهم قدموا من فلسطين بعدما طردهم منها العبرانيون[135].

3 ـ القول بأن البربر أقوام مختلطة، هذه حقيقة واضحة تؤكدها جملة ـ المعلومات الواردة في هذا البحث وتعبّر عنها مجموع اللهجات البربرية الكبرى بصفتها دليلا وشاهدا على تنوع المجتمع البربري منذ زمن الفراعنة وحتى اليوم وهو جزء من ذلك التنّوع الذي زخرت به الجزيرة العربية قديما وفاضت به، في موجات متلاحقة على أقطار مختلفة.

4 ـ القول بالاصل الحميري لبعض القبائل البربرية. وهذا أيضا باتت من الحقائق المعلومة أكدتها جملة الشواهد التي وقع التطرق اليها في فصل سابق بالاضافة الى ما قيل في التشابه الموسيقى وبعض المظاهر الاخرى، وقد تقدّم في الحديث عن الهجرات المتدفقة الى شرق افريقيا ان البعض تحدث عن ممالك انتشرت حول بحيرة تشاد «ينتسب رجالها الى سيف بن ذي يزن وهو من ملوك التبابعة (اليمن)»[136].

5 ـ الرأي الذي يقول بان البربر من نسل كنعان بن حام بن نوح ليس فيه ما ينفي انتساب البربر الى العرب، اذ الحامية التي يروج لها بعض دعاة المدرسة الاستعمارية التاريخية غير الحامية التي ينتمي اليها ابن خلدون ومن معه من القدماء. فالقبائل الكنعانية ثبت الان الاّ علاقة لها بما يسمونه حاليا في علم اللغات: المجموعة الحامية ـ فالكنعانيون على عكس ما في التوراة صاروا يصنفون ضمن المجموعة السامية أي العربية القديمة، وبهذا يلتقي العلم الحديث بما يقوله القدماء في شأن البربر وفي أصولهم.

والملاحظ ان كثيرا من الكتاب ما يزالون يخلطون بين حامية ابن خلدون والحامية الحديثة المروّج لها ضمن تصنيف الشعوب واللغات اذ نجدهم يستشهدون في مناسبات كثيرة بما يقوله من أن البربر من نسل كنعان بن حام بن نوح، وهم بهذا يبررون فصل البربر عن العرب المعروفين عند الجميع بأنّهم ساميون، من نسل سام بن نوح حسب مزاعم التوراة والاخباريين، وما هذا الخلط الا دليل على انعدام الدقة والخلط في الرأي.

6 ـ اعبتار ابن خلدون اللغة البربرية لغة أعجمية واعتبار العجمة ورطانة اللسان من الادلة التي تظهر البربر كما لو كانوا مجموعة لا صلة لها بالمجموعة العربية شأنهم في ذلك شأن الفرس والأكراد وغيرها، كما جاء في قوله وهو يتحدث عن افريقش: «لما رأى هذا الجيل من الاعاجم وسمع رطانهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك»[137].

وما ذكره ابن خلدون عن العجمة من أنها دليل على أن البربر جيل من الاعاجم خاطىء من الاساس لتناقضه مع جملة المعلومات التي تم التوصل اليها في شأن البربر ولأن العجمي ليست دائما دليلا على الاختلاف الجنسي، فهي بالاساس تعني الابهام وعدم الافصاح في الكلام، والرجل الاعجم هو الذي لا يفصح ولا يبيّن «وكتاب فلان أعجم اذا لم يفهم ما كتب»[138].

وبما أن لغات الاقوام الاخرى مبهمة وغير مفهومة بالنسبة للعربي فاعتبرت عجماء ووصف أصحابها بأنهم أعاجم حتى وان أبانوا وأفصحوا بلغاتهم وذلك بقطع النظر عن الناحية العرقية والجنس، ومما يدل على أن العجمي لا مدلول جنسي لها في الاصل هو أن هناك جماعات عربية وصفت بهذه الصفة ومنهم النبط على سبيل المثال فقد عاب عليهم العرب «لهجتهم حتى جعلوا لغتهم من لغات العجم وقالوا انهم نبط وأن في لسان من استعرب منهم رطانة» وكذلك الحال ـ كما مر بنا ـ بالنسبة لطوائف عربية في جنوب الجزيرة، والشعر الشعبي في نجد وفي البحرين يسمى حتى اليوم «الشعر النبطي» لعدم فصاحته وتداخل الفاظه وبعده عن أساليب التركيب العربي السليم.

وهكذا فالعجمة التي ذكرها ابن خلدون لا يمكن أن تجعل من البربر جنسا متميزاً عن العربي مطلقا.

7 ـ جمع المؤرخين والنسابين السابقين وكذلك الكتاب المعاصرين (ما عدا أفرادا يعدّون على الاصابع) يحصرون العرب في فرعي عدنان وقحطان لا غير.

وهذا خاطىء كما رأينا في فقرة (عربية لا سامية)[139] فالشعوب العربية أوسع بكثير من فرعي عدنان وقحطان الحديثين نسبيا، واننا الان بحكم تطور المعارف التاريخية واللغوية بتنا نطلق عليها بدل التسمية السامية الخاطئة اسم «الشعوب العربية القديمة» أو «شعوب الجزيرة العربية القديمة».

البربر عرب قدامى

خلاصة ما أنجز في هذا البحث هو أن البربر عامة ما هم الا فرع كبير من تلك الشعوب العربية القديمة، انتقل الى المغرب على مراحل وانعزل فيه مما ساعده خلال أحقاب طويلة على الاحتفاظ ـ ان قليلا وان كثيرا ـ بسمات من الصورة التي كانت لاجدادنا ذات يوم في العهود القديمة.

وهكذا تتضح عراقة البربر في العروبة وأصالتهم فيها، وهم لهذا السبب، على العكس من الفرس والأتراك وسكان اسبانيا القدماء، اندمجوا بالعرب ونسجوا معهم في سياق التطور العام التكوين الجديد للأمة العربية.

الهوامش:

1 ـ أ. همباتي با: المأثور الحيّ ـ الوارد في (**تاريخ افريقيا العام**) طبعة جون أفريك ـ اليونسكو. تورينو (ايطاليا) 1983 ج 1 ص: 209 هامش 8.

2 ـ ابن عبد البر: ابو عمر يوسف القرطبي: القصد والامم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم ـ مكتبة القديسي ـ القاهرة 1350هـ ص: 26.

3 ـ الطبري أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الامم والملوك ـ دار سويدان ـ بيروت بلا تاريخ ج 1 ص: 442.

4 ـ تاريخ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت 1980 ج 1 ص: 190.

5 ـ المسالك والممالك: طبعة ليدن 1889.

6 ـ الصولي الذي يقول: (وهم من ولد بربر بن كسلوجيم بن مصرايم بن حام بن نوح) ابن خلدون: كتاب العبر... ج 6 ص: 184.

7 ـ ابن عبد البر: القصد والامم... المصدر المذكور سابقا ص: 25.

8 ـ يقول: (واما البربر فالاختلاف فيهم كثير وأثبت ما قيل فيهم انهم من ولد قبط بن حام) المصدر نفسه ص: 24.

8أ ـ كتاب التيجان في ملوك حمير: نشر مركز الدراسات والبحوث اليمنية صنعاء 1979 ص: 60.

8ب ـ كتاب التيجان... المصدر نفسه ص: 421.

8ت ـ كتاب التيجان... المصدر نفسه وهو من روايته عن النسابين وهب وعبيد.

9 ـ ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد الاندلسي: **جمهرة أنساب العرب** تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف مصر ـ 1962 ص: 495 وابن خلدون: كتاب العبر... ج 6 ص: 176.

10 ـ ابن خلدون عبد الرحمان: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**... دار الكتاب اللبناني بيروت 1959 ج 6 ص: 186.

11 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 186.

12 ـ النويري شهاب الدين أحمد: **نهاية الأرب في فنون الأدب** ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي المؤسسة المصرية العامة ـ القاهرة بلا تاريخ ج 2 ص: 189.

13 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 191.

14 ـ الطبري: تاريخ الامم... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 207.

15 ـ علي جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** ـ دار العلم للملايين الطبعة الثانية ـ بيروت 1976 ج 1 ص: 346.

16 ـ علي جواد: المفصل في تاريخ العرب... المصدر نفسه ص: 347.

17 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 181 والقلقشندي نهاية الأرب ص: 119.

18 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 177.
19 ـ ابن عبد البر: القصد والامم... المصدر المذكور سابقا ص: 26.
20 ـ ابن عبد البر: القصد والامم.. ص: 26 وابن خلدون: كتاب العبر.. ج 6 ص: 186.
21 ـ ابن خلدون: كتاب العبر.. المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 187.
22 ـ ابن خلدون: كتاب العبر.. المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 187.
23 ـ ابن خلدون كتاب العبر.. ج 6 ص: 182 والقلقشندي: نهاية الأرب ص: 118.
24 ـ المرجعان نفسهما ص: 182 ـ ص: 118.
25 ـ القلقشندي ابو العباس أحمد: **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب** الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة 1959 ص: 118.
26 ـ ابن خلدون كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 183 القلقشندي: نهاية الأرب.. ص: 118.
27 ـ المرجعان نفسهما ص: 183 ـ ص: 119.
28 ـ **سفر صمويل** الاول: الاصحاح السابع عشر الاية 4 و23.
29 ـ سورة البقرة: الاية 251 (**فهزموهم باذن الله وقتل داوود جالوت**).
29أ ـ كتاب التيجان... المصدر السابق ص 189.
30 ـ **فتوح افريقية** والاندلس تحقيق عبد الله انيس الطباع. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني بيروت 1964 ص: 27.
31 ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**: شرحه وقدم له الدكتور مفيد محمد قميحه دار الكتب العلمية ـ بيروت 986 ج 1 ص: 52.
32 ـ القصد والامم.. المصدر المذكور سابقا ص: 26.
33 ـ المسالك والممالك... المصدر المذكور سابقا ص: 92.
34 ـ **كتاب الاستبصار في عجائب الامصار** لمؤلف مراكشي مجهول ـ تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ـ الدار البيضاء ص: 155.
35 ـ 36 ـ ابن عبد البر: القصد والامم... المصدر المذكور سابقا ص: 26.
36أ ـ كتاب التيجان... المصدر السابق ص: 188.
37 ـ 38 ـ ابن عبد البر: القصد والامم.. المصدر نفسه ص: 26.
39 ـ ابن خلدون: كتاب العبر.. المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 184 وج 7 ص: 6.
40 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ص: 184.
41 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 184 ـ مروج الذهب ج 1 ص: 52.
42 ـ كتاب الاستبصار: المصدر المذكور سابقا ص: 155.
43 ـ ابو الحسن البلاذري: فتوح **البلدان**: راجعه رضوان محمد رضوان ـ دار الكتب العلمية بيروت 1983 ص: 226.
43أ ـ كتاب التيجان... المصدر السابق ص 180.
44 ـ ابن الاثير ابو الحسن علي: **الكامل في التاريخ** ـ صححه عبد الوهاب النجاح ادارة الطباعة المنبرية ـ مصر 1357 هـ ج 1 ص: 44.
45 ـ النويري: نهاية الارب... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 191.
46 ـ 47 ـ ابن خلدون: كتاب العبر.. المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 184.
48 ـ ابن قتيبه ابو محمد عبد الله بن مسلم: المعارف تحقيق د ثروت عكاشه دار المعارف الطبعة الرابعة القاهرة 1981 ص: 628 وكتاب التيجان المصدر السابق ص: 421 ذكر عبيد بن شريه.
49 ـ الطبري: تاريخ الامم... المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 207.
50 ـ ابن عبد البرّ: القصد والأمم المصدر المذكور (افريقيس بن صيفي الحميري) ص 25.
51 ـ 52 ـ علي جواد: المفصل في تاريخ العرب المصدر المذكور سابقا ج 2 ص 531 و539.

53 ـ الطبري: تاريخ الامم. المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 442.
54 ـ ابن خلدون كتاب العبر.. المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 190.
55 ـ الطبري: تاريخ الامم.. المصدر المذكور سابقا ج 1 ص: 442.
56 ـ ابن عبد البر: القصد والامم.. المصدر المذكور سابقا ص: 25.
57 ـ فتوح افريقية والاندلس: المصدر المذكور سابقا ص: 27 و28.
57أ ـ المعارف: المصدر المذكور سابقا ص: 628.
58 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 188
59 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 185.
60 ـ ابن قتيبه: المعارف.. المصدر المذكور سابقا ص 628.
61 ـ ابن عبد الحكم: فتوح افريقية.. المصدر المذكور سابقا ص: 27 و28 وكذلك البلاذري وابن خلدون وغيرهما.
62 ـ كتاب الاستبصار... المصدر المذكور سابقا: ص: 155.
63 ـ ابن خلدون: المقدمة ـ دار الرائد العربي الطبعة الخامسة بيروت 82 ص: 12.
64 ـ القلقشندي: نهاية الارب.. المصدر المذكور سابقا ص: 317.
65 ـ ابن خلدون: كتاب العبر. المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 186.
66 ـ النويري: نهاية الارب... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 282.
67 ـ راجع فقرة (تعقيب) استنتاج من هذا البحث: الثالث عشر.
68 ـ ابن عبد البر: القصد والامم... المصدر المذكور سابقا ص: 25.
69 ـ ابن خلدون: كتاب العبر المصدر المذكور سابقا ج 7 ص: 6.
70 ـ ابن خلدون: كتاب العبر. المصدر نفسه ص: 14.
71 ـ ابن خلدون: كتاب العبر. المصدر نفسه ص 15.
72 ـ ابن خلدون: كتاب العبر. المصدر نفسه ص: 3.
73 ـ ابن خلدون: كتاب العبر. المصدر نفسه ج 6 ص: 261
74 ـ جمهرة انساب العرب... المصدر المذكور سابقا ص: 501 وكتاب العبر ج 6 ص: 262 و308.
75 ـ ابن خلدون: كتاب العبر. المصدر نفسه ج 6 ص: 180.
76 ـ ابن خلدون: كتاب العبر. المصدر نفسه ج 6 ص: 436.
77 ـ ابن خلدون: كتاب العبر. المصدر نفسه ص 192.
78 ـ 79 ـ كتاب البلدان: المصدر المذكور سابقا ص: 99.
80 ـ نهاية الارب... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 289.
81 ـ كتاب البلدان: المصدر المذكور سابقا ص: 99.
82 ـ د. عبد القادر أحمد طليمات: سكان ليبيا عند اليعقوبي ـ الوارد في **(ليبيا في التاريخ)** منشورات الجامعة الليبية ـ بنغازي 1968 ص 231.
83 ـ ابن عبد البر: القصد والامم... المصدر المذكور سابقا ص: 25 وابن خلدون: كتاب العبر... ج 6 ص: 283.
84 ـ القلقشندي: نهاية الارب... المصدر المذكور سابقا ص: 333.
85 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 536.
86 ـ القصد والامم.. المصدر المذكور سابقا ص: 25.
87 ـ سعودي محمد عبد الغني: **قضايا افريقية** ـ سلسلة (عالم المعرفة) المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب بالكويت ـ الكويت 1980 ص: 66 ومحمد مبروك: **تاريخ العرب، عصر ما قبل الاسلام** ص: 124.
88 ـ نهاية الارب... المصدر المذكور سابقاً ص: 441.
89 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 286.
90 ـ المغرب العربي من كتاب **(نزهة المشتاق في اختراق الافاق)** تحقيق محمد حاج صادق منشورات الجامعة والعلمية باريس 1983 ص: 73.

91 ـ المغرب العربي من كتاب (نزهة المشتاق..) المصدر نفسه ص: 82.
92 ـ جمهرة انساب العرب ـ المصدر المذكور سابقا ص: 298.
93 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 235.
94 ـ النويري: نهاية الارب... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 289.
96 ـ النويري: نهاية الارب... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 289.
97 ـ القلقشندي: نهاية الارب... المصدر المذكور سابقا ص: 411
98 ـ من الصحابة شهد غزوة حنين وفتح مكة وكان من الذين حرموا على انفسهم شرب الخمر في الجاهلية وقبل دخوله في الاسلام.
99 ـ ابو زكرياء: **كتاب السيرة واخبار الايمة ـ** تحقيق عبد الرحمان ايوب. الدار التونسية للنشر تونس 1985 ص: 16.
100 ـ النويري: نهاية الارب.. المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 289.
101 ـ اتوري روسي Ettore Rossi: **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911** تعريب خليفة التليسي ص: 25.
102 ـ جوليان اندري شارل: **تاريخ افريقيا الشمالية ـ** تعريب محمد مزالي والبشير بنسلامه ـ الدار التونسية للنشر ـ النشرة الثالثة ج 1 ص: 349.
(*) نورد في ما يلي نص لبروكوبوس حول هذه المعركة على سبيل الاطلاع نقلا عن احمد صفر: ان جنود (قابايون) كانوا ينتظرون أعداءهم في معسكر مستدير لم يكن جداره سدا من التراب بل كان خطا دفاعيا من الجمال، وكان خطا دفاعيا مستمرا متلاحما في عمق اثني عشر بعيرا، وفي داخل الدائرة وقع حشد النسوة والاطفال والشيوخ والقبيلة باجمعها مع المؤن والذخائر والاموال والخيام والامتعة. أما المقاتلون فقد توزعوا على محيط الدائرة بين الجمال ويكفيهم القاء نظرة الى ورائهم ليعلموا ان المعركة هي مسألة حياة أو موت لا بالنسبة اليهم فقط بل بالنسبة الى الجميع وبالنسبة الى كل شيء عزيز لديهم فليس هناك أمل في الفرار او شيء وسط بين الإمحاق والانتصار) مدينة المغرب العربي في التاريخ ص: 389.
103 ـ جمهرة انساب العرب: المصدر المذكور سابقا ص: 498.
104 ـ كتاب البلدان: المصدر المذكور سابقا ص: 230
105 ـ ابن حزم: جمهرة انساب العرب.. المصدر المذكور سابقا ص: 498.
106 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 419
107 ـ ابن خلدون : كتاب العبر.. المصدر نفسه ص: 420.
108 ـ كتاب البلدان: المصدر المذكور سابقا ص: 98.
109 ـ د. عبد القادر احمد طليمات: **سكان ليبيا**.. المصدر المذكور سابقا ص: 230.
110 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 420
111 ـ نهاية الارب.. المصدر المذكور سابقا ص 276.
112 ـ السويدي ابو الفوز محمد امين: **سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب** ص: 103.
113 ـ ابن خلدون: كتاب العبر.. المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 420.
114 ـ القلقشندي: نهاية الارب.. المصدر المذكور سابقا ص: 29 و279.
115 ـ القلقشندي: نهاية الارب.. المصدر نفسه ص 277.
116 ـ القلقشندي: نهاية الارب.. المصدر نفسه ص: 29.
117 ـ القصد والامم... المصدر المذكور سابقا ص 25.
117 أ ـ كتاب التيجان... المصدر المذكور سابقا ص: 335 و421.
118 ـ البلاذري: فتوح البلدان... المصدر المذكور سابقا: ص: 226.
119 ـ جمهرة انساب العرب: المصدر المذكور سابقا ص: 495.
120 ـ جمهرة انساب العرب: المصدر نفسه ص 495.
121 ـ القصد والامم... المصدر المذكور سابقا ص: 24.
122 ـ القصد والامم... المصدر نفسه ص 26.
123 ـ ابن خلدون: كتاب العبر.. المصدر المذكور ج 6 ص: 190 و192.

124 ـ ابن خلدون: كتاب العبر.. المصدر نفسه ج 7 ص: 7.
125 ـ ابن خلدون: المقدمة: المصدر المذكور سابقا ص: 12.
126 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 192.
127 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 190.
128 ـ ابن خلدون: المقدمة، المصدر المذكور سابقا ص: 12.
129 ـ ابن خلدون: المقدمة... المصدر نفسه ص: 12.
130 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 177.
131 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 192.
132 ـ ابن خلدون: كتاب العبر... المصدر نفسه ص: 192.
133 ـ النويري: نهاية الارب... المصدر المذكور سابقا ج 2 ص: 286.
134 ـ انظر الفصل السابق: الانواع البشرية في ما قبل التاريخ بشمال افريقيا.
(*) يبدو ان ابن خلدون متناقضا في هذا الرأي مع رأي سابق له تحدث فيه على أن البربر كانوا يسكنون الشام.
(*) وتأتى لهم ذلك من موقعهم الجغرافي الذي ظهرت فيه دولتهم في ما بين القرن السادس والخامس قبل الميلاد بعد قدومهم من داخل الجزيرة العربية. ودامت دولتهم حتى اول القرن الثاني للميلاد. وامتد نفوذها من شمال فلسطين الى الحجاز جنوبا ومن بادية الشام شرقا الى شبه جزيرة سيناء وساحل البحر الأحمر غربا، وكان هذا الموقع كما هو معروف مسرحا لتداخل لغات اقوام كثيرة مهاجرة من قبل أن يقدم اليها النبط. أضف الى ذلك أن هذا الموقع كان داخلا ضمن نفوذ اللغات الآرامية التي انتصرت على غيرها من اللغات الاخرى، وكانت بحق لغة الكتابة والثقافة في ذلك العصر فتثقف بها النبط واستعملوها أداة للكتابة والتدوين.
135 ـ محمد الميلي: الجزائر والمسألة الثقافية مدخل تاريخي **مجلة المستقبل** العربي عدد 41 سنة 1982 بيروت ص: 56.
136 ـ سعودي عبد الغني: **قضايا افريقيا**.. المصدر المذكور سابقا ص: 70.
137 ـ ابن خلدون كتاب العبر... المصدر المذكور سابقا ج 6 ص: 176.
138 ـ الزمخشري جار الله ابي القاسم محمود بن عمر: **اساس البلاغة** طبعة اخذت عن (طبعة دار الكتب المصرية 1341 هـ) القاهرة 1953 مادة (عجم) ص: 294.
139 ـ الفقرة الاخيرة من فصل السامية ـ الحامية.

المحتوى

نقد أطروحات المدرسة التاريخية الاستعمارية

السامية - الحامية
مقولة الفكر الاوربي اللاهوتي والاستعماري
حقيقة أم خرافة

الحضارات
والانواع البشرية في ما قبل التاريخ بشمال افريقيا

الجزيرة العربية
مصدر الحضارات والهجرات القديمة

ظهـور
البربر بشمال افريقيا

اللغة البربرية

سمات مشتركة
بين البربرية والعربية

الأسماء ودلالتها

مظاهر أخرى للتشابه

المؤرخون المسلمون وأصل البربر

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الجمع التصويري وفصل الألوان والاخراج الفني والطباعة
شركة انترجراف ـ إحدى مؤسسات الشركة العربية الليبية للاستثمارات الخارجية
INTERGRAF S.p.A. - ROMA - Tel. 91.06.010

البربر عرب قدامى

محمد المختار العرباوي

من هذا المنظور يأتي هذا الكتاب رداً على دعاوى ومواقف معادية للوحدة، طالما عانت وتعاني منطقة المغرب العربي من التعرض لها. وهي دعاوى ومواقف لم يكن الظهير البربري الاستعماري بالمغرب سنة 1936 أولى نكساتها في المغرب العربي، ولا كان آخر انتصار لوحدة الأمة عليها.

بيد أن الاتفاق على الهدف بل والاقتناع به، لا يكفي بالضرورة للاتفاق المطلق مع المناهج الموصلة، والوسائل المستعملة، فمجال البحث فسيح، والقضايا شائكة، والمراحل والعوامل متداخلة متفاعلة، مما يجعل مثل هذا العمل الجاد، يعادل في أهميته وخطورته، ما يمكن أن يثار بصدده من نقاش وجدال، بل إن مثل هذا النقاش في رأينا يعتبر أحسن مكافأة لعمل من هذا النوع، ولما تحمله فيه صاحبه من صبر ومجالدة.

سعر النسخة 35 درهما مغربيا أو ما يعادلها